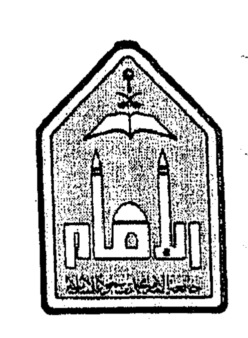
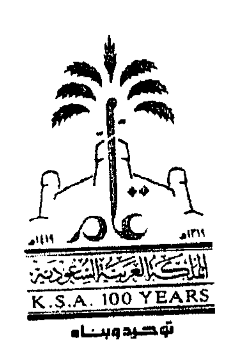




المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية (١٦)

بادية نجد
من القرن العاشر الهجري إلى سقوط الدرعية ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م

دراسة للحياة الاجتماعية وأثر الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية فيها

تأليف الدكتور/ عبدالرحمن بن علي العريني
قسم التاريخ - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

صدر بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
أشرفت على طباعته ونشره الإدارة العامة للثقافة والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، وأسأله العون والتوفيق، وأصلي وأسلم على رسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كثرت الدراسات التاريخية العامة عن منطقة نجد في الآونة الأخيرة، وتلك بلا شك علامة صحوة علمية تدل على عناية المهتمين من أبناء المنطقة وغيرهم بتاريخها في نطاق تكامل الدراسات التاريخية في العالم الإسلامي عن كل منطقة أو بلد، وبلا شك أن قيام أبناء هذه المنطقة أو تلك بهذه المهمة سيجعل البحث التاريخي يتسم بشيء من العمق والاستقصاء لأن «أهل مكة أدري بشعابها» على ألا يجر ذلك إلى التعصب الإقليمى، بل يجب أن يدفع إلى تكامل مثل هذه الدراسات عن مناطق وبلدان وشعوب العالم الإسلامي، ولنا في أسلافنا من المؤرخين المسلمين أسوة حسنة حيث كانت الدراسات التاريخية الإقليمية تلقي اهتماما كبيرا منهم إلى جانب عنايتهم بالدراسات التاريخية العامة، ومن هنا تكمن الضرورة إلى وجود دراسات تاريخية تفصيلية لكل منطقة في إطار التاريخ العام لعالمنا الإسلامى، ولا يعني هذا الانتقاص من الدراسات التاريخية التي قام بها بعض الباحثين لبعض المناطق - ومنها نجد - وهم من غير أهلها فقد سدت هذه الدراسات فراغا في المكتبة التاريخية، وأيقظت الرغبة في البحث التاريخي عند أبناء هذه المناطق.

وإذا كان الباحث يعاني من صعوبة في الحصول على المعلومات التاريخية في كثير من موضوعات البحث في تاريخ نجد، فإن منشأ ذلك قلة ما كتب عن فترات هذا التاريخ من معاصريها، وندرته في بعض الفترات، وربما

انعدامه عن البعض الآخر[1]، وعلى قلة هذه الكتابات أو ندرتها ونقل بعضها من الآخر فهي ليست بالتفصيل الذي يطمح إليه الباحث، ويجده في تواريخ البلدان الأخرى، على أنه يمكن التماس العذر لمؤرخينا المحليين الذي كان من أبرز مسبباته قسوة الحياة العامة التي كانت تضيق بخناقها كثيرا على النجديين في تلك الفترات السابقة، ويكفيهم فخرا أنهم استطاعوا أن يرصدوا بعض أحداث هذا التاريخ رغم تلك القسوة، ولو لم يكن ذلك بالتفصيل المرضي الذي يمكن أن يسد النقص فيه بالمقارنة بتواريخ البلدان المجاورة بل وغير المجاورة أحيانا لتفصيل قضية اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية بحكم التأثير المتبادل بين نجد وهذه المناطق، كما يمكن سد هذا النقص بالاطلاع على المصادر الأخرى غير التواريخ المحلية ككتب الفقهاء، والشعر الشعبي، ورحلات المغربيين.

وقد لقيت قضايا التاريخ السياسي اهتماما أكبر من مؤرخينا المحليين مما تشح معه أو تندر أو تنعدم الإشارة إلى جوانب التاريخ الأخرى في بعض الأحيان، وليس هؤلاء المؤرخون بدعا من المؤرخين المسلمين السابقين الذين كانوا يركزون اهتمامهم على القضايا السياسية حيث يعاني الباحث في القضايا الأخرى أشد من المعاناة في التاريخ السياسي على اختلاف بينها في درجة هذه المعاناة بالنسبة لقضايا التاريخ غير السياسية، وتتأكد هذه المعاناة وتزداد حين البحث في قضايا التاريخ النجدي غير السياسية وخاصة القضايا الاجتماعية التي يلفها الغموض من أغلب الجوانب، ورغم وجود جذور لهذه العادة الاجتماعية أو تلك على اعتبار أن كثيرا من العادات والتقاليد في نجد لم تتعرض للتغيير منذ فترة متقدمة وحتى وقت قريب مما يبدو معه إمكانية دراسة هذه العادات المعاصرة وتطبيقها على الفترات السابقة، فإن ذلك لا يغني عن

---

(١) الفاخري : الأخبار النجدية ص ٣ من مقدمة المحقق الدكتور عبدالله الشبل.

البحث في المصادر القديمة، ولا يسمح بدراسة هذه العادات الحاضرة دراسة تفصيلية على أنها أمثلة للعادات القديمة إلا بمقدار ما يتطلبه الربط التاريخي بين هذه الظواهر الاجتماعية، أو حين تشح علينا المصادر القديمة بتفصيل واف عن هذه العادة أو تلك.

وبقدر ما يعانيه الباحث الاجتماعي المعاصر في دراسته للقضايا الاجتماعية المعاصرة فإن معاناة المؤرخ الاجتماعي تتأكد وتزداد لأن الباحث الاجتماعي يتعامل مع أفراد المجتمع الأحياء، وفئاته الموجودة، وهو إذ يلاقي بعض العنت من جراء رفض بعض الأفراد والفئات الإدلاء بمعلومات صحيحة أو إعطاء بيانات واضحة ودقيقة فإنه يمكنه اللجوء إلى عدة أساليب لتحقيق أغراضه، بينما يفقد المؤرخ الاجتماعي أي أسلوب من هذا القبيل كالاستبيانات مثلا، وهو لا يجد إلا أسلوب البحث والتنقيب في المصادر المكتوبة أو المروية إن وجدت، على أن درجة إشباعها لنهم الباحث تختلف بحسب قربها أو بعدها من عصرنا الحاضر حيث تشح تلك المصادر في فترة ما قبل الدعوة السلفية، ويعدم الباحث معلومات إلا في مجالات من هذه المصادر.

وتختلف معاناة الباحث الاجتماعي المعاصر، والمؤرخ الاجتماعي في البحث عن الحياة الاجتماعية لدى بعض الفئات الاجتماعية النجدية عن بعضها الآخر، إذ بينما يستطيع هذان الباحثان الغوص في بعض تفاصيل الظواهر الاجتماعية لدى حاضرة نجد إلى حد ما، يجدا المعاناة العلمية في دراسة ظواهر الحياة الاجتماعية البدوية أشق، على أن المؤرخ الاجتماعي تتأكد لديه المشقة وتزداد أكثر من الباحث الاجتماعي بل أكثر من تأريخه للحياة الاجتماعية الحضرية، وذلك راجع لشح المصادر فيما يتعلق بحياة البدو عموما وفي مجالات معينة من هذه الحياة، واختلاف العادات والتقاليد أحياناً بين قبيلة وأخرى بل بين فخذ وآخر.

وفي ضوء ذلك كله تبدو أهمية الكتابة في القبائل البدوية في نجد وجهود الدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في توجهها الوجهة الصحيحة، ونظراً لأن جهود الدولة والدعوة في هذا الجانب متعددة وكبيرة ومتزامنة مع الأدوار الثلاثة للدولة السعودية حتى توجت بالجهد العظيم للمؤسس الكريم الملك عبدالعزيز رحمه الله في توطين البدو وتحضيرهم، لكل هذا فقد آثرت أن يقتصر هذا الموضوع على دراسة أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية عند هذه القبائل منذ القرن العاشر الهجري مبيناً الجهود الكريمة للدولة والدعوة خلال الدور السعودي الأول.

ولقد كان لاختياري هذا الموضوع عدة أسباب منها:

١- أن البادية هي الأصل الاجتماعي لأي وجود حضري في أي أمة وخاصة العرب، كما قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

« وعليك بالأعراب فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام»[١]، وتعتبر هذه الحقيقة من أبرز معالم الاجتماع التاريخي إذ أن البدو أصل للحضر وسابقون عليهم، والمراحل الأولية للتحضر ناشئة عن البداوة حيث تتداخل تلك المراحل بالمراحل الأخيرة للبدو فيحدث أن يمارس البدوي في البداية حياة متداخلة بين البداوة والتحضر حتى إذا تغلبت مظاهر التحضر تناسى باديته وعاش في القرى والبلدان وأصبح حضريا بطبعه المكتسب، بدويا بأصله ومنشئه، وقد قرر هذه الحقيقة ابن خلدون في مقدمته فعقد لها فصلا بعنوان «فصل في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها»[٢]، وتتضح هذه

---

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٤/٢١٢) من وصية الخليفة عمر ابن الخطاب لعثمان بن عفان رضي الله عنهما.

(٢) المقدمة (ص ١٠٣) وانظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا البحث.

الظاهرة في المجتمع النجدي حيث ترجع الأسر النجدية المتحضرة إلى القبائل البدوية سواء تلك التي تحضرت منذ أمد بعيد كبني حنيفة وبني تميم أو تلك التي تضم بين أفخاذها وأفرادها بادية وحاضرة كبقية قبائل نجد.

٢ - أن نسبة البادية عالية إذا ما قورنت بنسبة الحاضرة في تلك الفترة، ولئن كنا نجهل هده النسبة على وجه التحديد فمن المؤكد أنها كانت مرتفعة نظرا لعدم وجود مغريات قوية لحركة التحضر في نظر البدوي الذي كان متشبثا بصحرائه إلى أقصى حد يؤيد ذلك قلة التحولات البدوية إلى الحياة الحضرية، وقد أشار الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى ذلك بقوله: «مع أنهم ـ أي البدو ـ أكثر الناس في أرضنا»[١].

٣- طبيعة الحياة لعامة في نجد في تلك الفترة إذ تكاد تكون فرص المعيشة متكافئة في البادية والحاضرة بل ربما كانت في البادية مهيئة أكثر منها في الحاضرة.

٤- الدور السياسي الأكبر الذي كانت تمارسه بعض القبائل البدوية في نجد سواء على حاضرتها أو باديتها، وهو دور أضفى على القبائل الأخرى قوة وسيادة بجانب ضعف القرى والبلدان النجدية أمام سيادة البدوي أيا كانت قبيلته، وقد حفل التاريخ النجدي منذ القرن العاشر بوجود عدد من القبائل البدوية مرهوبة الجانب والتي سيمر في الباب الأول طرف من أخبارها وتاريخها السياسي في نجد[٢].

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: الرسائل الشخصية، طبع ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ص ٤١).

(٢) انظر الفصل الأول من الباب الأول.

٥- ما كانت تقوم بـه البادية في شبه الجزيرة من أدوار تربويـة مهمة سواء كان ذلك في الجـاهلية أو الإسلام حـينما كـان الوجهاء والأمراء مـن الحضر يبعثون بأبنائهم إلى الصحراء ليقـيموا فترة من الزمن بين أبناء البادية حتى يكتسبوا من عادات البدو الأصيلة التي لـم تلوّثها الحضارة وحتى يكتسبوا فصاحة في اللسان وبلاغة في البيان بأخـذ اللغة من منابعها الأصلية ومن هنا فقد أطلـق على البادية «مدرسة الأمراء ومقوّمة الألـسن»، فقد بعث عبدالمطلب حفيده نبينا محمدا ﷺ ، كما بعث بابنه حمزة إلى بادية بني سعد بن بكر للاسترضاع والتفصـح في اللغة واكتساب العادات الأصيلة، كما زاول النبي وغـيره من الأنبياء مهنة من أهم مهـن البادية وهى رعي الغنم حيث رعاها في بني سعد، ورعاها على قراريط لأهل مكة، وقال: «مامن نـبي إلا ورعى الغنم. قـالوا: وأنت يا رسول اللـه؟ قال: وأنا. الحديث»[1].

٦- الدور الاقتصادي البارز الذي كانت تقوم به الـبادية في التأثير على الحياة الاقتصـادية في نجد سواء بـإثراء أسواقها بمـنتجات الـبادية التي تـشكل عناصر مهمة لـتنشيط التجارة في نجد، أو باستـهلاك ما في هذه الأسواق من السـلع والمواد الغـذائية مما يـؤثر تأثيرا بـالغا علـى الحياة الاقتـصادية باختفاء بعض المو اد المهمة كالتمر مثلا كما سيأتي.[2]

٧- أن نسبة كبيرة من الحاضرة في نجـد كانت تمارس جل الحرف البدوية حيث كانت هذه الحاضرة تعيش حياة متداخـلة بين البداوة والتحضر، ولعل من أبرز هـذه الحرف رعي الإبـل والأغنـام وتتبـع المناطـق الخصـبة للـرعي

---

(١) ابن حجر ١٠/٥، ٦، ابن هشام: السيرة ١ / ١٦٨- ١٧٧، ابن القيم: زاد المعاد ١/٣٣.

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني فقرة المأكل.

والاعتشاب فيحدث من جراء ذلك إقفار في بعض البلدان النجدية من أهلها وخاصة في فترة الربيع، ومن هنا تنسلخ عن هؤلاء الحضر أهم سمة فيهم وهي الاستقرار، وتبرز فيهم أهم صفة في البدوي وهي الارتحال من منطقة لأخرى وتتبع مناطق الخصب والكلأ.

٨- أن اعتبار الصلب فئة بدوية يضفي على البحث في البادية شمولا أكثر حيث يتفق الصلب مع عامة البدو في احتواء القرى والبلدان، والارتحال من منطقة لأخرى، والعيش في الصحراء «التخلوى»، وإن كانت هذه الفئة تختلف عن البدو اختلافا شاسعا من حيث الأصل الاجتماعي وبعض الصفات الجسمية وكذا العادات والتقاليد التي يدل بها البدوي على الحضري الأصيل، فكيف بهذه الفئة التي تلقى انتقاصًا من النجديين حاضرة وبادية على حد سواء.

أما عن تحديد بداية البحث بالقرن العاشر الهجري ونهايته بسقوط الدرعية سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م فلذلك أسباب منها:

١- أن القرن العاشر هو بداية العصر الحديث بالنسبة لتاريخ العرب حيث انضوت البلاد العربية تحت الحكم العثماني.

٢- أن هذا القرن هو بداية وصول الكتابة التاريخية النجدية إلينا، ولهذا فليس مصادفة أن تبدأ السنوات السابقة عند ابن بشر (السوابق) بالقرن العاشر[١].

٣- أن معرفتنا بالأوضاع القبلية الحديثة لبادية نجد كانت في القرن العاشر حيث أبرزت لنا أخبار هذا القرن وما بعده أهم القبائل البدوية التي كان

---

(١) الواقع أن السوابق ابتدأت سنة ٨٥٠ هـ وهو بدء عمران العيينة ولكن حصل انقطاع في السوابق حتى سنة ٩١٢ هـ ثم بدأت سنوات السوابق تتابع تقريبا.

لها صولة وجولة على منطقة نجد، ويستطيع الباحث في هذا القرن ومابعده متابعة التحولات القبلية التي طرأت على مركز الزعامة لدى بادية نجد كما سيأتي[1].

٤- أن معرفتنا بالشعر العامي بدأت تزداد منذ القرن العاشر وحتى قيام السعودية حيث يصوّر هذا الشعر أصدق تصوير بعض نواحي الحياة الاجتماعية في نجد قبل قيام الدعوة التي بدأ تاريخنا المحلي ينتظم شيئا فشيئا بعدها.

٥- أنه بقدر ما كان قيام الدولة السعودية وانتشارها في نجد معلما بارزا في تاريخ المنطقة أثر بشكل مباشر على كافة نواحي الحياة وخاصة الاجتماعية حيث أدخلت هذه الدولة المجتمع النجدي في تنظيم وتوحيد لم تكن تعرفه المنطقة من قبل فإن سقوط الدرعية يشكل هو الآخر معلما بارزا في تاريخ المنطقة إذ بدأ بعده الانحدار في الحياة الاجتماعية إلى ما قبل قيام الدولة السعودية علاوة على دخول بعض المؤثرات الخارجية التي صاحبت هذا السقوط وتلته، وتدل قصائد الرثاء الفصيحة والشعبية التي قيلت في هذا الحدث على أهميته كمعلم بارز في التاريخ النجدي الحديث، وقد أجاد قائلو هذه القصائد في تصوير رنة الأسى والحزن التي أصابت النجديين[2]، والتي تشبه في قوتها إلى حد ما تلك القصائد التي قيلت في سقوط بغداد على أيدي التتار، أو سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس.

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) عن أبرز ما قيل في رثاء الدرعية وتصوير حادثة سقوطها: الفاخري (١٥)، ابن خميس: معجم اليمامة (١/٤٢١ - ٤٢٤)، الدرعية: العاصمة الأولى (٤٣٦ - ٤٤٦)، وانظر أرجوزة ابن دعيج في هذا المقام: مجلة الدار (ع٤/ س٨/ ص ١٦٢ ـ ١٧٧) مع استعراض لها بقلم الدكتور محمد الشويعر.

وقد قسمت هذا البحث إلى تمهيد عن نظرة الإسلام للبدو والبداوة انطلاقاً من أن الدولة السعودية قامت على أساس من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي هي تجديد لهذا الدين في أصوله الأولى ومن هنا فهي سعت عبر أدوارها الثلاثة إلى التعامل مع البدو على أساس من هذه النظرة الشرعية وأكدت على التطبيق الدقيق لها.

وفي الباب الأول تحدثت عن الفئات الاجتماعية في بادية نجد، وتكلمت في الفصل الأول عن معالم الوضع القبلي لبادية نجد حتى قيام الدولة السعودية الأولى، وقمت فيه باستعراض تاريخي عام عن أبرز القبائل البدوية التي قطنت نجداً منذ العصر الجاهلي وحتى قيام الدولة السعودية حيث ركزت فيما بعد القرن العاشر الهجري على تلك التي تبوأت مركز الزعامة في نجد وهي بنو لام ثم عنزة فمطير فقحطان التي كان دخولها في طاعة الدولة السعودية وتبنيها مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عاملا مهما ساعد على تبوئها للزعامة القبلية في نجد، ثم خصصت الفصل الثاني عن الصلب حيث تضمنت الدراسة الحديث عن أصلهم والآراء التي قيلت فيه ثم استعراضا لحياتهم الاجتماعية شاملة لمعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومدى تأثير الدعوة السلفية فيهم.

أما الباب الثاني فقد تحدثت فيه عن الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد قبل قيام الدولة السعودية وقسمته إلى فصلين؛ بحثت في الفصل الأول عن أبرز ملامح الحياة الدينية لدى تلك البادية قبل الدولة السعودية والدعوة السلفية وركزت في هذا الصدد على تحليل الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه لأبرز ملامح هذه الحياة لأنها تعد الموجه الرئيس لمجالات الحياة الأخرى، ونظرا لشح المادة في هذا الفصل وكونه فصلا غير رئيس فقد اكتفيت بإعطاء ملامح عامة عنه.

وفي الفصل الثني من هذا الباب بحثت عن أبرز ظواهر الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد لدى بادية نجد قبل قيام الدولة السعودية وهي ما تكفي لتصوير الحياة الاجتماعية البدوية من غير تفصيل في كل المظاهر لأن كل ظاهرة تحتاج بحثا مستقلا، وشح المادة في هذا المحال علاوة على أن ما هو موجود منها يتحدث عن المظاهر الاجتماعية البدوية بشكل عام، كل هذا يجعل من الضروري الاقتصار على ما ذكرت على أني حاولت إبراز ما قد تختلف فيه بعض القبائل عن البعض الآخر في بعض الظواهر كالغزو مثلا، أما فيما سوى ذلك فيصعب إبراز مواطن الاختلاف بين القبائل بله الأفخاذ.

وقد ابتدأت هذا الفصل بالتحدث عن نظرة البدوي للحضري تلك النظرة التي أبز ملامحها كره البدوي حياة الحضر والاستقرار لأن ذلك سبيل لإماتة روح الشجاعة التي تعتبر من أهم صفات البدوي، وقد زخر تاريخ العلاقات الاجتماعية بأحداث تبين كره البدوي للعيش داخل البلدان، وقد استعرضت جانبا من هذه الأحداث لدى بادية نجد وقرنتها بما وجدته من أمثلة تاريخية، على أن هذه العلاقة تتسم أحيانا بالصفاء، والدليل على ذلك كثرة التزاوج بين الفريقين، ثم تحدثت عن وضع المرأة البدوية وأنها تلقى التكريم والتقدير من مجتمع البادية لولا ما يشوب هذا التكريم أحيانا من إهانة كالتحجير مثلا.

ثم تطرقت إلى الرق والأرقاء وقدمت له بمقدمة موجزة عن حكم الإسلام في الرق ولمحة عن الرقيق في الخليج والجزيرة العربية في العصر الحديث، وتحدثت عن وضع الرقيق والخدم لدى بادية نجد والمعاملة الكريمة التي يجدونها من ابن البادية.

ثم قدمت أمثلة لبعض العادات والتقاليد البدوية كالكرم الذي يشكل معلما بارزا في الحياة الاجتماعية لدى البدوي، ثم المسكن، والملبس، والمأكل والمشرب الذي بحثت فيه دخول بعض المشروبات المستجدة كالقهوة والتبغ، ثم بحثت عن الخوَّة من جانبها الاجتماعي وهي ما يمكن أن يطلق عليها دبلوماسية البدو، ثم أعطيت بعض الملامح العامة عن نظام الغزو وما يتبعه أحيانا من السلب والسرقة، وختمت هذا الباب بنظام الربيط والدخيل.

أما الباب الثالث فقد خصصته للبحث عن آثار الدعوة السلفية وجهود الدولة السعودية في توجيه الأوضاع العامة عند بدو نجد الوجهة الصحيحة وقسمته إلى ثلاثة فصول، تحدثت في الأول عن مواقف هذه القبائل من محاولة الدولة إخضاعها، وهو استعراض تاريخي لمحاولات الدولة السعودية السلمية والحربية لإخضاع هذه القبائل في دولة واحدة، وتطرقت فيه لبعض محاولات العصيان التي حدثت من بعض القبائل ضد الدولة السعودية سواء كانت المحاولات من تلك القبائل منفردة أو متحزبة فيها مع غيرها من القبائل، أو باشتراكها مع القوى الخارجية ضد الدعوة ودولتها، وتحدثت فيها عن نهاية المطاف لهذه الغزوات سواء من جانب الدولة أو تلك القبائل، وقد ركزت في هذا الفصل على أبرز القبائل البدوية والتي توفرت لدي معلومات عنها وهي سبيع والسهول ومطير وعنزة والظفير وشمر والدواسر وقحطان وعتيبة وحرب على أساس أن الأخيرتين قبيلتان حجازيتان نجديتان، وحاولت في الفصل الثاني أن أتلمس آثار الدولة السعودية والدعوة السلفية على الحياة الدينية لدى بادية نجد بإبراز ما استطعت إبرازه من تلك المعطيات الخيرة لتلك الدعوة المباركة في توجيه الحياة الدينية لدى البادية نحو المعتقد السلفي الصحيح، والتشريع الرباني المحكم، واستعرضت في هذا الفصل بعض نتائج الفصل الذي قبله على تلك الحياة في الصلاة والزكاة وسائر أركان الاسلام، علاوة على القضايا العقدية مشيرا إلى دور أهم جهة مسؤولة عن تنفيذ البرامج الدينية وهي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الفصل الثالث حاولت أن أتلمس آثار الدولة السعودية والدعوة السلفية على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لدى نجد، وابتدأت بأهم قضية تشغل بال المجتمع النجدي وهي قضية الأمن بمفهومه العام وخاصة الأمن في المسالك، وهو ما كانت تعكره البادية بالدرجة الأولى حيث أبرزت فيه جهود الدولة في القضاء على الأسباب التي تؤدي إلى الرخاء الاقتصادي من جهة شرعية باعتبار أن الهدف الاقتصادي من أهم أهداف الغزو عند البدوي إذا لم يوجه هذا الغزو نحو الأهداف الخيرة، وهي التي جهدت الدولة السعودية والدعوة السلفية في توجيهه إليها، ثم تحدثت عن أثر الدعوة على الأخوة اجتماعيا بإحلال الأخوة الإسلامية محل الأخوة القبلية والعرقية أو على الأقل عدم التعصب للأخيرة على حساب الأولى، ثم تطرقت إلى أثر الدعوة على التحرك الجماعي وزعامة القبيلة عرضت فيه بعض نتائج الفصل الأول من حدوث هجرات شبه جماعية من بعض القبائل التي لم تطب لبعض أفخاذها مظاهر الحياة الجديدة، أو حدوث بعض الهجرات المعاكسة باتجاه نجد من بعض القبائل التي والت الدعوة وتسللت بشكل أكبر إلى نجد، كما تحدثت عن أثر الدعوة في زعامة القبيلة وأخذت مثلا لذلك من الدواسر وقحطان اللتين كان تعيين القيادة العامة فيهما بتدخل من الدولة السعودية، وهذا التدخل لم تكن هذه الدولة بدعا فيه إذ أن اختيار شيخ القبيلة يعد من مسؤوليات الإمام في الإسلام، وإن كانت الدولة السعودية مثلها في ذلك مثل الخلافة الإسلامية من قبل لا تعين للإمارة العامة إلا أحد أفراد القبيلة، أو تكتفي بإقرار ما تتفق عليه القبيلة (1) وتطرقت بعد ذلك إلي أثر الدولة السعودية والدعوة السلفية على نظامي الربيط والدخيل باختصار حتمه شح المادة لدي، كما ألمحت إلى أثر الدعوة على وضع المرأة ببحث العلماء لأهم قضية كانت تعاني منها المرأة

---

(1) دوزي : تاريخ مسلمى أسبانيا ١ / ٣٥، ٣٦.

البدوية وهي التحجير، ثم تعرضت إلى رأى علماء الدعوة في اللباس على اعتبار أن كثيرا من أبناء البادية الداخلين في الدعوة اعتقدوا أن ذلك يفرض عليهم نوعا معينا من اللباس، حيث بين هؤلاء العلماء أنه ليس هناك لباس مخصوص للداخلين في الدعوة، ثم بينت رأي الدعوة في المشرب وخاصة المشروبات التي جدت على حياة البدوي وهما القهوة والتبغ، وختمت هذا الفصل برأي علماء الدعوة في بعض الاعتقادات الطبية وأساليب الترويح عن النفس، وأنهيت هذا البحث بخاتمة لخصت فيها أبرز الأفكار التي خرجت بها من هذا البحث.

وقد رجعت في ذلك كله إلى بعض المصادر والمراجع الرئيسة والفرعية استعرض بإيجاز أهمها وألمح بشكل عام إلى بعضها، فقد استفدت من مؤلفات الشيخ أحمد بن محمد المنقور وخاصة كتاب «المسائل العديدة في المسائل المفيدة»، وقد طبع أخيرا على نفقة الأستاذ عبدالعزيز عبدالعزيز المنقور أحد رجال الأعمال السعوديين ووزعه مجانا، وقد تفضل علي فأهداني نسخة منه، وميزة الكتاب جمع فتاوى العلماء النجديين قبل الدعوة بشكل رئيس مع بعض العلماء من غير نجد، وللمؤلف فيه بعض الآراء، ويستطيع الباحث أن يرصد فيها كثيرا من القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي ترد بشأنها بعض الفتاوى علاوة على بحث ما استجد على الحياة الاجتماعية في نجد كالقهوة والتبغ، ويعرف في الأوساط الفقهية النجدية بمجموع المنقور، وكذلك اطلعت على تأريخه الذي حققه الدكتور عبدالعزيز الخويطر، والكتاب على اختصاره يصور كثيرا من جوانب الحياة العامة في نجد قبل الدعوة، علاوة على أن مؤلفه فقيه موثوق به مما يجعل الباحث يثق كثيرا بما كتبه فيه[1]، أما كتابه «جامع

---

(١) د. عبدالله الشبل: أهم المصادر النجدية لتاريخ الدولة السعودية ص ٥١.

المناسك الـثلاثة الحنبليـة»، فهو يدل على حسن تـنظيم المؤلف للـحديث عن المناسك وهــو يصور بعض الأمور الـدينية الخاصة بـالحج مما يعتبـر من الأمور البدعية[1]، وعلى أنـه يصور الحيـاة الدينيـة لدى الحاضرة بـشكل مبـاشر فإن استفادتي منه هنا غير مباشرة، وقد اطلعت على تاريخ الشيخ حمد بن محمد ابن لعبون واستفدت منه في جوانب البـحث، وكانت استفادتي مباشرة وقوية من كتاب الأخبـار النجدية للشيـخ محمد عمر الفاخـري والذي قام أستاذي الكريم الدكتـور عبدالله الشبل بـتحقيقه والتعـليق عليه ونشرتـه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكانت استفادتي من تعليقات المحقق لا تقل عن استفادتي مـن الكتاب نفسه سواء كـان في فترة ما قبل الدعـوة أو ما بعدها، فيما يتعلق بالمتغيرات المناخية وبعض القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد رجعت إلى «عنوان المجد في تاريخ نجد» لابـن بشر في كثير من مواضيع الرسالة سواء كان في سوابقه لفترة ما قبل الدعوة، أو بقية الأحداث التاريخية فيه لما بعدها وقد اعتمدت عـلى طبعة وزارة المعارف الأخيرة سنة ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤م التي حققـها الشيخ عبدالرحمـن بن عبداللطيف آل الشـيخ على أني أقارن بين بعض الطبعات الأخرى وهذه الطبـعة أحيانا، وسبب اقتصاري على هذه الطبعة شمولها عن بقية الطبعات الأخرى نظرا لذكرها استدراكات المؤلف على نـفسه، ولصـدور فهارس شاملـة لها من إعـداد أحد باحثـي دارة الملك عبدالعزيز، ولم أكن في ذلك كله بعيـدا عن ملاحظات الباحثين على ابن بشر كملاحظات أستاذي الدكتور الشبل فـي دراسته لأهم المصادر النجدية والدكتور عبدالـعزيز الخويطـر في كتابه عـن عثمان بـن بشر والشيـخ مقبل الذكير في تاريخه.

---

(١) انظر على سبيل المثال ص ٧، ٧١، ٧٢، ١٤٠، ١٤٢ من هذا الكتاب.

ومن أبرز المصادر التي رجعت إليها في فترة ما بعد الدعوة تاريخ ابن غنام المسمى «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام» وقد اعتمدت على طبعة المكتبة الأهلية بالرياض عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م حرصا مني على تأصيل البحث وتوثيقه لأنها كتبت بأسلوب المؤلف ولغته، وكان اعتمادي على ابن غنام كبيرا في بيان مواقف بادية نجد من الدولة السعودية والدعوة السلفية.

ولقد كانت استفادتي كبيرة من مؤلفات الشيخ محمد نفسه سواء الرسائل الشخصية أو بقية المؤلفات حيث عكفت على قراءتها بعد أن طبعت في أسبوع الشيخ محمد الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كما اطلعت على البحوث التي ألقيت في هذا الأسبوع واستفدت من بعضها استفادة مباشرة وبعضها الآخر استفادة عامة، والبحث والتعمق في مؤلفات الشيخ ضروري لكل من يريد أن يبحث في التاريخ النجدي باعتبار أن الدعوة السلفية وقيام الدولة السعودية محور هذا التاريخ وبدايته في العصر الحديث، وباعتبار أن نظرات إمام الدعوة تشكل عمقا تحليليا في رصد كثير من نواحي الحياة العامة في نجد، كما أن جهود الدولة التوحيدية والتصحيحية جهود عظيمة أبرزت فضل الاجتماع والوحدة وتوجيه مجالات الحياة الوجهة الشرعية. كذلك كانت استفادتي كبيرة من «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» التي جمعها الشيخ عبدالرحمن بن قاسم التي تعتبر مجموعة فتاوى وتقريرات علماء نجد منذ قيام الدعوة السلفية إلى وفاة المؤلف في مجالات العلم العقدي والشرعي المختلفة، وكان مجال استفادتي منها في رأي الدعوة وأثرها على بعض نواحي الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وصلبها، على أن هذا الكتاب يحوي بعض آراء لبعض علماء نجد قبل الدعوة وإن كان ذلك قليلاً.

وتشكل المأثورات العامية من أمثال وقصص وقصائد مصدرا رئيسا من مصادر هذا البحث وخاصة حينما تشح المصادر التاريخية وغير التاريخية المكتوبة باللغة الفصحى، وما من شك أن النواحي الاجتماعية لدى البادية النجدية شحيحة في المصادر الفصيحة سواء كان ذلك فيما قبل الدولة السعودية أو ما بعد قيامها، ومن هنا فقد حفل هذا البحث بقدر من هذه المأثورات وقد استفدت منها في مصادرها المكتوبة والمروية، ولا يعني هذا الاهتمام بهذه المأثورات تأييد الباحث للدعوات المعادية للغتنا الفصحى لغة القرآن التي تعتبر نشرها والتحدث بها من الوسائل الرئيسة لنشر الإسلام، إلا أنه وقد بدأ اللحن في الأمة الإسلامية منذ فترة متقدمة.. ثم شاع حتى طغت العامية فإن الاصطدام بقطاع كبير في المجتمع يتكلم تلك اللغة من الصعوبة بمكان ولا يحقق الأهداف المرجوة من المحاولات الجادة لنشر اللغة الفصحى على حساب العامية، وفي هذا السبيل فلا بد من الأخذ بفكرة القضاء على العامية بدراستها وتأصيل بعض كلماتها وبيان مالم يكن له أصل فصيح، وهذه الفكرة أخذت بها وأنا أقوم بتحليل بعض القصائد العامية في الهوامش، هذا التحليل الذي كان ضروريا لما تحمله بعض كلمات هذه القصائد من معان اجتماعية لابد من توضيحها، وقد رجعت في هذا المجال إلى بعض المعاجم اللغوية المعروفة كالقاموس المحيط للفيروزآبادى، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى، وقاموس رد العامي إلى الفصيح تأليف أحمد رضا العاملي.

ومن المصادر التي رجعت إليها: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب تأليف حسن بن جمال الريكي[1] (نسبة إلى بندر ريْك على

---

(١) رغم أن محققي هذا الكتاب لم يكشفا لنا عن شخصية واسم هذا المؤلف وهل هذا الاسم (الريكي) للناسخ أو للمؤلف ولم يكلفا نفسيهما في بذل جهد من هذا القبيل - وهو من أهم قواعد التحقيق، رغم كل ذلك فقد ترجح لدى أن حسن بن جمال بن احمد الريكي هو مؤلف =

الساحل الإيراني من الخليج العربي)، ورغم أن الكتاب قد حفل بقدر كبير من المغالطات والأوهام التاريخية فهو يعد مصدرا جيدا من مصادر الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى باعتباره معاصرا لأحداثهما، ويزيد في أهمية الكتاب اهتمامه بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية وفيما عدا مغالطاته وأوهامه فيما يتعلق ببعض القضايا العقدية والسياسية بالنسبة للدولة السعودية والدعوة السلفية، فهو قد سجل بعض معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نجد قبل الدعوة وبعدها لدى حاضرة نجد وباديتها، وبسط في بعض جوانب تلك المعالم مما لم يتوافر في المصادر المحلية ومما لا يجد المتعمق في قضايا المجتمع النجدي أي ملاحظات جوهرية عليه من تلك التي يجدها في القضايا العقدية والسياسية، بل ينم ذلك عن معرفة جيدة من المؤلف ببعض الجوانب الاجتماعية وتعتبر دراسته عن قبائل بادية نجد - على قلة المعلومات فيها - من أحسن الدراسات عن هذه القبائل، وتدل على معرفته ببعض أوضاعها القبلية ودرجة نفوذها في نجد وبعض مواقف تلك القبائل من الدولة السعودية والدعوة السلفية وبعض التحولات الاجتماعية نتيجة لتلك المواقف على ما سيمر ذكره في الفصلين الأول والثالث من الباب الثالث من هذا البحث.

ومن المصادر المعاصرة التي رجعت إليها كتاب «كيف كان ظهور شيخ

= هذا الكتاب كما هو ناسخه كذلك وذلك لما يأتي:-

١- ترجيح الشيخ حمد الجاسر لذلك في مقالة عن هذا المؤلف في مجلة العرب جـ ١٠/س ٤/ ص ٩٤٠.

٢- ترجيح الدكتور منير العجلاني لذلك في كتابه البلاد العربية السعودية ١/٤٤.

٣- تأكيد عبدالواحد راغب (أحد باحثي دارة الملك عبدالعزيز) لذلك في مقالة عن هذا الكتاب ومؤلفه نشرها في مجلة الدارة ع٢/س٢/ ص ٢٣٨ - ٢٤٩ وقد أورد عددا من الأدلة المقنعة في نظري في هذا المجال ليس هنا مكان البسط فيها وفي غيرها.

٤- أن التعمق في قراءة الكتاب يؤكد أن الريكي هو المؤلف وربما المؤلف والناسخ معا وعلى سبيل المثال انظر ص ٧١، ١٩٧.

الإسلام محمد بن عبدالوهاب»، وهو وإن لم يكن في مستوى ابن غنام والفاخري وابن بشر من حيث كثافة المعلومات التاريخية عن نجد والدعوة السلفية والدولة السعودية، وكذلك دقة هذه المعلومات التاريخية فإنه قد حفل بقدر لا بأس به من الجوانب التاريخية المفيدة عن تلك الفترة وخاصة إلى ما بعد وفاة الإمام عبدالعزيز بن محمد بسنوات قليلة[1]، وكنت قد رجعت إلى المخطوطة بعد أن سهلت الجامعة حصولي عليها من المكتبة الوطنية بباريس، ولما قام الدكتور العثيمين بتحقيق هذه المخطوطة وطبعتها الدارة فقد قمت بتغيير ترقيم الصفحات في الهوامش بما يتمشى مع النسخة المطبوعة المحققة وبما يحقق استفادتي من تعليقات المحقق.

أما الكتب الأجنبية فقد ترجمت أجزاء من كتاب:

(NOTES ON THE BEDOUINS WAHABYS)

تأليف بركهارت[2] نظرا لصلته المباشرة بموضوع الرسالة، واستفدت من هذه الترجمة في ثنايا هذا البحث.

وقد كرم أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور عبدالله الشبل فأعطاني جزءا من رسالة الدكتور محمد الثنيان مما له صلة بموضوع الرسالة، وترجمت هذا الجزء واستفدت منه.

---

(١) مقدمة الدكتور العثيمين في تحقيق الكتاب (ص ١٠).

(٢) هو المستشرق السويسري جون لويس بوركهارت، ولد في لوزان ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م، ودرس في ألمانيا وبريطانيا التي تجنس بجنسيتها ورحل إلى الشرق فأتقن العربية وقرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي ويقال أنه أسلم وحج وتسمى بالحاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بركهارت سجل مشاهداته في كتابه رحلة إلى جزيرة العرب، وملاحظات عن البدو والوهابيين والرحلة إلى الشام، والنوبة وله بعض المؤلفات الأخرى توفي في القاهرة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م، وهناك مستشرق آخر يحمل الاسم نفسه. نجيب العقيقي: المستشرقون (٢/٥٢،١٢١،١٢٢). الزركلي: الأعلام (٩/٣٤٩،٣٥٠). أبحاث الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (٢/٤٥٣ - ٤٦٣) من بحث الدكتور محمد سعيد الشعفي عن بركهارت.

ثم قمت برحلة علمية إلى العراق وبعض أقطار الخليج العربي وجمعت مادة من بعض المصادر الموجودة فيها والمتعلقة بهذا البحث، نظراً لوجود بعض المعلومات عن نجد والـدولة السعودية ودعوة الشيخ محمـد بن عبدالوهاب في مصادر تاريخ هذه البلدان.

هذا استعراض لأبرز المـصادر التي رجعت إليها في إعـداد هذا البحث، أما بقـية المصادر المسـاعدة والتي رجعت إلـيها في المواضـيع الفرعيـة من هذا البحث فقد أعددت ثبتا بها في آخر الرسـالة شاملا لها وللمصادر التي تحدثت عنها في هذه المقدمة.

وبعد: فـإني لأرجو أن يكون هـذا البحث إسـهاماً في دراسة الـتاريخ الاجتماعي لـبادية نجد، ولا ريب أن في ثنايـا هذا البحث ثغرات لم تـكتمل وجوانب تفـصيلية للحـياة الاجتماعيـة لم يتعرض لها، وعـذري أني حاولت جاهداً أن أعطـي إلمامة عن جوانب مـهمة من هذا التـاريخ مما يعطي تـصويراً أحسب أنه لا بأس به، كما أنه ـ وهذا هو المهـم ـ يبرز جهود الدولة السعودية الأولى ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في توجيه جوانب الحياة العامة عند بادية نجد الوجـهة الدينية، مما شكل أرضيـة جيدة لولاء هذه القبائل وتبـعيتها وإخلاصها للدولة السعودية في كـل أدوارها، ومما جعلها قبل هذا وذاك أقوى إيماناً وأخلص تطبيـقاً لمبادىء الدعوة التجديدية التي قام بهـا الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والحـمد لله أولاً وآخراً وصلى اللـه على نبينا محـمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد :

لمحة موجزة عن نظرة الإسلام للبدو والبداوة

يوائم الإسلام في نظرته العامة نحو البدو والبداوة ـ بين الجانب الخير في حياة البدو المتمثل في وجود عناصر الخير في هذه الحياة، وبين الوجه البدوي المتخلف الذي يعيش حياة الجفوة والغلظة، ويمارس السلب والنهب وقطع الطريق ومعاداة أي أسلوب من أساليب التحضر والرقي، وهو في هذا المجال يهدف إلى الجمع بين التناقض العجيب في طباع هذه الفئة المهمة من الناس.

وغني عن البيان هنا التفريق بين العرب والأعراب هذه القضية التي قتلها بحثا عدد كبير من العلماء والباحثين قديما وحديثا، بعد أن كانت هاتان اللفظتان مسرحا للخطط والجدل حول التفريق والجمع بينهما، وهو ما استغله عدد من المستشرقين المحدثين المغرضين استنادا إلى خلط بعض مفكري[1] الإسلام السابقين بين هذين اللفظين ومفهوميهما، إضافة إلى توسيع دائرة هذا الخلط من الشعوبية [2] في العصور الإسلامية السابقة حينما كانت هذه

---

(١) كابن خلدون مثلا الذي خلط بين هذين المفهومين خلطا استغله الشعوبيون قديما وحديثا، وكذلك المستشرقون.

(٢) يبدو أن أساس مفهوم هذه اللفظة ما فسر به بعض المفسرين واللغويين الشعوب في قوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ حيث فسروا الشعوب بأنها بطون العجم والقبائل: بطون العرب، ثم تطور مفهوم هذه اللفظة لتطلق على كل من ليس عربيا، ولا يرى للعرب فضلا، ثم أطلقت على محتقري العرب عموما، ومفضلي الأعاجم عليهم، وقد اقترن لفظ الشعوبية بظهور عدد من الفرق التي كان لها الدور الرئيس في تفتيت العالم الإسلامى كالخوارج والشيعة وما تشعب عنهما من فرق وارتبطت بمفاهيم المروق والزندقة وقد عرف العالم الإسلامى نوعين من الشعوبية هى شعوبية المشرق التي اقترنت بالشيعة والتي بالغ بعض معتنقيها في شعوبيتهم بقصر اللغة العربية على العلوم الدينية وإحياء اللغة الفارسية وجعلها لغة للعلوم والآداب، أما شعوبية المغرب والتى انتشرت في الأندلس، فقد فاخرت =

الشعوبيــة تنظر إلى الوجه البدوي المتخلف الذي كان يبرز أحيـانا في عصور الانحطاط الاجتماعي الذي يمنى به العرب، فتنطلق الموجات الأعرابية مدمرة المدن والقرى بأسلوب السلب والنهب، وهذا الوجه كما أنه موجود لدى بوادى العرب المتخلفة، فإنه موجود لدى بـوادي الأمم الأخرى التي تنقسم إلى فئتين رئيستين: بادية، وحاضرة، بل ربما برز هذا الوجه المتخلف بصورة أوضح عند بعض الأمم الأخرى أوضح مما لدى العرب، وليس هنا مجال التفصيل في هذه القضية الـتي تناولها عدد من البـاحثين والعلماء في القـديم والحديث بالدرس والتحليل[1].

وانطـلاقا مما سبـق فقد اتـسمت نظـرة الإسلام للـبدو والبداوة بمـراعاة

= بحضارة الإسلام بلغتها العربية ومعتقدها السني الصافي، ولكنها أنكرت القول بفضل العرب على غيرهم، وهي على أي حال أخف من شعوبية المشرق ويبدو أن هذه الشعوبية بنوعيها كانت تزدهر في عهود الانحطاط الذي يمنى به العرب نتيجة لبروز الوجه البدوي المتخلف، أو نتيجة لاحتقار ساسة المسلمين في المشرق أو المغرب لكل ما هو عربي أو يمت إلى العربية بصلة . للتفصيل: (ابن كثير التفسير ٢١٨/٤، أبو السعود: التفسير ١٨٠/٥، الشوكاني: التفسير ٦/٥، ابن حجر: فتح البارى ١٤٥، الفيروزآبادي ٨٨/١، محمد مرتضي ابن محمد الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية ـ مصر سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م نشر دار مكتبة الحياة بيروت ٣٢١/١، دائرة المعارف الإسلامية ٣١٥/١٣، ٣١٦ مادة شعوبية).

(١) مهما كثرت الأبحاث في هذا المجال فإن فهم مدلول أي لفظة لا يتم إلا بالرجوع إلى مصادر اللغة لأى أمة فيكفينا في التفريق بين العرب والأعراب الرجوع إلى مفهوم هذين اللفظين كما قرر علماء اللغة، وكما هو متواتر لدى العرب، قديما وحديثا، فالعرب تطلق على أمة العرب سواء سكنت البوادي أو الحواضر والقرى، أما الأعراب والأعاريب فلا تطلق إلا على ساكني البادية ومن لم يفرق بين العرب والأعراب فإنه يتحامل على العرب في تأويله للآيات الواردة في هذا المجال، وذكر علماء اللغة أن مما تواتر لدى حاضرة العرب وأعرابها أنك إذا قلت لأعرابي يا عربي هش وبش، والحضري إذا قيل له يا أعرابى غضب، أما من تحول من الحضر إلى البدو فهو قد تعرب أي صار أعرابيا بعد أن كان حضريا وهو ما ورد النهي عنه، للتفصيل : (الفيروزآبادى ١٠٢/١، الزبيدي ٣٧١/١ مادة عرب، أبو السعود: التفسير ٥٩٣/٣، الشوكاني: التفسير ٣٩٥/٢، ٣٩٦).

مقتضى الحال التي تكون عليها طبيعة الحياة الاجتماعية لهذه الفئة في محاولة منه لرفع المستوى الاجتماعي لهذه الفئة إلى مايهدف إليه من كونه عقيدة مرتبطة جوهريا بوضع اجتماعي حضاري متقدم بغض النظر عن مكان أسلوب حياة هذه الفئة[1]، فحينما تتغلب الجفوة على طباعهم والقسوة على قلوبهم فتبعد بهم عن المعرفة والوقوف عند الحدود والشرائع والأحكام نتيجة لتوحشهم ونشأتهم في معزل عن مشاهدة المصلحين، وحينما ينظرون إلى أي بذل جسمي أو مادي في سبيل تقوية الجماعة المسلمة على أنه مغرم وخسارة. حينما يحصل ذلك فإن الإسلام يحارب في هذه الفئة تلك الطباع، ويجعل المسلمين عامة على وعي تام بحقيقة بعض أفرادها من الأعراب الذين قال الله فيهم:

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾[2] وإذا كان هذا التعبير بالعموم يعطي وضعا ثابتا متعلقا بالبدو والبداوة كما فهم بعض المفسرين وكما يتبادر إلى الذهن، فإن تعبير القرآن أبعد غورا من ذلك إذ أن ذلك من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله سبحانه:

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾[3] وأن ذكر الآيتين: ٩٨، ٩٩ بعد الآية الأولى يؤكد تشعب جنس الأعراب إلى فئتين، وعدم انحصارهم في الفريق المذكور

---

(١) مجلة العربي الكويتية: عدد محرم ١٤٠٣هـ/ نوفمبر «تشرين ثانى» ١٩٨٢م ص ١٥ من مقال للدكتور محمد جابر الأنصاري.

(٢) سورة التوبة: آية : ٩٧ ، ٩٨، أبو السعود: التفسير ٢/٥٩٣، ٥٩٤ عبدالرحمن السعدي: التفسير ٣/٢٨٦.

(٣) سورة الإسراء: آية: ٦٧، ومثلها: ﴿ان الانسان لكفور﴾ الحج آية: ٦٦، " ﴿فان الانسان كفور﴾ الشورى: آية ٤٨، ﴿ان الانسان لكفور مبين﴾ الزخرف: آية ١٥، ﴿ان الانسان لظلوم كفار﴾ إبراهيم: آية ٣٤.

في آية ٩٧ كما يبدو من ظاهر النص الكريم، كما يؤكد في الوقت نفسه أن المقصودين بشدة الكفر والنفاق هم من يتخذون ما ينفقون مغرما ويتربصون بالمسلمين المصائب نتيجة هذا الكفر والنفاق والبعد عن مجلس رسول الله ﷺ ومشاهدة معجزاته وسماع الآيات النازلة عليه، وإذا أدركنا سبب نزول هذه الآيات وخصوصيته على من يستطيع الإنفاق من البدو دون الفقراء، وعلى اقتصاره على بعض القبائل البدوية الذين كذبوا الله ورسوله، وقعدوا في مرابعهم ولم يكلفوا أنفسهم المجيء إلى رسول الله ﷺ ليعتذروا إليه من تخلفهم عن إحدى غزواته، إذا أدركنا ذلك تبين لنا أن القرآن لا يهدف إلى ذم عموم الأعراب بقدر مايقرر حقيقة عن بعضهم قد تتكرر في فترات التاريخ المتعاقبة[1]، فلئن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن في الآيتين تنبيه للمسلمين على مر التاريخ أن تكون على بينة من الوضع الاجتماعي للبدو كأي فئة اجتماعية ـ ألهمها الله من عناصر الخير والتقوى كما أوجد فيها من عناصر الفجور والفساد.

وتؤكد الآيات ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ من سورة الحجرات جانبا من نظرة الإسلام نحو البدو والبداوة، كما تبين جهل هؤلاء البدو بحقيقة هذا الدين، وهي في الوقت ذاته تشير إلى تحسين أحوال قسم كبير منهم بمخالطة بشاشة الايمان لقلوبهم فيما بعد، ففي الآية ١٤ يقول الله سبحانه: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ومرة أخرى فإن تعبير القرآن الكريم بالأعراب على صيغة العموم لا يعني بأي حال عامة الأعراب مهما بلغوا من الجفاء، فقد ذكر عدد من المفسرين أن هذه

---

(١) أبو السعود: ٢/٥٩٤، الشوكاني: ٢/٣٩٦، السعدي: ٣/٢٨٦،٢٨٧، سيد قطب: في ظلال القرآن: م ٤، جـ ١١/ ص ١٨ – ٢٠.

الآية نزلت في نفر من بني أسد إحدى القبائل النجدية آنذاك - وليس كل القبيلة فضلا عن عموم الأعراب، وقد قدم هؤلاء النفر المدينة في سنة مجدبة مظهرين الشهادتين، وقالوا لرسول الله ﷺ حال قدومهم: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان هادفين من وراء ذلك الحصول على الصدقة، والمنة على رسول الله ﷺ بهذا الدخول في الإسلام[1]، وأن في لفظه «لما» التي تفيد التوقع ما يدل على أن القرآن يستثير في نفوس هؤلاء النفر، والبدو عموما في أي زمان ومكان، نزعة الخير وحب الإيمان، ففي هذه اللفظة ما يشعر بإمكان حصول هذا الإيمان إطلاعهم على محاسن الإسلام وتذوقهم لحلاوة الإيمان كما يشعر بأنهم آمنوا فعلا فيما بعد[2]، وفي هذه اللفظة ما يطمئن أي، دعوة تجديدية لهذا الدين بجدوى المحاولة مع هؤلاء البدو ودخول الإيمان في قلوبهم متى ما استثيرت نزعة الخير فيهم، ومتى ما كانت المحاولة معهم منظمة ليست عاطفية أو وقتية، وقد وهم أحد الباحثين حينما ربط بين قلة الإيمان مطلقا مع الإسلام الظاهري في هذه الآية، وبين حالة البدو الاجتماعية مما يفهم من كلامه أن الإيمان الحقيقي لا يتطابق وحالة البداوة وما فيها من جفاء وغلاظة، وهو في هذا المجال يربط بين الحالة الاجتماعية للبدو وبين الحالة العقدية الأخلاقية على وجه الإطلاق، وهو ما لا يمكن الاقتناع به كما لا يمكن الاقتناع بربطه الذي قال عنه: إنه وثيق بين

---

(١) أبو السعود: ٥/١٨٠، الشوكاني: ٥/٦٧. سيد قطب: م ٧/ جـ ٢٦/ ص ١٤٤، محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الطبعة الأولى. شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة. العمارية، نشر دار القرآن الكريم. بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ٥١/١٦.

(٢) أبو السعود: ٥/١٨١، الشوكاني: ٥/٦٨، الصابوني: ٥١/١٦، وما أدق عبارة الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية ٧/١٤٠. في قوله: « ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ أي وقت هذا الكلام الذي صدر منكم فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك فإن كثيرا منهم من الله عليه بالإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله».

الكفر والنفاق وحالة البدو الأعرابية مطلقا في آية التوبة السابقة[1]، ولا مجال للمقارنة بين الآيتين؛ لأن آية التوبة نزلت في فئة من منافقي الأعراب استحقت التعنيف والتبكيت والفضح، بينما نزلت آية الحجرات في أولئك النفر الذين لجهلهم ورغبتهم في الإيمان ادعوا لأنفسهم هذا المقام الذي هو أعلى مرتبة من الإسلام الظاهري ولما أنه لم يحصل لهم هذا المقام بعد - وعلم الله سبحانه حصوله منهم بعد ذلك - أدبوا في هذه الآية وعلّموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا في مرتبة المنافقين لعنفوا وفضحوا كما في سورة براءة، وإنما قال الله سبحانه لرسوله: «قل»: لهؤلاء تأديبا لطيفا: ﴿لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي لم تصلوا إلى حقية الإيمان بعد، وعليكم أن تعملوا على ترسيخ الإيمان في قلوبكم بما يقتضيه هذا الإسلام الذي سيحتسبه الله سبحانه لكم ولو كان ظاهريا، ولا شك أن الله سبحانه بإبرازه كرمه عليهم في عدم نقصانه من أعمالهم شيئا ما بقوا على الطاعة والتسليم لله ورسوله إنما يريد منهم أن يعتبروا هذا الإسلام هو المرحلة الأولية في هذا الدين والتي سيقبلها الله منهم إلى أن تستشعر قلوبهم الإيمان والطمأنينة فيغفر الله لهم جهلهم في هذه المرحلة ويعمهم برحمته حيث يقبل توبتهم بعد أن يعلنوا صدقهم فيها[2]، ثم إن القرآن بلمسته الحانية تلك يبين لهم حقيقة الإيمان ويدعوهم إليها في قوله سبحانه: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾ فهو كما ينفي عنهم صفة الإيمان الكامل حال تشهدهم فقط فإنه يهيب بهم في الوقت نفسه أن يتصفوا بصفة

---

(١) مجلة العربي: العدد السابق ص ١٥ من مقال الدكتور الأنصاري.

(٢) ابن كثير: ٤/٢٢٠ وقد رد فيها على البخاري في رأيه الذي يقول إن هؤلاء الأعراب منافقون يظهرون الإيمان، وانظر سيد قطب ٧/جـ ٢٦/ ص ١٤٥.

المؤمنين بالله ورسوله الذين اتبعوا ذلك بعدم شك وارتياب، بل ثبتوا على هذا الإيمان المحض وأخذوا يزيدونه شيئا فشيئا إلى أن وصل بهم إلى مرحلة الجهاد في سبيل الله لهداية البشر بعد أن حققوا الجهاد النفسي داخل جوانحهم، فاستحقوا من الله سبحانه لوصف الصدق بمطابقة ما وقر في قلوبهم **بأعمالهم**[١]، ويبدو أن هذه الآية بمدحها للمؤمنين بالله عز وجل قد استثارت في نفوس هؤلاء البدو نزعة الغيرة والخير في الوقت ذاته، فتشير إحدى الروايات أنه لما نزلت هذه الآية جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون[٢]، ولتماديهم في الجهل بحقيقة الإيمان قال الله عز وجل: ﴿**قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم مافي السموات ومافي الأرض والله بكل شيء عليم**﴾ ولا شك أن التعبير بالتعليم في قوله: ﴿**أتعلمون الله**﴾ كما يحمل في مفهومه قسوة التأديب فإنه يدل على التشنيع بعد هذا التمادي في الجهل مع الله سبحانه الذي لا يُطْلِعُ غيره ولا يجب أن يَطَّلِعَ غيره على حقيقة الإيمان في القلب؛ لأن إثبات هذا الإيمان ونفيه باللسان من باب تعليم الله سبحانه بما في القلب وهو سوء ظن وأدب مع الله سبحانه بإعلامه بما في قلوبهم وهو الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض وهو بكل شيء عليم، وما العلم بما في القلوب إن كانت صالحة أو فاسدة إلا هباءة في علم الله الشامل المحيط[٣]، ويكفي هذا تأديبا لهؤلاء البدو، فإذا كان قصدهم من حلفهم بإيمانهم وصدقهم المنة على رسول الله ﷺ ببذلهم وإكثارهم للمسلمين بالمتابعة والنصرة، وأنهم يستحقون على هذه المنة الثواب والثناء، فإن المنة لله عز وجل أن هداهم للإيمان إذا كانوا صادقين في إيمانهم؛ لأن الإيمان ـ بما يضفيه من مكاسب

---

(١) ابن كثير: ٤/٢٢٠، ابن سعدي: ٧/١٤٠، ١٤١.

(٢) أبو السعود: ٥/١٨١.

(٣) ابن سعدي: ٧/١٤١، سيد قطب: م ٧/ جـ ٢٦ / ص ١٤٦، ١٤٧.

ضخمة في عالم الشعور والتفكير، وفي عالم الجسد والأعصاب وفي جمال العمل والنشاط ـ هو كبرى السنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده في الأرض فهو أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله لهذا العبد، ومن سائر المتعلقات به من نعم الرزق والصحة والحياة وغيرها، ثم كرر الله سبحانه في آخر السورة علمه بجميع المخلوقات وإحاطته بجميع المكنونات ليقنع هؤلاء البدو ومن على شاكلتهم بسعة علمه سرا وعلنا ظاهرا وباطنا، ولعلم الله سبحانه بما يؤديه التكرار من فاعلية بقرع الأسماع والقلوب حتى تلين أو تقوم الحجة عليها[1].

وإذا علمنا أن سورة الحجرات يطلق عليها بعض المفسرين: «سورة الأخلاق والآداب»؛ حيث قد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال وحيث إنها تستقل بوضع أساسات كاملة لعالم نظيف سليم رفيع كريم لقيام مجتمع مسلم يستند إلى هذه الأساسات التي تكفل قيامه وصيانته في الوقت ذاته[2]، إذا علمنا ذلك أدركنا إلى أي مدى يدخل هذا التوجيه لهذه الفئة من البدو في إطار التنظيم العام والتوجيه الشامل للمجتمع المسلم الذي يركز عليه القرآن في أغلب آياته، ومن هنا ينتفي أن تكون هذه الآيات قد قصدت أن تعامل هذا الصنف من البدو سواء الذين نزلت فيهم الآيات أو من يشبههم عبر فترات التاريخ معاملة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكيد له، بل

---

(١) ابن كثير: ٤/٢٢٠، ٢٢١ وقد قرن بين تأديب الله سبحانه لهؤلاء الأعراب في هذه الآية وبين تأديب رسول الله ﷺ للأنصار بعد غزوة حنين حينما لم ينفلهم من غنائمها وصار في نفوسهم شيء من ذلك فقال لهم: «يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ وإذا كانت كتب التفسير لم تحفظ لنا رد هؤلاء الأعراب على هذا التأديب الرباني فإنها قد حفظت لنا أنهم آمنوا فعلا بينما ذكرت المصادر رد الأنصار على رسول الله ﷺ حيث كانوا كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن (أي أعظم منة وفضلا)، سيد قطب: ص ١٤٧.

(٢) سيد قطب: م ٧/ جـ٢٦/ ص ١٢٥، محمد الصابوني: صفوة التفاسير: ١٦/٥٣.

عاملتهم معاملة المسلمين الذين لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فاستعملت معهم أسلوب التأديب الذي حفلت به آيات هذه السورة لتوجيه المؤمنين، صحيح أنه كان أدبا قاسيا ولكنه كان بحجم الجهل الذي كان عليه هذا الصنف من الأعراب، والذي قد يكون عليه فيما بعد من شابههم، ولو كانت تعتبرهم منافقين لفضحتهم وعنفتهم وأوردت مع الفضح والتعنيف نوع العذاب الذي يستحقونه، ولضمنت الكلام عنهم مع الحديث العام عن المنافقين المبثوث في آي القرآن[1]، أو الحديث عن منافقي الأعراب خاصة الذي ورد في سورة التوبة. وأن تضمين الكلام عن هذا الصنف من الأعراب ضمن التوجيه العام للمؤمنين في سورة الحجرات إضافة إلى طول النفس الذي اتسمت به هذه الآيات في التأديب لهؤلاء الأعراب ومن يأتي بعدهم على شاكلتهم ليؤكد ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه الآيات تعتبرهم في عداد المسلمين الذين يرجى أن يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم[2]، وهي في هذا الصدد تضع الإطار العام للتعامل من أي دعوة تجديدية لهذا الدين تجاه من يهم على شاكلة هؤلاء الأعراب في أي زمان ومكان مما يستلزم معه على أي مجدد أن يقف طويلا أمام هذه الآيات حتى يستطيع ضم هذا الصنف من الأعراب إلى عداد المهتدين.

وتبين الآيات ١١، ١٢، ١٥، ١٦ من سورة الفتح جانبا آخر من نظرة الإسلام للبدو، هذه النظرة التي تستند إلى الطباع السيئة التي تتميز بها بعض فئات البدو والتي لم تتوافر لها سبل التقويم والترويض، بل تهيأت لها سبل الانقطاع عن الله، هذه الطباع التي من أبرز مظاهرها إيثار الانشغال بالأموال

---

(١) ابن كثير ٤/٢٢٠، ابن سعدي: ٧/١٤٠، ولقد كان المنافقون يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم من الكيد للإسلام وأهله فأنزل الله فيهم عدة آيات تكشفهم وتفضحهم كالآيات التي في سورة النساء، وسورة التوبة التي تسمى الفاضحة حيث فضحت أساليبهم في أكثر من موضع وغير هاتين السورتين، إضافة إلى سورة كاملة باسمهم هي سورة المنافقون.

(٢) ابن كثير: ٤/٢٢٠، أبو السعود: ٥/١٨١، ابن سعدي: ٧/١٤٠، سيد قطب: م٢٦/ ص ١٤٥.

والأهل والأولاد عن الجهاد في سبيل الله، واتباعهم لمبدأ الولاء والتأييد للأغلب في منظورهم الغريب، وهذا ما تؤكده الآيتان التاليتان حيث يقول سبحانه: ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)** ﴾[١]، ولئن كانت هاتان الآيتان قد نزلتا في أعراب من قبائل حول المدينة على عهد رسول الله ﷺ تخلفوا عنه في عمرة الحديبية[٢]، فإنهما تتجاوزان هذا السبب التاريخي بعموم لفظهما وتصويرهما لهذه الطباع السيئة في بعض فئات البدو عمن يظنون بالمسلمين.

عبر فترات التاريخ الظن السيئ فيقعدون عن الجهاد في سبيل الله معهم متعللين بأموالهم وأهليهم - رغم أن كل الناس لهم أموال وأهل - وهم في هذا المجال لا يتركون أي وسيلة قد تنطلي على المسلمين أهدافها إلا وأبرزوها مؤكدين صدقهم؛ فهم يستغفرون ويطلبون أن يستغفر لهم لعل هذا الاستغفار يبرزهم صادقين في أنهم موالون لأي دعوة لهذا الدين عبر مراحل التاريخ بغض النظر عن صدق هذا الاستغفار أو كذبه، ولا شك أن هذه الفئة من الأعراب وأشباهها في كل زمان ومكان يقعدون عن تأييد أي دعوة، اعتقادا منهم بعدم الغلبة لأصحابها عندما يبدو لهم ذلك في تصورهم المحدود أو اعتمادا منهم على بروز قوة الباطل الظاهرة[٣]، وهكذا تظن هذه الفئة من الأعراب أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون في عمرة الحديبية إلى أهليهم أبدا

---

(١) سورة الفتح: آية : ١١، ١٢.

(٢) ابن كثير: ٤/ ١٩٠، أبو السعود : ٥/١٥٨، الشوكاني: ٥/٤٨، الصابوني: ١٦/٣٤.

(٣) سيد قطب: م ٧/ جـ٢٦/ ص ١٠٥.

فهم سيقتلون ويستأصلون من قبل قريش وأحلافها، ويظن أمثالها في كل زمان ومكان أن لن ينقلب المؤمنون إلى أهليهم أبدا إذا واجهوا الباطل المتنفش بقوته الظاهرة، ولهذا فهم يتجنبون تأييد المسلمين على مر التاريخ حبا في السلامة يقينا منهم باستئصال شأفة هؤلاء المسلمين من قوى الأرض المعادية، وإذا خيب الله ظنهم، وقلب موازين القوى لصالح بني حزبه واختصهم بمغانم كثيرة يأخذونها فإنهم يغضبون على المجاهدين أن لم يشاركوهم الغزوة التي فيها غنائم[1]، وقول الله سبحانه:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[2] هو من علم الله سبحانه بما لم يكن وما سيكون؛ ذلك أن هذه الفئة من الأعراب بمجرد سماعها اختصاص غنائم خيبر بأهل الحديبية ممن بايعوا رسول الله على القتال في سبيل الله تحت سمرتها، بمجرد سماعها خبر الغنائم والأموال رغبت رغبة شديدة في اتباع المسلمين للحصول منها، لكن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يشد أمامهم حبل اليأس باستحالة خروجهم مع المسلمين إلى خيبر؛ لأن في خروجهم مخالفة لأمر الله وتدبيره من قبل في اختصاص غنائم خيبر بأهل الحديبية مهما أشاعوا في الناس اتصاف النبي وأصحابه بالحسد، هذه الإشاعة التي كانت ناشئة عن عدم فقههم في الدين بل في الأمر كله إلا قليلا منه وهو الحرص على الغنائم وأمور الدنيا[3].

(١) المرجع السابق: م ٧/جـ ٢٦/ ص ١٠٥، ١٠٦.

(٢) الفتح : آية ١٥.

(٣) ابن كثير : ٤/ ١٩٠، أبو السعود: ٥/ ١٦٠، الشوكاني: ٥/ ٥٩، ابن سعدي ٧/ ١٠٠، سيد قطب: ص ١٠٧.

وعلى أي حال فرغم أن هذه الآية قد نزلت على رسول الله ﷺ لهذا السبب التاريخي المعروف لتريه كيف يكون التعامل مع هذه الفئة من الأعراب، فإنها تتجاوز هذا السبب لتصور طبيعة من طباع بعض فئات البدو عبر التاريخ - هذه الطبيعة التي تستند على الجشع والطمع وإيثار الأموال، ثم هي في الوقت ذاته تبين الأسلوب الذي ينبغي أن يعامل به من هم على شاكلة هؤلاء الأعراب لترويضهم على الاتباع لأي دعوة إصلاحية لا لمجرد الحصول على الأموال أو أي عرض من أعراض الدنيا بل لما تمنحه من هدى وخير وصلاح، مع عدم إمساك اليد عن الإنفاق عليهم لاستمالة قلوبهم نحو الأهداف الخيرة[1].

ومرة أخرى كما في سورة الحجرات نلمس طريقة القرآن الكريم في التربية لمثل هذه الفئة من الأعراب وذلك في قوله سبحانه:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[2]. وإذا كان القرآن قد كرر ذكرهم بهذه الصفة «المخلفين من الأعراب» مبالغة في ذمهم وتشنيعا لتخلفهم فإنه قد منحهم الفرصة لمراجعة النفس والانخراط في سلك الجهاد في سبيل الله لمقاتلة أعداء الإسلام سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها، وسواء كان ذلك في عهد رسول الله ﷺ أو في عهود خلفائه أو في أي عهد من عهود الإسلام

(١) إن نظرة في تاريخ العلاقات بين بعض فئات البدو والمحاولات التنظيمية الوطنية تؤكد بعد نظر موقف الإسلام من البدو إذ ما إن وطئت قدما محمد علي باشا أرض الجزيرة العربية للقضاء على الدولة السعودية الأولى وأغرى بعض فئات البدو بالمال للتحول عن الولاء للدولة السعودية حتى انضوى تحت لوائه أو تحول عن الولاء لآل سعود وآثر السلامة على الأقل عدد من قبائل شبه الجزيرة.

(٢) سورة الفتح: آية ١٦، سيد قطب: ١٠٨.

اللاحقة، ولهذا فليس بذي قيمة كبيرة اختلاف المفسرين في من هم القوم أولو البأس الشديد، وهل هم في عهد رسول الله ﷺ أم في عهود خلفائه من بعده؟ وإن كان الأولى والأقرب أن يكون المقصود به في عهده ﷺ لتؤدي هذه الآية دورها في امتحان هؤلاء الأعراب حول المدينة وليمحص الله إيمان من كان منها على درجة من الإيمان ويمحق من كان مترددا أو منافقا أو كافرا، وبذلك يكون ما يتمخض عنه هذا الامتحان واضحا للأجيال اللاحقة. والله سبحانه في هذه الآية يهيب بهم أن ينسوا ماضيهم في التخلف ويلبوا داعي الجهاد ليؤتيهم أجرا حسنا ـ غنيمة ونصرا في الدنيا، وجنة في الآخرة ـ وإلا فإن العذاب سيكون أليما مؤلما ـ أسرا وقهرا وقتلا في الدنيا ونارا في الآخرة ـ إذا حنوا إلى تخلفهم في الحديبية فتخلفوا مثله، ،وذلك لتضاعف الجرم، وتكرار الخطيئة[1]، ولكن الآيات في هذه السورة، وهي تطيل النفس مع هؤلاء المخلفين من الأعراب فإن ذلك راجع إلى علم الله ـ والله أعلم في توفر عنصر الخير في هذه الفئة من الأعراب، وبأنهم مادة طيبة من مواد الإسلام وعنصرٌ مهمٌّ من عناصر انتشاره في العالم كما هو الحاصل في أواخر العهد النبوي وبعده من عهود نشر الإسلام، ومن هنا فإن التكرار مع هؤلاء المخلفين بكاشفة نفوسهم لهم وللمؤمنين هو أسلوب من أساليب ترويض القرآن للنفوس، وعلاجه للقلوب بالتوجيهات الربانية إلي قواعد السلوك الإيمانى القويم[2]، ولهذا فإن هذه الآية ـ وغيرها من آيات القرآن التوجيهية ـ تتجاوز السبب التاريخي الذي نزلت من أجله ليشف الباحث من خلالها نموذجا حيا

---

(١) ابن كثير: ١٩١/٤، أبو السعود: ١٩٠/٥،١٩١، الشوكاني: ٥٠/٥، ابن سعدي ١٠١/٧، الصابوني: ٣٦/١٦، وعن الملاحظة على هذا الاختلاف: سيد قطب م ٧/جـ ٢٦/ص ١٠٨.

(٢) سيد قطب: الجزء السابق والصفحة السابقة.

من نماذج نظرة الإسلام الشاملة نحو البدو، هذا النموذج الذي يرمي إلى توجيه أي صاحب دعوة تجديدية لهذا الدين أن لا ييأس من تكرار المحاولة مع أبناء البادية لضمهم إلى دعوته باعتبارهم قوة معنوية لا يستهان بها متى ما أحسن توجيههم التوجيه الإسلامي الصحيح من غير تعصب أو غلو أو تطرف[١].

وعلى الجانب الآخر من أسلوب الحياة البدوية في توافر عنصر الخير في هذه الحياة يمتدح القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٢] يمتدح قسما من البدو آمن بالله سبحانه وآمن بيوم البعث والنشور، ولم يكتف بذلك الإيمان فحسب بل قرنه ببذل سخي بمصاحبة نية صادقة بالتقرب بهذا البذل لله سبحانه لا كما يفعل الفريق الأول الذي لا يريد أن ينفق وإذا أنفق رياء وسمعة اعتقد أن ذلك مغرم وخسارة، إن هذا الفريق الخير وهو ينفق من ماله لتقوية جانب المسلمين، وتحقيق التكافل الاجتماعي فيما بينهم يحرص أشد الحرص بالإضافة إلى توفر النية الصالحة في الاحتساب بهذا الإنفاق وجه الله مما يكون سببا في التقرب إلى الله ـ عز وجل ـ أن يجعل ذلك وسيلة إلى دعاء الرسول الله ﷺ وتبريكه

---

(١) إن من أبرز تطبيقات الدولة السعودية لنظرة الإسلام للبدو والبداوة توجيه حياتهم الاجتماعية الوجهة الشرعية كما سيأتي كما أن الملك عبدالعزيز خاصة قد حرص على هذا الجانب ولهذا فقد وقف معه العلماء المحققون في هذه البلاد من بعض حالات الغلو والتعصب التي صاحبت تحضر البدو وتدينهم. إن هذا كله ليدل على وعي الإسلام للبدو والبداوة فلا شك في استفادة الملك عبدالعزيز من بعضهم في مرحلة التوحيد لكنه والعلماء المحققين لم يريدوا أن يجر هذا إلى غلو وتعصب ومنة وتفريق بين المجتمع الموحد وهذا قمة الفهم لطبيعة البدو هذا الفهم الذي يوائم بين الجانب الحسن والسيئ في حياة هذه الفئة المهمة في هذا المجتمع.

(٢) سورة التوبة: آية (٩٩).

لهذا بالقبول؛ لأن ذلك دلالة على رضاه ﷺ المنبني على رضى الله عز وجل وقبوله[1]، ثم يسارع القرآن بتضمينه الكلام أداتي ألا وإن اللتين تفيدان التنبيه والتحقيق ليقرر لهذا الفريق أن هذه القربى مقبولة عند الله، وهذا تقرير من الله عز وجل بسلامة نية هؤلاء الأعراب، وتحقيق رجائهم من دعاء الرسول لهم بعد أخذه نفقاتهم، إضافة إلى أن تنكير القربة يفيد التفخيم المغني عن الجمع أي قربة عند الله عظيمة لا يعلم كنهها إلا هو سبحانه الذي سيجعلها قربة لهم لأن هذا غاية قصدهم من التقرب بها إلى الله والحرص على دعاء الرسول بعدها، ثم إن في هذه اللفظة مجتمعة: « ألا إنها قربة لهم» من جزالة اللفظ ما يؤكد عظم هذه القربة عنده عز وجل مما يستلزم معه إحاطتهم برحمة الله الواسعة وتحققها من الله سبحانه بتوفيقهم لطاعته مع غفرانه لذنوبهم لحرصهم على الاستفادة من أعمالهم الصالحة استفادة المؤمن الذي يريد أن يكسب منها في حياته الأخرى رحمة وغفرانا من الله لا كاستفادة المنافق أو المتردد أو الكافر الذي يريد أن يكسب منها في حياته الدنيا ويتمتع بها كما تتمتع الأنعام فقط[2].

وإن في لفظة «من الأعراب» التي تعني من جنسهم على الإطلاق من

---

(١) كان الرسول ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، ولذلك سن لقابض الصدقة سواء لنفسه أو لغيره أن يدعو للمتصدق عند أخذه صدقته ولكن ليس له أن يصلي عليه كما فعل رسول الله ﷺ حين قال اللهم صلى على آل أبي أوفى لأن ذلك من خاصيات الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. التوبة آية (١٠٣). أبو السعود (٢/٥٩٥). الشوكاني (٢/٣٩٦).

(٢) أبو السعود: ٢/٥٩٥، الشوكاني: ٢/٣٩٦،٣٩٧، ابن سعدي: ٣/٢٨٧، ٢٨٨، سيد قطب: م ٤/جـ ١١/ص ٢٠، ٢١، محمد الصابوني: ٥/٤٤.

الشمول والعموم ما يجعلها تعم كل أعرابي سواء كان عربيا أو غير عربي في أي زمان ومكان متى ما توافرت الدواعي التي جعلت هذا الفريق من الأعراب يحظى بدعوة رسول الله ﷺ ، وقبوله الله لأعماله الصالحة [(١)]، ومن هنا فإن هذه اللفظة تجوز بهذه الآية من سببها التاريخي الذي ذكره بعض المفسرين [(٢)] إلى عالم المفسرين شمولا وعموما ليدخل في نطاق مدحها كل من خالط الإيمان بشاشة قلبه بغض النظر عن أسلوب حياته الاجتماعية، وهي في هذا المجال تؤكد أن ليس كل من كان أعرابيا فهو مذموم فالله سبحانه معبود في كل مكان وزمان، ومتى ما أحسن استغلال فطر أبناء البادية ووجهوا التوجيه الصحيح أمكن إدخالهم في عموم هؤلاء الممدوحين، وفي هذا المجال يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي في تعليقه على هذه الآية: «وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم - ويقصد في الآية السابقة لهذه الآية - على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك» [(٣)].

وهكذا يتبين لنا أن النظرة القرآنية للبدو والبداوة - وهي أساس النظرة الإسلامية الشاملة في كل القضايا - لم تنظر إلى فئة الأعراب من زاوية قوله الله تعالى: ﴿**الأعراب أشد كفرا ونفاقا**﴾ فقط وإن كانت قد شملت قسما منهم بهذه النظرة لوجود ما يستدعي إطلاق هذه الصفة، بل نظرت إليهم من

---

(١) أبو السعود: ٢/٥٩٥.

(٢) ذكره أبو السعود والشوكاني في تفسيريهما أن هذه نزلت في عبدالله ذي البجادين وقومه من بني مقرن من مزينة وقيل هم الذين قال فيهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ التوبة آية: ٩٢ وقيل نزلت في أسلم وغفار وجهينة. أبو السعود: ٢/٥٩٦، الشوكاني: ٢/٣٩٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمان: ٣/٢٨٨.

زاوية قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾الآية، علما أن التدبر في آيات القرآن التي تحكي هذه النظرة التي ترى في البدو عناصر من الخير أكثر مما فيهم من عناصر الشر والجفاء والغلظة، وإن كان ذلك في عموم وإيجاز - على طريقة القرآن الفريدة - تاركة هذه النظرة القرآنية هذا المجال مفصلا للسنة النبوية بأقوال الرسول وأفعاله وتقريراته وأوصافه لتفصيل النظرة الإسلامية الشاملة نحو البدو والبداوة، ومن هنا ينتقي الرأي الذي يقول إن الإيمان الحقيقي الذي يتطلبه الإسلام لا يتطابق وحالة البداوة وما فيها من جفاء وغلظة[1]، لأن هذا الرأي ناشىء عن عدم فهم لمفهوم قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ الآية، هذا فضلا عن عدم الإلمام بسببها التاريخي الذي مر ذكره.

وانطلاقا من ذلك فإن السنة النبوية بمختلف أحوالها تعطي وضوحا أكثر وتفصيلا أوفي لنظرة الإسلام الشاملة نحو البدو والبداوة فحينما يكون سكنى البادية مدعاة للجفاء في الدين والغلظة والبعد عن مراكز العلم والإصلاح والنفور منها فإن الإسلام يدعو إلى التحضر ومحاربة البداوة من جانبها السلوكي السيئ الذي يدفع بابن البادية إلى الانشغال بباديته عن معرفة أبسط قواعد الدين، ولعل هذا هو مفهوم قول الرسول ﷺ : «من سكن البادية جفا.. الحديث»[2]، ورغم التصريح بلفظ السكنى في البادية فإن المقصود

---

(١) مجلة العربي: عدد سابق ص ١٥.

(٢) ورد هذا الحديث بهذين اللفظين وتكملته بعدهما كل على روايته: «من بدا جفا، ومن تبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن وما ازداد عبد من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا» رواه الإمام أحمد في مسنده بسند حسن ٢/ ٣٧١، ٤/٤٤٠، ٢٩٧، ورواه كذلك مع أبي داود والنسائي بلفظ: «من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» المسند ١/٣٥٧، سنن أبي داود ٣/٢٧٨، سنن النسائي ٧/١٩٥، ١٩٦، وانظر: الشوكاني: التفسير ٢/ ٣٩٧ وقد تكلم في سنده، وانظر أيضا الألباني سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٢٦٧ وقد أثنى على سنده.

فيما يبدو - والله أعلم - ما يسببه هذا السكنى في البادية من المظاهر السلبية على السلوك الاجتماعي البدوي نتيجة البعد عن المراكز الحضرية، ولا شك أن هذا الحديث يعني إذا تغلبت الجوانب السيئة في هذا السلوك الاجتماعي على ساكني البادية وهو في هذا المجال يتجاوز هذه الحالة ليشمل كل من تغلبت لديه الطباع السيئة للبدو سواء سكن البادية أم لا، لأن من معاني «بدا» من اتصف بالبداوة، وصار فيه جفاء الأعراب[1]، ثم إن هذا الحديث فيما يبدو - كان يعالج حالات فردية وإن لم يتضح ذلك من سياق الحديث، ويبدو أن ذلك أيضا كان في بداية الإسلام -حينما كان بحاجة إلى من يتفهم تعاليمه ويقوم بنشرها بين الناس، وهذا يتعارض مع كون قسم كبير من الناس بادون في الأعراب، ولا يمكن بحال أن يفهم من هذا الحديث على أنه ذم مطلق لحالة البداوة لأن هذا أيضا يتعارض مع أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه التي حوت مدح البداوة والتركيز على الجانب الخير فيها.

ولا شك أن الإسلام عبر هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تضمنت النهي عن التعرب بعد الهجرة[2]، وهو انتقال المهاجر من البلد التي هاجر إليها فينعزل عن المجتمع المسلم ويعيش في البادية منقطعا عنه. ولاشك أن الإسلام عبر هذه الأحاديث وغيرها إنما يضع الجذور الأولى لتوطين البدو وتحضيرهم سلوكا لا أسلوب معيشة فقط؛ لأنه لا يريد من البدو ترك باديتهم بقدر ما يريد منهم أن لا ينعزلوا عن المجتمع المسلم، ومن هنا جاء الثناء على اللجوء للبادية عند حلول الفتن حينما تكون الظواهر الاجتماعية في أي مجتمع

---

(١) الزبيدي: تاج العروس ١٠/٣٢.

(٢) مثل حديث الكبائر والتي ورد منها: «التعرب بعد الهجرة وفراق الجماعة»، وإن كان علماء الإسلام قد اختلفوا في مفهوم الكبيرة في الإسلام ومدى خطورة بعضها على معتقد المسلم، وتفاوت هذه الخطورة من كبيرة إلى أخرى ومنها: «لعن الله أكل الربا وموكله» ... الحديث وفيه: «والمرتد بعد هجرته أعرابيا». انظر فتح الباري (٢٥/٣٣٦، ٣٣٧ - ٢٧/٤٧).

حضري خطراً على سلوك المسلم ومعتقده[1].

ولقد كان الصحابة انطلاقا من هذا النهي عن الانعزال في البادية يعدون من رجع من دار هجرته إلى باديته من غير عذر مقبول كالمرتد تماما يستحق المحاربة[2]، وكل هذا خوفا من أن تسيطر الأفكار السيئة عليه في باديته فيصبح خطرا على المجتمع المسلم، ونتيجة لذلك فقد كان كل من يريد منهم أن يسكن البادية يستأذن من رسول الله ﷺ ليستوثق الرسول من مدى تطبيقه لأحكام الإسلام في البادية ـ وخاصة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة ـ وعدم انعزاله عن المجتمع المسلم، وقد أخذ العلماء من ذلك أن الهجرة ليست واجبة إلا على من أطاقها، أما من لم يطقها كالأعرابي المنشغل بباديته وما شيته فإنها ليست واجبة عليه بشرط الاستئذان من ولي الأمر بعد المبايعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[3].

---

(١) روى البخاري: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن» ويروي الإمام أحمد في مسنده أن شهاب بن مدلج نزل البادية فساب ابنه رجلا فقال يا ابن الذي تعرب بعد الهجرة، فأتى شهاب المدينة فلقي أبا هريرة فسمعه يقول: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الناس رجلان رجل غزا في سبيل الله حتى يهبط موضعا يسوء العدو، ورجل بناحية البادية يقيم الصلوات الخمس. ويؤدي حق ماله ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين فجثا على ركبتيه، قال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ يا أبا هريرة يقوله؟ قال: نعم، فأتى باديته فأقام بها». (انظر ابن حجر: فتح الباري ٤٨/٢٧، ٤٩، والإمام أحمد: المسند ٥٢٢/٢).

(٢) فتح الباري: ٤٧/٢٧، عبدالرحمن بن خلدون: المقدمة. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م ص ١٠٤، مجلة العربي العدد السابق ص ١٤، ١٥.

(٣) روي البخاري ومسلم وغيرهما عن مسلمة بن الأكوع أنه دخل على الحجاج ابن يوسف فقال: يا ابن الأكوع، ارتددت على عقبيك. تعربت؟ قال: لا ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو، كما روى البخاري وغيره عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه أن أعرابيا سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال: ويحك: إن شأنها شديد فهل لك من إبل تؤدي صدقتها؟ قال: نعم، قال: فاعمل من وراء البحار فإن الله لا يترك من عملك شيئا. (ابن حجر: فتح الباري ٧١/٧، ٦٠/١١، ١١٧/١٥، ٣٦٢/٢٢، صحيح مسلم بشرح النووي ٦/١٣، الإمام أحمد: المسند ٣٦١/٣، ٣٦٢، ٥٥/٤ . سنن أبي داود ٦/٣، سنن النسائي: ١٤٣/٧، ١٤٤، ١٥١، ١٥٢).

وإذا كان الرسول ﷺ قد ذم إخلاد الحاضرة إلى الزراعة تشاغلا بها عن الجهاد في سبيل الله وذلك في حديث العينة المشهور [1]، فإنه في المقابل قد ذم انعزال البدو وتشاغلهم برعي إبلهم وماشيتهم عن متابعة تعاليم الدين وأداء واجب الجهاد في سبيل الله عندما يغزو المسلمين أعداؤهم وذلك في الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده وفيه: «يفترق المسلمون ثلاث فرق فأما فرقة فيأخذون بأذناب الإبل، وتلحق بالبادية وهلكت، وأما فرقة فتأخذ على نفسها فكفرت فهذه وتلك سواء، وأما فرقة فيجعلون عيالهم خلف ظهورهم ويقاتلون فقتلاهم شهداء ويفتح الله على بقيتها»[2].

فالرسول ﷺ يذم في هذا الحديث أسلوبا من أساليب المعيشة لدى البدو وهو رعي الإبل لا لذاته فهو ممدوح ولكن إذا اتخذ ذريعة للانشغال عن أداء واجب الجهاد إذا غُزِيَ المسلمون في عقر دارهم، كما أن القطون في البادية هروبا من أداء هذا الواجب يعتبر في نظر الإسلام مذموما لأن فيه تشاغلا عن المسلمين بالابتعاد عنهم، والرسول ﷺ إذ يخص رعي الإبل بذلك من دون بقية المواشي لما يتصف به راعي الإبل من خشونة وفخر وخيلاء قد يمنعه نفسيا

---

(١) العينة أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه للمشتري ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدا أما حديثها فهو عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم (وفي رواية تعلقتم - وفي رواية اتبعتم) أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه الله منكم حتى ترجعوا إلى دينكم»، وفي رواية لأحمد وتتوبون إلى الله. وواضح من هذا الحديث أن حلول الذل ليس لمجرد الزرع والحرث بل الانشغال بهما عن التدرب على القوة وأداء الجهاد في سبيل الله، إضافة إلى ما يلحق المزارع من حقوق وديون وخراج وعشر قد لا يستطيع القيام بها فيصيبه الذل، وإلا فالقيام على الزراعة أمر محمود في الإسلام كما قال ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» (فتح الباري: ٩/٦٧ - ٦٩، ٢٢/٢٢٣،٢٢٤، وعن حديث العينة: الإمام أحمد: المسند ٢/٨٤، سنن أبي داود ٣/٧٤، ٧٤١ الألباني: الأحاديث الصحيحة ١/١٥، ١٦، ١٧).

(٢) الإمام أحمد: المسند: ٥/٤٥.

من إجابة أي داع[1]، كما أن رعي الإبل كذلك يتطلب انقطاعا عن المجتمع بعدا في المكان والزمان لأن الإبل لا تكفيها المراعي القريبة، إضافة إلى أنها تمكث في المرعي أياما فتجعل راعيها في معزل عن المجتمع فيؤثر هذا على درجة جفائه، هذا بخلاف رعي الغنم وبقية المواشي الذي يضفي رقة ولينا على ممتهنه، ولهذا كان رسول الله ﷺ قد زاول مهنة رعي الغنم بل لم يبعث نبي إلا ورعي الغنم كما قال ﷺ مما أكسبه وأكسبهم جميعا عليهم الصلاة والسلام حلما وشفقة على أممهم والناس أجمعين[2].

وفي مجال تحذير الرسول ﷺ من بعض عادات البدو نهيه عن معاقرة الأعراب في قول ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهي رسول الله ﷺ من بعض عادات البدو نهيه عن معاقرة الأعراب في قول ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهي رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب، وفي رواية: «المتباريان لا يجابان ولا يؤكل طعامهما» وفي رواية: «لا تأكلوا من تعاقر الأعراب فإني لا آمن أن يكون مما أهل به لغير الله»،وفي رواية «لا عقر في الإسلام» وتتلخص هذه العادة السيئة في أن يتبارى رجلان في الجود والسخاء فيعقر هذا عددا من الإبل ويعقر الآخر مثله ويظلان في الزيادة ويتباريان في الذبح حتى يعجز أحدهما الآخر وكانوا يفعلون ذلك رياء وسمعة وتفاخرا ومباهاة ولا يقصدون بذلك وجه الله فشبهه بما ذبح لغير الله، وقد يكون سبب التحذير منه دخوله في جملة ما نهي الله عنه من أكل أموال الناس بالباطل، والتبذير الشديد الذي نهي الله عنه[3].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قوله: « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». وقد فصل ابن حجر في شرحه على هذا الحديث: (١٠/ ٥، ٦).

(٣) أبو داود: السنن ٣/ ٢٤٦، وأورده في ٤/ ١٣٢ بلفظ التباري، الزبيدي: التاج ٣/ ٤١٥، مادة عقر، الألباني: الأحاديث الصحيحة ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣.

وإدراكا من الإسلام بوجود فوارق اجتماعية سلوكية بين الحاضرة والبادية ناشئة عن اختلاف أسلوب حياة كل منهما عن الآخر، وجهل البدوي بأسلوب التعامل بين الحضر؛ فقد ورد في الحديث عدم جواز قبول الشهادة من بدوي على حضري كما روي ذلك أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية»[1].

وقد علل هذا النهي بعض العلماء لما فيهم من الجفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع مما يترتب عليه عدم ضبطهم الشهادة على وجهها، وعدم إقامتها على حقها وتحملها وأدائها بغير زيادة ولا نقصان، وعلل بعضهم ذلك باحتمال بعدها عن الحقيقة تحاملا على الحضري أو تعاطفا معه حتى ألحق الريبة الإمام مالك رحمه الله بكل من أشهد بدويا وترك جيرته من أهل الحضر، وقال الإمام أحمد رحمه الله: أخشى ألا تقبل شهادة البدوي على صاحب القرية لهذا الحديث[2].

ويبدو أن من أسباب تحريم المعاقرة كذلك أنه قد جرت عادة بين

---

(١) ابن ماجة: السنن ٢/٧٩٣ حديث ٢٣٦٧، أبو داود: السنن ٤/٢٦، ٢٧ حديث رقم ٣٦٠٢ وأثنى محققها على رجال إسناده بقوله: احتج بهم مسلم في صحيحه، وقد أورد الحديث: الزبيدي في التاج ١٠/٣٢، مادة بدا، وانظر مجلة العربي: العدد السابق ص ١٥، وصحيفة الجزيرة عدد ٣٣٥٣، الأحد ١٢ محرم ١٤٠٢ هـ/ ٨ نوفمبر ١٩٨١ ص ١٧ «"فتاوى إسلامية».

(٢) أبو داود: المصدر السابق ٤/٢٦ من حاشية المحقق، الزبيدي: المصدر السابق ١٠/٣٢، قائلا إن هذا مذهب مالك والناس خلافه وليس كذلك إذ هناك من يرى هذا الرأى غير الإمام مالك، وانظر صحيفة الجزيرة العدد السابق والصفحة السابقة، والعربى العدد السابق ص ١٥ أو علل صاحب المقال أخذ الإمام مالك بهذا الرأى لأنه بحكم البيئة أقرب أئمة الفقه إلى فهم الطبيعة الأعرابية البدوية مع العلم أن الإمام أحمد في رواية قد رأى هذا الرأي، وهو أقرب من مالك في فهم هذه الطبيعة إلا أن هذا الرأي - سواء بالنسبة لمالك أو أحمد لا يعدو أن يكون تخريجا لهذا الحديث بغض النظر عن هذه التأويلات البعيدة.

الأعراب أن يعقروا عددا من الإبل على قبور موتاهم مكافأة لهم وراحة في قبورهم إذ الفكرة أنه لما كان صاحب القبر يعقر الإبل ثم يذبحها[1]، للأضياف في حياته فينبغي مكافأته بمثل صنيعه بعد وفاته في زعمهم الباطل.

وعلى أي حال فرغم تعدد الأسباب الموجبة لهذا التحذير فإن التفاخر والمكارمة تبقيان الهدف الرئيس من وراء هذا التحذير لأنهما مرتبطان بعادة رئيسة من عادات البدو وهي الكرم الذي قد يجر بهذه المفاخرة والمكارمة نزاعات ومشاحنات ربما تطورت إلى حروب لأن العجز عن مثل هذه الحالة يعتبر مسبة في أوساط المجتمع البدوي، وهي قديمة في الأعراب في الجاهلية بل قد استمر التنافس فيها حتى بعد الإسلام لدى فئة من البدو لم تستطع قلوبهم التفاعل مع هذا التحذير الشديد عنها[2]، بل بقيت لدى فئة من البدو حتى عصرنا الحاضر عنوانا للكرم ودلالة على الجود والسخاء[3]؛ مما جعلهم يتشبثون بها رغم تحذير الرسول ﷺ عنها وعن تشجيعها، أما عقر عدد من الإبل أمام

---

(١) أصل العقر كشف عرقوب البعير وربطه أو فعل أي شيء بها حتى تسقط فينحرها بتمكن ثم أطلق على النحر، وقيل إن العرب في جاهليتهم كانوا إذا أرادوا نحر الإبل عقروها بقطع أحد قوائمها حتى لا تشرد ثم تنحر وقد نهى الإسلام عن ذلك في كيفية نحر الإبل. الزبيدي: ٤١٥/٣.

(٢) ذكر الزبيدي في التاج: أن غالب بن صعصعة أبا الفرزدق الشاعر عاقر بصوأر قرب الكوفة - سحيم بن وثيل الرياحي، فعقر سحيم خمسا من الإبل ثم بداله وعقر غالب مائة وفي هذا يقول جرير هاجيا الفرزدق بأبيه بذم يشبه المدح حيث قال:

لقد سرني ألا تعد مجاشع ... من الفخر إلا عقر نيب بصوأر

الزبيدي: التاج ٣٢٢/٣، ٤١٥ مادة صوأر، وعقر.

(٣) لكن ذلك ليس في مستوى الأعراب في جاهليتهم إلا أنه تبار على إكرام الضيف والصديق مقرونا بالتفاخر والتزايد في عدد ما يذبح من المواشي فإذا قدم ضيف أو صديق فإن من يكرمه لاحقا يحرص على أن يزيد عمن سبقه أو لا يقل عنه وكل هذا من باب التفاخر والتباري بالكرم.

القبور فيبدو أن الإسلام أزالها لأنها تتعلق بأمور لا مجال للتهاون فيها لأثرها البالغ على معتقد الإنسان، ولأن العلم بالنهي عنها مما يعلم من الدين بالضرورة، ولا يعذر في الجهل به أحد بعد مجيء الإسلام.

وقد ذهب آخرون إلى جواز شهادة البدوي على صاحب القرية إذا كان عدلا يقيم الشهادة عى وجهها حاملين الحديث على من لا تعرف عدالته من أهل البادية أو من اشتهر بعدمها مما يرى منه معها ما يدعو إلى رد شهادته، وهم في هذا ينطلقون من حكم جيد بأن ليس كل أهل البادية جفاة بل فيهم من هو أرق عاطفة من كثير من أهل الحضر، ويبدو أن عامة العلماء الذين رأوا هذا الرأى قد تركوا للقاضي فهم الطبيعة التي يكون عليها البدوي من غلظة أو رقة وتحامل أو تعاطف أو حياد مع الحضري حتى يمكن النظر في الشهادة من قبولها أو ردها كما في هذا الحديث[1].

وعلى أي حال فالذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن ليس في عدم قبول شهادة البدوي على الحضري ما يقدح في عدالته إذ هناك فرق بين القدح في العدالة وبين عدم قبول الشهادة الذي له أكثر من مانع يمكن أن يدرج فيها اختلاف أسلوب الحياة بين الحضري والبدوي، مما يجعل البدوي يجهل أساليب التعامل في الحاضرة فقد يخدع في استشهاد لإحقاق باطل أو إبطال حق، ففي هذا الحديث مندوحة للبدوي في الاعتذار عن الشهادة ألا يأتي بها على وجهها، والحديث بعد هذا وذاك يعطي المبرر لنظرة كل من البدو والحضر كل فريق نحو الآخر باختلاف أسلوب حياة كل منهما عن الآخر الذي لا يجب أن يبرر النظرة السيئة بين كل منهما، ولا يجب أن يفهم من هذا الحديث تغذيتها

(١) صحيفة الجزيرة العدد السابق الصفحة السابقة، وقد ذهب أحمد في إحدى رواياته وعدد من الأئمة إلى قبول شهادة البدوي على الحضري. محمد آل حسين. الزوائد في فقه الإمام أحمد ط (٢) مطبعة البيان والفجالة الجديدة ـ القاهرة ٢/٩٢٥.

لأن هذا ليس من أسلوب الإسلام الذي يريد أن تعيش فئاته الاجتماعية في وئام وتعاون مهما اختلفت أساليب حياتها.

وباعتبار توافر عناصر الخير في البدو أكثر من عناصر الشر فقد زخرت السنة بأحاديث كثيرة تفصل نظرة الاسلام للبدو من هذه الناحية استنادا إلى الآية الكريمة: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله﴾ الآية، ونظرا إلى أن فطرهم سليمة في الغالب لم تؤثر فيها أساليب الحضارة والترف في الدنيا والإقبال عليها مما يجعل نفوسهم مستعدة لقبول دعوة أي داع[1].

ولعل في قصة البدوي الذي جاء إلى رسول الله ﷺ - ويروى أنه كان نجديا - ما يؤكد صفاء فطرة ابن البادية وصراحته، فقد روي طلحة بن عبيدالله قائلا: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا نفقه مايقول. حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال له رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة وذكر الصيام والزكاة قال فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق، وقد ورد مثل هذه الحالة في رجال من البادية كلهم يقولون والله لا نزيد عليهن ولا ننقص منهن والرسول يقول عن كل واحد منهم لئن صدق ليدخل الجنة، وفي إحدى الحالات قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا[2]. وجميع هذه الحالات تدل على قبول الحد الأدنى بأداء العبادة الواجبة في الإسلام من أبناء البادية، وهي تدل على مراعاة من الإسلام للوضع الاجتماعي للبدو بالاكتفاء منهم بالتصديق بالدعوة وأداء أركان

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ١٠٣.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/١٨١ - ١٨٤، ٨/٢٣٤، ٢٣٥، ١١/١١٠/٢٥/١٧١،١٧٢، النووي: شرح صحيح مسلم ١/١٦٦ - ١٦٩، الإمام مالك: الموطأ ١٢١،١٢٢. وعن الحالات الأخرى، انظر: النووي المصدر السابق: ١/١٦٩ - ١٧٤.

الإسلام وواجباته[1] فقط نظرا لتوافر الفطرة السليمة فيهم، ولوجود أهم أسس التعامل وهي الصراحة في القول والوضوح في العمل اللذين وإن برزا في صورة الجفاء والغلظة فإنهما لابد وأن يظهر البدوي - ولو بعد فترة - على حقيقته في ظهور الجوانب الإنسانية لديه متى ما استثيرت النزعة الخيّرة فيه.

والذى يبدو - والله أعلم - أن قبول رسول الله ﷺ من عدد من أبناء البادية هذا الحد الأدنى من العبادات الواجبة منشؤه إدراكه ﷺ بتوفر الاستعداد النفسي لدى أبناء البادية لمتابعة تعلم وممارسة بقية شعائر الإسلام الواجبة والمندوبة واجتناب كل مانهى عنه الإسلام تحريما أو كراهة وذلك إذا اعتقد بأصول الإسلام ومارس أركانه وواجباته العملية، ومتابعة لمواقف البدو من هذا الدين تؤكد صدق هذا الإدراك إذا اتبع أسلوب الرسول ﷺ في توجيه البدو لهذا الدين.

وتأكيدا من الإسلام في مراعاته الحد الأدنى للعبادة الواجبة من البدو في مرابعهم، يروي أبو داود وابن ماجة بسنديهما عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله وتر يحب الوتر. أوتروا يا أهل القرآن، فقال أعرابي: ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: ليس لك ولا لأصحابك.

وسواء كان الرد على الأعرابي من قبل رسول الله ﷺ أو من قبل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقد أخذ من هذا الحديث عدم وجوب الوتر إذ لو كان واجبا لكان الأمر عاما[2]. وإذا كان الراجح هو أن الوتر سنة مؤكدة بدليل عدم ترك الرسول له لا في الحضر ولا في السفر فإن في هذا الرد على الأعرابي مايدل على مراعاة الإسلام لوضع البدو في كثرة الترحال في قضية الوتر بأنه إذا لم يتجاوز عنهم في الوتر فلا أقل من أن لا يؤكد سنيته

---

(١) النووي: ١/١٦٧.

(٢) أبو داود ١/١٢٨ من حاشية المحقق..

عليهم ـ كما أكدها على الحضر ولو في حال السفر، أو أن الأمر قبل أن تتأكد سنيته بفعل رسول الله ﷺ لها حضرا وسفرا[1].

وعلى أي حال فهو مع الحديث الذي قبله ـ بحالاته المختلفة ـ يعطينا المعالم التي تهدينا إلى معرفة موقف الإسلام من البدو في بداية دخولهم هذا الدين، وهو موقف يحتاج من كل محاول للإصلاح الاجتماعي في صفوف هذه الفئة المهمة أن يستلهم المبادئ والدروس منه في بداية طريق هذا الإصلاح بما يجمع بين روح العصر وأصالة الإسلام.

واهتماما من الإسلام بالحفاظ على طابع البداوة بوجهها الخير في إكرام الضيف وإغاثة الملهوف مع أداء حق العبادة المالية والبدنية والاستعداد لداعي الجهاد، فقد قرن رسول الله ﷺ في خطبته يوم تبوك بين الجهاد في سبيل الله وبين حرص ابن البادية على إبراز الجانب الخير للبداوة وأداء واجب العبادة حيث قال: «ما في الناس مثل رجل أخذ بعنان فرسه فيجاهد في سبيل الله ويجتنب شرور الناس، ومثل رجل باد في غنمه يقري ضيفه ويؤدي حقه»[2] وهذا الحديث شبيه بحديث شهاب بن مدلج الذي مر ذكره[3]، وكلاهما يؤكدان على عظم أجر البدوي الذي يقيم شعائر الإسلام في باديته، ويؤدي مستلزمات التعامل الاجتماعي في البادية من جانبها الحسن، ويلازم على عبادة ربه حتى يأتيه اليقين وإذا كان حديث تبوك قد خص الرجل البادي في غنمه

---

(١) لعل في الحديث الذي روى فيه أن رجلا من أهل البادية سأل النبي ﷺ عن صلاة الليل فقال بإصبعيه هكذا «مثنى مثنى والوتر ركعة من آخر الليل» لعل في هذا الحديث ما يدل على تأخر تأكيد سنيتها على البدو كما في حديث ابن مسعود: « ليس لك» أبو داود ٢/ ١٣١، ١٣٢، النسائي ٣/ ٢٣٣، وقد أورده مسلم ٦/ ٣٠ ـ ٣٣ بلفظ أن رجلا سأل النبي ﷺ عن صلاة الليل، وقد رواه في أكثر من حاله.

(٢) الإمام أحمد: المسند ١/ ٣١١.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٥٢٢.

فإن حديث شهاب بن مدلج قد عمم الثناء على البدوي بغض النظر عن نوع الرعي الذي يمارسه.

ويتأكد اهتمام الإسلام بالمحافظة على هذا الطابع بوجهه الخيّر بنظرته إلى أن البداوة جزء مكمل لحياة الحاضرة متى ما انقادت نفوس البدو إلى هذا الدين، وفي هذا المجال فقد نهى الرسول ﷺ من تسمية البدو بالأعراب لما فيه من الإيحاء بالغلظة والجفاء والجهل التي تنتفي بالاهتداء بهدي الله إضافة إلى أنه ﷺ كان يعجبه طعام البدو من لبن وأقط باعتبارهما من أهم أطعمة البدو التي لا تستغني عنها الحاضرة، وفي هذا مافيه من التكامل الاجتماعي والاقتصادي بين البدو والحضر.

ولعل في قصة سلمة بن الأكوع التي مر ذكرها ما يدل على رغبة الإسلام ببقاء هذا الطابع البدوي بوجهه الخير، أن سلمة كأنه قد صار في نفسه شيء بسبب محبته للبادية وخوفه من كره رسول الله ﷺ لذلك رغم إذنه له في التبدوي، فما كان منه ﷺ إلا أن أزال هذا الخوف من نفس سلمة بقوله: ابدو يا أسلم ـ إلى أن قال: أنتم أهل بدونا ونحن أهل حضركم[1].

ومما لا شك فيه أنه رغم أن هذا التطمين موجه إلى سلمة فإنه يتجاوزه ليشمل كل بدوي يحرص على إبراز عناصر الخير في نفسه، ولا أدل على ذلك من تكرر مثل هذه الحالة وتكرر تطمين رسول الله ﷺ لأصحابها بلفظة «أنتم أهل بدونا ونحن "أهل حضركم»، وفي قصة البدوية «أم سنبلة» مايزيد المسألة إيضاحا فتروي عائشة رضي الله عنها قالت: أهدت أم سنبلة إلى رسول الله ﷺ لبنا فلم تجده، فقالت لها: إن رسول الله ﷺ قد نهى أن يأكل طعام

(١) الإمام أحمد: المصدر السابق ٥٥/٤ .

الأعراب[1]، فدخل رسول الله ﷺ، وأبو بكر فقال: ماهذا معك يا أم سنبلة قالت: لبنا أهديت لك يا رسول الله قال: اسكبي أم سنبلة فسكبت فقال: ناولي أبا بكر ففعلت، فقال اسكبي أم سنبلة فسكبت فناولت رسول الله ﷺ فشرب، قالت عائشة ورسول الله ﷺ يشرب من لبن وأبردها على الكبد: يا رسول الله إنك كنت نهيت عن طعام الأعراب فقال يا عائشة: إنهم ليسوا بالأعراب هم أهل باديتنا ونحن أهل حاضرتهم، وإذا دعوا أجابوا فليسوا بالأعراب[2].

والإسلام وهو يثني على ابن البادية المحافظ على طابع البدواة وإظهار وجهها الحسن، إنما يهدف من وراء ذلك إلى إذابة النظرة الاجتماعية السيئة بين البدو والحضر رغم حرصه على أن يحافظ كل منهما على أسلوب حياته مكملاً للآخر والرسول ﷺ فيما مر من الأحاديث وفي قصة مصادقته للبدوي زاهر[3] إنما يضع الأسس لأسلوب التعامل الاجتماعي بين البدو والحضر في

---

(١) كان طعام الأعراب وخاصة الذبائح محرماً على المسلمين لأنها مما مالم يذكر اسم الله عليها ثم ورد قصر ذلك على الذبائح ووضح هذا الحديث متى يكون محرما ومتى يكون غير محرم. ابن قاسم: الدرر ٦/٤٧٢.

(٢) الإمام أحمد المصدر السابق ٦/١٣٣.

(٣) روى الإمام أحمد ٣/١٦١ بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا كان يهدي للنبي ﷺ الهدية من البادية فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج فقال النبي ﷺ: إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه، وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلا دميما فأتاه النبي ﷺ يوما وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال الرجل أرسلني من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه وجعل النبي يقول من يشتري العبد، فقال يا رسول إذا والله تجدني كاسدا، فقال النبي ﷺ لكن عند الله لست بكاسد أو قال لكن عند الله أنت غال. كما روى في ٢/٥١١، ٥١٢ قصة البدوي الذي تندر على المهاجرين والأنصار في كونهم حضر وأهل زراعة فضحك الرسول ﷺ من تندره هذا ولم ينكر عليه.

تجنب ما يثير النفوس ، وفيما يرفع الكلفة بين الفريقين.

وكنتيجة طبيعية لهذه النظرة الإسلامية المتزنة نحو البدو أن تفهم قسم كبير من أبناء البادية رسالة الإسلام وآمنوا بها، وأصبحوا أداة مهمة من أدوات نشرها، وبلغوا بالقرب من رسول الله ﷺ درجة أهلتهم أن يرووا الحديث عنه ﷺ فيروي الإمام أحمد بسنده أن رجلا من أهل البادية قال:

أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله تبارك وتعالى فكان مما حفظته عنه أن قال: إنك لن تدع شيئا اتقاء الله تبارك وتعالى إلا آتاك - وفي رواية - أعطاك الله خيرا منه[١].

كما يروي بسنده عن زيد بن عبدالله بن الشخير قال: كنا بالربد[٢] جلوسا فأتي علينا رجل من أهل البادية لما رأيناه قلنا هذا كان رجل ليس من أهل البلد قال أجل، فإذا معه كتاب في قطعة أديم قال: وربما قال في قطعة جراب فقال: هذا كتاب كتبه لي رسول الله ﷺ. وذكر الحديث بتمامه[٣].

وإذا كان قسم من البدو يروي الحديث كنتيجة مباشرة لإيمانه، فإن بعضهم يروي الحديث أثناء أسره أو أسر أحد أفراد أسرته أو قبيلته. هذا الأسر الذي يؤدي غالبا إلى الإيمان فيروي الإمام أحمد بسنده أيضا عن عبدالله بن سوادة القشيري قال حدثني رجل من أهل البادية عن أبيه - وكان أبوه أسيرا

---

(١) المصدر السابق ٧٨/٥، ٧٩.

(٢) كذا في المسند ولعلها الربذة التي كانت بوادي المدينة ومن يذهب إليها ينظرون إليه على أنه ذهب إلى البادية، وهي المعروفة الآن بالحناكية.

(٣) المصدر السابق ٧٨/٥، وتمام الحديث «فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ لبني زهير ابن أقيش وهم حي من عكل أنكم إن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم المشركين وأعطيتم الخمس من المغنم ثم سهم النبي ﷺ والصفي وربما قال وصفيه فأنتم آمنون بأمان الله تبارك وتعالى وأمان رسوله».

عند رسول الله ﷺ قال: سمعت محمدا ﷺ يقول: لا تقبل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب[1]، وهذا الحديث يدل على حضور بديهة ابن البادية في متابعة ما يحدث به الرسول ﷺ وروايته بعد ذلك، كما يدل على حسن استغلال الإسلام لوضع الأسير في تعليمه أصول الدين ومبادئه وفي هذا رفع لمكانته، واستغلال لطاقته في التحديث ونشر الإسلام بعد ذلك.

ولقد وعى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهمية الدور الكبير الذي يمكن أن يقوم به أبناء البادية في نشر الإسلام وحفظ لغة القرآن إذا ما أحسن استغلالهم لهذا المجال انطلاقا من نظرة الإسلام نحو البدو في المواءمة بين عناصر الخير والشر في التركيب النفسي البدوي كأي نفس بشرية هذه النظرة التي لا شك أنها تغلّب الجانب الخيّر وتسمى إلى إثارته في النفس البشرية، ومن هنا فإن عمر بن الخطاب كان يعتبر البدو أصل العرب ومادة الإسلام، وكان كثيرا ما يردد هذه الفكوة في حياته [2] يقينا منه بأهمية الأصالة البدوية في المحافظة على اللغة والعادات والتقاليد الأصيلة لدى العرب والتي جاء الإسلام بإقرارها وهو في هذا ينطلق من نظرة مدركة للأصل الاجتماعي للعرب والذي يعود إلى البداوة إذ أن العرب كانوا أصلا أمة بدوية تحضر بعض فروع قبائلها أو قبائل منها وبقي الأصل بباديته محافظا على موروثاتها الاجتماعية[3]، وكان عمر بن الخطاب يعتبر المحافظة على البدو أساسا من

---

(١) المصدر السابق ٧٨/٥.

(٢) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣٣/٥، وقد روى أن عمر بن الخطاب كان يقول: أربع من أمر الإسلام لست مضيعهن ولا تاركهن بشيء أبدا وذكر القوة في مال الله، والمحافظة على المهاجرين، ثم الأنصار، ثم الأعراب.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ١٠٣ وقد عقد فيها فصلا بعنوان: «فصل في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها».

أساسات الحكم يحث عليه في مجالسه، ويأمر عماله بالالتزام به، لأن البدو بما أنهم أصل العرب فإنهم مادة الإسلام التي يتحرك بها وينتشر عن طريقها، ومتابعة لتاريخ انتشار الإسلام تؤكد صدق فكرة عمر رضي الله عنه إذ أن انتشار الإسلام في مراحله الأولى كان طريق العرب الذين يرجعون في أصولهم إلى البادية.

وقد بلغ من حرص عمر بن الخطاب على هذه الفكرة الأساسية تأكيده على استمرار الإيمان بأهميتها والعمل بمقتضى ما تحمله من حفظ لأصل العرب ولغتهم وتأكيدا للدور الكبير في نشر الإسلام والجهاد في سبيله، وهو في هذا المجال يؤكد على استمرار العمل بها ليس في عهد خلافته فحسب بل يوصي بها الخليفة الذي يتولى العهد من بعده - وقد جعل الأمر شورى بعده - وهو من هذه الناحية يؤكد على أهمية تضمين هذا المبدأ في أي حكم إسلامي يأتي بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولما كانت سنة الخلفاء الراشدين مماثلة لسنة رسول الله ﷺ في وجوب العمل بها فإن المحافظة على العرب عموما والبدو بشكل خص تعتبر أساسا من أساسات الحكم في الإسلام.

ولعل في تخصيص هذه المحافظة في وصية عمر عند وفاته التي رواها البخاري في صحيحه مايعطي المحافظة على البدو والعناية بهم وضعا خاصا ضمن المحافظة والعناية بالمسلمين عموما فقد قال في وصيته بعدما أوصى بالمهاجرين والأنصار، وأهل الأمصار خيرا: «وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام»[1]، ومن المؤكد أن المحافظة والعناية بالبدو باعتبار هاتين الميزتين قد استمر العمل به في بقية عهد الخلافة الراشد ليتركز الاهتمام بالبادية بعد ذلك باعتبارها مقوما للألسن من اللحن وأسلوبا لحفظ العادات

---

(١) فتح الباري ١٤/٢١٢ في باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه، وفيه مقتل عمر رضي الله عنه.

الموروثة التي كان يهددها الاحتكاك بأهل البلدان المفتوحة، ومن هنا فقد أطلق على البادية «مدرسة الأمراء» حيث كان أغلب أمراء بني أمية يقضون كثيرا من فترة صغرهم في البادية حتى يعايشوا ما أثر عن العرب من ضروب الكرم والجود إضافة إلى الدور الكبير في تعلم اللغة العربية من أفواه الناطقين بها نطقا صحيحا[1]، هذا التعلم الذي لا يتم إلا بالمعايشة والاختلاط بالمجتمع البدوي، ولا شك أن الخلافة الأموية بتنفيذها لفكرة عمر بن الخطاب قد سبقت بإيجاد الفكرة القائلة بأن تعلم أي لغة لا يمكن أن يتم بأسلوب صحيح إلا عن طريق الاحتكاك بأهلها والعيش داخل مجتمعاتهم.

وبعد: فيتبين لنا مما سبق انقسام نظرة الإسلام نحو البدو إلى قسمين باعتبار وجود بعض الجوانب السلبية في ابن البادية، وتوافر عناصر الخير، والإسلام في هذا يوائم في نظرته بين هذين الجانبين محاولا أن يغلب الجانب الخير في حياة ابن البادية باعتباره أصل العرب، وحتى يكون مادة من مواد نشر الإسلام كما كان من قبل، والتفريق بين هذين الجانبين وتغليب الخير منهما أمر ضروري في كل محاولة للإصلاح والحكم على هذه الفئة الاجتماعية المهمة حتى لا يتغلب جانب الشر لدى هذه الفئة، وحتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٢٦٨،٢٦٩ مادة (بادية).

الباب الأول

الفئات الاجتماعية في بادية نجد

الفصل الأول: ملامح الوضع القبلي لبادية نجد قبل قيام الدولة السعودية.

الفصل الثاني: « الصلب » دراسة تاريخية واجتماعية:

١- أصلهم.

٢- حياتهم الاجتماعية ومدى تأثير الدولة السعودية والدعوة السلفية فيها.

الفصل الأول

ملامح الوضع القبلي لبادية نجد حتى قيام الدولة السعودية

لقد كانت قبائل تميم ونمير وباهلة أبرز بادية اليمامة قبيل الإسلام هذا بالإضافة إلى أن هناك قبائل بدوية أخرى كانت تقطن منطقة نجد الحالية في هذه الفترة، فبالإضافة إلى هذه القبائل الثلاث والتي يرجع إليها كثير من القبائل النجدية، فقد ذكر المؤرخون والجغرافيون أن بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة كانوا يقطنون الفلج «الأفلاج حاليا» وما أحاط بها من البادية(١)، وهم أبناء عم لبني نمير بن عامر، كما أن بني هلال وبني سوأة ابن عامر من قبائل نجد البدوية قبل الإسلام، ويمكن القول أن بني عامر بن صعصعة بأفخاذهم الأربعة: نمير، وربيعة، وهلال، وسوأة من أبرز بادية نجد في تلك الفترة إذ كانت منازلهم في نجد من الأفلاج حتى الطائف حيث كانوا يصيفون بالطائف ويشتون ويربعون في نجد(٢).

وقد تعرضت بنو عامر ـ وعرضت نفسها ـ لوقعات متعددة فصلتها أيام العرب قبل الإسلام بينها وأحلافها من جهة وبين تميم وأحلافها أحيانا أو بين عدد من القبائل الأخرى حاضرة وبادية من جهة أخرى، ولا شك أن هذه

---

(١) البكري: معجم ما استعجم ١/٩٠، د: عبدالله الشبل: تاريخ نجد ٢٧، ٢٨.

(٢) ابن حزم: جمهرة ٢٧٢ ـ ٢٧٥، ٤٦٨، ٤٦٩، وقد فصل فيها الكلام عن نسب بني عامر بن صعصعة، البكري: ١/٧٧، ٧٨ وذكر فيها مغارسه ومزارعة ثقيف لبني عامر على نصف مزارع الطائف بعد ماتغلبو عليها وطردوا بني عدوان أصهارهم فكان بنو عامر يأتون فى الصيف لأخذ نصفهم ثم يعودون إلى نجد حتى قويت شركة ثقيف فطوفوا بالمزارع حائطا وامتنعوا به عن بني عامر حتى أصبحوا هم أهل الطائف، (ابن خلدون: العبر ٦/١١، عمر كحالة: معجم قبائل العرب (ط (٢) دار العلم للملايين ـ بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ٢/٧٠٨، ٧٠٩).

الوقعات قد أثرت على وضع بني عامر القبلي في نجد إذ بدأت قوة بني تميم ابن مر في الظهور والكثرة لتصبح أقوى قبيلة بدوية في اليمامة قبيل الإسلام، فقد امتدت منازلها من شمال شرقي منازل بني عامر إلى بلاد البحرين (منطقة الخليج العربي حاليا) لتشمل جل بلاد نجد حتى قرب الفرات وقد تداخلت هذه المنازل مع منازل بني حنيفة، وعبدالقيس، وبكر وتغلب إضافة إلى تداخلها مع منازل بقية قبائل نجد[1].

ويتميز تاريخ بني تميم في هذه الفترة بكونهم بدوا خلصا إذ لم تكن لهم حواضر أو مدن، كما يتميزون ببروز الناحية العسكرية البدوية لديهم إذ كثرت وقحاتهم العربية سواء كان ذلك داخل نجد ومع قبائلها البدوية أو الحضرية أو خارجها مع الكيانات السياسية والقبلية المجاورة، ولا شك أن هذا أكسبهم شدة بأس وقوة مراس تميزوا به عن أغلب القبائل النجدية آنذاك واستطاعوا أن يتغلبوا به على أكبر القبائل النجدية بادية وهي بني عامر بن صعصعة، إضافة إلى تحديهم لسلطة الساسانيين التي حاولوا بسطها على أجزاء من شبه الجزيرة العربية، هذا التحدي الذي تمثل في سلب القوافل الفارسية المتجهة إلى اليمن ومنها[2].

ونظرا لاتساع منازل بني تميم في فترة متقدمة لمجيء الإسلام، فقد زامن ذلك كثرة في بطونها وأفخاذها كثرة جعلت كل فخذ أو بطن يشكل قبيلة

---

(١) على سبيل المثال لهذه الأيام والوقعات انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ٦/ ٦ـ ١١، البكري: ٢/٣٦٥، ٣٦٦، ٦٣٣، ٦٣٤، ياقوت: ٢/ ١٠٤، ٣/٣٦، ٤/ ٢٧٢، ٥/٢٨٦، ٢٨٧، الزبيدي: التاج ٤/٣٥٦، ٣٥٧، العبودي بلاد القصيم ١/٣٦١، ٣٦٢، ٢/٧٠٣ ـ ٧٠٨: عمر كحالة ٢/٧٠٦.

(٢) على سبيل المثال لتحدي بني تميم لسلطة الساسانيين انظر ابن عبد ربه ٦/٦٨ ـ ٧١، وانظر كحالة ١/١٢٧، ١٢٨، دائرة المعارف الإسلامية ٥/٤٧٤ ـ ٤٧٦.

مستقلة لا يربطها بالقبيلة الأم أي رابط[1]، وقد أورد ابن حزم في جمهرته عددا كبيرا من بطون تميم، وعددا كبيرا من بطون بني أبناء تميم يلاحظ الباحث من خلالها أن الكثرة الكاثرة من البطون الأخيرة تتركز في بني زيد مناة بن تميم على اختلاف في كثرة بطون بني زيد هؤلاء حيث تتركز هذه الكثرة في بني مالك بن زيد مناة بن تميم يليها في كثرة البطون بنو سعد بن زيد مناة بن تميم[2]، ولا شك أن قدم هذا العدد الكثير من بطون بني تميم يدل على سرعة في تكاثر هذه القبيلة مما لم يكن متوفرا في أي من القبائل النجدية بل العربية عموما، وقد صور أحد الشعراء الجاهليين كثرة بطون بني تميم في قوله بعد هزيمة بني تميم في يوم رحرحان الثاني:

وأسلبنا قبائل من تميم ... لها عدد إذا حسبوا كثير[3]

وقد كانت كثرة شعراء وحكماء بني تميم في الجاهلية[4] مع كثرة بطونها

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٥/٤٧٤،٤٧٥.

(٢) ابن حزم: جمهرة ٤٦٦، ٤٦٧.

(٣) قال البكري: رحرحان جبل غرب الربذة، وقال ياقوت جبل قريب من عكاظ خلف عرفات ورجح البلاد في معجم الحجاز أن يكون المقصود بيوم رحرحان هو ما قصده البكري على أن هناك أكثر من رحرحان غير هذا ، وقائل البيت لقيط بن زرارة، عن اليوم والموقع ابن عبد ربه: العقد ٦/٦ ـ ٨، البكري: ٢/٦٣٣،٦٣٤، ياقوت: ٣/٣٦، عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز ٤/٢١، ٢٢، ٤٠، ٤١، ٤٢، ولهذا فان المثل النجدي «من ضيع أصله قال أنا تميمي» قديم في مفهومه وإن كان حديثا في لفظه حيث ورد مايشبهه من الأمثلة القديمة (ككاثر بتميم)، وهو يعني أن أي إنسان) يضيع نسبه يمكن أن يلتحق بتميم لكثرة أفخاذها وبطونها مما يتعذر معه التحقق من صدق المدعي بذلك أم لا بخلاف القبائل الصغيرة الحجم وإن كانت القاعدة النسبية أن الناس مؤتمنون على أنسابهم. (العبودي: الأمثال ٤/١٤٢٩، ١٤٣ مثل رقم ٢٣٨٤) .

(٤) لعل أبرز هؤلاء أكثم بن صيفي (ت ٩هـ/ ٦٣٠م) انظر ترجمته في (الإصابة ١/١١٠ – ١١٢، ولم يدخله ابن عبدالبر في استيعابه في الصحابة ١/١٢٨ – ١٣٤، الزركلي: الأعلام =

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من بروز الناحية العسكرية لديهم كل هذه عوامل جعلت المعرفة ببني تميم أكثر من غيرهم من قبائل العرب في فترة متقدمة من تاريخ العرب قبل الإسلام إذ قلما تذكرنا ناحية من نواحي هذا التاريخ إلا وتجد لبني تميم طرفا فيها [1].

أما قبيلة بني باهلة فهم بنو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان وقد نسبوا إلى أمهم باهلة - ويبدو أنها كانت أقوى ذِكْرًا من زوجها مالك، وهذا يبين لنا جانبا من وضع المرأة في المجتمع العربي وتزوجها ابنه معن بعده فنسب إليها أولادهما منها كما نسب إلى باهلة أبناء مالك وابنه معن من غيرها لأن باهلة حضنتهم، وقد توسعت قبيلة بني باهلة وكثرت أفخاذها وبطونها قبل الإسلام وإن لم تكن بالكثرة التي كانت عليها تميم أو غيرها من القبائل الكبيرة إلا أن هذه الكثرة يمكن أن توصف معها باهلة بأنها قبيلة عظيمة قبل الإسلام [2].

= ٣٤٤/١، وكأمثلة على حكم أكثم. انظر: أحمد بن محمد السيداني: مجمع الأمثال تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. ط: مطبعة السنة المحمدية. القاهرة: نشر وتوزيع دار الباز. مكة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م ١٨٢/٢، ١٨٣).

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٤٧٥/٥.

(٢) ابن حزم: جمهرة ٢٤٤ - ٢٤٧، ٤٦٨، أبو سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني التميمي: الأنساب - تحقيق عبدالرحمن المعلمي اليماني، ط (٢) نشر محمد أمين دمج بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ٦٧/٢ وقد وهم حينما ذكر أن باهلة هي بنت أعصر التي تواتر لدى النابة أنها باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة، الزبيدي: التاج ٤٠٦/٣، ٢٣٨/٧ مادة عصر، وبهل، كحالة ١/ ٦٠، الزركلي: الأعلام ٧/٢، ٨، حمد الجاسر: معجم الأسر المتحضرة في نجد ٣٤/١، وكان من عادة عرب الجاهلية الأولى أن كبير الأبناء يتزوج زوجة أبيه بعد وفاته إذا لم تكن أما له وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة :- ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ النساء آية ٢٢.

وكانت مراعي بني باهلة في جنوب غربي اليمامة ولها موارد مياه في هذا الموقع ذكرها الجغرافيون المسلمون، وهي متداخلة مع مرابع بني عامر بن صعصعة إلى الشمال الغربي والشرقي منها، ويشير بعض الباحثين إلى أنهم ظلوا في هذا الموقع إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ثم بدأت جماعات منهم في الاتجاه نحو الشمال الشرقي لشبه الجزيرة حيث قطنوا حول ماء الحفير - بالتصغير - قرب البصرة حيث موقعه على طريق الحجاج، وهو على جانب كبير من الأهمية حيث يضمن لهم موردا اقتصاديا منهما سواء عن طريق سلب الحجاج القادمين أو الاستفادة منهم بطريقة أو بأخرى حينما يمرون بهذا الماء[(١)].

ولم أستطع العثور فيما بين يدي من المصادر على أسباب واقعية وحقيقية لما اشتهر عن العرب - وخاصة في جاهليتهم - من النظرة السيئة تجاه هذه القبيلة على أنها سيئة السمعة، وأن النسبة إليها تعتبر من ألفاظ الهجاء، ومن استنكافهم النسبة إليها على اعتبار أنها حطة عندهم، وكأن هذه القبيلة في زعمهم ليست من القبائل المرموقة هذا الاستنكاف الذي امتد إلى بعض الباهلين أنفسهم فيما بعد فنفوا نسبتهم إليها[(٢)].

---

(١) البكري: ١/١١٨، ١٢٢،٣٣٦، ٣/٧٩٢، ١٠٧٢، ١٠٨٥، ٤/١٢٩، ١٣٩١، ياقوت: ١/٣٥٨، ٢/٢٧٧ وذكر فيها الحفير من مياه باهلة، ٣/٣٦١، ٤/١٦٨ وذكر فيها عوسجة من معادن الفضة في بلاد باهلة، ٥/٤٣٣، كحالة: ١/٦٠، الزركلي: ٢/٧، ٨، دائرة المعارف الاسلامية ٣/٣١٩، ٣٢٠، العبودي القصيم ١/١٢٦.

(٢) لقد حفل الأدب العربي شعرا ونثرا بأبيات وأقوال تحمل ذما لهذه القبيلة يستنكف الباحث من إيرادها هنا لأن مجالها هو موضوع العلاقات الاجتماعية السائدة بين القبائل العربية قبل الإسلام، ولكن للرجوع لهذه الأبيات والأقوال: (ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/٣٩،١١٧، ابن حزم: جمهرة ٢٤٥، ٢٤٦، السمعاني: الأنساب ٢/٦٧، الزركلي: الأعلام ٢/٧، ٨ دائرة المعارف الإسلامية ٣/٣٢٠).

وقد عامل بعض الباحثين والنسَّابة ذلك بوجود نوع من اللؤم ونقص المروءة والبخل لدي بعض أفرادها[1]. إلا أن أحد النسابة عندما سئل عن سبب ضعة باهلة وغنى عند العرب قال: «لقد كان بينهما غناء وشرف، ولم يضعهما إلا إشراف أخويهما عليهما بالمآثر فدنؤوا بالإضافة إليهما»[2]، ومعنى هذا أن اثنين من أخوة مالك بن أعصر وعمرو بن أعصر الثلاثة وهم ثعلبة وعامر ومعاوية أبناء أعصر المنسوبون أيضا إلى أمهم الطّفاوة بنت جرم قد شرفا بالمآثر على أخويهما مالك وأبنائه (باهلة) وعمروا وأبنائه (غنى) فألصقا بهما صفة اللؤم والبخل ونقص المرؤة فأخملا ذكر أخويهما فخمل بالتالى ذكر القبيلتين التي ترجعان إليهما، وهذا تعليل مقبول إلى حد ما إذا علم ما يحصل من كيد وحسد بين الأشقاء فكيف بأبناء الضرائر.

والذي يبدو لي أن مما زاد من سعة هذه النظرة السيئة بين العرب عدم مجاراة باهلة لعامة العرب في بعض عاداتها سواء الحسنة منها أو السيئة مما أضفي عليها استقلالا في وضعها القبلي جعل عامة العرب ينفرون منها، إذ لم يذكر النسابة ما يطعن في نسب أو شرف هذه القبيلة بل إنها تعد من أصرح القبائل العربية نسبا رغم تحضرها بعد الإسلام[3].

وعدا هذه القبائل فقد قطن بادية نجد عدد آخر من القبائل من أبرزها طيئ وهو اسم لجلهمة بن أدد من قحطان والذي ترجع إليه قبيلة طيئ التي كانت مناطقها في اليمن ثم خرجت منه متجهة شمالا إلى أن وصلت جبلي

---

(١) ابن عبد ربه: ٣٩/٤، السمعاني: ٦٧/٢، الزركلي: ٨٠٧/٢.

(٢) الحسين بن علي بن الوزير المغربي: أدب الخواص: أعده للنشر: حمد الجاسر. المطابع الأهلية للأوفست ـ نشر النادي الأدبي. الرياض بإشراف دار اليمامة. الرياض ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، والقائل هو حسين بن بكر الكلابي النسابة.

(٣) حمد الجاسر: جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد ٣٤/١.

أجا وسلمى فجاورت وحالفت بني أسد التي كانت تقطن هذه المنطقة ثم أزاحت طيئ أسدا عن بعض مرابعها وورثت عن بني تميم منازلها في شمال شرقي الجزيرة العربية، وأجلت غطفان عن بعض منازلها في منطقة ما بين المدينة والشام من الشرق حيث قطنت جزءا من مرابع الحجاز والشام ثم ما لبثت أن أصبحت من كبار القبائل العربية ليس في نجد وحدها بل في كافة مناطق شبه الجزيرة العربية وذلك في الفترة التي سبقت البعثة النبوية، وقد أهلها ذلك لأن تدل على من دونها من القبائل في قوتها مما أتاح لها توسيع مجالها الرعوي بين فترة وأخرى خارج منطقة شبه الجزيرة العربية إذ يبدو أنها خرجت وراء الرعي عن شبه الجزيرة في وقت متقدم من تاريخها، وقد خاضت في سبيل ذلك غمار عدد من الغزوات ضد عدد القبائل النجدية وغيرها مما ليس مجال تفصيله هنا حتى استطاعت أن تضم إلى مجالها الرعوي والسكني عدداً لا بأس به من أحسن مواطن الرعي والسكن في شبه الجزيرة وخارجها إضافة إلى معرفتها بعدد وافر من موارد المياه والجبال التي عدها الجغرافيون المسلمون خاصة بها وتفصيل هؤلاء الجغرافيين القول في ذكر مواطن الرعي والمنازل وموارد المياه والبلدان والجبال التي تعود لها يؤكد سعة المجال الرعوي والسكني لهذه القبيلة العظيمة قبل الإسلام[1].

ومن قبائل بادية نجد قبل الإسلام بنو أسد بن خزيمة بن مدركة من مضر ابن نزار بن عدنان وهي قبيلة قدمت إلى نجد من الحجاز ـ موطن القبائل العدنانية ـ وتعتبر من أقدم القبائل النجدية فهي أقدم من طيئ وكانت قبل غلبة

---

(١) عن نسب طيئ وأخبارها: ابن حزم: جمهرة ٣٩٧ - ٤٠٤، كحالة ٢/٦٨٩ الزركلي ٣/٣٣٧، وعن أيامها ومواطن رعيها وسكناها: ابن عبد ربه ٦/٨٥، البكري ١/٩٠، ٩٧، ١٠٩، ١٢٥، ١٣٤، ١٤١، ١٦٣، ٢٠٣، ٢/٤٠٦، ٤٠٧، ٤١٥، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٧٠، ٥٠٣، ٣/٧٥٠، ٧٨٢، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩١، ٤/١١١٥، ١١١٦، ١١٥٠ وذلك على سبيل المثال.

طيئ على كثير من منازلها تقطن في منطقة الجبلين وشمال شرقي نجد بوجه عام بل تمتد من شرقي المدينة إلى الفرات الأسفل شاملة لمنطقة القصيم إلا أنها لم تكن صاحبة السلطان المطلق في هذا الإقليم المتسع بل تعيش على شكل جماعات متفرقة تتداخل مراعيها مع مراعي القبائل الأخرى المجاورة لها(١).

وتعد قبيلة أسد من القبائل ذات التاريخ الحربي الحافل فقد سجل المؤرخون لأيام العرب عددا من الغزوات التي قامت بها ضد بعض القبائل النجدية وغيرها سواء القوية منها أو الضعيفة، وسواء كان ذلك بمفردها أو بتحالفها مع قبائل أخرى، وكان أبرز حروبها مع قبيلة طيئ التي أجلتها عن جزء من أراضيها وقبل ذلك كانتا تتحالفان مع بعضهما ضد بعض القبائل، إلا أن أبرز منازعاتها ضد الزعيم حجر بن الحارث الكندي أقوى ملك نجدي في عهده، والذي كان يضم بالإضافة إلى بني غطفان هذه المنازعات التي انتهت بقتل حجر ليهيم ابنه امرؤ القيس على وجهه في سبيل تحقيق الثأر لأبيه لكنه لم يستطيع إخضاع بني أسد لسلطة كنده، ويبدو أن منازل بني أسد بدأت تتقلص شيئا فشيئا حتى انحصرت قبيل الإسلام في منطقة القصيم بفعل عدد من العوامل أبرزها تلك الغزوات وخاصة من قبيلة طيئ، إضافة إلى نزاعها مع ملوك بني كندة الذي كان من نتائج بعض مراحله نفي بعضهم إلى منطقة تهامة بعد هزيمتهم(٢).

---

(١) ابن حزم: ١٩٠ - ١٩٦، ابن عبد ربه ٨٥/٦، ٨٦، ٩٢ ، البكري ٦٠/١، ١٠٦، ١٠٧، ١١٢ وقد أطنب البكري في تعداد منازل وموارد بني أسد في أجزاء الكتاب الأربعة تطلب في مظانها، ياقوت ٨٩/١، ١١٩، ١٥٤، وقد أطنب هو الآخر في تعدد هذه المواطن كحالة ٢١/١، ٢٢، الزركلي ٢٩٠/١، دائرة المعارف الإسلامية ١٠٠/٢، ١٠١.

(٢) العبودي: بلاد القصيم ١٢٤/١، ١٢٥، ١٣٢ وقد أورد قسما كبيرا من مواطن بني أسد في القصيم، دائرة المعارف الإسلامية ١٠١/٢، ١٠٢، كحالة ٢٢/١.

وتتداخل منازل قبيلة غطفان بن سعد بن قيس عيلان من مضر مع منازل قبيلة بني أسد إذ تقع إلى الشمال والشمال الغربي، والغرب منها، وتتقاسم الأفخاذ الكبيرة من هذه القبيلة هذه المنازل إذ تقرب قبيلة بني عبس بن بغيض ابن ريث بن غطفان من منازل بني أسد، وتتداخل معها تداخلا ملحوظا[1]، وتعتبر قبيلة بني عبس مع بني أسد أكثر القبائل النجدية تركزا في منطقة القصيم قبل الإسلام[2]، وتليها قبيلة ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان حيث تقطن في شرقي المدينة ما بين الحجاز وجبلي أجا وسلمى متداخلة في ذلك مع منازل طيئ، وكلب، وتغلب، وكانت المنافسة بين عبس وذبيان - وفزارة منهم - قبل الإسلام على أشدها إذ قامت بينهما حروب كثيرة أبرزها حرب داحس والغبراء - وأخبارها معروفة - إضافة إلى حروب أخرى مع بعض القبائل الأخرى فصل الكلام فيها المؤرخون لأيام العرب قبل الإسلام[3].

أما قبيلة بني عبدالله بن غطفان فكانت منازلها تتركز غربي القصيم حاليا فيما بينها وبين المدينة، وينسبون إلى عبدالعزى بن غطفان، ولما وفدوا على رسول الله ﷺ قال: من أنتم؟ قالوا: نحن بنو عبد العزى. قال: بل

---

(١) عن غطفان وفخذها عبس: ابن حزم: ٢٤٤، ٢٥٠ - ٢٥٢، ابن خلدون ٢/٣٠٥، ٣٠٦، السمعاني ٨/٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٨، الزبيدي: ٤/١٨٣، البكري ١/٩٠، ٢/٤٣٦، ٤٨٧، ٥٤٥، وانظر فهرس عبس فيه للتفصيل في أماكنها ومواردها ٤/١٥٦٥، كحالة ٢/٧٣٨، ٧٣٩، العبودي: بلاد القصيم ١/١٢٨.

(٢) اشتهرت عبس بأنها من أبرز قبائل القصيم قديما ، إن لم تكن أبرزها حتى قال الهمداني : «ومن أوطان اليمامة القصيم لعبس» (صفة جزيرة العرب ص ٣١١)، وإن لم يكن ذلك على تحديده الواسع في الوقت الحاضر.

(٣) ابن حزم ٢٥٠ - ٢٥٩، الهمداني ٢٧٢، ٢٧٤، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٢، ابن عبد ربه ٦/٢، ٤ - ١٠، ١٣، ١٤ - ٢٢، ٣٢، ٣٦، الميداني: مجمع الأمثال ١/٣٧٩، ابن خلدون ٢/٣٠٦، البكري ٤/ ١٥٤٤، ١٥٧٥ حيث حدد المحقق مواطن ذكر غطفان وذبيان ، كحالة ١/٤٠٢، ٤٠٣، ٣/ ٨٨٨، ٨٨٩، ٩١٨ - ٩٢٠.

أنتم بنو عبدالله وأصبحوا بذلك يشتركون مع عدد من القبائل العربية في إطلاق اسم «العبدليين» عليهم، ويبدو أنهم مع بقية غطفان كان يحصل بينهم وبين قبائل المدينة كالأوس والخزرج مناوشات بحكم قرب المرابع بينها[1].

هذه إلمامة عامة عن الوضع القبلي لأغلب قبائل بادية نجد قبل الإسلام وبعد مجيء الإسلام بعث الرسول ﷺ بعوث دعوة سلمية إلى نجد، وكذلك سرايا عسكرية لإخضاع القبائل البدوية في نجد لسلطان الإسلام، إلا أن إسلاما جماعيا من هذه القبائل لم يحصل حتى إذا جاء عام الوفود (آخر عام ٨هـ وما بعده) ودخل الناس في دين الله أفواجا بعد فتح مكة ووفدت القبائل العربية من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، وفدت في هذا العام وما بعده وفود بادية نجد واليمامة بمختلف قبائلها [2] وآمنت بالإسلام ولما يدخل الإيمان في قلوب قسم كبير منها إلا أنه أثر عن النبي ﷺ الثناء على قبائل من بادية نجد، وخص بني تميم بمدح[3] إدراكاً منه ﷺ لما تتمتع به هذه القبيلة من صفات حسنة ازدادت حسناً بعد دخولهم في الإسلام وتفاعلهم معه واشتراكهم في حركة الفتوحات الإسلامية فاقت فيها بعض القبائل العربية الأخرى.

---

(١) ابن حزم ٢٤٨، ٢٤٩، الزبيدي ٢/٨، الهمداني ٣٦٨، كحالة ٢/٧٣٢، ٧٣٣، العبودي: ١/١٢٩.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١٦/١٧٣، ١٧٤، ١٩٠، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٢٨، دائرة المعارف الإسلامية ٢/١٠٢.

(٣) روى البخاري في باب العتق، والمغازي من طريقين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لا أزال - وفي رواية ما زلت - أحب بني تميم منذ ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم - وفي رواية سمعت من رسول الله ﷺ يقول فيهم -: هم أشد أمتي على الدجال، قال: وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قومنا أو قومي أو قوم، وكانت سبية منهم عند عائشة فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل وفيه تقديم وتأخير في الثنتين الأخيرتين حسب الروايتين. (ابن حجر فتح الباري ١٠/٢٦٥، ٢٦٦، ١٦/٢٠٦، ٢٠٧).

وبعد وفاة الرسـول ـ وكما هو معروف ـ ارتدت قبائل كـثيرة من عرب شبه الجزيرة وتـبعها قسم كبير مـن بادية نجد، وسجل المؤرخون سابـقة حسنة لقبيلة طيئ بثباتهـا على الإسلام رغم ارتداد كافة مجاوريها[1] مبرهنة في هذا على صدق إسلامها كـما برهنت في الجاهلية على عمـق إيمانها بمكارم أخلاق عرب الجاهلية.

وبعد الـقضاء على حركـة الردة في عهد أبـي بكر الصديق رضـي الله عنه، وعودة هذه القبائل النجدية إلى حظيرة الإسلام ـ مما هو معروف، وليس هنا مـجال التفصيـل فيه ـ وجد قسم كـبير من هذه القـبائل في حركة الـفتح الإسلامي ما يحقن رغبتها في القتال والغزو، هذه الرغبة التي وجهها الإسلام نحـو الهدف الخيـر من الجهـاد فيه لنـشر هذا الـدين وشمـول هدايته الـناس أجمعين[2]، ونتيجة لهذا فقد اتجه أغلب أبـناء قبائل بادية نجد آنذاك مع جيوش الفتوحـات الإسلامية سواء على شـكل قواد أو جنود، وحسـب اتجاهات هذه الجيوش انساح أبناء هذه الـقبائل في البلدان المفتوحة، فقد اتجـه قسم كبير من بني تميم وأسد إلى منطقة شرقي العالم الإسلامي من العراق إلي ما وراء النهر مظـهرين فـي هذه الفـتوح الإسلاميـة ما عرفـوا به من شـدة البأس والـبلاء الحسن[3]، ثم ما لـبثوا أن خالطـوا أهل البلدان المفـتوحة بدءا بالـعراق مرورا بفارس حيث تركز قسم كبير منهم في مـنطقة خراسان وخاصة ما يقع منها في أفغانستان حيـث شارك بعض أفرادها في الحروب الداخلية فيـها بعد أن انتهت مهمة الـفتح الإسلامي لها، ويـلمح الباحث تـركز أخبار بني تميـم في شرقي

---

(١) الطبري ٣/٢٢٨، ٢٢٩، كحالة ٢/٦٩٠، ٦٩١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٥/٤٧٧.

(٣) الطبري٤/١١٨، وقد أبرز فيها دور بني تميم وأسد في القادسية، كحالة ١/١٣٠، دائرة المعارف الإسلامية د/٤٧٧.

العالم الإسلامي في هذه المنطقة مما يعطي بعض الانطباع بوجود بقايا أسر منهم فيها حتى الآن ترجع في أصولها إلى العرب الفاتحين وخصوصا بني تميم حيث تتضح فيهم أغلب صفات بني تميم في الجاهلية والإسلام من قوة بأس وتشدد فيما يتعلق بالأخلاق والعادات(١) .

كما أن قسماً من قبيلة تميم قد اندفع مع حركة الفتوحات الإسلامية في مغرب العالم الإسلامي حيث دخل قسم منهم الأندلس واستقرت تميم فيها، وبهذا يمكن القول إن كثرة هذه القبيلة في نجد قد انعكست على درجة انسياحها في مناطق عديدة من العالم الإسلامي(٢) .

وقد تقلصت النظرة السيئة من عامة العرب نحو باهلة بعد انتشار الإسلام وبعد أن أبلى قسم كبير منها بلاء حسنا في كثير من الغزوات الإسلامية وخصوصا بعد أن برز منهم الأمير الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح ما وراء النهر وأمير خراسان، وكذلك بنوه من بعده وعدد من الباهليين الذين برزوا في مجالات الحكم والعلم والإصلاح(٣) .

ووصل انتشار بعض قبائل بادية نجد مع الفتوحات الإسلامية إلى أقاصي ما وصلت إليه هذه الفتوحات سواء في شرق العالم الإسلامي أو غربه بل أقصى غربه حيث وجدت بعض الأسر التي ترجع لهذه القبائل في الأندلس هذا عدا انتشار في شمال وجنوب العالم الإسلامي آنذاك، وأبرز مميزات هذا

---

(١) الطبري ٧/٩١، ١٣٩، ٨/١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٥١، ١٥٨، ابن خلدون ٢/٣١٥، ٣١٦، السمعاني: الأنساب ١/١٠، ١١ ـ ١٥، ٢٧ من مقدمة المحقق الأول عبدالرحمن المعلمي أورد فيها بطون تميم في خراسان ومخالطتهم أهلها و ٣/٧٨ ـ ٨٣ ذكر فيها السمعاني عددا من علماء بني تميم في خراسان، ٧/١٣٨ ـ ١٤٣ ذكر فيها عددا من الأسر السمعانية التميمية في خراسان، كحالة ١/ ١٣١، ١٣٢، دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٤٧٧.

(٢) ابن خلدون ٢/٣١٧، ١٨، دائرة المعارف الإسلامية ٥/٤٧٧، ٨/٤٧٢.

(٣) ابن حزم: ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، السمعاني: ٢/٦٧، ٦٨، الزركلي ٢/٨.

الانتشار بكافة جهاته الاختلاط مع أهل البلدان المفتوحة بأوضح صور هذا الاختلاط وهي المصاهرة[1].

وبدأت رويدا تندثر الأسماء الأولى للقبائل العربية ـ عدا بني تميم ـ لتبرز أسماء أفخاذ من هذه القبائل تتسمى باسم غير اسم القبيلة الأم ليجهل هذا الاسم إلا عند الرجوع إلى سلسلة النسب[2]، إضافة إلى قدوم قبائل بدوية إلى نجد غير الأولى سواء كان ذلك من جهة الحجاز أو من جهة اليمن مصدري الإمداد البشري لجزيرة العرب، وتتبع مراحل ذلك الاندثار ليس من مهمات هذا البحث بقدر ما يشكل تتبع بعض أخبار القبائل البدوية الرئيسة في الفترة التي تقرب من عصر هذا الباب ـ القرن العاشر الهجري ـ مادة مهمة من مواد هذا البحث.

وقد ذكر لنا المؤرخون والجغرافيون المسلمون أخبار بعض هذه القبائل في تلك الفترة، ويلمح الباحث بروز اسم قبيلة بني لام بن عمرو[3] أحد أفخاذ

---

(١) ابن حزم ١٥٤، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٩، ١٩٠ – ١٩٢، ١٩٦، ٢٠٩، ٢٢١، ٣١٠، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٣٠، وقد أورد فيها وفي غيرها عددا من الأسر التي ترجع إلى العرب الفاتحين في البلدان المفتوحة وخاصة الأندلس.

(٢) العبودي: بلاد القصيم ١/١١٨.

(٣) هذه القبيلة كانت فخذا من قبيلة طيئ ينتسب إلى لام بن عمرو بن طريف ـ غير لام بن عمرو ابن عتاب الطائي أيضا ـ وقد تكاثرت هذه القبيلة قبل الإسلام حتى ذكر لبعض أفرادها صحبة ـ على خلاف في ذلك ـ وكان لهذه القبيلة دور في صد التتر، وكانت منازلهم مع بقية طيئ في سهول الجبلين ولهم سهل معروف بهم (غوطة بني لام) وعبر مراحل التاريخ تفرق هؤلاء في البلدان وتركز بعضهم في العراق بالاسم نفسه، وتنقسم هذه القبيلة إلى ثلاثة أفخاذ كبيرة هي: ١– آل مغيرة، ٢– آل فضل، ٣– وآل كثير. وترجع كثير من الأسر النجدية إلى هذه الأفخاذ. وقد جرى نقاش طويل عريض حول هذه القبيلة وخاصة مغيرة كان من أبرز فرسانه الشيخ حمد الجاسر وابن خميس وكان مجال هذا النقاش صحيفة الجزيرة. للتفصيل عن هذه القبيلة وأفخاذها: (ابن حزم: ٣٣٩، ٤٠٠، ابن حجر: الإصابة ١/٨١، ٨٢، ٢٣١، ٢٣٢، ابن خلدون: ٢/ ٢٥٤، ٦/ ٧، المغيري: الكتاب المنتخب من ص ٩١ ـ ١٠٩ وفيه تفصيل =

قبيلة طيئ القحطانية والتي بدأ يبرز اسمها من بين قبائل بادية نجد منذ زمن متقدم، وقد كان من أبرز ملامح أخبار هذه القبيلة في هذه الفترة هو تعرضها لركب الحجيج الذين كانوا يمرون بمنازلها التي تحول اليها من جبلي طيئ أو بالأحرى التي كانت تمتد من جبلي طيئ إلى المدينة مع قضاء أكثر وقتها في المدينة ومرابع الحجاز الشمالية -حتى عدها بعض المؤرخين لتلك الفترة من بوادي الحجاز، فقد تعرضت لحجاج سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م عند عودتهم من الحج ويبدو أنها لم تنجح في سلب ما أرادت سلبه[١].

وكانت هذه القبيلة من كبر الحجم في تلك الفترة ما جعلها تسيطر على أغلب طرق نجد ومرابعها أيضا على طريقة البدو في التحول السريع إلى مايجد من كلأ، فقد حدث في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م أن مرت بعنيزة[٢] قافلة حجاج

= كامل لمن أراد البحث في هذه القبيلة، ابن بليهد: صحيح الأخبار ٢/١٢٧، ١٢٨، الحقيل: كنز الأنساب ١٥٠ - ١٥٣، حمد الجاسر: جمهرة الأسر المتحضرة ٢/٧٣٧- ٧٣٩، ٧٤٥- ٧٥١، ٨٤٧ -٨٥٢، عبدالله البسام: علماء نجد ٢/٤٣٨، ٤٤٠، عبدالله بن خميس: المجاز ١٠٩، ١١٠، عمر كحالة: معجم قبائل العرب ٣/١٠٠٧، الزركلي: الأعلام ٦/١٠١، لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ١٠٥، صحيفة الجزيرة: الأعداد الصادرة في ٢٠/ الحجة/ ١٤٠١هـ، ٦، ١٢، ١٧، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٣٠ محرم، ١٣، ١٥، ١٨ صفر ١٤٠٢هـ ، وبعض المراجع التي سيرد ذكرها عند الكلام عن هذه القبيلة).

(١) إسماعيل أبو الفدا الأيوبي: المختصر في أخبار البشر. دار المعارف. بيروت ٤/٧٤، ابن خلدون: ٢/ ٢٥٤.

(٢) عنيزة: كانت منهلا من مناهل العرب قبل الإسلام قال فيها البكري: قارة سوداء في بطن وادي فلج من ديار بني تميم، وذلك الوادي يسمى الشجى لأنه شجي بعنيزة أي صارت في وسطه قال عنترة:

كيف المزار وقد تربع أهلها ... بعنيزتين وأهلنا بالعيلم

العيلم: في ديار بني عبس، وقيل إن الحجاج قد أمر بحفر موارد بين عنيزة والوادي، وقد أكثر من الحفر واستخراج الماء للري والزراعة فيها محمد بن سليمان العباسي (والي البصرة في عهد المهدي)، قيل عمرت كبلدة سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وقيل سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وقد عمر قسما منها بطن من آل جراح من بني خالد يسمون الجناح، وقسما آل زهري بن جراح من =

من شرقـي العالم الإسلامـي وكان فيهـا العلامة محـمد الجزري[1] ، وبمجرد مغادرتها لـعنيزة عرض لهم بنـو لام على بعد مرحلتـين منها فنهبوا الـقافلة، وخاصة ما مـع الجزري من تحف وهدايا كـان يريد إهداءها لأعيـان الحرمين، فرجع وصحـبه إلى عنيزة لـعدم استطاعتـه إلى الحج سبيلا، أو أنـه عدل عن الحج خوفا من القبائـل التي قرب الطائف، وجلس فيها مدة شهـر تقريبا نظم فيها «الدرة المضية في قراءات الأئمة الثلاثة المرضية»، ويبدو أنه كان معه بعض الكتب فرزها بنو لام من الهدايا وردوها إليه فلما حصل عليها سافر إلى المدينة بمساعدة أهل الخير ووصلها في صفر ٨٢٣هـ/ ١٩٢٠م، وصور في الدرة هذه الحادثة التي تبين جانـبا مهما من أحوال نجد الأمنية في تلك الـفترة، كما تبين أسلوبا من أساليب الغزو والسلب لدى بـعض قبائل نجد في تحين مجيء الليل ومبايتة المراد غزوهم كما سيأتي بيانه عند الكلام على أساليب الغزو لدى بادية نجد، وقال الجزري في هذه الحادثة نظما منه هذه الأبيات:

= سبيع حتى كثر جيران هذين البطنيين، ويبدو أن الجناح كان أكبر ثم توسعت لتكون أربع قرى متجاورة وهي: الضبط والخريزة والمليحة، والعقيلية، وكانت تابعة للجناح حتى ضمت هذه القرى ليشملها اسم عنيزة التي كانت إلى وقت قريب أكبر بلدان القصيم وثانية المدن النجدية، وهي الآن ثانية مدن القصيم، أطلق عليها أحد الرحالة اسم باريس نجد لما عرف عن أهلها من لطف معشر ولين جانب للصديق والغريب، وتعتبر من أهم المراكز العلمية في نجد منذ تلك الفترة وحتى الآن. للتفصيل: (الهمداني: صفة جزيرة العرب ٢٧٠، ٣٢٩، البكري: ٩٧٦/٣، ياقوت: ١٦٣/٤، ١٦٤، ابن عيسى: ٢٣٢ - ٢٤٤، البسام: علماء نجد ٢٥٣/١ - ٢٥٦، ٢/ ٢٩١، ٢٩٢، ٣٧٨، ٨٣٨/٣ العبودي: بلاد القصيم ١٦٣٨/٤ - ١٧٥٠).

(١) هو محمد بن محمد بن علي الشهير بالجزري نسبة إلى جزيرة بن عمر على الفرات، شيخ الإقراء في زمانه، ومن حفاظ الحديث ولد بدمشق ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م ونشأ فيها حفظ القرآن وعمره ١٢ سنة، وأصبح من كبار أهل القراءات فيها حيث ابتنى فيها مدرسة دار القرآن، رحل إلى مصر مرارا وكذلك بلاد الروم (تركيا) وما وراء النهر ثم ألقى عصا التسيار في شيراز في فارس فولي قضاءها وتوفي فيها ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، ذكر له الزركلي ٢٣ ما بين كتاب ورسالة تتركز في القراءات وطبقات القراء والمناقب والحديث، وله نظم وأراجيز في القراءات كثيرة (الزركلي: ٢٧٤/٧، ٢٧٥، دائرة المعارف الإسلامية ١١٨/١ - ١٢٠).

غـريبـة أوطان بـنجـد نـظمـتهـا | وعظم اشـتغال البـال واف وكيف لا
صددت عن البيت الحرام وزور الـ | مقام الشريف المصـطفى أشرف العلا
وطبـقني الأعـراب بالليـل غفـلة | فـما تـركـوا شيـئـا وكـدت لأقتـلا
فأدركـني الـلطـف الخفـي وردني | عـنيـزة حـتى جـاءني مـن تـكفـلا
بحـملـي وإيصـالي لـطيـبة آمـنا | فـيـارب بـلـغني مـرادي وسـهـلا
ومن بجمـع الشمل واغفر ذنـوبنا | وصل عـلى خيـر الأنام ومـن تلا[١]

ونظرا لامتداد نفوذهم في المنطقة السابقة فقط سيطروا على طرق الحج العراقي والشامي والمصري ومن سار فيهـا من غيرهم مما جعل أخبار الحج في هذه المناطق تحفل بقصص تعرضهم لقوافل الحج القادمة من هذه المناطق، ولم يكونوا يتورعون عن سلب حتى ملابس الأشخاص فيعيدوهم شبه عرايا، وإذا لم يجدوا معهم إلا الكتب أخذوها، وإذا قربوا من منازل قبيلة قوية تقع قرب هذه الطـريق تحالفوا معها - مؤقتـا - لسلب الحـجاج المارين بهـم، ويبدو أن شكاوى الحـجاج التي تـصل إلى السلـطات الإسلامية دفـعت هذه السـلطات لعجزها عن تأديب هذه القبائل المتحالـفة - إلى ترتيب رواتب لرؤسائها ليكفوا عن التعرض لركب الحجاج، وكانت كل سلطة منطقة تتولى دفع الرواتب عن حجاج منطقتها[٢].

---

(١) عن هذه الحادثة: محمد بن أحمد الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. تحقيق فؤاد سيد - مطبعة السنة المحمدية. القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ١٣٨/٤، العبودي: بلاد القصيم ١٦٤٨/٨، مجلة العرب: جـ ١١، ٩/١٢ س/٨٥٠ ص، ٨٥١.

(٢) عبدالقادر بن محمد الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة - المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ٣٥٢، ٣٦٦، ٣٨٥، حمد الجاسر: معجم الأسر المتحضرة ٧٤٦/٢، ٧٤٧.

وقد دفعت كثرة تعرض الحجاج للسلب من هذه القبائل وخاصة بني لام إلى أن يضع إخباريو الحج تحديدات جغرافية للمناطق التي يتركز بها هؤلاء وتكون طريقا لقطاع الطرق منهم حتى يكون أمير الحج على أهبة واستعداد إذا قرب منها بحراسة ركب الحج بالتهيؤ بما يلزم من فرسان وأسلحة عند القرب من هذه المناطق وقد أسماها أحد هؤلاء الإخباريين محارس على أساس وجوب الحراسة عند قرب الحجاج منها(١).

كما بحث هؤلاء الإخباريون في بطون هذه القبائل في محاولة منهم لمعرفة الأسر التابعة لها وخاصة بني لام ممن كانوا يتعرضون لهم، ولئن لم تكن معرفة نسبية واسعة إلا أنها تعطي المار بهم فكرة عامة عن بطون هذه القبيلة وأفخاذها؟ فيستطيع إبداء هذه المعرفة لهم ليحس بالاطمئنان منهم حيث تشكل المعرفة السابقة بابن البادية أمانا نسبيا لمن يمر به في طريقه، ذلك أنه إذا حدثه وهو يعرف أصله وقرابته اطمئن له البدوي ووثق به واستحاب أن يمسه بسوء فيمنحه الأمان والسلامة(٢).

وقد امتدت منازل بني لام في فترة من الفترات حول المدينة وشرقها وشمالها حتى جبلي طيئ، وأعالي وادي الرمة، وأغلب نجد، على أنهم في فترة متقدمة كانوا يعتبرون أقوى قبيلة نجدية تدين لها حاضرة نجد وباديتها بالولاء مما يمكن معه اعتبارها القوة السياسية البارزة في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الهجرية، وأن قوتها تكاد توازي قوة بني خالد في شرقي الجزيرة العربية، ونتيجة لهذا فقد كانت القوى السياسية المحلية والقبائل الأصغر لا تتقدم عليها في أي أمر من الأمور، وكلمتها هي الكلمة النافذة في نجد(٣).

---

(١) المصدر السابق ١٠٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٥١٤.

(٣) ابن بليهد: صحيح الأخبار ٢/١٢٧، ١٢٨، حمد الجاسر: المرجع السابق ٧٥١.

وقد صور جعيثن اليزيدي[1] قوة هذه القبيلــة وإن كان ذلك في معرض مدحه لمقرن بن أجود زعيم الدولة الجبرية[2]:

ونجد رعي ربعي زاهي فلاتها على الرغم من سادات لام وخالد[3].

وأشار إلى تـقدمها على كـافة القوى المحلـية في نجد رميزان بـن غشام حينما أشار إلى ورود الناس لحكرته المسماة السبعين[4] حينما قال:

إلى صدر اللامي والأجناب قلطت حيضانها فإما نزدها ترودها[5].

و في مرحلة سابقة لأفول نجم هذه القبيلة تفرعت إلى ثلاثة بطون كبيرة هي مغـيرة، وكثير، وفـضل، حيث اقتسـمت هذه البطـون نفوذ القبـيلة الأم وأصبح لـكل بطن منهـا قوة وهيبة في مـناطق نجد كل حـسب منطقتـه على اختلاف فيما بينهم في درجة هذا النفوذ[6].

---

(١) هو جعيثن اليزيدي من بني حنيفة من أهل الجزعة أسفل المصانع قرب الرياض (حمد الجاسر: مدينة الرياض ٨٣، ابن خميس معجم اليمامة ١/٢٧٢).

(٢) هو مقرن بن أجود بن زامل الجبري العامري تولى حكم الأحساء وأحيانا نجد بعد أبيه أجود، وقتله البرتغاليون عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م (حمد الجاسر: المرجع السابق ٨٣، وعبدالله الشبل: تاريخ نجد والدولة السعودية ١/٤٧، مجلة الدارة ع ١/ س ٤/ ص ٢٨).

(٣) قوله: رعى ربعي زاهي فلاتها: أي رعى جماعتي زينة فلاة نجد. وانظر عن البيت وماقبله وبعده، ابن لعبون: التاريخ ٣٢، المعيري ١٠٤.

(٤) هي حاجز وضعه أهل روضة سدير بزعامة رميزان على وادي سدير حتى يرتفع ماؤه إلى نخيلهم وما يزيد يأخذ مجراه مع وادي الفقي إلى بقية بلدان سدير، ووضعوا له سبعين معبرا حيث سمي حتى الآن حكرة السبعين. (ابن خميس المرجع السابق ١/٤٨٥).

(٥) اللامي: أي الورد اللامي، الأجناب: الأجانب، حياضها: أحواضها، والمعنى أن بني لام هم المقدمون لأنهم أهل المنطقة. ابن بليهد. المصدر السابق ٢/١٢٨.

(٦) المصدر السابق: ٢/١٢٨.

وكانت بداية تدهور مكانة هذه القبيلة القوية في نجد متقدمة إذ بدأت مع انقسام هذه البطون بعد انتهاء القرن العاشر على أن هذه البطون بقوتها قد حافظت على درجة لا بأس بها من مكانة القبيلة في المنطقة.

ويروي ابن بليهد أن السبب الرئيس وراء تدهور هذه القبيلة وتحضر بعضها، ورحيل قسم كبير منها عن نجد إلى جنوب العراق هو الخيانة، وعدم المبالاة بالعهود والمواثيق وما يتصل بها من عادات حميدة، ويبدو أن الاختلاف بين البطون الثلاث، وما يعتري نجداً من الجدب وبروز قوة عنزة ومنافستها لها أسباب لا تقل أهمية عن السبب الأول في هذا التدهور[١].

وعلى كل فقد تحضر قسم كبير من هذه القبيلة وتفرق في البلدان النجدية ورحل قسم كبير منها إلى جنوب العراق، واستمرت ملامح انهيارها من نجد من تحضر ورحيل حتى قيام الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى حيث أصبحت منذ تلك الفترة من القبائل العراقية المهمة التي تقطن قرب البصرة، وإلى الوقت الحاضر ولام ينتسب إليها قسم من سكان العراق، وقد حفلت كتب التاريخ العراقي بأخبار عنها وعن أدوارها في الحياة السياسية والاجتماعية في الجنوب العراقي[٢].

والذي لاشك فيه أن الوجود العنزي في نجد كان متقدما جدا عن رحيل بني لام، وكانت منازل عنزة حول المدينة إلى أعالي وادي الرمة، ومنذ القرن العاشر ولها صولة على طريق الحج تحدث عنه إخباريو الحج، وإن كانت في هذا أو غيره لا تصل إلى درجة بني لام[٣].

---

(١) المصدر السابق: ١٢٨/٢.

(٢) انظر على سبيل المثال: س. هـ لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الصفحات ١٠٥، ١١٩، ١٥٥، ٢١٠ وغيرها.

(٣) الجزيري: المصدر السابق ٥٢٨، ٦١١.

وفي المرحلة الأولى لبدء ازدياد قوتها أخذت تتحرش بالقبائل حول المدينة كحرب التى كانت في أوج قوتها تطردها إلى خيبر، إلا أن عنزة مالبثت أن استعادت قوتها وسيطرت على المنطقة التي حول المدينة بل على المدينة نفسها في بعض الأحيان،وكانت حرب لا تنزل إلا بجوارها حتى استغلت عنزة هذا الجوار لإذلال حرب(١).

وقد استمرت قوة عنزة في ازدياد حتى أجلت قسما كبيرا من بني لام عن نجد وأصبح لها نفوذ كبير في منطقة القصيم إلى عوالي المدينة وخيبر وقرب جبلي طيئ حتى إذا بدأت سيادتها القبلية في الانحدار اجتمعت لها قبيلتا حرب ومطير كل في جهته ولهدفه حتى حدثت معارك بين عنزة وحرب التي استنكفت هذا الجوار المذل فطردتها من المدينة، وذلك في وقائع المجلّلة المعروفة في تاريخ العلاقات بين حرب وعنزة(٢)، واستطاعت من جهة الشرق مطيرة أن تهزم عنزة بعد أن رفضت إمهالها للرحيل عن مرابعها التي سمحت لها فترة الربيع بالرعي فيها وذلك في وقعة الحجناوي سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م(٣).

---

(١) عاتق بن غيث البلادي: نسب حرب. ط (٢) مؤسسة و دار مكة. مكة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص ٣٣، ١٧٠.

(٢) هى عدة وقائع حدثت في القرن الحادي عشر الهجري بين حرب وعنزة انتهت بجلاء عنزة وسببها إهانة بعض شهاب عنزة لابنة أحد أمراء حرب، وسميت المجللة لأن ابتداء أمرها تجهيز هذا الأمير الذي أهينت ابنته ذلولا لبست سوادا ولبس راكبها كذلك سوادا وطاف بها على أمراء حرب لاستثارة نخوتهم حتى تجمعوا وحدثت تلك المعارك، وللتفصيل فيها: البلادي. المرجع السابق ١٧١ - ١٨٠، وقد ذكر فيها أن قصة مسعود عبد ابن هذال التى سيرد تفصيلها عند الكلام على الرق لدى بادية نجد قد حدثت في أعقاب تلك المعارك.

(٣) سيرد التعريف بالحجناوي ووقعتها تلك عند الكلام على مواقف بادية نجد من الدولة السعودية الأولى لأن لها مساساً بالموضوع. وللتفصيل: مقبل الزكير: ورقة ٣١، ٣٢.

وبذلك تمكنت هاتان القبيلتان من طرد عنزة وحصرها في مناطق محددة حيث تحضر بعضها وتفرق في البلدان النجدية، ورحل قسم منها إلى شمال نجد، وجنوب العراق لتحتل حرب منازلها في المدينة وما حولها وتحتل مطير منازلها في نجد(١).

ولقد كان جلاء عنزة عن وسط نجد شبه جماعي نتيجة لتلك المعارك من تلك القبيلتين، ومن هنا فقد كان فراقها مؤثرا كما سيأتي في قصة مسعود رقيق ابن هذال، وكما سجل الشاعر الشعبي(٢) رحيلها متمنيا عودتها حيث قال:

نجد تهضم بالبكا للعمارات ترجي الفزع من سرية أولاد وايل
دقاق العلابي مايجون المشيشات ودحنة لابن هذال صدق صمايل
وابن السفر مايتذكر حول إبانات والشمري حكمه على سور حايل(٣)

وهو كما كان يرثي رحيل عنزة عن نجد فهو يصور قوة سيطرتها واحتلالها لأبرز الأماكن الرعوية فيها وعجز كبار القبائل النجدية وغيرها أن تقرب من تلك المرابع إلا بجوار من تلك القبيلة المرهوبة.

---

(١) ابن بليهد: ١٢٨/٢، عبدالجبار الراوي: البادية ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) هو الزناتي من أهل الطرفية بالقصيم ويرجع في أصلة إلى عنزة (العبودي: بلاد القصيم ٣/ ٩٥١).

(٣) تهضم: أي تصدع من كثرة بكائه على فراق عنزة، وهوهنا يصور أرض نجد وقد بلغ منها الحزن كل مبلغ، العمارات: أحد أفخاذ بشر من عنزة، ترجي الفزع: أي تأمل أن يفزع لها سرية أولاد وايل: أي صفوة عنزة وأولاد وايل نخوة عنزة، دقاق: نحيفي الرقاب وهو موطن ذم ويقصد إحدى القبائل المعادية ولعلها مطير، مايجون: ما يأتون، المشيشات: جمع مشيشة وهي أماكن خصبة على الضفة الجنوبية من وادي الرمة، دخنة: قرية كبيرة للبادية تقع في الجنوب الغربي لمنطقة القصيم جنوب الرس كانت لفترة فأخذتها منها حرب، ابن هذال: شيخ مشايخ عنزة، صدق صمايل: صدق وحقيقة، ابن السفر: يقصد أمير السفر من حرب، ما ينذكر: أي ما كان يقرب حول، أبانات: جبلان يقعان غرب الرس، والشمري حكمه على سور حايل: أي أن أمير شمر لا يستطيع تجاوز حائل لامتداد نفوذ عنزة إليها. للتفصيل (العبودي ٩٤٨/٣، ٩٥١، ٩٥٢، عبدالله العنزي: ديوان الوائلي - مطابع النرجس - الرياض ص ٤٢).

وقد بقيت النظـرة السيئة بين مطير وعنزة حتى بعـد أن دخلتا في طاعة الدولة السعودية الأولى، وكـانت كل قبيلة تفتخر بما كان لهـا من أمجاد فتثور بينهـما المعارك وكادت تقع بـينهما مثل تـلك المعارك لولا تدخل أئـمة الدولة السعودية الأولى بالإصلاح بينهما[1].

وظل لقبيلة مطير النفوذ والغلـبة على مناطق مهمة من نجد ما بين حدود منطقة القصيم إلى قريب من حدود الحجاز إلى أسافل نجد لا ينازعهم في ذلك منازع علـى أن المناطق التي لم تـقع تحت سيطرتهـم كان أهلها يعتـرفون بقوة وسطوة هـذه القبيـلة[2]، وأبرز مثـل لذلك مدائـح الشاعر الـشعبي مـحسن الهمزاني[3] لرؤسائهم لصلته بهم، وله غزل بمحبوبته المطيرية حيث قال:

بيـني وبين صويـحبي وقفـة أحوال   يا مـن يقود الـصلح بينـه وبيـني

إلى أن قال يمدح أحد شيوخ مطير:

---

(١) ابن بشر ١/٢٣١، ٢٣٢، ابن بليهد ٢/١٢٩.

(٢) ابن خميس: المجازين اليمامة والحجاز ١١٠، ١١١.

(٣) هو الشاعر النجدي عبدالمحسن واشتهر بمحسن بن عثمان الهمزاني بفتح الهاء وكسرها من الهزازنة من الجلاس من عنزة، والهزازنة أول من عمر الحريق عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م بعدما أخذوه مع نعام من القواودة من سبيع ومحسن هذا هو ابن ربيعة نجد في زمانه لكنه كان يتحلى بعفاف وشرف، وقد عاش في أواسط القرن الثاني عشر وقد برع في الشعر خاصة الغزل والفخر والمدح والتضرع إلى الله والوصف واشتهر في شبه الجزيرة عامة، وهو أول من أدخل الأوزان الشعرية المسماة بالسامري.
وقد تولى إمارة الحريق فترة لكنة تركها ليتفرغ لشعره، وليخرج في آخر عمره دررا من القصائد الوعظية قل أن يوجد مثلها في الشعر الشعبي النجدي، توفي في أوائل القرن الثالث عشر وقيل عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ولا يستطيع الباحث تحديد موقفه من دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب إلا أن تكون قصائده الوعظية صدى لتلك الدعوة. للتفصيل (ابن بشر ٢/ ٢٠٤،٢٠٥، ابن عبس ٥١،٥٢ ، عبدالله الحاتم: خيار ما يلتقط ١/١٧٧، خالد الفرج: ديوان النبط المطبعة العربية القاهرة نشر المكتبة الأهلية الرياض ١/٨، ٩، محمد سعيد كمال: الأزهار النادية ١٢/٨، ٩، ١٠، محمد القاضي: روضة الناظرين ٢/٣٦٧، حمد الحقيل: كنز الأنساب ١٦، ومحمد بن سعد بن حسين محمد بن بليهد وآثاره الأدبية ١/٣١٢).

يرعي بسبعمائة وسبعين خيال   حامينها بمذلقات العريني

مرباعها ما بين أبانات والخال   ناحين عنه الدوسري والحسيني

ماهم أبنجع بريه جماعة المال   علوا هل الردات ياشيب عيني[1]

ويقول في موضع آخر يمدح علوا:

علوا مكسرة القنا بالمطابيق   لا سافر المسيوق ما عنه يقفون

قوم إلى نشف البلل جمت الريق   وأقفت سباياهم تراهم يردون

إلى لحقهم طالب الدين بالحيق   ردوا عليه وزادوا الدين بديون[2]

وما من شك في أن هذا يصور كيف توغلت قبيلة مطير في نجد فقد سكنت أغلب أنحائها، وأصبحت لها الكلمة النافذة في المراعي الجيدة تماما كما كان لعنزة ومن قبلها لبني لام، وأصبحت أي قبيلة تريد الرعي فيها تطلب الجوار وتهدي إلى رؤساء هذه القبيلة الهدايا لخطب ودها.

---

(١) يقول في البيت أن بينه وبين محبوبته عدة لقاءات ولكنها غاضبة منه فعسى أن يأتي من يعقد صلحا بينه وبينها ثم يمدح أحد شيوخ مطير ولعله الدويش شيخ علوا فيقول: إنه أراد أن يرعى صحب معه سبعمائة وسبعين خيال لإظهار هيبته حتى يحمون هذا المرعى بمذلقات العريني وهى السيوف الحادة، مرباعها: أي موطنها، الخال: هو خال الدفينة جبل قرب الطائف بجوار ماء الدفينة، ناحين عنه: أي مبعدين، الدوسري الجمع الدوسري ومعنى هذا حدوث منازعات بين مطير والدواسر، الحسيني: من الحسينات من بني مسروح من حرب، ويروى البيت ناحين عنه الجحدري: أي القحطاني، بريه: أحد أفخاذ مطير، علوا: فخذ آخر وفيه إمارة مطير وسموا أهل الردات لأنهم مهما انهزموا فإنهم يردون على عدوهم، يا شيب عيني: المقصود إصابة شعر الحاجبين بالشيب انظر عن الأبيات: (الأزهار النادية ١٢/٧٩، ابن خميس: المجاز ١١١).

(٢) القنا: الهام أو الرماح. والمطابيق: المتاريس. المسبوق: المنهزم. ما عنه يقفون: أي يتركونه حتى يزيدون من هزيمته. إلى نشف البلل الخ: أي لا يملون من كثرة الحرب. وأقفت سباياهم: أي انصرفت. يردون: أي يعودون لمكان المعركة أستعدادا للأخرى. طالب الدين: أي طالب الثأر. بالحيق: أي كاد أن يحيق بهم ردوا عليه بثأر أعظم من الأول. عن الأبيات: عبدالله الحاتم (١/٢٠٩). الأزهار (١٢/١٠٨).

وظلت مطير على قوتها حتى أتي هادي بن غانم الجحدري الملقب بابن قرملة رئيس قبائل قحطان فاتفق مع الدوشان على أن ترعى قحطان من مراعي مطير وتشرب من مواردها على جوار بينهما، وبايع هادي أئمة الدولة السعودية وبايعت معه قحطان كلها حتى إذا توفي وخلفه ابنه محمد أخرج مطير من عالية نجد حيث ارتحلت فئات منها على دفعات إلى شرقي شبه الجزيرة وبقيت منها أفخاذ وجماعات كثيرة في نجد زادت من كثافة هذه القبيلة في نجد[1].

على أنه لم يمض زمن طويل حتى اختلف ابن هادي مع قبيلة عتيبة القادمة من الحجاز والتي كانت تحمل شيئا من الكره لقحطان التي كانت تشن عليها الغزوات باسم الدولة السعودية، وكانت تستغل دخولها في طاعة هذه الدولة لتكثف وجودها في نجد مما سيرد الكلام عنه وعن بداية انتشار نفوذ قحطان عند الحديث عن مواقف بادية نجد من الدولة السعودية إن شاء الله لورود تلك الأحداث بعد قيامها وتحت تأثيرها أحيانا[2].

هذا أبرز ملامح الوضع القبلي لبادية نجد حتى قيام الدولة السعودية لأبرز القبائل التي تسنحت ذري السيادة في أواسط نجد، كما أن هناك بعض القبائل التي لم تستطع قبيلة أن تزاحمها في منازلها كالدواسر، وبعض هذه القبائل أو أفخاذ منها رحلت إلى مناطق أخرى كالظفير ومن هنا فإن قوة هذه القبائل وسيادتها المطلقة في أماكنها أو رحيل بعضها لم يؤثر على الوضع القبلي ذي الطابع التنافسي في نجد.

---

(١) ابن بليهد (٢/ ١٣٠،١٣١).

(٢) ابن بليهد (٢/ ١٣٠، ١٣١).

الفصل الثاني

الصلب: دراسة تاريخية واجتماعية

١ - أصلهم:

يمكن اعتبار الصلب[١] كالبدو فئة خلوية فهم يتفقون مع البدو في سكنى الصحراء على اختلاف بينهم في شكل السكن وقربه وبعده من المساكن الحضرية، ولكنهم من جهات متعددة يختلفون عن البدو أشد الاختلاف، فهم يتميزون عنهم بملامح جسمانية أبرزها بياض البشرة، وزرقة العيون، وشقرة الشعر، ورقة الجلد[٢]، وأهم من هذا وذاك اختلافهم عن البدو في الأصل الاجتماعي غير الواضح، والعادات والتقاليد التي يختلف فيها هذان الفريقان اختلافًا لا مجال للمقارنة بينهما فيها، وماوصفي للصلب ضمن الحديث عن البادية إلا بمقدار مايجمع بينهما من عدم السكنى في القرى والبلدان.

وقد اختلف النسابة والمؤرخون في أصل هذه الفئة على ثلاثة آراء رئيسة، وبعض الآراء الجانبية التي ستمر مبثوثة في ثنايا هذا الفصل بعضها إلى الإشاعة أقرب:

الرأي الأول: أن أصلهم من الهند، وهذا الرأي يستند إلى أن غجر الهند (البانجاراز) هم أصل هذه الفئة، ويرى هذا الرأى قسم كبير من دارسي

---

(١) من معاني مادة صلب: الشحذ والجلي قال القاموس والتاج: الصُّلَّب كسُكَّر والصُّلَّبِيَّة، والصُّلَّبِيُّ حجارة المسن، قال الشماخ:

وكان شفرة خطمه وحنينه   لما تشرف صلب مفلوق

والصلب الشديد من الحجارة أشدها صلابة بالتشديد ما جلي وشحذ منها أي حجارة المسن، ورمح مصلب: مشحوذ بالصلبي، وتقول سنان صلبي وصلب أيضا مسنون، الفيروزآبادي ١/٩٣، الزبيدي ١/٣٣٨).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/٣١٤، ٣١٨ مادة صليب.

تاريخ الشعوب الذين يؤكدون أن قسما كبيرا منهم قد ترك الهند في هجرة واسعة على جهل بتحديد تاريخ هذه الهجرة أو سببها، وفي هجرة جديدة لاحقة انقسم الغجر إلى قسمين كبيرين عند وصولهم إلى أواسط آسيا فاتجه قسم جنوبا إلى شبه الجزيرة والعراق والشام وغربا صوب مصر وشمال أفريقية، وفريق آخر اتجه إلى الشمال والغرب إلى أوروبا بل حتى وصلت جماعات منهم إلى أمريكا عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٥م ومن هنا انتشروا في بلدان هذه المناطق[١].

وطبعي أن هذا الرأي يعتقد بأن الصلب في شبه الجزيرة يلتقون عرقيا بالنور في الشام والأردن، والغجر في مصر والشمال الأفريقي، والحلب[٢] في السودان، و (Gypsies) في كافة بلدان أوروبا وربما أمريكا اشتقاقا من اسم مصر بالإنجليزية اعتقادا من الأوربيين بأنهم مصريون حيث ينتشر هذا الاسم في كافة بلدان أوروبا ويرونه أصلا للتمسمية عامة وتتفرع عنه تسميات فرعية لكل بلد أوروبي على أن هناك تسميات أخرى في آسيا ليس هنا مجال التفصيل فيها[٣].

ومن أبرز الأدلة التي يدعم بها هذا الرأي وجهة نظره أن هذه الفئات تتفق فيما بينهما في ظاهرة الطواف في الأرض بين الناس وامتهان السرقة والسؤال، والسحر، وممارسة كافة الصناعات التي يستنكف أهل البلدان الأصليون القيام بها، وكما تتفق هذه الفئات فيما بينها فإنها تلتقي في ذلك مع

---

(١) جرجي زيدان: طبقات الأمم- دار التراث. بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ص٢٣٦، مجلة العربي عدد ٢٩٦ رمضان ١٤٠٣هـ/ يوليو ١٩٨٣م ص ١٠٢ من استطلاع عن البانجاراز في الهند.

(٢) من معاني مادة حلب: الاجتماع من كل جهة قال في القاموس والتاج: وحلب القوم يحلبون حلبا اجتمعوا وتألبوا من كل وجه، وأحلبوا عليك اجتمعوا وجاؤوا من كل أوب. (الفيروزآبادي ٥٧/١، الزبيدي ٣٢١/١ مادة حلب).

(٣) جورجي زيدان المرجع السابق ٢٣٦، مجلة العربي العدد السابق ص ١٠٢.

البانجاراز الأصل الاجتماعي لهذه الفئات، علاوة على الاضطهاد الذي تلقاه هذه الفئات كذلك من كافة القوى المحلية سواء كانت سياسية أو اجتماعية، فإذا سلمت من الاضطهاد السياسي عوملت بنظرة اجتماعية متدنية وقد تلقى اضطهادا سياسيا واجتماعيا في آن واحد كما حصل من قادة بريطانيا وهتلر والمجتمعين الإنجليزي والألماني[1].

وهذا الرأي كما يراه عدد من دارسي تاريخ الشعوب فإن مجتمع الغجر في الهند نفسه يرى هذا الرأى وينسج حول أصلهم بعض الأساطير، ودراسة المجتمع الغجري في الهند تسند هذا الرأى، إذ أن مساكنهم تشبه تماما مساكن الصلب والغجر والنَّور وبقية الفئات التي ترجع إلى هذا الأصل الاجتماعي[2].

وما حداني إلى تسجيل هذا الرأي رغم عدم إشارته إلى صلب نجد هو وجود أصل لهذا الرأي لدى بعض عامة أهل نجد، إذ يرى هؤلاء العامة ثبوت الصلة الجنسية بين صلب نجد والغجر والنَّور وسائر الفئات الأخرى التي تعود إلى ذلك الأصل، على أن هؤلاء العامة فضلا عن ذلك يرون أن أصل هذه الفئات واحد يعود إلى غجر الهند الذين رحلوا منه وتفرقوا كما يقول هذا الرأي وإن كان لايمنع أن يكون هذا الرأي قد تأصل نتيجة لمقارنة بين أوضاع الغجر في الهند وصلب نجد ربما تمت خلال الرحلات التجارية بين الهند ونجد[3].

ويري فريق من أهل هذا الرأي أن أقرب هذه الفئات إلى صلب نجد قربا من ناحية الأصل وتشابها من ناحية العادات والتقاليد هم النور الذين تؤكد الدراسات الاجتماعية والتاريخية عنهم هذا التشابه الدقيق في الكثير من أساليب الحياة[4].

---

(١) جورجي زيدان المرجع السابق ٢٣٦، مجلة العربي العدد السابق ص ١٠٢.

(٢) مجلة العربي: ص ١١٠، ١١١، ١١٢.

(٣) من مروياتي الشفوية المحفوظة عن هذه الفئة.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (٣١٩، ٣٢٠).

الرأي الثاني: أنهم جماعات من بقايا الأمم القديمة التي كانت تعيش في الجزيرة فجهل أصلها، ويستدل صاحب هذا الرأي على ذلك بأنهم من أعرف القبائل بمواضع الجزيرة وأن منهم أدلاء يعرفون مفاوز الطرق، والسير عن طريق النجوم[1].

وما من شك في معرفة الصلب بكل هذا حيث قد تواتر لدى النجديين قوة معرفتهم بها[2].

ويبدو أن هذا الرأي يستند كذلك إلى معرفة الصلب الدقيقة بالقنص مما يقتضي معه أن يكونوا على معرفة سابقة بالحيوانات القديمة في شبه الجزيرة وأماكن تكاثرها، وهذا يستلزم وجودا قديما في المنطقة لم يتوافر لأبناء القبائل المعروفة التي كانت تنزح إلى نجد وتقيم فيها فترة ثم يرحل قسم كبير عنها[3].

---

(١) صاحب هذا الرأي هو الشيخ حمد الجاسر: مجلة العرب (ج٥، ٦/س١٤ص١٤٧). وبعض باحثي دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) ومن الأدلة التي تؤكد قدرة الصلب علي هذه المعرفة الدقيقة هذه الحادثة العجيبة حيث استخدم فردا منهم موفد الملك عبدالعزيز- محمد أسد- لكشف مصدر الأسلحة الجديدة والعملات حديثة السك التي تصل بكميات كبيرة إلى الإخوان فاجتاز بالموفد ورفيقه طرقا ومفاوز عبر تجمعات الإخوان واستطاعا عبر دلالته أن يكشفا جانبا من سر تلك القضية التي أرقت الملك عبدالعزيز، ولاشك أن تاريخهم حافل بمثل هذه الحالة وإن لم تصل إلينا في خضم التعتيم التام الذي تتعرض له قصصهم وأخبارهم من النجديين حاضرة وبادية، ولاشك أن هذه التصرف من الملك عبدالعزيز بالإيعاز لمحمد أسد كشف هذه اللعبة الدولية يدل على قوة إدراك الملك عبدالعزيز وبعد نظره وفهمه للبعد الخارجي لقضية الإخوان فعلاوة على البعد الداخلي لهذه الأزمة المتمثل في تطلع بعض زعامات الإخوان للسلطة فإن البعد الخارجي هدفه زعزعة الاستقرار في المنطقة وعرقلة الجهود التوحيدية التي جاهد الملك عبدالعزيز ورجالة المخلصون لتحقيقها، وإن كان الملك عبدالعزيز قد عالج هذه المسألة في بعدها الخارجي خاصة بحكمة ودبلوماسية وتعقل.

(٣) العبودي: بلاد القصيم (١٣٦٧/٤). دائرة المعارف الإسلامية (٣١٧/١٤). عمر كحالة: معجم قبائل العرب (٦٤٧/٣).

ولقد كان دور الصلب فيما يتعلق بـالقنص مهما؛ إذ من المعتقد أن تكون معرفة رجال القبائـل لأصول هذه المهنة عن طريقهم، حتى أصبـحت فيما بعد مفخرة مـن مفاخر أبناء الـبادية، وقد عرفت بـعض الموارد التي كان الـصلب يرتادونـها ويصيدون فـيها الحيوانات والـطيور البريـة، وقد صور لنا حـميدان الشويعر[1] دور الصلـب ومهارتهم في الـصيد مما جعـلهم يعتبـرون روادا فيه

---

(١) هو أشهر شعراء العامية في نجد واسمه - على ما ذكر أحد رواة الشعر الشعبي مؤخرا - حمد بن ناصر السياري، من السيايرة من الدعوم من بني خالد ولقب بحميدان الشويعر تحقيرا له لسلاطة لسانه ولد في بلدة القصب، ونشأ فيها وبدأ يقرض الشعر، وأبرز ملامح شعره خلط الجد بالهزل في مجالات السياسة والاجتماع والأخلاق، وقد ذكر بعض جامعي شعره أنه كان على درجة من العلم ولكن شعره غلب علمه ولاشك أنه كان درجة من الثقافة الاجتماعية، ويعد حميدان حطيئة عصره إذ لم يسلم حتى أصدقائه بل حتى زوجته وابنه ونفسه ونقد مجتمعات وسكان البلدان التي زارها نقدا لاذعا، وقد جر له أسلوبه هذا المتاعب في حياته حتى لقبه من هاجهم «كليب القصب» وهرب إلى الزبير ليكون حارسا في أحد بساتينها لكنه حن إلى نجد ليملأ الدنيا ويشغل الناس، يقال إنه هجا عبدالله بن معمر أمير العيينة (ت١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م) فأهدر دمه فتوسل بزوجته وأخرج قصيدة عصماء في مدحه حتى عفا عنه وأجازه، أدرك بدء الدعوة السلفية وقومها تقويما صادقا، ويقال: إنه سبها ولم يثبت ذلك، عاش حتى هرم وقيل توفي سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م، أو بعدها بقليل إلا أن التمعن في شعره وفي الأحداث التاريخية في نجد في تلك الفترة يبين لنا أن حميدان عاش بعد هذا التاريخ فقد شهد أو عاصر موقعة الوطية قرب ثرمداء بين عبدالعزيز بن محمد وبين أهل ثرمداء وأثيثية ومرات سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م، حيث أشار إليها في شعره كما أنه أشار إلى وقعة الغفيلي بضرما سنة ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م، حيث أسر فيها عبدالكريم بن زامل أمير أثيثية وذكر ذلك حميدان في شعره، كما أنه ذكر وقعة الصحن قرب ثرمداء التي أغار فيها الإمام عبدالعزيز بن محمد على ثرمداء عام ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م، مما يدل على أن حميدان كان عام ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م لايزال على قيد الحياة وليس كما ذكر بعض جامعي شعره أنه توفي سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م. للتفصيل: ابن غنام: روضة الأفكار والأفهام، ط (١) مكتبة ومطبعة الحلبي مصر، نشر المكتبة الأهلية الرياض ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م (٢/ ١٥، ٤٤، ٤٥). ابن بشر (١/ ٤٠، ٤٤، ٦٤). عبدالله البسام:تحفة المشتاق مخطوطة (ورقة- ٨١، ٨٥). خالد الفرج: ديوان النبط (١/ ١٤-١٧) وعن شعره من ص (١٦ - ٧٨) وعن الأربعة الأبيات السالفة (١/ ٢٤). محمد سعيد كمال: الأزهار النادية في أشعار البادية (٩/ ٣-٥٥) =

متغزلا:

عينها عين ريم حفل واستذار شم　　وشاف زيـلة ظعـون الصـلب[1]

وللصـلب مهارة عجيبة في النـقص، وجلد عظـيم عليه، وهـم لهذا يكمـنون ساعات طـوالا للفريـسة في حفر يـحفرونهـا عند موارد المـياه، فلا يرجعون حتى ينالون من فريستهم، وهم في سبيل ذلك يلبسون ملابس فطرية من جلـود الغزلان أو غيـرها من حيوانـات البر، ويكون شـعرها هو الـظاهر بحيث يـبدو أحدهم وكأنه أحـد هذه الحيوانات فتـأنس به فيصيـدها، وإذا لم يتيسـر ذلك لبسوا من الألـوان التي تحاكى لون الـرمال في الصحراء لـتناسب ظروف الأرض فيها، وتمكن الصياد من الترصيد لفريسته بنجاح[2].

= (١٢/٩). عبدالمحسن أبابطين: المجموعة البهية (٦٤- ٧٨). محمد القاضي: روضة الناظرين (٣٦٧/٣)، وقد ذكر فيها وفاة حميدان سنة ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م وهذا وهم منه إلا أن يكون خطأ مطبعيا محرفا عن ١١٨٨هـ فهذا محتمل. حمد الجاسر: معجم أنساب الأسر المتحضرة (٤٦٤/١، ٤٦٥) حمد الحقيل: كنز الأنساب ومجمع الآداب، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ/ ١٩٦م ص (١٤٢). سعد بن محمد بن نفيسة: إضمامة من التراث، منشورات دار الوطن الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. عبدالله الحاتم: خيار (١٣٩/١، ١٧٣). د. عبدالله الشبل: أهم المصادر النجدية (١٩، ٢٠). مجلة مركز البحوث التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عدد (٢) ص (١١٣، ١١٤) من بحث لأستاذي الدكتور عبدالله الشبل بعنوان: تاريخ ابن عباد. كلية الآداب جامعة الملك سعود: مصادر تاريخ الجزيرة العربية، مطابع الجامعة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م (٣٨٥/١، ٣٨٦) من بحث للدكتور عبدالله العثيمين. صحيفة الجزيرة عدد (٣٩٣٠) الجمعة ١٤ رمضان ١٤٠٣هـ ص(١٤) من مقال بقلم الراوية الشعبي إبراهيم اليوسف.

(١) جفل: أي خاف، استذار: هرب مسرعا بعد أن تحقق من مصدر روعه، شاف: رأي، زيلة الزيلة والأزوال: جمع زول وهو الشبح الذي يتراءى من بعيد سواء كان حقيقة أم خيال، ظعون: جمعات: (خالد الفرج: ٦١/١)

(٢) كحالة: ٦٤٧/٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣١٧/١٤

وكما استغلهم البدو في معرفة القنص وأساليبه فقد استخدموهم أدلاء في جولاتهم وغزواتهم البعيدة إذ من التواتر عدم تيهة الصلبي، وتحت أي ظروف من ظروف المناخ، فالصلب يستطيعون إرشاد مجموعة بدوية غازية إلى مورد ماء أو مرعى بلا خطأ أو تردد أو معاناة، ومن هنا فهم يسدون خدمة عظيمة للبدو عن طريق إفادتهم من النقص والدلالة التي يعرفون عن طريقها جل أخبار البدو القاصية والدانية وتحركاتهم القبلية وغزواتهم ضد بعضهم البعض أو ضد الحضر[1].

ويبدو أن هذا الرأي يميل إلى رأي ذكره عدد من الباحثين من أن أسلاف الصلب كانوا في مركز اجتماعي واقتصادي أرفع من مركزهم الحالي بكثير ولكنهم فقدوا هذا المركز لغطرستهم ودناءة أخلاقهم وما شابه ذلك، وينتهي هذا الرأي إلى القول بأنهم من أصل عربي خالص[2] استناداً إلى أحد التفسيرات اللغوية لمادة صلب الذي يقول: «عربي صليب خالص النسب، وامرأة صليبة كريمة المنصب عريقة»[3] ويؤكد وجود مثل هذا الرأي في المجتمع النجدي قول راشد الخلاوي عن الصلب الاجتماعي والتحولات التي طرأت عليه:

الصلب أجواد نما الجود جدهم	زار الذي صلب العرب من صلايبه
أجاويد قوم قلب الله قلوبهم	بحيلات سوعابت القوم خايبه
قوم طغوا والناس في جاهلية	وأزرى بهم شرك تطامي غبايبه
ولاعندهم إلا إبليس ليلهم	دعاهم ولبي القوم لإبليس جايبه

(١) كحالة: ٦٤٧/٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣١٠/١٤، ٣١٩.

(٣) انظر الزبيدي: تاج العروس ٣٣٨/١ مادة صلب.

دعا القوم فاموا كالسكاري لصوته   والى صحوا أضحوا لـداعيه نايبه
دهي القوم بأخلاق رمت كارعزهم   وعابت محاديهم مدى الدهر دايبه[1]

وإذا ثبت أن الخلاوي يرجع إلى صليب، فإن هذا القول من باب رد الفعل تجاه الازدراء والنظرة السيئة من المجتمع النجدي تجاههم، أما إذا ثبت أن الخلاوي من بني هاجر من قحطان[2] فإن هذا القول له دلالته العظيمة ويجوز أن يكون له مستند من الحقيقة خاصة وأن بعض كبار الباحثين في أصلهم يرون احتمال هذا الرأي، ولا يبعد أن يكون هذا القول صدى لبعض ماتواتر لدى النجديين من ثبوت أصل عريق للصلب وعدم تعرضهم- في أي فترة من الفترات- للاسترقاق، وأن السبب في انحطاطهم اجتماعيا هو ما قدره الخلاوي تماما- وإن كانوا يختلفون معه بأنهم ليسوا عربا[3]- ومن هنا فإن رأي الخلاوي يتفق مع تواتر لدى النجديين من نظرتهم للصلب بأن ديانتهم ضعيفة، وأن السبب في سقوط وضعهم الاجتماعي واندثار عزتهم تخلقهم بأخلاق سيئة أوقعتهم في حمأة الرذيلة وقعدت بهم عن معالي الأمور ومجاراة العرب الصرحاء في الأخلاق الكريمة من كرم، وعزة نفس وإباء، ويؤكد الخلاوي أن أصل هذه الأخلاق واستمرارها وبقاءها فيهم هي التي عابتهم على مختلف فترات التاريخ بحيث أصبحت من المعالم الرئيسة في حياتهم الاجتماعية.

---

(١) نما الجود: أي أصل الجود ومنبعه، حيلات سو: تحيل على أخلاق سيئة، خايبه: سيئة أو معيبة، أزري: أقعد عن معالي الأمور، تطامي: تكاثر ظلماته، والغبايب: جمع غبة وهي الماء العميق، جايبه: مجيبة أو مطيعة، نايبه: منيبة، كار: طبيعية وعادة وأصلها فارس، محاديهم: أصولهم، دايبه: دائمة. (عبدالله بن خميس: راشد الخلاوي ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) ذكر القاضي في روضته ٢/٤٦٧ أن الخلاوي من بني هاجر من قحطان كما أن ابن خميس في طبعته الأخيرة روى عن بعض أمراء البدو ومشاهيرهم أن الخلاوي من بني هاجر وأن ذلك متواتر لديهم .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٣١٠، مروياتي الشفوية عن هذه الفئة .

والذي يظهر أن هذا الرأى يميل إلى أن الصلب هم أهل البلاد الأصليون وأن تعرضهم للازدراء راجع إلى قلة عددهم وضآلة شأنهم واستيلاء القبائل القادمة إلى نجد عبر الموجات البشرية المتلاحقة على مواطنهم، ويلمح الباحث تشبيه هذا الرأي هؤلاء الأقوام بسكان أمريكا الأصليين «الهنود الحمر» الذين طردهم القادمون الأوروبيون عن موطنهم واستولوا عليها وأصبحوا بعد ذلك يكيلون لهم مختلف أنواع الاحتقار، مع الفارق الشديد بين الفريقين في كون الصلب رغم احتقار النجديين لهم وترفعهم عن مخالطتهم بشكل عام يعدون فئة اجتماعية راقية إذا قيست أوضاعهم الاجتماعية بأوضاع المنبوذين في العالم سواء في أمريكا أو غيرها. ولا أدل على ذلك من تلك الحصانة الاجتماعية التي يتمتعون بها كما سيأتي بعد قليل.

الرأي الثالث: أنهم من بقايا الصليبيين، وهذا الرأي لايستند إلى دليل تاريخي أو أصل عرقي، بل كل ما يوجه به قوله هو التشابه اللفظي بين الصلب والصليب، وقد ظهر هذا الرأي أول ما ظهر سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، في مقال في إحدى المجلات الفرنسية التي تصدر بباريس، وتلقفه في العالم العربي بعض من الكتاب اللبنانيين من ذوي الأصول الصليبية وأثبت ذلك الرأي ونشره في المنطقة بطرس البستاني[1]، وانتشر انتشارا واسعا بين بعض المثقفين العرب، ولقي قبولا لدى كثير من عامة نجد حاضرة وبادية في نطاق

(١) هو بطرس بن بلوس بن عبدالله البستاني من كبار علماء وأدباء لبنان وتعلم العربية وآدابها وعددا من اللغات، وتعين مدرسا فترجمانا للقنصلية الأمريكية ببيروت، ثم استعانت به في بعض الأعمال الإدارية الأخرى، ترجم التوارة من العبرية للعربية، وألف «محيط المحيط» معجم لغوي «ودائرة المعارف» كما أسس عددا من الصحف توفي في بيروت ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م. للتفصيل فيه: الزركلي: (الأعلام ٢/ ٢١، الموسوعة العربية ٣٧٠، ٣٧١).

ماينسجونه حولهم من التهم في أصلهم ومعتقدهم وأخلاقهم[1].

ورغم ماذكره عدد من الباحثين عن الصلب من أن المرء يستبين في عادتهم آثارا من المسيحية القديمة والعناصر السبئية وأنهم مسلمون بالاسم فقط، رغم كل ذلك فإن الباحث لايمكن أن يقبل بمثل هذا الرأي إلابثبوت وجود مثل هذه العادات والمعتقدات وهو معايشة لأحوال الصلب لم يقم به أي من الباحثين الغربيين عنهم فيما يبدو، ثم إن تزعم هؤلاء الباحثين لهذا الرأي يلقي حوله ظلالا من الشك، على أننا لو أطلقنا لأنفسنا العنان في قبول كل ما يقال عن معتقداتهم لتهنا في خضم الآراء المتعددة عن ذلك إذ هناك من يقول إنهم يعبدون النجوم والشمس، وإنهم يمتون للصابئة بصلة معتقد، وإن فيهم من آثار اليهود في صلاتهم[2]، وقد رد على جوانب من هذا الرأي محرر مادة صليب في دائرة المعارف الإسلامية بقوله:

(إن هذا القول بعيد الاحتمال كل البعد لأسباب عملية ولأن الإشارات التاريخية التي توحي إلينا بمثل هذا القول نفتقدها تماما[3].

وقد لقي هذا الرأي من القبول لدى بعض الكتاب النجديين والذين لاشك في أن قبولهم أو اقتناع بعضهم بهذا الرأي إلى حد ما ماهو إلاصدًى لما انتشر بين بعض الكتاب العرب عن هذه الفئة من الناس وما دعم ذلك من نظرة سيئة من عامة النجديين تجاههم، هذه النظرة التي جعلتهم يرسمون حول

---

(١) الحقيل: كنز الأنساب ٢١٠، عبدالكريم الجهيمان: الأمثال الشعبية ٣/٥٥، ٤/٢٦٥، دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٣١٠، مجلة العرب جـ ٣، ٤، ٥، ٦/س ١٤ ص ١٩٧، ٤٧١، ويقول محمد أسد في الطريق إلى الإسلام ص٢٩٧: « ولقد بقيت الصلبة حتى اليوم لغزًا استعصي على جميع الرواد فليس من أحد يعرف أصلهم معرفة حقيقية».

(٢) دائرة المعرف الإسلامية ١٤/ ٣١٨، ٣١٩.

(٣) انظر ١٤/٣١٠، ومن رد على هذا الرأي محمد أسد كذلك ص ٢٨٠ بقوله: إنه من العسير الحكم بصحة هذا التفسير».

هذه الفئة دوائر قائمة من الشك في أصلهم ومعتقداتهم[1].

وليس من المعروف هل كان لوسمهم[2] الذي يقال إنه على شكل صليب دور في نشر الاعتقاد بأنهم نصارى، ومن بقايا الصليبيين خاصة إذا علمنا بأن عامة أهل نجد وخاصة البدو ينسجون حولهم كثيرا من الاتهامات في نطاق خوفهم من الاختلاط بهم حفاظا على عدم امتزاج دمائهم النقية بدماء هؤلاء الصلب ـ على حد اعتقادهم ـ، ويرجح محمد أسد أن هذا هو السر في كل هذه الإشاعات العرقية والعقدية عن هؤلاء[3]؛ ذلك أن نساءهم جميلات جدا تغري شباب البدو في عقد علاقات الحب التي قد تتطور إلى زواج، وهو مايمقته البدو وخاصة رؤساؤهم، ومن هنا فقد وقف كبار البدو أمام رغبة بعض شبابهم في هذا[4]، ولايبعد أن يكونوا في سبيل ذلك قد

---

(١) الحقيل: ٢١٠، الجهيمان ٣/٥٥، ٤/١٥٠، ٢٦٥، ٤٥٠، ٥/٢٨٥، ٣١٢، وقد ذكر في كل هذه الصفحات هذا الرأي بقوله يقال إنهم من بقايا الصليبيين إلا أنه في ٤/ ٢٦٥ قال عنهم من بقايا الصليبيين وترك صيغة الاحتمال، وانظر مجلة العرب الأعداد والصفحات السابقة.

(٢) الوسم لفظة فصيحة تعني وضع علامة مميزة سواء على الإنسان أو الحيوان ، ومنه قول الله تعالى﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم: ١٦] وهي معروفة نجديا بإطلاقها على العلامة المميزة للحيوان بكيها في النار إما عنقها أو أذنها، وطرق عملها وأنواعها معروفة لدى العرب منذ القدم، وقد أخذ النجديون خاصة البدو بقسم كبير منها فلكل قبيلة أو فخذ وسم خاص به تعرف الدواب العائدة إليه ويتميز هذا الأسلوب بالمعروفة وعدم اعتداء أي قبيلة على وسم الأخرى مالم تكن محالفة لها، وإذا أمكن عقد مقارنة بين وسم القبائل العربية القديمة وبين وسم الحديثة أمكن التعرف على المزيد من ملامح الاتصال التي تجمع بين القبائل العربية قديما وحديثا. (الفيروزآبادي ٤/١٨٦، الزبيدي ٩/٩٢، ٩٣، العبودي: الأمثال العامية ٢/٥٧٥).

(٣) الطريق إلى الإسلام ٢٨٠، وقد ذكر احتمال أن يكون أصلهم من شمالي شبه الجزيرة العربية، واستبعد إمكانية قبول الرأي الثالث كما مر.

(٤) الجهيمان: ٥/٣١٢ وأورد مثلا يتداوله شباب البدو ويدل على أسر نساء الصلب لقلوب هؤلاء الشباب وهو: «قلبي خذنه بنات صليب».

أخذوا يشنعون على الصلب في أصلهم ومعتقداتهم لعل هؤلاء الشباب يمتنعون عن مزاوجة الصلب[1]، وما من شك في تسامح بعض الصلب في القضايا الأخلاقية والنسب هي التي جعلت البدوي كما يقول محمد أسد: يرسم دوائر سحرية من الازدراء والاحتقار حولهم دفاعا غريزيا ضد امتزاج الدم البدوي مع الصليبي[2].

ورغم قبول بعض الكتاب النجديين بهذا الرأي - على غير جزم كامل بصحته- فقد أكد الشيخ حمد الحقيل في كنز الأنساب أن لهجة الصلب وسحنتهم لاتؤيد مثل هذا الرأي[3]، كما أكد الشيخ حمد الجاسر بأن هذا القول لايرتكز على أساس، وأن التشابه اللفظي لايصح سندا في الحكم على أنهم من الصليبيين، وألقي في ختام كلامه الشك حول هذا الرأي لأن أول من نشره البستاني في دائرة معارفه وهو نصراني ربما كان يدفعه إلى ذلك أهداف مريبة[4].

وعدا هذه الثلاثة الآراء الرئيسة فهناك آراء هامشية ليس هنا مجال التفصيل فيها إلا أن عرضها هنا ضروري لتصوير جوانب من نظرة النجديين تجاه هذه الفئة، كما قد تعطي الباحث بعض الأضواء التي تنير له طريق البحث عنها.

وفي هذا المجال تقول بعض الإشاعات النجدية إن أبا الصلب قد لحقته دعوة من أبيه نتيجة لإغضابه له حيث دعا عليه دعوة أسقطته وأسقطت عقبه بين القبائل، على أن أحد الآراء تقول: إن مركز الصلب الحالي وعاداتهم

---

(١) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام ٢٨٠، عبدالله بن رادس: شاعرات من البادية ١٨٢.

(٢) انظر محمد أسد: المرجع السابق ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) ص ٢١٠.

(٤) مجلة العرب: جـ ٥، ٦/ س١٤ ص ٤٧١ ،وأكد محمد أسد كذلك أن التشابه اللفظي لا يعد حكماً عليهم بأنهم من الصليبيين (الطريق إلى الإسلام ص٢٨٠).

توحي بأنهم كانوا ضحايا حرب مدمرة عظيمة نشبت بين الأمم، ويبدو أن هذا الرأي يؤيد في بعض جوانبه الرأي الأول في وجود صلة جنسية بين بعض الفئات التي تشبه الصلب في الكثير من نواحي الحياة[1].

كما يقول أحد الآراء إن أجداد الصلب قد خذلوا الحسين بن علي رضي الله عنه وأتباعه في وقعة كربلاء (٦١هـ/ ٦٨٠م) وبذلك يكون لهم ضلع في جريرة هذه المقتلة، وهذا يوحي بأن الصلب كانوا من الرافضة لأنهم هم من الذين خذلوا الحسين ومن قبله أباه عليا رضي الله عنهما وأرادوا التكفير عن ذلك بالمغالاة في حب علي وأبنائه، وفي هذا ما يوحي بأن أصل الصلب من شبه الجزيرة وأنهم تفرقوا في البلدان حولها كالعراق والشام وبقي منهم قسم في شمال شبه الجزيرة، ومعنى هذا الرأي أن وحدة إقليمية تجمع بين الصلب والنور في هذه المناطق ولاتشمل غيرهم من الفئات المشابهة لهم كما يقول الرأي الأول[2].

ولايجد الباحث ذاكرًا لهذه الفئة في المصادر اللغوية العربية باللفظ الذي تعرف به الآن، بل يجد ذاكرًا لفئة من الناس كانت معروفة في ذلك الوقت وتتشابه أوصافها مع الصلب، وقد أطلق عليها اسم الزعانف[3]، ويقرر

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/ ٣٢٠، ومروياتي عن هذه الفئة.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : ١٤/ ٣١٠، ٣١١، ويحيك بعض المؤرخين عنهم إشاعة تقرب من القول بأن للصلب صلة بقصة كربلاء: (أحمد السباعي: تاريخ مكة. ط (٤)، دار مكة نشر نادي مكة ط (٤) دار مكة. نشر نادي مكة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ص ٩٤، ٩٥).

(٣) قال في القاموس والتاج (الزعنفة طائفة من كل شيء والزعنفة من كل شيء الرذل الرديء والزعنفة القطعة من القبيلة تشذ وتنفرد، أو هي القبيلة القليلة تنضم إلى غيرها من الأحياء الكثيرة، وما تخرق من أسفل القميص يشبه به رذال الناس، والزعانف أجنحة السمك وبها شبهت الأدعياء لأنهم التصقوا بالصميم كما التصقت تلك الأجنحة بعظم السمك، وقال الزهري: «كل جماعة ليس أصلهم واحد، كما تطلق على النساء الخسائس، وقد تجمع على الزعانيف بمعنى الجماعة المتفرقة من الناس، ومنه قول عمرو بن ميمون: إياكم وهذه الزعانيف الذين رغبوا عن الناس وفارقوا الجماعة انتهي بتصرف. (الفيروزآبادي: ٣/١٤٨، الزبيدي: ٦/١٢٨).

أحد الباحثين أن الزعـانف يشبهون الصلب تماما إن لم يكـن الصلب يرجعون في أصلـهم للزعـانف[1]، ويبدو مـن الاطلاع على أوصـاف كل من الفـئتين وجاهة هذا الـرأي إلى حد ما، ويمكن اعتبـاره مؤيداً للرأي الثانـي من جهة، ورأيا مستقلا من حيـث إنه ينظر إلى الصلب على أنهم قد تعـرضوا للنبذ منذ فترة متقدمة ممـا يوحي بأنهم من القادمين إلى شبه الجـزيرة، ويبقي هذا الرأي قابلاً لـلنقاش وربما الـقبول، وإلى أن تتوافـر الأدلة المؤيدة له يـظل من الآراء الجانبية التي تبحث في أصل الصلب.

ومن الجدير بالذكر هـنا التعريف بين الصلب والسيدان حـيث يتمتعون بأخلاق أعلى من الصلب، ويختلف الصلـب عنهم بأنهم أعرق نسبا، ويسمى السيدان «السيار» لامتهانهم الطـواف في الأرض، وهم يتفقون مع الصلب في هذا، كمـا يتفقون مـعهم في أغلـب المهن والحرف التـي يقوم بها الـصلب، ويختلفون عن الصلب بعدم مهارتـهم في القنص والدلالة، ويعتبرون في عداد الأرقاء المحررين أو الفئات المجهولة أنسابهـم عند الحضر، ويتفقون مع الصلب في المسالمة، وقد يتبع الصلب أو السيدان أفـراد من القبائل المعروفة فيتعرضون للاحتـقار، ويبدو أن هـذا من أسباب احتـقار فئات ترجـع إلى هذه القـبائل المعروفة[2].

٢- حياتهم الاجتماعية ومدى تأثير الدولة السعودية والدعوة السلفية فيها:

يؤدي صلـب نجد أدوارا اجتماعيـة مهمة رغم مـاكانوا يعانون مـن نبذ المجتمع النجدي فهم يقومون بكـافة أعمال الحدادة المعروفة آنذاك كطرق وصنع بعض أدوات الزراعة والسكاكين، والأسلحة، ولقد كانت القِرْدة الصلبية (نوع من السـيوف التي يصنـعونها) تحظـي بالقبول والإعـجاب من سائر النـجديين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/ ٣١٠.

(٢) ابن رداس: ٢١٦، ومروياتي عن هذه الفئة.

لحدتها[١] . وعموما فهم يقومون بكافة الأعـمال الحديدية، وقد بلغوا بها درجة وصفهم بـها الباحثون الـغربيون بأنهـم حدادون مهرة[٢] نتيجة انبـهارهم بدقة مشغـولاتهم الحديدية، عـلاوة على أنهم يصـنعون ويصلحـون كافة الأدوات المنزليـة وغيرها من النحاس، سـواء كان ذلك صنعا أو رقعا أو جـلوا لما علاه الصدأ في بـطنه وهو مايسمي بـالربابة[٣] (بتشديد الراء مـع كسرها)، كما أن منهم نجارين مهرة يقومون بصنع كافـة ما يحتاجه المجتمع النجدي من الأواني المنزلية الخشبية، وأشدة الإبل، وسروج الخيل ، ومحامل الحمير[٤]، وبشكل عام فإن شغل الخلاوية وهم الصلب لايتقـدم عليه عمل لدى النجديين حاضرة وبادية، كما أن لديهم قدرة تامة على قيافة الأثرتوازي قدرة بني مرة لها[٥] .

وبالإضافة إلى ما كـانوا يمدون المجتمع به من الحيوانات والـطيور البرية نتيجة القنص، فهم يمدونه كذلـك بجلود ووبر وريش هذه الحيوانات والطيور، كما يقومون بتربـية الغنم وأحيانا الإبل، ولكنهم اشتهروا بـتربية الأتن البيض السريعة الجري، ويعتبر الصلب بشكل عام من أمهر مربي الحمير، ويقال إنهم

---

(١) عبدالكريم الجهيمان: الأمثال الشعبية ٥/٢٨٥ وذكر المثال: " قرْدة صلبي تحقرها وهي تقص العظم.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ٣١٦/١٤.

(٣) الرِّبابة بمعنى الجلو والجلي لم أجد لها أصلا فيما بين يدي من كتب اللغة الا أن تكون من الرب الذي هو بمعنى الإصلاح قال في القاموس «رب الأمر أصلحه» أو تكون من البياض والتبيض قال في القاموس أيضاً: «الرباب السحاب الأبيض» أما الجلو ففصيحة، قال في القاموس: «جلا السيف والمرآة جلوا وجلاء صقلها، وجليت الفضة جلوتها (الفيروزآبادي ١/ ٧٠، ٧١، ٣١٣/٤).

(٤) المحامل: جمع محمل بفتح وكسر الميم. جمع يطلق ويقصد به التثنية، وهي فصيحة إلا أنها في الأصل كانت لما يحمل فيها على العبير قال في القاموس: «والمحمل كمجلس شقان على البعير يحمل فيها لأن الجمع محامل» أما المقصود بها هنا فهي شقان ينجران من الأخشاب ليحمل فيهما على الحمار. (الفيروزآبادي: ٣٦١/٣).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية: ٣١٦/١٤، ٣١٧، محمد أسد: الطريق إلى الإسلام ٢٨١.

يصيدون حمر الوحش ويروضونها ويستغلونها في الإنتاج والتهجين وقد أنتج اهتمامهم بهذه التربية حميرا تحتفظ بمستوى عال من القوة والخدمة مما جعلها تحظى بتقدير عظيم من سائر النجديين بل ذكر بعض الباحثين الغربيين أن هذه الحمير كانت تصدر إلى أوروبا في بعض الأحيان، وقد اشتهروا كذلك بمعرفة علل الحمير وعموم الحيوانات[١].

ويسدي الصلب خدمات علاجية للمجتمع النجدي، وهم في هذا يستخدمون كافة أنواع العلاجات المعروفة آنذاك من تحسس للألم بالأيدي طبقا لأصول فنية أشاد بها الباحثون الغربيون، ومن استعمال للمراهم التي يجلبونها من المراكز التجارية، ومن استعمال للمساحيق والمشروبات من نباتات البيئة المحلية وغير المحلية يصنعونها ويدخلونها في هذه العلاجات، علاوة على دقتهم وحذقهم في معرفة مواطن الكي لمعظم العلل، وهم بعد ذلك لايتورعون عن استخدام كافة أنواع السحر في سبيل هذا العلاج وعبر كل هذه العلاجات، وبما حذقوه من التجارب فهم أطباء النجديين عموما والبدو خاصة، يثق بهم كلا الفريقين حاضرة وبادية[٢].

ومن أبرز مظاهر حياتهم الاجتماعية والتي سببت احتقارا متأصلا من النجديين ضعف نفوسهم وتطلعها لما في أيدي الناس مما جعلهم يمتهنون السؤال الذي لايمتهنه أحد إلاسبب له ذلا ومهانة فكيف بمن استمرأ امتهانه ونشأ عليه أولاده؟ ومن هنا جاء المثل النجدي قاسيا على الصلب ومبالغا في وصف

---

(١) عمر كحالة: ٢/ ٦٤٧، دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/ ٣١٥، ٣١٦، العبودي الأمثال العامية ٧٣٤/٢ وأورد المثل رقم ١٦٢ «الصلبي أبخص بمكاوي الحمار» أي أعلم متى وكيف وأين يكون الحمار إذا مرض» .

(٢) كحالة: ٢/ ٦٤٧، دائرة المعارف الإسلامية ٣١٧/١٤.

حياتهم حيث يقول: «صلبي حياتـه ماهيب لله ورزقه على خلق الله»[١] ، إلا أنه على قسوته ومبالغته فهو يصور أحد أسس حياتهم كما يصور فكرة تأصلت عنهم لدى الـنجديين، وهي قبولهم أي شـيء في سبيل هذه المهنـة مهما كان حقيرا وفي هذا يقول أبو حمزة العامري[٢] راثيا ابنة عمه:

ما أسلى عنك إلا أن سلى الصليبي عن حيا

الله أو يسلى الطفل عن ديد أمه الغالي[٣] .

وقد بلغ من بغض النجديين وخاصة باديتهم للصلب والذي كان نتيجة لتأصل النظرة السيئة تجاه هذه الفـئة، بلغ هذا البغض حد التشاؤم من رؤية أي فرد من هؤلاء أحـد الصلب عند القيـام بأي عمل مما يدفعه إلـى تركه، وهم ينســجون حول هذه الفكـرة صورا من الإشاعات عن هـذه الفئة تتدرج كـلها

---

(١) عبدالكريم الجهيمان : الأمثال ٤/١٥٠.

(٢) هو أبو حمزة العامري السبيعي لم يفدنا رواه الشعر الشعبي بأي معلومات عنه غير لقبه ونسبه اللذيْن أخذوهما من بيته الذي يقول فيه:

يقول أبو حمزة من سلال عامر: خيالها المعروف بالهيجائي

وهو من شعراء أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجريين، ويرى فهد الربيعان في كتابة العرينات أنه من سلالة عامر بن عقيل بن عمر من العرينات، (فهد المحمد الربيعان: العرينات- مطابع البادية. الرياض ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ١/٣٣، ٩٨، عبدالله الحاتم: خيار مايلتفظ ١/٣٣، ٣٥).

(٣) سلاه وأسلاه: أنساه، فتسلى: نسي، حيا الله: استعمال نجدي لم أرله أصلافيما بين يدي من كتب اللغة وهو يعني أي شيء مهما كان قليلا أو صغيرا، ديد: الثدي وهي كلمة آرامية لاأصل لها من العربية وتنطق في الآرامية (ديدا) أما الديس- وينطق بها بعض النجديين خاصة البدو- فقال فيها الفيروزآبادى: الديس: الثدي عراقية لاعربية والآرامية هي لغة الآراميين الذي يعود أصلهم إلى شبه الجزيرة العربية وأطلق عليهم ذلك الاسم وانتشرت لغتهم باسمهم في مناطقهم الجديدة أي بادية العراق والشام. (الفيروزآبادي ٢/٢١٨، ٤/٣٤٤، العبودي: الأمثال ١/١٢٣، الموسوعة العربية ١٠٩ وعن البيت : عبدالله الحاتم: خيار ١/٣٤) .

حول التشاؤم وعدم رؤية المرء ماسره إذا عرض له أحد هؤلاء، وكما يقول المثل في هذا «عرضة صلبي»[1].

ويبدو أن ارتباط لفظة الصلبي في نجد بمفاهيم التدني الأخلاقي، وعدم الاهتمام بالنظافة العامة، وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق. يبدو أن هذا هو السبب الرئيس في كره الصلب لإطلاق هذه الفظة عليهم اذ أنهم يرغبون في إطلاق لفظة الخلاوية ومفردها خلاوي حتى أنه إذا أطلقت على أحدهم خلاوي هش وبش، وإذا أطلقت عليه صلبي غضب ونفر منك، وعلاوة على ما سبق فإن ارتباط لفظة الصلب ببعض النجديين جعلت هذه الفئة تنفر منها، ثم إن لفظة الخلاوية تقربها من عامة البدو لاتفاقها في سكني البادية والتخلوى فيها، ومن هنا فإن إطلاق لفظة الصلب في معنى الذم كما أن لفظة الخلوية فيها معني المدح لهذه الفئة، حتى أنه قد تواتر لدى النجديين إذا أرادوا أن يذموا شخصا لايهتم بنظافته قالوا عنه صلبي، بل إن البدو يسمون أحيانا بعض أولادهم باسم صلبي إذا رأوا فيه بروز بعض صفات الصلب[2].

ونظرا لحب الصلب للمسالمة، ونأيهم بأنفسهم عن التورط في المنازعات التي تنشب بين القبائل العربية، وعدم وقوع مثل هذه الغزوات بينهم كذلك، فلم يكونوا أعداء طبيعيين لأي أحد في نجد حاضرة وبادية رغم امتهانهم للدلالة التي قد تؤدي إلى إحدى الغزوات، ومن هنا فقد كفوا أنفسهم حمل السلاح ماعدا أسلحة الصيد، على أن هناك عاملا آخر جعل حياتهم آمنة في صحراء نجد الموحشة، وهوا احتقار النجديين عموما والبدو خصوصا للصلب إذ ينظر المجتمع النجدي إلى كل من تعدي عليهم أو غزاهم نظرة ساقطة باعتباره - وخاصة في نظر قومه - فاقدا لشرفه سواء كان هذا التعدي بالسلب

---

(١) العبودي ٢/٤١٨، ٨١٥.

(٢) الجهيمان: الأمثال ٤/٢٦٥، وأورد فيها المثل «طهارة صلبي»، ومروياتي الشفوية عن هذه الفئة.

أو بأي ضرب من ضروب التعدي الجسدية وغيرها، ومن هنا جاء المثل النجدي معبرا عن أمن الصلب في تركهم مواشيهم ترتع دون خوف من سارق حيث يقول هذا المثل: «الخلوى أباعرة همل»[١]؛ أي لايمكن أن يقربها أحد، وتلك نعمة أمنيةيفتقدها سائر المنبوذين في أنحاء العالم بل تمتع الصلب بها بين عامة النجديين وسط مجتمع يعيش حياة القلق والرعب والخوف في كل لحظة من لحظات حياته[٢].

ومن جهة أخرى فإن لهذا الأمن أساس مادي في أغلب الأحيان إذ أن الصلب غالبا مايلجأون إلى القبائل المرهوبة الجانب مقابل إتاوة «ضريبة الإخاوة» ويدعي من يقوم بهذا العمل من القبائل حامي، وتتركز هذه الحماية في القبائل التي تتركز سواطنها في شمال نجد بحكم تركز الصلب في هذه المناطق، إذ أن بعض أفراد من البدو قد يطمعون في حيوانات الصلب الكبيرة من الإبل والخيل علی أن ذلك نادر ندرة وجود مثل هذه الحيوانات لدي الصلب لأنهم في غنى عنها[٣].

وإن براعة الصلب في تعدد الأدوار الاجتماعية المهمة التي مرت تعطينا

---

(١) أباعر أحد صيغ الجمع للبعير فصيحة، وهمل: بمعنى مهمل متروك ليلاونهارا فصيحة وسيرد الكلام عند أثر الدعوة على الحياة الاجتماعية لدي بادية نجد على تنظيم الدولة السعودية الأولى المستند من تنظيم الإسلام لأوضاع الهمل (الفيرزوزآبادي ٣٧٥/١، ٧١/٤، وعن المثل: الجهيمان ٥٥/٣)

(٢) عمر كحالة: ٦٤٧/٢، محمد أسد ٢٧٩، ٢٨٠، دائرة المعارف الإسلامية ١٤/ ٣١٨.

(٣) الحقيل ٢١١، دائرة المعارف الإسلامية ٣١٦/١٤، ويمكن عقد مقارنة بين ماذكره محمد أسد ص ٢٨٠ من احتمال أن يكونوا من شمالي شبه الجزيرة، وبين تركيزها فيها فعلا واحتمائهم بالقبائل الموجودة في المنطقة كذلك، كما يمكن عقد مقارنة بين ذلك كله وما ذكره محرر مادة صليب في دائرة المعارف الإسلامية ٣١١/١٤ من تركز الصلب في وسط شبه الجزيرة وشمالها فقط، وعدم عثور الرحالة الغربيين الذين رحلوا إلى جنوبي شبه الجزيرة على أناس منهم.

تصورا لما كان عليه الصلب من وعي اجتماعي استغلوه لصالحهم حتى يبقى المجتمع النجدي حاضرة وبادية بحاجة إليهم، وبشكل خاص فالبدوي يقدر في الصلبي براعته في تلك الأدوار إذ أنه رغم احتقاره للأعمال البدوية ومن يقوم فيها بحاجة ماسة إليها، ولذلك فهو يتطلع إلى الصلب في الحصول على حاجته منها، وهذا عامل مهم لحصانتهم في المجتمع النجدي حيث استطاعوا بهذا الوعي الاجتماعي أن يكوّنوا من أنفسهم فئة اجتماعية مهمة لاغنى للمجتمع عنها فهي قد جعلته يكفي نفسه بنفسه إلى حد ما فيما يحتاج إليه من حرف أساسية لتسيير دفة الحياة فيه[1].

ومن أبرز عادات الصلب الاجتماعية الرقة والصراحة اللتان تميزانهم عن البدو الصرحاء الذين دأبوا على التحفظ والشك ويستحيل على المار بمساكن الصلب في الصحراء أن يجد مايقريه، وإذا وجد شيئا من ذلك فهو دون المستوى الذي يحصل عليه من البدو بنسبة كبيرة، ويعتمد الصلب على مهارتهم في الصيد لتوفير اللحوم لأنفسهم[2].

ويسكن الصلب في بيوت شعر ولكنها في مستوى أقل من بيوت البدو وبعضهم قد يأوي إلى الكهف والعيش في الخلاء والعراء أما زعماؤهم فهم يسكنون في بيوت تبدو كبيرة، على أن هذا مرهون بالوضع المادي للمنطقة التي يتجولون فيها، وعموما فهذه المساكن تلتقي في ظاهرة تدني نسبة النظافة فيها وحولها[3].

---

(١) محمد أسد ٢٨٠، دائرة المعارف الإسلامية ٣١٧/١٤.

(٢) المرجع السابق ٣١٤/١٤، ٣١٥، جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب ترجمة قدري قلعجي نشر دار الكاتب العربي بيروت مكتبة النهضة: بغداد ص ٢١٩.

(٣) المرجعان السابقان: ٣١٨/١٤، ٢١٩.

وتضم فئة الصلب مجموعة قبائل ذات متعددة قد تصل إلى ثلاثين فخذا وهم منتشرون في شمالي نجد وشرقي شبه الجزيرة وجنوبي العراق، وتمتد منازلهم إلى بادية الشام، وهم يقيمون ويرحلون زرافات صغيرة، وليس مثل تنقلات البدو التي تتم على شكل جماعي، والصلب لايبعدون كثيرا عن مواطنهم إذ لم يذكر أنهم قاموا برحلات بعيدة، وقد فصل عدد من الباحثين في ذكر قبائل وأفخاذ الصلب، وبعضهم أدخل فيهم قبائل وأفخاذاً من البدو الصرحاء، ويبدو أن ذلك تحت تأثير بعض القبائل المعادية لهما، أو لوجود فئات منها قد تتشابه مع الصلب في بعض العادات والتقاليد[1].

وإذا كان من الصعب الانسياق وراء الروايات الغربية حول معتقدات الصلب، والتي ألمحت إلى شيء منها في الرأي الثالث عن أصلهم، إذا كان هذا من الصعب لأنها لاتملك دليلا على صحة وجود مثل هذه المعتقدات ، فإن من الضروري هنا عرضها هي وغيرها حتى نتمكن من الوصول إلى رأي الدعوة فيهم، وحتى نصل في النهاية إلى مدى تأثيرها في حياتهم العامة مهما كان هذا التأثير محدودا.

ولعل من أبرز آثار المسيحية التي يذكر بعض الباحثين أنها موجودة في الصلب هي استعمال الصليب، والعماد في اليوم العاشر أو الأربعين بعد الولادة وأنهم حين يصلون يمدون أذرعتهم حتى تكون على شكل صليب، وأن فيهم بعض آثار الصابئة ويحجون إلى مراكز الصابئة في الشام (حران) حيث لأقربائهم فيها شعائر وترانيم للصلاة، كما يروي بعض الباحثين، كذلك أنهم يعبدون النجوم وخاصة النجم القطبي ونجما في كوكب الكبش، وما من شك

---

(١) الحقيل: كنز الأنساب ٢١٠، ٢١١، حمد الجاسر: معجم قبائل المملكة: ١٣٨/١، ٣٤١، ٣٤٢، ٤٤٢، ٤٤٣، ٦٨٥/٢، ٨٧٨، عمر كحالة: ٦٤٦/٢، دائرة المعارف الإسلامية ١٤/ ٣١٢، ٣١٣، ويجدر بالذكر هنا وجود قبائل وأفخاذ تتشابه مع الصلب في الاسم، ولكنها ترجع إلى أصول وقبائل صريحة معروفة.

أن لدور هذه النجوم في تسهيل مهمتم كأدلاء مشهورين قد ساهم في وجود هذه العبادة إن صحت، ويقرن أحد هؤلاء الباحثين بين الصلب وبين اليهود فيزعم أن فيهم آثاراً من اليهود حيث يصلون ثلاث مرات في الشروق، وفي الظهر، وعند الغروب، ويغرب أحد الغربيين في القول حينما يدعي أن لجميع الصلب طريقا واحدا وأن الكهنة والكاهنات ينتشرون بينهم حيث تنعم الكاهنات باحترام خاص ويطلق على الواحدة منهم فقيرة (أي ناسكة متبعدة)، ويزعم الصلب ومعهم هذا الباحث أنهن يشفين المرضى بمجرد وضع أيديهن عليهم، وقد خلص محرر مادة صليب في دائرة المعارف الإسلامية من هذه الأفكار إلى احتمال إيمان الصلب بالمسيحية سرا[1].

ورغم عدم اطمئنان الباحث إلى صحة وجود هذا الزخم الهائل من الأفكار الدينية لدى الصلب والتي حفلت بها وغيرها دائرة المعارف الإسلامية فإن من الصعب إدخالها في دائرة النفي بل تبقى تحت دائرة الشك، وقريب من هذه الأفكار ماذكره نيبور[2] من أنه كان يوجد في منطقة نجد صابئة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢١٨/٤، ٣١٩.

(٢) هو كارستن نيبور ولد في هانوفر التي تقع شرقي ألمانيا الغربية سنة ١١٤٥هـ/ ١٧٣٣م وهو دانمركي الأصل ولما تعلم شيئا من العربية أرسلته حكومة الدانمرك مع بعثة هو خامسها، ولما وصلوا اليمن ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م مات جميع أفراد البعثة ماعداه فأبحر إلى مسقط فبغداد فالموصل وعاد إلى بلاده عن طريق استانبول ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م، صنف بالألمانية مارآه في بلاد العرب ثم ترجم إلى الفرنسية فالإنجليزية تحت عنوان: «رحلات عبر بلاد العرب وأقطار أخرى في الشرق» ويعتبر أول كتاب نقل أخبار دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب إلى أوربا، ولكنه لم يصل نجدا، مات في الدانمرك سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م. للتفصيل: (د: عبدالله العثيمين: نيبور ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحث نشر في مجلة كلية العلوم الاجتماعية ع/٢ عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م من ص ١٧٥- ١٨٣، الزركلي ٦٣/٦، مسعود الندوي:محمد بن عبدالوهاب. ترجمة عبدالعليم البستوي، ط (١) مطبعة زمزم. مكة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ٢٣٥، ٢٣٦، د: صلاح العقاد رحلة كارستن نيبور بحث قدم للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (البحث بأكمله)جاكلين بيرين ١٤٦- ١٧٨).

ونصارى من أتباع سانت جون وقليل من اليهود، وإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه المعلومات استقاها نيبور من بدوي وقد يكون صلبيا اشتبه به نيبور- وهو من شرق شبه الجزيرة وليس من نجد، فإن الشك والحذر يجعلان الباحث يستبعد صدق هذه المعلومات، علاوة أن صدورها من هؤلاء الغربيين يزيد الباحث شكا وحذرا أكثر[1].

ويلمح الباحث شبه اتفاق بين الرحالة الغربيين الذين زاروا نجدًا في تأكيدهم على الوجود المسيحي واليهودي والصابئي في نجد، فيقرر بلجريف[2] وغيره أن ديانة الصابئة كعبادة النجوم والشمس والقمر، وأن عدم الطهور وبعض المخالفات كانت موجودة لدى بعض الفئات في نجد، ولا يبعد أن يكون بلجريف قد استقى هذه المعلومات من نيبور بشكل خاص، وأن يكون الصلب هم المعنيون بوجود هذه الأفكار بينهم، بل يقرر أحد الغربيين أن السلفيين قد حطموا عامودًا مسيحيا في بعض بلاد نجد، وهو مالم تشر إليه

(١) مجلة كلية اللعلوم الاجتماعية،العدد السابق ١٧٧ من مقال الدكتور العثيمين، د: محمد محمود الصياد: الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر بحث قدم للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ص ٢.

(٢) هو الرحالة الإنجليزي وليم جيفورد بولغريف ولد سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م كان يهودياً ويقال إنه اعتنق النصرانية فصار أبًا وانتقل من إنجلترا للعمل بإحدي المؤسسات التبشرية في لبنان تحت اسم الأب ميخائيل، أرسله نابليون الثالث إلى جزيرة العرب المعرفة أوضاعها السياسية، ورغبة ظاهرة في شراء خيول عربية، وتزيا بزي الطب فوصل نجدا عام ١٢٧٤هـ/ ١٦٦٨م وزار معظم أقاليمها، وصنف عنها رحلاته ولكنه تحامل فيها علي السعوديين الذين اشتبهوا بحقيقة أمره فتحامل على المنطقة سياسيا واجتماعيا، مات سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م. للتفصيل: (د: عبدالفتاح أبو علية، الدولة السعودية الثانية. نشر مؤسسة الأنوار الرياض ص ١١٦- ١١٨، د: جمال زكريا قاسم: الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحث قدم للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٠- ٢٤، أمين الريحان: نجد وملحقاته ط (٤) مؤسسة الريحاني- بيروت ٩٦، ٩٧، جاكلين بييرين ٢٩٨- ٣٢٢، مسعود الندوي: المرجع السابق ٢٣٩، ٢٤٠).

المصادر المحلية وهـي الحريصة على إبراز أي عمل تقوم بـه الدعوة والدولة من أجل تغير الحياة الدينية في نجد إلى الأفضل[1].

ورغم أن الباحث بل الإنسان العادي الـذي لديه أدنى اطلاع على حياة النجديين قبل الـدعوة- ولو من خلال المرويات الشفوية علـى الأقل- يستنكر القول بـوجود مثل هذه الأفكـار الدينية في نجـد حتى بين الصلـب، رغم كل ذلك فإن الاطلاع على مثل هذه الأفكار الـغربية ضروري لمعرفة رؤية المؤرخين الغربيين تجاه القـضايا التي لها مساس بالعالم الإسلامـي، خصوصا وأن بعضا من الباحثين قد يقبل بوجود مثل هذه الأفكار.

وإذا كان أهل مكة أدري بشعابها فإن معرفة معتقدات الصلب يجب أن تستقى من النجديين أنفسهم الذين تواتر لديهم أن هذه الفئة تشبه في معتقدها كفار البوادي قبل الـدعوة الذين كانوا يعيشون في جهلاء، ولـكنهم كانوا مادة خاما لم تـنتشر بينـهم تلك المعتـقدات التي تحمس الـرحالة الغربيـون لإثبات وجودها في المنطقة، ويصور ذلك بيت الخلاوي الذي سبق:

قوم طـغوا والـناس فـي جاهـليـة   وأزرى بهم شرك تطامى غبايبه[2].

وإذن فوجود الشركيات والبعد عن الـدين عند الصلب صورة من صور البعد عن الدين والجـاهلية لدى البدو بشكل عام، ويمكن أن يـضم إليها تلك الصورة المعبرة التـي ذكرها الخلاوي أيضا عن البدو وربما الصلـب كذلك فيما يتعلق بالحياة الدينية حينما قال:

---

(١) جاكلين بيرين ٣١٤، ٣١٩، ديكسون: الكويت وجاراتها. ط (١) نشر جاسم الجاسم ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ص ١٠١، د: محمد أنيس الدولة العثمانية. ط دار الجيل، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ص ٢٢٨، ٢٢٩، محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام ص ٧.

(٢) عبد الله بن خميس: الخلاوي ٢٥٢.

فإن سلـت قومي يامـنيع فلاتـسل أحجار وأشـجار يعبدون خـايبه[1]

والبيت وما بعده سيرد ذكره عند الكلام على الحياة الدينية لدى بادية نجد قبل الدعوة والدولة السعودية.

ولقد كانت الدعوة واقعية في نظرتها لتلك الفئة التي يلف بها الغموض من كل جانب حينمـا تطرق بعض علماء الدعوة لعقيدة هـذه الفئة في معرض حديثهـم عن الصيد إلى صـيد الجلاء[2] وهو صيـد الصلب، وذكـروا فيه أن هؤلاء القوم مثلهم فـي هذا الشأن مثل كثير من بادية نجد في تـلك الفترة غاية في الكفر والضلال، وأنهم في حكـم المرتدين الذين لايصلون، ولايزكون ولا يدينـون بالشرع، ولايؤمنـون بالبعث ولايـرون التسميـة على الصيد كـما هو مشهور لديهم، وبالتالي فذبيحتهم حرام، وهذه النظرة من بعض علماء الدعوة لاشك أنها مبنية على معرفة لعقائدهم وأسلوب حياتهم[3].

وقد اشتهـر لدى الصلب أكلهم لـلجيف وعدم تحرجهم وهـم يصيدون الحيوانات والطيـور عامة عن صيد وأكل الحيوانات والطيـور مما له ظفر أو ناب ومما اشتهر تحريمها، بل يأكلون في هذا كل ما يمكن أكله بلا حرج من عرف أو

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٧.

(٢) الجلاء: لم أجد لهذه اللفظة أصلا فيما بين يدي من كتب اللغة إلا أن تكون بمعنى الرمي قال في القاموس «جلى ببصره تجلية رمي به» فيكون المعنى صيد الرمي، وأضاف ابن خميس معنى آخر حينما قال: «وقتل الصيد وجليه» أي تقديده وتيبيسه وبيعه وإهداؤه وذكر بيرين نقلا عن بركهارت تسميته بلحوم الطرائد. (الفيروزآبادي ٣١٣/٤، عبدالله بن خميس: من أحاديث السر. ط (١) مطابع شركة حنيفة الرياض ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ٢١٩/١، جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب ترجمة قدري قلعجي، دار الكتاب العربي بيروت، مكتبة النهضة بغداد، ص٢١٩.

(٣) عبدالرحمن بن قاسم: الدرر السنية ٤٧٢/٦- ٤٧٤، وللشيخ سليمان بن سمحان رسالة اسمها: كشف شبهات البغدادي في تحليله ذبائح الصلب والبوادي.

شرع حيث ذكر بعض الباحثين عنهم أنهم يأكلون النسر والكلب، وهذه الأمور وغيرها مما تواتر لدى النجديين وجودها في الصلب، وفي بعض بادية نجد في تلك الفترة هي التي دفعت الدعوة إلى اتخاذ موقفها من هذه الفئة، وهو موقف واقعي إذا قيس بتلك النظرات الغربية تجاه عقيدة هؤلاء، وهي نظرات لم يؤثر عن أحد من النجديين أنه قال بوجودها[1].

ورغم أن الباحث لايستطيع العثور على محاولات مكثفة من الدولة قامت بها لإصلاح وضع هذه الفئة عقديا واجتماعيا في نطاق عدم محاولة علماء الدعوة كذلك كشف حقيقة هذه الفئة بشكل واسع ـ عدا الإشارة السابقة ـ ، رغم كل ذلك فإن أحد الباحثين أشار إلى تعرضهم لهجوم من قحطان لأسباب دينية، وبغض النظر عن معرفة فترة هذا الهجوم فإنه- على ما يبدو- بإيعاز من أئمة الدولة السعودية أو محاولة دعوة من قحطان لضم هذه الفئة إلى الدولة السعودية ونشر مبادئ الدعوة فيها خاصة إذا علمنا أن قحطان من أبرز القبائل البدوية جهاداً في سبيل نشر مبادئ الدعوة، وقد ولدت هذه المحاولة أو غيرها مما لم تظفر بتفصيلات عنها بعض المؤثرات الاجتماعية مثل إيمانهم بالطلاق والختان، وهي مؤثرات لم تكن بالمستوى المرجو من تبعيتهم للدولة وإيمانهم بمبادىء الدعوة، على المؤثرات لم تصلنا معلومات عنها، وضاعت في سلسلة الدوائر القائمة التي رسمت حول هذه الفئة علاوة على أن الصلب- بما جبلوا عليه من المسالمة والانصياع للسلطة- ربما كانوا قد جاروا الدعوة ودولتها في ترك بعض معتقداتهم وعاداتهم القديمة، والتمسك ببعض المظاهر السلفية ولو ظاهرا شأنهم في هذا شأن بعض البدو[2].

---

(١) محمد أسد: ٢٨٠، دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/٣١٥.

(٢) المرجع السابق ١٤/٣١٦، ٣١٨.

وبعد فيمكن اعتبار الصلب فئة اجتماعية نجدية ذات أصل وعادات وتقاليد غير واضحة، وتاريخها التفصيلي يشكل معضلة من معضلات التاريخ الديني والاجتماعي في نجد، ورغم كثرة ما قيل عنهم من قبل الرحالة الغربيين فقد بقيت حقيقتهم التفصيلية لغزا محيرا استعصى على أكثر الرواد والبحاثة[1]، وغم انتشار الوعي الاجتماعي في الاقتناع بعدم وجود تفرقة اجتماعية من تلك التي كانت سائدة من قبل، فإن معرفة نظرة النجديين لهذه الفئة، واستمرار هذه النظرة القائمة لدى البعض حتى الآن كل ذلك يحتم علينا دراسة الجوانب التفصيلية لتاريخ هذه الفئة تخفيفا لحدة تلك النظرة، وقد آن الآوان لتحظى هذه الفئة باهتمام الباحثين والدارسين في حقلي التاريخ والاجتماع.

---

(١) الحقيل: ٢١٠، محمد أسد: ٢٧٩، بيرين: ٣٠٦.

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد قبل قيام الدولة السعودية

الفصل الأول : ملامح الحياة الدينية .

الفصل الثاني : أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد لدى بادية نجد.

١- نظرة البدوي للحضري .

٢- وضع المرأة البدوية ووظيفتها .

٣- الرق والأرقاء.

(أ) لمحة عن الرقيق في الخليج والجزيرة العربية في العصر الحديث .

(ب) الرقيق والخدم لدى بادية نجد .

٤- أمثلة من العادات والتقاليد لدى بادية نجد:

١- الكرم
٢- المسكن
٣- الملبس
٤- المأكل
٥- المشرب
٦- الخوة أو دبلوماسية البدو.
٧- نظام الغزو.
٨- السلب والسرقة.
٩- نظام الربيط والدخيل.

الفصل الأول

ملامح الحياة الدينية لدى بادية نجد

لقد كان إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله أول من قام بتحليل واف للحياة الدينية عند البادية في هذه الفترة وذلك من خلال بعض الكتابات والرسائل التي كان يبعثها إلى العلماء وأئمة المساجد في نجد.

ولعل تركيز الشيخ على البادية راجع إلى أنها تشكل غالبية المجتمع النجدى في هذه الفترة التي سبقت قيام الدولة السعودية[1]. وجاء تحليل الشيخ على شكل مناقشات وردود على العلماء الذين سبقوا الدعوة أو عاصروها ولم يؤيدوها، والذين يبدو أنهم في موقف الخوف من أبناء البادية الذين قال عنهم الشيخ: «إنهم يكذبون بالبعث وينكرون الشرائع، ويزعمون أن شرعهم الباطل: هو «حق الله»، ولو طلب أحد منهم خصمه أن يخاصمه عند شرع الله لعدُّوه من أنكر المنكرات [2]. ومن حيث الجملة فهم يكفرون بالقرآن من أوله لآخره، ويكفرون بدين الرسول (ﷺ) كله مع إقرارهم بذلك في ألسنتهم، وإقرارهم: أن شرعهم أحدثه آباؤهم لهم كفرا بشرع الله»[3]، ثم يقرر الشيخ حقيقة عن العلماء في هذه الفترة بأنهم يقولون: من قال لا إله الا الله فهذا المسلم حرام المال والدم، ولايكفر ولايقاتل حتى وإن كان من البدو الذين

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب الرسائل الشخصية ص ٤١، ابن غنام: روضة الأفكار والأفهام ١/١٤٤.

(٢) الشيخ في هذا يصور جانبا من جوانب القضاء العرفي لدى البادية هذا القضاء الذي كان يؤخذ مأخذ التسليم من ابن البادية وكانت عبارة « حق الله» إذا أطلقها البدوي فإنما يقصد بها مايحكم به القاضي العرفي هذا الحكم الرشوة التي تؤدى لإحقاق الباطل وإبطال الحق وقد ذكرهو الآخر أن العارفة طاغوت لأنه يصد الناس عن اتباع الشريعة، أفاد بأن عامة بدو نجد يتحاكمون إليه حتى القبائل التي فيها بدو وحضر.

(٣) الشيخ محمد بن عبدالوهاب مختصر سيرة الرسول ﷺ مطابع الرياض، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٣/٣٩.

سبقت الإشارة إلى وضعهم العقدي والعلمي السيىء.

وهؤلاء العلماء يعترفون بهذا كله معترفين أيضا بأنه ليس فيهم من الإسلام شعرة إلا أن الخوف من البدو جعلهم يحكمون بإسلامهم ويتلقى هذا الحكم العامة عنهم، ولقد كان الشيخ شديدا على هؤلاء البدو كما كان شديدا على العلماء الذين لم يبذلوا محاولات لإصلاح هذا الجانب المهم في حياة البدو بل جاروهم في جهلهم وضلالهم، ويبدو أن جدالا فكريا حادا بين الشيخ وهؤلاء العلماء قد جرى حول هذه المسألة لأنهم قالوا عن الشيخ: من كفّر مسلما فقد كفر. لكن الشيخ يقول عنهم: «إن المسلم عندهم الذى ليس معه من الإسلام قيد شعره إلا أنه يقول بلسانه: (لا إله إلا الله) وهو أبعد الناس عن فهمها وتحقيق مطلوبها علما وعقيدة وعملا»[1]. وقد زاد الشيخ المسألة إيضاحا فقرن بين البدو وبني حنيفة أشهر أهل الردة وأعرفهم إلى أهل نجد لأنهم منها، إضافة إلى أنهم عند الناس أقبح أهل الردة وأعظمهم كفرا، ومع ذلك فهم يشهدون أن لا إله إلا الله ويؤذنون ويصلون ولكنهم لم يؤدوا أركان الاسلام كاملة فلذلك عُدُّوا من المرتدين[2].

والشيخ في هذا يستغرب كيف أن هؤلاء العلماء لايكفرون هؤلاء البدو مع أنهم مقتنعون بكفر بني حنيفة بعد ردتهم مؤكدا ناحية مهمة وهي أن هؤلاء البدو كانوا يسخرون ممن كان يؤدي شعائر الإسلام ويدعو إليها، وهذا وإن كان عن جهل إلا أنه يتطلب إصلاحا من جانب هؤلاء العلماء ولو أدى ذلك إلى المحاربة، وقول هؤلاء العلماء: «إن البدو مسلمون ولا تركوا الإسلام كله وأنكروه واستهزأوا به على عمد لأنهم يقولون لاإله إلا الله فقط[3]». هذا

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب: المصدر السابق ص٣٩، ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص٤١.

(٣) المصدر السابق ص ٤١.

القول هو ما أثار حفيظة الشيخ وجعله يطيل النقاش في هذه المسألة التي مامن شك في أن دفع هؤلاء العلماء في تقريرها هو الخوف الشديد من البدو كما مر وإثارة مشكلات وشبهات على الشيخ محمد ودعوته.

ويقرن رحمه الله بين شيعة على بن أبي طالب رضي الله عنه لما اعتقدوا فيه من الألوهية عاملهم أشد من معاملة اليهود والنصارى فأحرقهم بالنار وأجمع الصحابة وأهل العلم على كفرهم بسبب غلوهم فيه رضي الله عنه وهم يقومون الليل ويصومون النهار ويقرأون القرآن.. يقرن بين هؤلاء الذين يعتقد علماء نجد بكفرهم وبين بدونجد الذين كفروا بالإسلام كله إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله[1].

وهو في هذا يزيد الصورة عن الحياة الدينية عند البدو إيضاحا مقررا أن لافرق بين هؤلاء وأولئك وإن اختلف أسلوب التفكير الديني عندهما، وهو في الوقت نفسه ينعي على هؤلاء العلماء موقفهم السلبي من هؤلاء البدو في عدم دعوتهم إلى تصحيح العقيدة.

ويستمر رحمه الله في تقرير حقيقة أن البدو في جاهلية قبل الدعوة مما يجعلهم في حاجة ماسة إلى من يوجههم التوجيه الإسلامى الصحيح وهو في هذا يمقت بعض علماء نجد الذين وصموه بالكفر لمخالفته ماتوارثوه من عادات وعزمه على السير في طريق الدعوة لعموم أهل نجد وخاصة باديتها ليقول: «فكيف بمن لم يكفر البدو ومع إقراره بحالهم؟ فكيف بمن زعم أنهم هم أهل الإسلام وأن من دعاهم إلى الإسلام هو الكافر»[2].

وفي نطاق تحليله الوافي لحياة البدو الدينية قبل الدعوة يقرن بين وضع البدو فيها وبين وضع العبيد بين الفاطميين في البعد عن حقيقة هذا الدين وإن اختلفت أساليب هذا البعد بين هذين الفريقين، ولاشك أن تحليله لهذا المجال

---

(١) المصدر السابق ٤٤.

(٢) المصدر السابق ٤٥.

ينم عن إدراك كامل لحقائق المتغيرات الدينية التي طرأت على المجتمع الإسلامى عن طريق فهم أحداث التاريخ وتسخير هذا الفهم لاستنباط الدروس والعبر من هذه الأحداث في طريق الدعوة فيقول: «فانظر بين هذا وبين ديننا الأول أن البدو إسلام مع معرفتنا بما هم عليه من البراءة من الإسلام كله إلا قول: لا إله إلا الله»[1].

ويواصل عرضه لوقائع من التاريخ الإسلامى لقضايا خالف فيها أصحابها بعض شعائر الإسلام أو ارتدوا عنه، أوأساءوا له كالتتار، ويقرن بينهم وبين البدو الذين يعرف عنهم علماء نجد: «أنه ليس معهم من الإسلام شعرة إلا قول: لا إله إلا الله»[2]، ثم يوضح الشيخ عن هدف هؤلاء العلماء الذين لم يكفروا البدو بأنهم يريدون القضاء على هذه الدعوة في مهدها حيث أفتوا لمن تعاهد هو والشيخ محمد على عهد الله ورسوله «ويقصد عثمان بن معمر» أن ينقض العهد وله في ذلك ثواب عظيم، كما أفتوا لعامة الناس بأن من عنده أمانة للشيخ وأتباعه أنه يجوز له أكل الأمانة ولو كانت مال يتيم أو بضاعة عنده أو وديعة، بل قاموا بتأييد من حارب الدعوة سياسيا بالكفر والمال، كل هذا ليقرروا حقيقة أن البدو مسلمون ولو أنهم لا يقيمون الصلاة[3].

ولا شك أن كلام الشيخ السابق الذي كان قد أثبته في مؤلف علمي قد تطلب منه إثبات حقيقة جاهلية البدو في نجد في تلك الفترة في أسلوب عام

---

(١) المصدر السابق ٤٦، ٤٧، ٤٨، وذكر فيها المقارنة بين الجعد بن درهم الذي جحد صفة التكليم من الله سبحانه وبين علماء نجد المعتقدين أن البدو مسلمون ويلمح الباحث حدة أسلوب الشيخ في مواجهة هؤلاء العلماء الذين وصموه بالكفر حيث قال عنهم «فأين هذا من اعتقاد أعداء الله في البدو».

(٢) المصدر السابق ٤٩.

(٣) المصدر السابق ص ٥٠، والشيخ في هذا يقصد معارضه سليمان بن سحيم بتأييده لدهام ابن دواس.

لا يستطيع الباحث معه أن يرى التفاصيل الدقيقة لهذه الجاهلية، ومظاهرها العملية في حياة البدو ووضوحها لدى بعض القبائل أكثر من بعضها الآخر، وإن كان الشيخ قد أورد قضية المعتقد وتحكيم العارفة مع الاستهزاء بأهل الدين وهي قضايا تكفي لإعطاء صورة شبه واضحه عن الحياة الدينية لدى هؤلاء البدو، إلا أن وجود مقارنة بين قبائل بادية نجد في القرب والبعد من هذا الدين أمر ضروري في هذه المسألة حتى تتمكن الدعوة من جذب الأقرب إلى صفها، والشيخ بإثباته عددا من الأدلة التاريخية من واقع الانحرافات عن منهج الله عبر التاريخ الإسلامي لتأكيد هذه الحقيقة وارد على علماء نجد المخالفين له بشكل عام وخاصة هذه القضية، إنما أراد أن يطيل نفس النقاش مع خصومه حتى يضعهم أمام هذه القضية وقد تبلورت لهم أبرز مظاهرها وموقفه منها ولو بشكل عام، وهو في هذا قد تحاشى ذكر أسماء معارضيه وإن كان قد أبرز فعالهم معه مما هو معروف عنهم لدى عامة أهل نجد في تلك الفترة؛ وذلك حتى يزيد المسألة إيضاحا ويكشف عن بعض أسماء هؤلاء المعارضين له، كما يبين القبائل التي تبرز لديها معالم هذه الجاهلية بشكل واضح في رسائله الشخصية سواء كانت في تلك التي أرسلها لهؤلاء أو لغيرهم من العلماء وأئمة المساجد في نجد. هذه الرسائل التي كان من أبرز ملامحها الحدة في الأسلوب والتهكم في اللفظ مع كبار هؤلا المعارضين ممن كانت فعالهم معه وألفاظهم عنه لا تقل حدة وتهكما من أسلوب الشيخ نفسه.

وبشكل خاص، فالرسائل التي أرسلها الشيخ إلى العلماء وأئمة المساجد في نجد ممن لم تبد منهم معارضة تذكر للدعوة، وممن يطمح الشيخ في إقناعهم بوجهة نظره. هذه الرسائل يلمح الباحث تركيز الشيخ فيها على إثارة اهتمامهم بهذه المسألة التي مامن شك في أن الشيخ يرى أنها جوهرية في سبيل إصلاح الوضع الديني والاجتماعي في نجد، ففي رسالته إلى «أحمد بن

إبراهيـم» إمام مسجد مـرات: يؤكد أنه قد تـواتر لدى أهل نجد أن الـبدو قد كفروا بالكتاب كله متبرئين من الدين، ويبدو أن ذلك كان بسبب الجهل المطبق الذي كان يضرب أطنابـه بينهم والذي كان يسول لهم أن حكـم العارفة أفضل من الـشريعـة، وقد أشار الـشيخ إلـى ذلك وغيـره في هذه الـرسالة حـيث يقول: «وأعظم وأطم أنكم تعرفون أن البادية قد كفروا بالكتاب كله وتبرؤوا من الديـن كله، واستـهزأوا بالحـضر الذين يـصدقون بـالبعـث، وفضلوا حـكم الطاغوت على شريعة الله، واستهـزأوا بها مع إقرارهم بأن محمدا رسول الله وأن كتاب الله عند الحضر لكن كذبوا وكفروا واستهزأوا عنادا ومع هذا تنكرون علينا كفرهم وتصرحون بأن من قال: لا إله إلا الله يكفر»[1].

أما في بعض مراسلاته فهو يصرح بقبائـل معينة كانت تعيش انحرافا في عقيدتها ففي رسالته «لمحمد بن عيد»[2] ركز على قبيلتي عنزة والظفير، ويبدو أنهما تعيشان جـاهلية أكثر مما تعيشه القبائل الأخرى فـيقول رحمه الله: «من المعلوم عند الخاص والعام ماعليه البـوادي أو أكثرهم، فإن كابر معاند لم يقدر على أن يقول: إن عنزة وآل ظـفير وأمثالهم كلهم: مشاهـيرهم والأتباع، أنهم مقرون بالـبعث ولايشكون فيه، ولا يـقدر أن يقول: أنهم يقـولون: إن كتاب الله عـند الحضر وأنهـم عانقوه ومتبـعون ما أحدثه آبـاؤهم مما يسمـونه الحق

---

(١) حسين بن غنام. روضة الأفكار (١/١٦٣، ١٦٤). وانظر الرسائل الشخصية للشيخ محمد ابن عبدالوهاب، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص (٢٠٩).

(٢) هو محمد بن عيد: قاضي ثرمداء وإمام مسجدها في وقعة الصحن سنة ١١٨٠هـ التي غزا فيها الإمام عبد لعزيز بن محمد ثرمداء وكان ممن راسله الشيخ محمد بن عبدالوهاب. الشيخ محمد: الرسائل الشخصية ٢٤- ٣٠). ابن غنام: روضة (٢/٧٥). الفاخرية (١١٤). ابن بشر (١/٦٤). البسام: تحفة المشتاق (ورقة ١١٦ . ١١٧). عبدالله البسام: علماء نجد خلال ثمانية قرون ط (٢) ١٤١٩هـ، دار العاصمة الرياض (٦/٢٧٤) وقد ذكره باسم محمد ابن عبيد ولم أر من المؤرخين غيره ذكره بهذا الاسم.

ويفضلـونه على شريـعة الله، فإن كان لـلوضوء ثمانـية نواقض، ففيـهم من نواقض الإسلام أكثر من مائة ناقض»[1].

ويشير الشيخ فـي رسالته إلى خصمه ومعارضه «سلـيمان بن سحيم»[2] إلى أبرز ملامح الحياة الدينية لدى البادية في نجد والحجاز في تلك الفترة، هذه الملامح التي تتمثل في إنكار البعث وعدم معـرفة الدين وما يستتبعه من تضييع

---

(١) حسين بن غنام: المصدر السابق (١٠٨/١)، قارن بين ذلك وبين تاريخ نجد لابن غنام تحقيق د. ناصر الدين الأسد، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، مطبعة المتنبي ص (٢٨٥) الحاشية التي ذكر فيها تصويبه كلمة: عانقوه بأنها: عايفينه: والتي هي كلمة عامية نجدية معناها: تركوه وهجروه ولم يتبعوه، وانظر الرسائل الشخصية للشيخ محمد ص (٢٥، ٢٦).

(٢) هو سليمان بن محمد بن أحمد بن علي بن سحيم من عنزة، ولد في المجمعة موطن أسرته سنة ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م، وقرأ على بعض علماء نجد ومنهم والده، ثم ارتحل إلى الرياض فصار مدرسها وخطيبها وفقيهها ومفتيها هي ومكال أيام دهام بن دواس، وبعد صدع الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوته في العيينة عارضه ابن سحيم في أشياء كثيرة كالقبور والذبح لدفع ضرر الجن وغيره، وبعد انتقال الشيخ إلى الدرعية بدأت المعارضة النجدية تضعف تدريجيا نظرا لقوة الدولة السعودية المتنامي تدريجيا وصدق أئمة آل سعود في تأييدهم لهذه الدعوة، ومن المعتقد تشجيع ابن سحيم لدهام في معارضته للدعوة والدولة ووالد ابن سحيم من معارضي الدعوة كذلك، ويبدو أن صلح ابن دواس مع الدرعية عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م قد زاد في ضعف المعارضة وخاصة ابن سحيم فانتقل إلى الدرعية عام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م ولم يطب له المقام فيها فارتحل إلى الزبير وتوفي فيها ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م وخلف فيها ابنه ناصر من علمائها البارزين، وقد ولى الإمام فيصل بن تركي عام ١٢٤٩هـ شخصا يقال له سليمان بن سحيم على مرابطة تاروت ولا أعلم هل هو حفيد للمترجم له أم لا، للتفصيل: الشيخ محمد: الرسائل الشخصية (٦٢- ٧٦، ٨٨- ٩١، ٢٢٦- ١٣٧). ابن غنام: روضة (٣١/١، ١١١-١٢٤، ١٣٨- ١٤٥)(٤٦/٢). ابن بشر (٦١/٢). حمد الجاسر: معجم قبائل (٤٨/١، ٣٣٦)(٥٥٦/٢، ٦٦٥) جمهرة أنساب (٣٧٠/١). عبدالله البسام: علماء نجد (٣٢٢/١، ٣٢٣). أمين سعيد: سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ط١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص (٧٧- ٩١، ١٠٤- ١١٣). مجلة كلية الآداب جامعة الرياض/ الملك سعود حالياً، م/٥ لسنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص (١-٢٠) من مقال للدكتور عبدالله العثيمين عن ابن سحيم.

الصلوات، ومنع الزكاة، وهو في هذه الرسالة يركز كذلك على هاتين القبيلتين «عنزة والظفير» اللتين يبدو أنهما زيادة على هذا البعد عن الدين قد تزعمتا أحيانا بعض التحالفات البدوية المناهضة للدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب كما سيأتي، وهذا ما حدا بالشيخ إلى تكرار التشنيع بوضعهما الديني السيئ مرتين في رسالة ابن سحيم فقط، وإذا كان قد ذكر عامة البوادي بعد تخصيصها، فإن هذا التخصيص بحد ذاته يدل على إدراك من الشيخ لخطر بعض القبائل على الدولة والدعوة في عدم انصياعها لتعليم الدين وتحزبها ضد الدولة الجديدة.

ويتضح كل هذا من قول الشيخ لابن سحيم: «ومعلوم أن أهل أرضنا وأرض الحجاز الذي ينكر البعث منهم أكثر ممن يقربه، وأن الذي يعرف الدين أقل ممن لايعرفه، والذي يضيع الصلوات أكثر من الذي يحافظ عليها، والذي يمنع الزكاة أكثر ممن يؤديها، فإن كان الصواب عندك اتباع هؤلاء فبين لنا، وإن كان عنزة وآل ظفير وأشباههم من البوادي هو السواد الأعظم، ولقيت في علمك وعلم أبيك أن اتباعهم حسن فاذكر لنا ونحن نذكر كلام أهل العلم في معنى تلك الأحاديث ليتبين للجهال الذين موهت عليهم»[(١)].

وبعد أن يواصل نقده لخصمه يختم كلامه بقوله: «فإن كنت وجدت في علمك وعلم أبيك مايرد على رسول الله ﷺ والعلماء وأن عنزة والظفير والبوادي يجب علينا اتباعهم فأخبرنا»[(٢)].

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب: الرسائل الشخصية (٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) المصدر السابق: (٢٣٧).

ولاشك أن الشيخ قد استغل نقطة الضعف لدى خصمه في خوفه من هذه القبائل أو اعتقاده بأنهما ليسا على باطل، وهو في هذه الرسالة خاصة يضع ابن سحيم وهاتين القبيلتين في صف واحد في استحقاقهم لهذا الهجوم الشنيع حيث إن ابن سحيم يعتبر من زعماء المعارضة العلمية الحضرية كما أن عنزة والظفير تتزعمان المعارضة البدوية.

وإن استقراء لهذه النصوص السابقة وهذا الجدال العلمي ليبين مايلي:

أولا: أن بادية نجد عموما كانت تعيش في جاهلية جهلاء؛ فهي لاتعرف الشعائر الإسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج، وكانت تتحاكم فيما بينها بأعراف وتقاليد لاتمت إلى الأحكام الإسلامية بصلة، ويتضح فيها الجور من جهة، والتساهل في إحقاق الحق من جهة أخرى[1].

---

(١) يذكر بركهارت أن لدى البدو طريقة في حل القضايا هي: أن شيوخ القبيلة يجتمعون للصلح فيما إذا كان بين اثنين من قبيلتها ثأر «دم» أو ديون، على شرط أن يصفح الجانيان مهما كان الدم أو الديون الخاصة ويقول البدو عن هذه الطريقة «قد حضر الشيوخ ودفنوا» أي دفنوا الثأر، وفي هذا مافيه من غبن للمدعى عليه، كما يذكر القاضي العرقي لدى البدو وإذا فشلت محاولاته في الإصلاح بين المتخاصمين فإنه يأتي بالمحماسة «أداة حمس القهوة» ويضعها فوق النار حتى تحمر ثم يأمر المتهم بغسل فمه بالماء ثم لعقها فإذا صبر عليها وتحمل الحرارة الشديدة فإنه بريء وإذا عانى من الحديد تثبت عليه التهمة. وقد عقد بركهارت فصلا طريفا خاصا بطريقة القضاء لدى البادية، لما سبق انظر:

Burckhardt. Notes (1/121, 146, 147, 155- 157).

ولعل التخوف من نار الآخرة والتذكير بها إن كذب أو ظلم هو السبب في قيام قضاتهم العرفيين باتباع هذه الطريقة لمعرفة المتهم أو المذنب ويصور البيت التالي هذه الطريقة الجائرة حينما قال أحد الشعراء يقصد محبوبه وهو يصور جانباً من أسلوب التحاكم حيث بعض البدو يطلب الشرع وبعضهم يطلب حكم العارفة: يقول:

قلت الشريعة قال نار ابن عمار ... يبيني ألحسها وتحرق لساني

أما عن الشعائر الدينية كالصلاة فإنهم لم يكتفوا بتركها بل كانو يسخرون من الحضر الذين كانوا يصدقون بالبعث ويقيمون الصلاة وجل الشعائر الدينية من انحراف في العقيدة، صحيح أن هؤلاء البدو وكانو يقرون بالألوهية، ونبوة محمد ﷺ ورسالته لكنها إقرارت لاتتجاوز ألسنتهم مما جعل الشيخ محمد رحمه الله يطلق الكفر على البادية عموما أو أكثرهم، وعلى العموم نجد أنه في تلك الفترة لم يكن لديهم أي معرفة بدين الإسلام بل كانوا منشغلين مع مواشيهم ولم يكن يضمهم أي رجال علم أو حتى أئمة لأداء الصلاة[1].

ثانياً: لقد خص الشيخ في النص الثاني قبيلتي عنزة والظفيرة مبينا إنكارهم للبعث والنشور، وأن فيهم من نواقض الإسلام مايخرجهم منه إلى الكفر.

لكن الشيخ رحمه الله لم يبين لنا بالتفصيل مظاهر انحراف هاتين القبيلتين، وهل كانتا تقيمان بعض شعائر الدين كما تقيمه بقية القبائل النجدية أم كانتا تعيشان انحرافا شاملا في كل أصول الدين وفروعه مما جعلهما تعيشان حياة أقرب إلى الجاهلية الأولى؟

كما أن الشيخ رحمة الله لم يبين لنا لماذا كانت هاتان القبيلتان أشد انحرافا من بقية القبائل الذي يبدو أن ذلك بسبب كونهما تقطنان بعيدا عن المراكز العلمية في وسط نجد، فقد كانتا تقطنان في شمالي نجد وشماليها الشرقي، ومما لاشك فيه أن لهذه المراكز العلمية تأثيرا ولو كان ضئيلا على بادية وسط نجد، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت الشيخ رحمه الله يخص هاتين القبيلتين بهذا الوصف السابق.

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ (٤٩)، و:
Burckhardt. Notes: (1/99)

ثالثا: أن تركيز الشيخ على البادية في أكثر مراسلاته ومناقشاته مع علماء وأئمة مساجد بلدان نجد يدل على أن الشيخ رحمه الله يرى في أبناء البادية طاقة هائلة لايمكن الاستهانة بها، وأنهم متى ما استقرت العقيدة الصحيحة في نفوسهم اندفعوا يحققوا مايطلب منهم، لأنهم أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة فطرهم من مؤثرات الحضارة بسلبياتها المتعددة[1]، وسنرى كيف أدى بعض أبناء البادية خدمة للدولة السعودية الأولى في حروبها مع أعدائها.

رابعا : أن في هذين النصين وفي غيرهما من مؤلفات ومراسلات ومناقشات الشيخ شهادة منه رحمه الله على أن حاضرة نجد ليست كما يصورها بعض الناس تعيش في جاهلية جهلاء، بل إنها تعيش في بعض حالاتها مطبقة للإسلام في شعائره التعبدية لولا بعض الانحرافات في العقيدة والتي يبدو أنها محدودة في مناطق معينة، وحتى في هذه البلدان فهي ليست شاملة لكل هذا البلد أو ذاك، بل إنه يوجد في كل بلد من بلدان نجد فئة لايستهان بها تعيش على فطرة الإسلام .

ولايعني هذا بأي حال من الأحوال التقليل من الدور الضخم الذي قام به في القرن الثاني عشر الهجري وماتلاه من القرون إلى الآن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، فإن تصحيح العقيدة وتوضيح العمل الصالح وإقامة الدولة المسلمة التي تقيم شرع الله، لهو في الحقيقة- دورلا يستطيع القيام به إلا أولو العزم من الرجال الذين يوفقهم الله للاهتداء بهدي رسوله ﷺويهيئ لهم من يعمل لتحقيق هذه الفكرة في عالم الواقع وعلى مستوى الدولة كما حصل من الإمام الصالح محمد بن سعود ومن تلاه من الأئمة والحكام من آل سعود.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص١٢٦، ١٢٧.

ويذكر ابن غنام وابن بشر في تاريخيهما أن منطقة وادي الدواسر- وأغلبها بادية في تلك الفترة- كان يوجد بها بعض مظاهر الشرك بتقديس الأشجار والأحجار التي يلقون منها الفائدة الظاهرة، وهما إذ يعممان هذا القول فإنما يخصان شجرة كبيرة اتخذوها رمزا يجلسون عندها ويستظلون بها معتقدين فيها جلب النفع ودفع الضرر، وإذا علمنا أن منطقة وادي الدواسر لاتقل- في تلك الفترة- عن منطقة الشمال النجدي جهلا بأحكام الدين أدركنا إلى أي حد يمكن معه قبول مثل هذه الإشارة[1].

ولكن ابن غنام وابن بشر لم يوضح أحد منهما مظاهر الممارسات اليومية لهذا الاعتقاد التي يبدو أنها تتخذ شكل الجلوس عندها والاستظلال بها وعقد الاجتمعات المناوئة للدعوة والدولة حولها، ولاشك أنه لو كان لهذا الاعتقاد ممارسات تعبدية ظاهرة كما ذكر هذان المؤرخان لبعض الأشجار والأحجار في منطقة العارض لأبرزاه؛ مما يستنبط الباحث من هذا التعميم أن أصل هذا الاعتقاد لا يعدو أن يكون من باب التفاؤل بهذه الأشجار في مجتمع بدوي يستفيد منهما ظلاله في غدوه ورواحه، وتطور هذا التفاؤل ليأخذ شكل المنتدى السياسي والاجتماعي، والجلوس والاستظلال العابر، والتي تطورت فيما بعد لتأخذ شكل الاعتقاد بجلب النفع ودفع الضرر منها ربما بحصول خير أو اندفاع شر وضرر أثناء الجلوس عندها إذ قد يحدث أن تهطل الأمطار حال جلوسهم عندها أو يسلمون من غارة لإحدى القبائل عليهم أو ينتصرون عندها.

---

(١) ابن غنام: روضة ١٣١/٢، ابن بشر ١٠١/١، ١٠٢.

وإلى وقت قريب فقد كان البدو ينظرون إلى الحضر على أنهم «مقومين» الصلاة[1]، والمقصود وقتها وأركانها وواجباتها، مما يعطى المرء تأكيدا بأن بعض البدو على النقيض من ذلك في غالبهم منذ تلك الفترة، كما قد اشتهر لدى البدو على تلقيب الحضري بـ «مصلي الخمس»، والمقصود الصلوات الخمس التي لم يكن قسم من أبناء البادية في تلك الفترة- والفترات المشابهة لها فيما بعدها- يؤدونها أما الحضر من جانبهم فقد اشتهر لديهم أن البدوي هو عدو الشريعة إلى- وقت قريب- وهذا وإن كان قد تواتر لدى الحضر فإن فيه الكثير من المبالغة أساسها أن حياة البدوي القاسية وجهلة بأصول الدين قد تضطره لاتباع أسلوب الغزو على الحضر الذين يطلقون عليه هذا اللقب وإلا فالبدو ـ إذا تعلموا الدين صحيحا ـ أصبحوا أنصار الشريعة وحماة الدين[2] ولاغرو في ذلك فهم مادة الإسلام كما قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما مر ذكره.

والذي يتأكد أن لهذه النظرة من الحضري أساساً في فترة ماقبل قيام الدولة السعودية؛ فقد أشار علماء الدعوة أن بدو نجد لم يكن أحد منهم- وهذا في الغالب- ينظر إلى أحكام الإسلام لا في العبادات ولا في غيرها من الأحكام سواء كان ذلك في الدماء والأموال، أو في النكاح والطلاق والمواريث وما إليها من الأمور التي نظمتها الشريعة[3]، وقد استغل الحضر هذا الكلام الذي إن انطبق على بعض البدو في فترة من الفترات فلا ينطبق عليهم دوما،

---

(١) الأزهار النادية ١٢/٤، ابن خميس: الأدب الشعبي في جزيرة العرب ط مطابع الفرزدق- الرياض ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ص٣١٥.

(٢) صحيفة الرياض عدد ٥٤٢٤ في ١٤٠٣/٧/٩هـ ، ص٥١.

(٣) عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ: الرسائل المفيدة، دار العلوم للطباعة. القاهرة ، ص١٥٥.

إضافة إلى أن الـدقة تقتضي أن لايعمـم على سائر البدو، وهـذا الكلام- من قبل ومن بعد- يدخل في نطاق النظرة السيئة من الحضر نحو البدو.

ولقد كان البدو قبل قيام الدولة السعودية إذا نزلوا قريبا من البلدان وقت الصيف جاءهـم من يستطبب عندهم لمـعرفة البدو ببعض أنواع الـطب العربي فيطلبون من أهل المرضى الذبح لغير الله، ويحددون لهم موضعا ويطلبون مثلا ذبح تيس أصمع[1]، أو خروف أسود، وينهونهم عن ذكر اسم الله عليه طالبين إعطاء المـريض منه معتـقدين أن ذلك يشفـي الأمراض سواء كانت نفـسية أو عصبـية، وقد يحـين وقت الشفـاء فيشفى المـريض فترسـخ هذه العقـيدة في النفوس[2]، ويشترك الـبدو والحضر على حـد سواء في الاعتقاد بـجواز الذبح لدفع ضرر الجن، وهو ما وقف ضده الشيخ وعـلماء الدعوة من بعده محرمين له ومحذرين العامة من الاعتقاد به[3].

هذا ما أمـدتنا به المصادر عـن الحياة الدينـية عن البادية، إلا أن الـشعر العامي قد أمدنا ببون آخر من الحياة الدينية لدى بادية نجد في هذ الفترة، فهذا الشاعر الشعبـي «راشد الخلاوي» يوضح جانبا من جوانب الحيـاة الدينية لدى البادية فيقول:

---

(١) أصمع : مقطوع الأذنين أو القرنين أوهما معا أو صغيرهما: (الفيروزآبادي ٣/٥١).

(٢) ابن بشر ١/١٩، ٢٠، د. عبدالله الشبل: تاريخ الدولة السعودية، ص ٢٩.

(٣) عن وجود هذا الاعتقاد فيما قبل الدعوة وجواز العلماء له، المنقور: الفواكه ٢/٨٧، ٨٨، وعن موقف الشيخ وعلماء الدعوة منه الشيخ محمد بن عبدالوهاب: الرسائل الشخصية ١٣٨، ١٣٩، الفتاوى ٦٦، ٦٧، ابن قاسم: الدرر ٤/٢٤٤، ٢٤٥، ٦/٤٦٧، ٤٦٨، ورأي الشيخ في هذا أنه ردة تخرج عن الإسلام (سعد بن حمد بن عتيق، مجموعة رسائله، نشر دار الهداية، الرياض، ص ٤٥، ٥٢.

فإن سلت[1] قومي يامنيع فلا تسل[2] أحجـار وأشجـار يعـبدون خـايبـه

عـصاة قـساة مـن حديـد قلـوبهـم فلـو أنهم من صـم الأحجار ذايـبه

فلا عـندهـم إلا إبلـيس عـقيـدهم فالـبعض ابـن له والبـعض شايـبه

غـدوا قـرن شـركـل قـرن مـطـرد عن الـكون مأوى لـلشياطين دايـبه

محا الـله «سعد» يـا «منيع» وقـومه كما قد محا من صفحة اللوح كاتبه

تخليـت عن قومي محا الـله دارهم وأهمـى عليـهم من نـوامي نوايـبه

تخـليت عنـهم يومـهم غار دينـهم ومن غار عنه الديـن غارت مشاربه

أسـاءوا جبـلات وضاعـوا بـرأيهـم ومن ضاع عنه الحق ضاقت مذاهبه[3]

وإذا كان شعر الخلاوي يصور جانبا من الحـياة الدينية لدى بدو نجد قبل

---

(١) يبدو أنه سقط من شطر البيت الأول حرف عن فلعل الشطر على هذا:
فإن سلت عن قومي يامنيع فلا تسل.

(٢) هو منيع بن سالم أحد أمراء بادية الأحساء في عهد بني خالد وهو صديق راشد الخلاوي وممد وحه في جل قصائده حتى قال فيه ابن خميس: « لولا مدائح راشد الخلاوي لما عرف منيع بن سالم» (راشد الخلاوي ١٨، ١٩، ٦٦، ٦٧) .

(٣) سلت: سألت، خايبه: من الخيبة والخسران والمعنى ليس فيها خير.
فلو أنهم من صم الأحجار ذايبه: لو أن قلوبهم من الأحجار القوية لذابت، وفيه اقتباس معنوي من قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشرآية ٢١].
غدوا قرن شركل قرن مطرد: أي غدوا رأس شر وكل رأس يطرد من الكون.
محا الله سعد يامنيع وقومه: دعاء بالإزالة أي أزال الله سعدا ولعله زعيم قومه، ومنيع هو ابن سالم، وأهمى عليهم من نوامي نوايبه: أي أمطر عليهم من بلاوي النوايب.
يومهم غار دينهم: غار البئر: إذا انتهى ما به من ماء، والمعنى ليس لديهم دين، ومن غار عنه الدين غارت مشاربه، ومن ابتعد عن الدين ابتعدت عنه الحياة المعنوية المستلزمة للإيمان .
أساؤوا جبلات وضاعوا برأيهم: أساؤوا طباعهم فضاعت آراؤهم وضاقت نفوسهم عن احتواء الخير لهم .
(عبدالله بن خميس: راشد الخلاوي: ٢٣٧، ٢٣٨، د: عبدالله الشبل المرجع السابق ص٢٩).

قيام الدولة السعودية فإنه يدل على أن قسما منهم كانوا يعرفون الرسول صلى الله علي وسلم حق المعرفة وتعمر مجالسهم بالحديث عنه معتقدين أنهم في هذا يقدرونه أصدق التقدير بعض النظر عن مطابقة الأقوال للأفعال، ولواقع الحياة العامة وسلوكها، إلا أن وجود بعض الألفاظ التي تغفلو في مدحه ﷺ يعطي الباحث دليلا على وجود بعض المؤثرات العقدية من خارج منطقة نجد وإن كان من المحتمل أن تكون قد عرفت في بعض المناطق النجدية أو بواديها في زمن متقدم.

وإذا كان الإنسان ابن بيئته فإن وجود مثل هذه الألفاظ في شعر الخلاوي يعطى الباحث دليلا على وجود قسم كبير من المفرطين في مدح الرسول ﷺ والمغالين فيه غلوا يتجاوز الحدود الشرعية، ولعل في قوله عن الله سبحانه حينما أسرى بنبيه ﷺ:

وأبدى له المكنون من سر ماخفى   والعرش والكرسي والأكوان داج به

مايؤكد وجود بعض المؤثرات الصوفية، ذلك أنه إن كان يقصد مايراه بعض غلاة الصوفية من أن الله أطلع نبيه على الغيب عامة فهذا باطل أول مايدحضه قول الله عزوجل: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ الآية[1]. إلا إن كان يقصد إطلاع الله سبحانه لنبيه على أمور عامة تدخل في قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[2] الآية، فهذا حق لامرية فيه[3].

وإذا كان الخلاوي يقصد الرسول ﷺ في قوله:

---

(١) الأعراف آية ١٨٨.

(٢) سورة الجن آية (٢٦، ٢٧).

(٣) عبدالله بن خميس: راشد الخلاوي (٩٢).

خذ في يدي أقولها في وغا الحشر وفي يد منيع صاحبي هو وأقاربه
منيع المسمى وأنت تدري بما جرى وجدي وجده معاليك صالبه[1]

فهو كما أنه حرام ويشرك به الإنسان فإنه يدل على وجود بعض المؤثرات العقدية الأخرى كالتوسل بالرسول ﷺ والادعاء بأنه يملك من علم الغيب ومجريات الأمور في الحياة بعده، وهذه إن ثبتت فهي تدل على انحدار في الحياة الدينية لدى بادية نجد إلا أن كان الخلاوي يقصد الله سبحانه فهذا يدل على شعور إيماني لديه كما يوحي بوجود بعض عناصر الإيمان في ابن البادية في تلك الفترة.

وشعر الخلاوي بما يحمل من معان دينية جيدة، ومعتقدات إسلامية، وأمور بدعية إنما يصور جانبا من الحياة الدينية لدى بادية نجد كما يحمل نقدا لبعض المواطن السلبية في هذه الحياة.

وسيمر بنا في نظام الربيط والدخيل أن البدو لايفرقون بين العطف بثم والواو في أمور المشيئة[2]وغيرها بين العبد والخالق وهو ما وضح مفهومة الشيخ محمد في كتاب التوحيد كما سيأتي.

وعلى أي حال فإن المرء من خلال ما تقدم يلمس بعد حياة البدو في نجد بشكل عام عن الدين سواء كان ذلك في المعتقد أو أنماط السلوك أو تنظيمات الحياة، الأمر الذي جعل حياة البادية النجدية حياة شقاء وبؤس وعدم استقرار، وإن كانت تحكمها بعض الأعراف والعادات العربية الجيدة إلا أنها لاتنطلق من منطلق ديني، وهذا ما جعل الدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد

---

(١) الوغى بالألف المقصورة ولكنها هكذا وردت في الديوان ص (١٤٤، ١٤٥).

(٢) Burckhardt. Notes. (1/165, 170,167, 169).

ابن عبدالـوهاب رحمه الله تعـانيان من جهل الـبادية بأحكام الديـن الأساسية وعدم تقبل بـعضهم لها إلى أن استطـاعت الدولة والدعوة فيمـا بعد أن تؤثرا على القبائل البدوية في نجد على اختلاف فيما بينها في درجة هذا التأثر.

الفصل الثاني
أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد لدى بادية نجد

١- نظرة البدوي للحضري:

لقد كان البدوي قديما وحديثا فخورا بنفسه وأصالته وصحرائه التي يرى فيها المكان المناسب لحفظ شخصيته وعاداته وتقاليده، كما يرى أنها أعطته «حرية» كاملة وأن الحياة بدونها لا قيمة لها.. وأعطته كل صفات البطولة، كما أتاحت له الحرية في القول ودوام المناقشة وإبداء آرائه ببساطة وصراحة، وأضفت عليه نوعا من العزة تأبى عليه أن يخضع أو يذل حتى ولو كان ذلك تحت ظلال السيوف، إضافة إلى ما يتمتع به من كرم واحترام للضيف والغريب، وحتى في حالات الغزو والنهب فإن البدو لايمسون النساء أو الضعفاء، أو الأطفال والشيوخ بأي أذى.. هذه العادات جعلت البدوي ينظر إلى الحضري نظرة احتقار لأنه يعتقد أن الحضري يفقد الكثير من تلك الصفات العالية[1].

ويعتقد البدوي أن سكن الحضري للمدن والقرى جعله في ضيق من العيش وكأنه محبوس في هذه البنايات، أما هو فإنه يعيش في سعة من العيش، وهو وإن لم يكن على ثراء واسع كالحضري إلا أنه بحريته وصحرائه أسعد حالا، ولعل في قصة إحدى فتيات البادية التي تزوجت حضريا من سكان المدن، وكان على ثراء واسع معتقدا أنه سيسعدها،لكنها- وهي لم تألف هذه الحياة المحبوسة-- حنت إلى حياة الصحراء..

---

(١) د. عبدالله العثيمين: الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص١٢، مكي الجميل: البداوة والبدو، ص ٥٤، ٥٥، مجلة الدارة ١ع/ ٣س/ ١٦ص.

لعل في هذه القصة أوضح مثل على عدم اقتناع البدوى بحياة الحضري.

قالت:

ياطير سلم لي على (أبو شخاقيق) في جانب الوادي بشرقي «أبان»
قل له: تراى من السعة طحت بالضيق كني بحبس في طويل المباني[1].

وقد زخر تاريخ العلاقات الاجتماعية بين البدو والحضر قديما وحديثا بالعديد من أمثال هذه الحادثة التي يرى فيها البدو وخاصة النساء منهم عندما يتزوجن بحضر أن حياة الحضر مهما بلغت من الترف هي حياة ضنك ونكد كلما زاد فيها الترف كره ابنة البادية لها، ومن هذا المنطلق فإن هذه النظرة لاترتبط بتاريخ معين أو فترة محدودة مما يجعل الباحث يستشهد بأحداث لها قد تكون قديمة أو حديثة أو معاصرة، ولئن كان أغلب هذه القصص، القديمة والحديثة يؤدي إلى نتائج معروفة كالطلاق كما سيأتي فإن هذه القصة التالية قد جرت إلى نتيجة أفظع من الطلاق وهي أكل السم عندما لم يتح لبطلتها هذا الطلاق، وتفصيل ذلك أن إحدى البدويات كانت يتيمة عند عمها فزوجها إلى أحد أمراء البلدان في نجد فأسكنها في قصر منيف، ووفر لها كافة سبل الراحة والعيش الرغيد، لكنها- كرها منها لحياة الحضر ـ كرهت زوجها فأكلت السم وماتت، وقالت أبياتا قبل ذلك تبين فيها مدى كراهيتها للقصور وحياة الحضر

---

(١) الشخاقيق: بفتح الشين والخاء ومعناه: الصدوع في الجبل وغيره، وأبو شخاقيق أحد جبال أبان وهو شرقيه قرب النبهانية، وأبان جبلان: الأسمر ويسمى قديما: أبان الأسود وهو الشمالي بالنسبة لوادي الرمة، والأحمر ويسمى قديما الأبيض وهو جنوب مجرى الوادي ويقعان إلى الغرب من مدينة الرس على بعد ٥ كم وحول جبلي أبانان عدة هجر وأماكن زراعية تتبع إمارة القصيم، من السعة طحت بالضيق: أي من سعة البادية وقعت في ضيق الحاضرة، كني بحبس في طويل المباني: كأني في جبس طويل مبناه، لما تقدم العبودي: (بلاد القصيم ١/٢٢١– ٢٤١، ٢٧٨، ٢٧٩، وابن رداس: ٢٦٣).

مفضلة عليها حياة البدو والانطلاق في الفضاء الفسيح والصحراء الرحبة، ومن هذه الأبيات، أو لعلها هي كل ما قالت:

لقيت بأكل السم ياعم راحة	أخير من رجل بليتن بلاماه
شفي سبيعي يتالي طياحه	أخير من قصر (ابن عسكر) ومبناه
ان مت حطوني بوسط البياحه	قبري على درب المظاهير تاطاه[1]

وإن هذه الأبيات كما تبين مدى كره البدو لعيشة الحضر فإنها توضح جانبا من الانحراف الديني الذي كان يعيشه بعض البدو أو جلهم قبل وصول المؤثرات الدعوية لهم قبل قيام الدولة السعودية، أو خلال ما تمنى به منطقة نجد من ضياع بين أدوار الدولة السعودية، ففي البيت الأول فضلت هذه البدوية أكل السم على الزواج من الحضري جهلا منها بالعقوبة الشديدة المترتبة على قتل الإنسان نفسه بأي وسيلة، علما أنه قد ورد تخصيص السم من هذه الوسائل، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة»[3]، وقال ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه

---

(١) بليتن بلاماه: كلفتني وشققت علي وأرهقتني من أمري عسرا، ولاماه: من الالتئام وهو الاجتماع، شفي: الشف الرغبة الجامحة التي تؤثر على جسم الإنسان وعقله وقلبه (فصيحة)، سبيعي من قبيلة الشاعرة (سبيع)، يتالي: يتابع، طياحة: أي إبله التي تطيح أي تسرع (فصيحة)، حطوني: أي ضعوني (فصيحة)، البياحة: الفلاة الواسعة والساحة الكبيرة التي تطرقها الشمس والهواء، المظاهير: جمع مظهور وهي الإبل مركوبة الظهر التي تحمل الأمتعة والنساء وقت الرحيل، وتطلق على العز والأبهة فيقال: فلان تدخل عليه المظاهير: أي غني منعم ووجيه، وتداعب المرأة طفلها قائلة: (عسى تدخل عليك المظاهير) تاطاه (تطأه): أي تدوسه. الزبيدي (٢/١٩٤) (٦/١٥٨). وعن الأبيات وتحليل بعض كلماتها ابن رداس (٦١، ٦٢).

(٢) سورة النساء: آية (٢٩).

(٣) متفق عليه.

يوم القيامة في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو مترد في نار جهنم خالد فيها أبدا»[1].

ومن مظاهر الجهل الديني في هذه الأبيات ما قالته في البيت الثالث حينما فضلت أن يضعوا جثتها إذا ماتت في وسط فلاة تطرقها الشمس والهواء وتطأها الإبل في غدوها ورواحها من غير إدراك منها بتحريم وطء القبور والجلوس عليها، ولكن في ظل الجهل الديني وكثرة ترحال أبناء البادية فإنهم يدفنون موتاهم في أي مكان ولا يستطيعون أن يضعوا مقابرتميزهم، وبالتالي فإنهم يدفنونهم في أماكن متفرقة مما يجعلها عرضة للامتهان بالمشي عليها والجلوس فوقها أو غير ذلك من وسائل الامتهان المنهي عنها شرعا والتي لا تحقق للميت حرمته التي ورد التأكيد على أنها كحرمته حيا.

وتعترف إحدى البدويات بأن حياة البدو حياة شظف ولا تستحق المدح ولكنها تعجبها طباع البدو وحياتهم، وقد سكنت بإحدى البلدان النجدية فملتها وحنت إلى تلك الحياة فقالت هذه الأبيات التي وإن لم تكن بقوة الأبيات السابقة من ناحية اللفظ إلا أنها تصور جانبا من كره البدو لحياة الحضر:

يامل عين تسهر الليل مابات	قزيت من مساي بجنب الجرين
حلفت لو أعطى الرطب والخضروات	وتكثر الأرزاق عندي ما أزين
ولو عطوني مع اللبن سبع حاجات	إني على قد الحضية لاشين
ودي بهم لو التمني خرافات	ياليتنا مع ضفهم نازلين
لو كان والله ما خبرنا مداحات	لكن طبع البادية يستوي لي[2]

---

(١) متفق عليه.

(٢) يامل: من الملل، قزيت: قزت النفس عن الشيء إذا أبته والمعنى أبت النوم أو طار عنها، =

ولم تهدأ هذه المرأة في كـرهها لعيشتها بين الحضر فـأصبحت تقول بين فترة وأخرى أبياتا تنـدد فيها بحياة الحضر وتحن إلى حياة البـدو فتقول مخاطبة ابنها :

يالـيتـنا يامـنيـر نمشي مـظاهـير	في وسـط حي دايم الدوم نشـهاه
ويا ليتنا ماشفنا السواني على البير	ونصـيفهـم ياليـتنـا ما عرفـناه[1]

وبلغ الوجد بإحدى البدويات[2] التي سئمت من سكنى الحضر رغم أن أهلها كانوا معها في هذا السكن، حداً صورت به قلبها كأنه يقطع وخاصة بعد ما مرت بها إحدى قوافل الـبدو متجهة إلى الصحراء فقالت مثـنية على الحياة في الصـحراء معرضة بـشخص لم يأبـه لهذه القـوافل ولعله زوجـها أو أحد أقربائها :

لا واهنيـك يالهني يـا بومرداس	مـاولـعـوك مـدرهمـين المـطـيـة
القـلب كنه يـشعرونه بـالأمواس	من طين حضر حجـروا به عليه[3]

= الجرين يطلق على عدة معان وهو في نجد مكان درس القمح (فصيح) ما أزين: ما تحسنت حالتي وقالت ذلك عندما سألها أحد قومها لماذا لاتتحسن صحتك، على قد الحضية لا شين:أي رغم هذه الحضوة فأزداد سوءًا، ودي بهم أي البدو قومها لو أن الأماني لاتفيد، مع ضفهم: الضف والضفاف الجوار، ماخبرنا مداحات: أي لم نذكر في البادية مايستحق المدح والمعنى أنها حياة شظف، يستوى لي: يناسبي ويعجبني. (الفيروزآبادي ٢٠٩/٤، أحمد رضا:: قاموس رد العامي إلى الفصيح ط (٢) دار الرائد العربي- بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ٤٦١، وانظر ابن رداس ١١٨).

(١) نشهاه: نشتهيه، شفنا: رأينا، النصيف جزء من ثلاث أجزاء من الصاع وقيل أكثر (ابن رداس ١١٨، ١١٩).

(٢) ذكر ابن بليهد٢٠١/١٠ أن القائلة شلشاء البقمية من الدوادمي، بينما يذكر ابن رداس ٢٠٤ أنها مرسى العطاوية.

(٣) لا واهنيك: هنيئا لك، ولعوك: من الولع بمعنى الشوق والإغراء، مدرهمين: درهمة الإبل سرعتها والمعنى الذين مسرعة مطاياهم، كنه: تخفيف كأنه، يشعرونه: الشعر من معانيه =

وقد بلغ من تقرر هذه الحقيقة في أوساط البدويات أن عرفن بها بين الحضر حتى أن أحد الشعراء الحضر أراد أن يتغزل ببدوية رآها في السوق تشتري حاجة لها فأنشأ حوارا بينه وبينها علي أساس أنه يطلب منها الزواج منه فترفض نظرا لكرهها لحياة الحضر، وربما أن هذا الحوار قد حصل فعلا وفصلت فيه البدوية مظاهر هذه الحياة غير المرغوبة لديها، وصاغه هذا الشاعر بقالب شعرى حيث يقول على لسانها إذ طلبت منه أن يركز سمعه لها بعد أن رغبها في الحياة الراغدة إذا تزوجت منه:

أو ما وهو يضحك واطرب مزاجه	ياهية وين اذ نينك اللي يسمعون
حلفت لو أعطى الحسا مع خراجه	علي بيانات الحضر ما يصكون
عندى أحب من القرع مع دجاجه	هيم مجاهيم بالاقفار يرعون
وأحب من لبس العبي والعلاجه	رشاوية شقرا بها الشوك مدفون
ومن الحلو عد كثير هماجه	أكرع براسى فيه من غير ماعون
ومن البدو جلف يربي نعاجه	ولاسما في من الورس مدهون
كل يدور عينته في زواجه	والبدو ما للحضر يوم يبيغون
وأقفت سواة الصيد عجل عجاجه	تقول: أثر حضران ورقا يعشقون(1)

= الشق، الأمواس: جمع موس وموسى وهي أداة الحلق والقطع اليسير (فصيحة) من طين حضر الخ من أبنية الطين التي يسكنها الحضر ويحجرون على أنفسهم فيها. (الفيروزآبادى ٣/٩٧، ٤/٢٥٢، وعن الأبيات وشرح بعض كلماتها: ابن بليهد ٢٠١، ابن رداس ٢٠٤، ٢٠٥).

(١) أومأ، ومأ، وأومأ: أشار، أطرب من الطرب وهو خفة تلحق الذي يصيبه فرح أو حزن وتخصيصه بالفرح وهم، مزاجه: المزاج: بكسر الميم من معانيها ماركب عليه البدن من الطبائع، ياهية: هيت به صاح به ودعاه، وهيت لك: هلم، وين: عامية من أين، حلفت: أقسمت، بيبان: جمع باب حيث يجمع على أبواب وهو المشهور وبيبان، وأبوبة نادر، يصكون =

وابنة البادية في كرهها للزواج من الحضري المترتب على كرهها لحياة الحضر عامة على اختلاف النتائج المترتبة على هذا الزواج لو تم بغير رضاها كما مر، ابنة البادية في هذا كله إنما تعبر عن وضع نفسي لا زمها منذ القدم كلما أرادت مؤثرات الحضارة أن تجذبها إليها وقف هذا الحاجز النفسي سدا منيعا أمام تخليها عن بداوتها وصحرائها، وفي قصة ميسون بنت بحدل

= من معاني الصك الإغلاق، القرع مع دجاجة: اليقطين أو الدبا يطبخ مع الدجاج، هيم: إبل عطاش أو كبيرة الأجسام جمع هيماء ومنه قوله تعالى ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ الواقعة آية ٥٥، مجاهيم من الجهمة وهي ما فيه سواد من آخره فهي الإبل السود وتمتاز بكثرة الحليب، الأقفار: جمع قفر وهو الخلاء من الأرض، العبي: جمع عباءة، العلاجة: تصحيف أحسائي وخليجي للعلاقة التي هي حلية من حلي النساء، شاوية: نوع من العبي الرخيصة تميل إلى اللون الأشقر تتعرض لتعليق الشوك بها لأن لابستها من ربات المهن من رعي وما إليه، الحلو: أي الماء العذب القراح، العد والعديد: الماء الجاري من المورد في الصحراء، كما يطلق على الماء الصافي الذي لم يخالط مادته ما يغير طعمه، الهماج والأجاج والزعاق: تطلق على الماء المر على اختلاف بينها في إطاقة شربه وهي ضد القراح وكلها إما فصيحة أو لها أصل فصيح، أكرع: من الكرع وهو تناول الماء أو أي سائل بالفم من موضعه من غير شرب بالكفين أو الإناء، ،والماعون يطلق في اللغة على كل ماينتفع به وفي نجد يخصص بالإناء، جلف: تطلق على الرجل الجافي الغليظ، النعاج والنعجات: جمع نعجة وهي أنثى الضأن وتطلق على الضأن عموما بالتغليب، ويروي الحاتم في خياره هذا الشطر على هذه الصيغة، ومن البدو علج يدجي نعاجه،سماقي: السمق هو العلو فهويطلق على الرجل الطويل الأبيض، الورس: نوع من الطيب كانوايضخون به بشرتهم وثيابهم، يدور: يبحث، عينته: جنسه، بيبفون: أدخل حرف الجر على الفعل، وهذا لايجوز إلا في لفظة مشترك بين الاسمية والحرفية، واقفت: ولت مقفية أي مخلفة وراءها الشاعر، سواة: أي مثل، الصيد عجل عجاجه: أي مثل الذي يراد صيده فإن غباره يسرع تبعا لسرعته هو، تقول: الأولى أن يوردها مذكر على أساس أنه من ألفاظ التحقق من الفعل والعزم عليه، حضران: جمع حضري، ورقاء: أي خضرة وماء وتطلق على الحمامة، وهي كناية عن الترف والجهل بالأمور، وقائل هذه الأبيات هو محمد بن مسلم، أحد شعراء الأحساء المجيدين في القرن الثالث عشر الهجري، ولما سبق من الأبيات وشرحها: الفيروزآبادي ٣٣/١، ٣٨، ٩٧، ١٦٠، ٢٠٧، ٢١٠، ١٢٠/٢، ٧٨/٣، ١٢٤، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٧١/٤، ٢٧٢، ٣٧٩، عبدالله الحاتم: خيار مايلتقط ١١٣/٢، ١٢٠، عدالله بن خميس: الأدب الشعبي ص، ٢٠٧، ٢٠٨).

الكلبية[1] عندما تزوجها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وملت الحياة الحضرية وطلبت الطلاق منه فطلقها، وفي هذه القصة دليل على أصالة هذا الجانب في المرأة البدوية فقد قالت ميسون بعد عودتها إلى البادية أبياتا تشبه إلى حد كبير ما مر من الأبيات فمن ضمن ماقالت:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف

وأكل كسيرة في جنب بيتي ... أحب إلي من أكل الرغيف

وأصوات الرياح في كل فج ... أحب إلي من نقر الدفوف

وخرق من بني عمي نحيف ... أحب إلي من علج عنيف

خشونة عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الطريف[2]

---

(١) هي ميسون بنت بحدل بن أنيف بن ولجة بن كنانة من قبيلة بني حارثة أشرف بطون كلب، وكان بحدل هذا نصرانيا ويقال إنه مات على النصرانية- والله أعلم قيل طلقها معاوية بعد سماعه قولها لهذه الأبيات وكانت حاملا بيزيد وقيل كان رضيعا وحاملا ببنت، ونشأ يزيد معها في الصحراء وتربى في كنف أخواله وربى أبناؤهم أبناء يزيد وأحفاده، وأضفت ميسون على هذه الأسرة بزواجها من معاوية شهرة كبيرة حيث أصبح البحدلية من كبار أتباع بني أمية، قيل توفيت سنة ٨٠هـ تقريبا/٧٠٠م ولها من معاوية يزيد ورملة وابنة توفيت (ابن جرير ١٨٣/٦، ٦٤/٧، ابن حزم ٤٥٧ وذكر فيها أن بحدل أخو معاوية لأمة فإن كان يقصد ابن أبي سفيان فهذا وهم يزيله زواج معاوية من ميسون، ابن عبدربه ١٠٥/٥، ١١٧، ١٣١، ابن الأثير: الكامل:(٢٦١/٣، ٣١٧). ابن كثير (١٤٥/٨، ٢٢٦) وقد أثنى في الأولى على ميسون ووصفها بعظم الشأن جمالا ورياسة وعقلا ودينا، الزركلي (٢٩٨/٨).. دائرة المعارف الإسلامية (٣٦٨/٣، ٣٦٩).

(٢) تخفق: تتحرك، الأرواح: الأجسام، وهذه كناية عن بيت الشعر، الشفوف: جمع شف بكسر الشين وفتحها الثوب الرقيق الذي يحكي ماتحته، كسير: تصغير كسرة الخبز، خرق: بضم الخاء وفتحها وضم الراء وفتحها وسكونها في الحالين من معانيه: الرجل الذي لايحسن =

ولو تمعنا فـي أبيات ميسون هذه لبرز لـنا منها تأكيدهـا على حب الحد الأدنى من البساطة التـي تجعلها في مستوى الكفاف من ناحـية المسكن والملبس والمأكل، وإذا كان هذا طبعـيا من ابنة البادية فمن المستـغرب أن ترغب ميسون عن معاوية أميـر المؤمنين الذي يستطيع أن يـجعلها تعيش في البـادية كأحسن مايكون العيش، وتـفضل عليه خرقا من مغموري البـدو لمجرد أنه ابن عمها، إلا أن هذا الاستغراب يزول عند معرفة سبـب هذا الحب لحياة الصحراء المقترن بكره حـياة الحضر بما تمـنحه الأولى من صفـاء في الذهن وهدوء فـي مزاولة أساليب الحيـاة إضافة إلى سلامة الفطرة، وما تـسببه الثانية في نـظر البدو من صخب، وتبلد في الذهن، وعجز عن القيام بكثير من العادات البدوية الأصيلة من كرم ووفاء، وقبل هذا وذاك الحرية التي هي عنوان الحياة البدوية.

وتصور هذه البيات اشتياقا من بـدوي لصحرائه وقد دخل إحدى البلدان ولم تعجبه أساليب الحياة الحضرية فيها:

لعـمري لـنور الأقحـوان بحـائل	ونور الخـزامى فـي آلاء وعرفـج
أحب إلـينـا ياحـميـد بن مـالك	من الورد والخيري ودهن الـبنفسج
وأكـل يـرابيـع وضـب وأرنـب	أحب إلـينـا من سـمانـى وتدرج
ونص القلاص الصهب تدمي أنوفها	يـجبن بـنـا ما بـين قـو ومـنعـج
أحب إلـيـنـا من سفـين بدجـلة	ودرب متى ما يظلم الليل يرتج[1]

ولقد كان كره البدوية للزواج من حضري خلقاً أصيلاً في كثير من بنات القبائل يـحذر بعضهن بعضاً مـن ذلك ويتواصين بالزواج من الـبدوي عموماً

= والعمل ولاالتصرف في الأمور، وكذا الأحمق، والمرأة منه خرقاء، علج: بكسر العين وسكون اللام: الرجل من كفار العجم أو الأعجمي عامة والرجل الشديد. الفيروزآبادي (١/ ٢٠٠)(٣/١٥٩، ٢٢٦)، الزبيدي (٢/٧٥، ٧٦)(٦/١٥٨، ٣٣٠)،. ابن خميس: المرجع السابق (٢٠٨).

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت للنشر (٢/٢١٠).

والقريب على وجه الخصوص مهما كانت أوضاعه المادية مستهينات بكل ما يدفعه الحضري من أموال طائلة، وبما ينعم به زوجته البدوية من سائر أنواع الإنعام، وفي هذا الصدد يروى ابن عبدربه الأندلسي[1] عن أبي حاتم عن الأصمعي قوله: قالت أعرابية لبنات عم لها: السعيدة منكن من يتوجها ابن عمها فيمهرها بتيسين، وعيرين، ورحيين، فينب التيسان، وينهق العيران، وينبح الكلبان، وتدور الرحيان، فيعج الوادي، والشقية منكن من يتزوجها الحضري، فيكسوها الحرير، ويطعمها الخمير، ويجعلها ليلة الزفاف على عود- تعني سرجاً-[2].

وفي قصة بداح العنقري[3] مع بعض فتيات البدو تصوير للعلاقة

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبدربه بن حبيب بن حدير بن مسلم أحد أبرز أدباء الأندلس من أهل قرطبة ولد سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، كان جده الأعمى سالم مولى لهشام بن عبدالرحمن الداخل، أبرز كتبه العقد الفريد، قيل إنه تأثر بالنواصب فقد ذكر الخلفاء الراشدين وعد معاوية - رضي الله عنه- رابعهم ولم يذكر عليا- رضي الله عنه- فيهم وذلك في أرجوزة له توفي سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م. الزركلي: الأعلام (١/١٩٧، ١٩٨). مقدمة العقد الفريد (١/ن - ع) وقيل إنه رجع عن بعض ماقاله في قصائده الأولى في قصيدة سماها المحصات.

(٢) ابن عبدربه: طبائع النساء، تحقيق محمد إبراهيم سليم، طبع ونشر مكتبة القرآن، القاهرة، (٨٠، ٨١).

(٣) هو بداح بن بشر بن ناصر بن إبراهيم بن خنيفر العنقري، وكان العناقر يسمون قديما آل خنيفر وهم أحد أحفاد بني سعد بن زيد مناة، بطن كبير من بطون قبيلة تميم المشهور، والعناقر أمراء ثرمدا منذ القرن الحادي عشر الهجري ومنهم آل معمر أمراء العينية، وقد تولى بداح إمارة ثرمدا عام ١١١٩هـ/ ٢٧٠٧م وقد حصل في عهده، معارك بين أهل ثرمدا وأهل أو ثيثة، وبين ثرمدا ومراة، كما هي حال البلدان النجدية في هذه الفترة. توفي بداح سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م، وتولى بعده إبراهيم بن سليمان العنقري الذي قام على قرابته ومنهم أبناء بداح فقتلهم لحزازات بينهم، ومن العناقر أسر في القرابن وأوثينة، (ابن بشر ٢/٢٢٨، ٢٣٥، أحداث سنة ١١١٩هـ، ١١٣٦هـ، ابن عيسى، ص: ٨٧، ٩٤، ٩٦، ابن لعبون: التاريخ ٢٢، العنقري: المنتخب ١٦٢، ١٦٣، الحقيل: كنز الأنساب ١٠٣، ١٠٤، حمد الجاسر: جمهرة ٢/٦٣٤- ٦٣٧، ابن خميس: معجم اليمامة: ١/٢٢٩، ٢٣٠).

الاجتماعية بين البادية والحاضرة في هذه الفترة، ذلك أنه من عادة البادية الإقامة «المقطان» وقت الصيف وخاصة في سنى المحل بجوار المدن والقرى، وموارد المياه نظرا لحاجة مواشيهم إليه، وبينما أحد أحياء البدو قرب بلدة ثرمداء[1] والتي كان أميرها بداح العنقري كثيرا ما يمر على منازل هذا القطين وثرمدا وما حولها على فرسه بحكم مسؤولية اذ أثار فتيات القطين فتغامزن بينهن حينما مربهن قائلات: خيال الحضر زين التصافيح "أى أن مظهره حسن ومخبره بخلاف ذلك فهو رعديد لايستطيع أن يصمد أمام الغزات فضلا أن بغير هو بنفسه، وحدث ذات مرة أن أغار غزو من قبيلة الفضول[2] على هذا

---

(١) ثرمداء: قال البكري: فتح أوله وفتح الميم والدال المهملة ممدودة: قرية بالوشم، وهي من منازل بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بنجد، وقال ياقوت: قال الأزهري: ماء لبني سعد في وادي الستارين، وقد وردته، يُستقَى منه بالعقال لقرب مقره، وقال الخارزنجي: هو بكسر الميم، قال وهو بلد وقيل قرية بالوشم من أرض اليمامة، وقال نصر: هو خير موضع بالوشم وإليه تنتهي أوديته ويروى بكسر الثاء، وقال السكوني: ثرمداء من أرض اليمامة لبني أمرىء القيس بن تميم، وقال ابن خميس: تقع ثرمداء بين بلدة أثيثية التي تقع إلى الغرب الشمالي منها وبين مراة التي تقع إلى الجنوب الشرقي ويحفها طريق الحجاز من الناحية الغربية، وهي تميمية منذ القدم ولا تزال كذلك لبني سعد فإن أمراءها العناقر من بني سعد بن تميم، ومن ثرمدا الشيخ العالم الجليل الفقيه عبدالله بن عبدالعزيز العنقري، ويروى أن الريان بن ماجد من ثرمدا، للتفصيل: (البكري: ١/٣٣٩، ٣٤٠، ياقوت ٢/٧٦، الهمداني: صفة جزيرة العرب ص٣٠٩، ٣١٠، صفي الدين البغدادي: مراصد الاطلاع ١/٢٩٤، ابن خميس: معجم اليمامة١/٢٢٧، ٢٣٣ الحجاز ص٥٣، ٥٤).

(٢) الفضول أو آل فضل: أحد فروع قبيلة طيئ القحطانية، ويرجعون إلى فضل بن ربيعة الطائي وكانت من كبار قبائل الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، إضافة إلى أنها انتشرت بعد ذلك في القرن الثامن في نجد مخضعة أكثر قبائلها ويبدو أن لأقربائهم من بني لام دوراً في هذا الانتشار الذي أهلهم للقيام بغارات على القبائل والبلدان النجدية، ثم بدأت هذه القبيلة بمغادرة الجزيرة على مراحل منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري على أنه بقي لها فروع إلى منتصف القرن الثاني عشر حيث تحضر أغلبها واستقر في القرى والمدن النجدية حيث يرجع إليها عدد من كبار الأسر منها، ويميل المغيري إلى أنها إحدى فروع قبيلة لام، بينما يرى الجاسر والحقيل أنها غير الفخذ الثالث من بني لام، =

القطين فأخذ مواشيه، ويقال إن العنقري كان ضيفا على هذا القطين، وكانت إحدى بنات القطين، ولعلها ابنة زعيم القطين قد وقع حبها في قلب العنقري، وكان خطبها من أبيها فامتنعت قائلة: إن الحضر فرسان نظرة، وعلى كل أبت شيمة العنقري أن يؤخذ جيرانه فأغار في أثر الفضول حتى عاد بإبل وخيل القطين التي سلبت. مضافا إليها بعض إبل وخيل الفضول، ولما تيقن من أدائه لدوره على أحسن حال، وقف على فرسه ليلقي نظرة على هذا الحي، وقال قصيدة يعاتب فيها هذه الفتاة التي قالت عنه ماقالت، ومنها:

الله أحد ياما غزينا وجينا	ويما ركبنا حاميات المشاويح
وياما على أكوارهن اعتلينا	وياماركبنا عصير مراويح
ويما تعاطف بالهنادي يدينا	ويما تقاسمنا حلال المصاليح
وراك تزهد يا أريش العين فينا	تقول: «خيال الحضر زين تصفيح»
ترني الظفر مهوب للظاعنينا	أمقسم بين الوجيه المفاليح
البدو واللي بالقرى نازلينا	كل عطاه الله من هبة الريح
يوم الفضول بحلتك شارعينا	والشلف ينحونك سواة الزنانيح
يوم انجمر رمحى خذيت السنينا	وأدعيت عنك الخيل صم مدابيح
هيا عطينا الصدق هيا عطينا	وامّا عطيتيناه والله لاصيح
لاصيح صيحة من غدى له جنينا	والاخلوج ضيعوها السراريح[1]

= وإن كانوا يجتمعون جميعا في طيئ، (ابن بشر:٢/٢١٢، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٤، المغيري ٩٩. ١٠٠، الحقيل ١٢٦- ١٢٨، ١٥٠، ١٥١ الزركلي ٥، ٣٥٣، ٣٥٤، كحالة ٣/٩٢٢، ٩٢٣، حمد الجاسر: المرجع السابق٢/٦٩٥، ٦٩٧).

(١) الله أحد: قسم فيه معنى التكثير مخفف من الله الأحد، ياما: كثيرا، حاميات المشاويح: هي الإبل ولعل المقصود بها هو حفظها لمنابت الشيح على خطأ في جمع الشيح على مشاويح =

وبعد أن تغزل بمحبوبته في أبيات بعدها لوى عنان فرسه ورحل إلى أهله، وقد تعلق قلب الفتاة به فأرسل له أبوها بعدم معارضته للزواج منها لكن العنقري أبى ذلك.[1] إلا أن هناك رواية تقول إن الفتاة بعدما أعجبت به وافقت على الزواج منه، وأقامت معه في ثرمداء معززة مكرمة[2]، لكنها وقد ألفت حياة البادية أصبحت تتطلع إليها كثيرا؛ فتحن إليها متنمية الرجوع إليها، وذات يوم وهي في سطح بيتها أبصرت قطينا من البدو، وقد عرض بالبلدة،

= والصحيح مشابيح والتي تطلق على القيعان والرياض فيكون المعنى على هذا- والله أعلم حاميات المراعى، أكوارهن: جمع كور بضم الكاف وسكون الواو وهو رحل البعير كالقتب والشداد، عصير: تصغير عصر، مراويح: وقت الرواح والمقصود اللاتي رواحهن عصرا، تعاطت: تبادلت، الهنادي: السيوف المشحوذة أو المنسوبة إلى الهند، حلال المصاليح: مال الذين يصلحونه بالنماء و لمنتاج، وراك: أي مالك وهي لفظة نجدية لم أجد لها أصلا فيما بين يدى من كتب اللغة وينطقها بعض النجديين، أراك، تزهد: ترغب، أريش العين: ذو الرموش الطويلة كالريش وهذا من صفات الجمال، الظفر: الشجاعة والنجاح في الأمور (فصيحة)، الظاعنين: المرتحلين والمقصود البدو (فصيحة)، الوجيه: جمع وجه والأفصح جمعها على وجوه، المفاليح: المتصفة بالفلاح، عطاه: أعطاه، هبة الريح:الأفعال الطيبة يقولون فلان هب الرياح أو هاب أو هباب ريح أي إنسان ندب شجاع كريم، بحلتك: بديرتك، شارعين: هاجمين ومستولين والشِّلّفُ: جمع شَلَفَا: الرمح والشُّلَّفُ بتشديد اللام رماة الرماح، ينحونك: يصدونك، سواة: مثل، الزنانيح: الذين يضايقون في معاملتهم (فصيحة)، انجمر: انكسر من مقبضه، خذيت: عامية من أخذت، السنينا: من إطلاق الصفة على الموصوف والمقصود السيف المسنون، أدعيت: عامية من تركت، صم مدابيح: هاربات لايلوين على شيء من غدى له جنين: من ضاع له ولد صغير أو كان إنسانا أو حيوانات، خلوج: ناقة ضاع عنها ولدها أو أخذ منها، السراريح: جمع سارح وهو الراعي، الفيروزآبادى ١/١٨٦، ٢٢٦، ٢٤٩، ٢٨٠، ١٣١، ٤/٢٤٥، الزبيدي ٢/١٧٣، محمد سعيد كمال: الأزهار١/٢٧٥، ابن رداس٣١٦، محمد الثميرى: الفنون الشعبية في الجزيرة العربية ١٣٥، ١٣٦، ابن خميس: الأدب الشعبي ١٨٩-١٩٢، من أحاديث السمر ١/١٢٧، ١٢٨).

(١) فهد المارك: من شيم العرب ٣/١٠٠، محمد الثميري: الفنون الشعبية في الجزيرة العربية ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ابن رداس: ص٣١٦.

متجها نحـو البادية فهاجت قريحتـها بأبيات رفعت صوتها بـها، وكان زوجها على مقربة منها ويسمع صوتها وهي لاتعلم، ومن هذه الأبيات:

ياشيب عـيني من جلوسـي بقرية ومن شـوف بقران تربّـط حلوقـها

شفى مـع «صقر» وصقر مضّـنتى له سـابق درّ البـويضـا غبوقـها[1]

فلما التفتت علمت بوجود زوجها فأرادت الاعتذار منه وقالت:

يابو «صقر» ما للنفس عنكم تشيّم لكـن شوفات البـوادي تشوقـها[2]

فرد عليها زوجها:

روحى مـنى يم «صـقر» عـطيـة عطية «عـنقري» مالها من يـعوقها

ماترجع إلا أن يرجع المطر مصعد أو الرياح تعطي رايها من يسوقها[3]

---

(١) ياشيب عيني: أي ما أشد ما أقاسي من الغم مما يشيب معه رمش العين، بقران: جمع بقرة، والأفصح جمعها على بقر وبقرات وبقر بضمتين وأبقار وبقار بضم الباء وتشديد القاف وأبقور وبواقر، الأبقران فلم يرد لفظه كجمع. تربط حلوقها: يوضع في رقابها حبال تقاد وترتبط فيها أو لأجل الدياس عليها، والبدوي يكره البقر لأنها تقربه من الحضر. صقر: أخوها، مضنتي: غايتي، سابق: اسم فرس، در البويضا: حليب ناقة تدعى البويضا: تصغير البيضاء، الغبوق: شراب الماء، الصبوح: شراب إصباح.

(٢) أبو صقر: لعله بداح العنقري، وصقر ابنه ولعله منها، تشيم: شيمة وترفع شوفات: جمع شوفة وهي الرؤية.

(٣) روحي: اذهبي، يم صقر: إلى جهته، مالها من يعوقها: لا أحد يردها، مصعد: مرتفع إلى السماء، والمعنى لاترجع إلا إذا رجع المطر إلى السماء ومعناه الاستحالة، تعطي رايها: تنقاد وتقبل. أي أنه علق رجوعه في عطيته بأمرين مستحيلي الوقع، وهما رجوع المطر إلى السماء بعد نزوله في الأرض، وانقياد الرياح لمن يريد أن يصرفها عن جهتها، وفي البيتين كناية عن طلاقها منه طلاقا بائنا، (الفيروزآبادي ٣٧٥/١، وعن الأبيات السابقة ابن دراس ص٣١٦- ٣١٨، وقد أورد المارك جانبا من القصة في (شيم العرب ٩٥/٣- ١٠٢) إلا أنه ذكر الفتاة بنت ابن عريعر أقوى أمراء نجد في ذلك الوقـت، وإن كان قد مـال في آخـر =

وإن نظرة فاحصة لبعض أحداث هذه القصة وما قبلها لتبين لنا مايلي:

أولا: أن نظرة البدوي للحضري نظرة ازدراء واحتقار منشؤه اعتقاد البدوي بأنه أصل للحضر وسابق عليه، وقد دلل ابن خلدون[1] في المقدمة على أن البدو أصل للحضر بقوله: «إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر، وفي قراءة وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البدواة وأنها أصل لها.. إلى أن قال: فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم"[2].

ثانيا: أن البدوي يعتقد بأنه يبز الحضري كثيرا بشجاعته وفروسيته، وأن

= القصة إلى كونها قد وقعت من ابنة أمير قطين قرب ثرمدا كما هو المشهور، أما قائل القصيدة فذكر أولا أنه فارس من فرسان ابن عريعر ولم يذكر اسمه أو أصله ثم مال إلى أنه من العناقر من فرسان ابن عريعر مخالفا بذلك المشهور على ألسنة رواة الأدب الشعبي وفي كتب هذا الأدب كما روي الشطر الثاني من البيت الرابع (خيال القرى زين تصفيح) مؤكدًا أن نظرة البدوي للقروي أقسى من نظرته لابن المدينة غير أن من المعروف كره البدوي لحياة الحضري سواء كان ذلك في المدينة أو القرية.

(١) هو عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢هـ/١٣٣٢م- ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ليس هنا مجال التعريف بشخصيته فقد كثرت الدراسات عنه وعن مؤلفاته، فقد ضمن هو الجزء الأخير من العبر ٣٧٩/٧- ٤٦٢ تعريفا كاملا بشخصيته ورحلاته، وكافة المعلومات عنه، كما أصدر الدكتور على عبدالواحد وافي كتابا عنه في سلسلة أعلام العرب رقم (٤)، وألف محمد عبدالله عنان كتابا أسماه ابن خلدون: حياته وتراثه الفكري ط(٣) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والكتاب - القاهرة ١٣٨٥هـ /١٩٦٥م وأفرد ألفرد بيل: Alferd. Bel ترجمة وافية في دائرة المعارف الإسلامية١/١٥٢- ١٥٧، وانظر الزركلي: الأعلام ١٠٦/٤، ١٠٧ وأقامت عدد من الجامعات والمراكز العلمية أسابيع للتعريف بجوانب متعددة من شخصيته وفكره.

(٢) المقدمة: ص١٠٣.

الحضري يفقد صفات الشجاعة، يدل على ذلك قول فتيات القطين الذي مر ذكره «خيال الحضر زين التصافيح»، وهذا الاعتقاد صحيح لأن البدوي وهو يعيش حياة الترحال تضطره هذه إلى أن يدفع عن نفسه ويحمي ذمارة وقبيلته بعكس الحضري الذي يعيش في القرى والمدن التي يحكمها نوع من الأنظمة والأعراف التي يميل إلى الدعة والهدوء، ولعل هذا الذي حدى بابن خلدون أن يضع عنوانا في مقدمته موضحا أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر مبينا السبب في ذلك فيقول: «إن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم، والحاكم الذي يسوسهم، والحامية التي تولت حراستهم.. قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة، وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لايكلونها إلى سواهم ولايثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح ويتأفتون كل جانب في الطرق ويتوجسون للنبآت والهيعات[1]، ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسم، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع واستنفرهم صارخ، وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية، أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لايملكون معهم شيئا من أمر أنفسهم، وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل»[2].

---

(١) النبآت: جمع نبأة وهي الصوت الخفي، والهيعات: جمع هيعة بفتح الهاء وهي الصوت المفزع والمخوف أو صوت العدو (الفيروزآبادى ١/٢٩، ٣/١٠١).

(٢) ابن خلدون: المقدمة ١٠٥.

وعلى كل فقد أخذ البدو يدلون بشجاعتهم على الحضر حتى عاد الحضري لايساوى شيئا أمام البدوي لما يعتقده فيه بأنه جبان لايستطيع الصمود أمام مواجهة الأعداء فكيف بمقارعتهم، ولقد استغل بعض البدو هذه الشجاعة للاعتداء وقطع على الحجاج والآمنين من الحضارة والبادية، الأمر الذي بات معه طريق الحج وكل مفاوز نجد غير آمنة مما جعل الحجاج يدفعون عند دخولهم نجدا إخاوة لإحدى القبائل القوية حتى تحميهم من قطاع قالطرق من قبيلتها أو غيرها أما من يغفل عن تقديم هذه الإخاوة أو لايستطيع تقديمها فإنه يقع تحت طائلة قطاع الطرق، وإن في قصة العلامة محمد الجزري التي مر ذكرها صورة حية لهذا الوضع.

ثم إن تاريخ نجد بعد ذلك حافل بمثل هذه الأحداث التي يعتدي فيها قطاع الطرق من البادية على الحجاج والمسافرين عبر نجد وداخلها من أهلها، ويحصل من جراء ذلك معارك عظيمة كتلك التي حصلت لحجاج العراق عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م[1]، وتلك التي حصلت لحجاج الأحساء والقطيف والبحرين سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م والذين اعترضتهم مطير ففاجأتهم عند الحنو[2] وحصلت معركة عظيمة بسبب أن مع الحجاج أموالاً كثيرة ولم يكونوا منظمين، وهلك في هذه الموقعة كثير من أعيان الأحساء والقطيف والبحرين

---

(١) ذكر المنقور في تاريخه أن أخذ الحاج العراقي سنة ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م، بينما ذكرها الفاخري وابن بشر وابن عيسى سنة ١١٠٠هـ والله أعلم.

(٢) الحنو بالكسر فالسكون وهو في اللغة كل شيء فيه اعوجاج والجمع أحناء موضع في عالية نجد وقع فيه يوم من أيام العرب قبل الإسلام، وهو الآن قرية زراعية في أعلى وادي الرين إلى الجنوب الغربي من القويعية على بعد ٥٠ كيلا ويتبع إمارة القويعية. وقال فيه الشاعر:

حلت سليمى بذات الجزع من عدن ... وحل أهلك بطن الحنو من حضن

وهناك أكثر من موضع بهذا الاسم. (البكري ٢/٤٥٥، ٣/١٠٤٣، ١٠٥٩، ١٠٨٣، ٤/ ١٣٦٢، ياقوت ٢/٣١٢، الفاخري ١٠٢ من حاشية المحقق، سعد بن جنيدل، عالية نجد- طبع مطبعة نهضة مصر نشر دار اليمامة. الرياض ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ١/٤٢٦).

وأناس كثيرون، ويقول ابن بشر: «نزعت الرحمة من قلوب الأعراب حتى أنه ليهلك الهالك مايسقونه ماء»[1].

ثالثا: أن البدوي يستنكف البقاء في القرى مع الحضري وإذا اضطره المحل أن يعيش قريبا من القرى وموارد المياه فإنه لايقارب الحضري، وإن قاربه فيعتدي عليه، وإذا كان هذا ليس حكما عاما فإن كره البدوي للقرى والمدن عام لأنه لايطيق أن يرى نفسه محاطا بجدران وأسوار معتقدا أن ذلك سجن كبير، وأن السكني في منازل كمنازل الحضر هو بمثابة سجن ضيق، إلا أن سنوات الشدة وانقطاع الأمطار قد تضطر البدوي إلى دخول البلدان خوفا على أنفسهم ومواشيهم من الهلاك ليحصلوا على المياه والأعلاف، وفي هذه الحالة إما أن يستكينوا ويستضعفوا حتى يأتي الله بأمطار تجعلهم يخروجون إلى مرابعهم، وإما أن يغيروا على أهل القرى حتى ينغصوا عليهم حياتهم وربما أجلوهم عنها إلى بلدان أخرى.

يقول ابن بشر: «وهذه السنة (١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م) هي أول المحل والوقت المشهور بصلهام الذي هثل فيه البوادي وماتت مواشيهم، ثم استمر الغلاء والقحط في السنة التي بعد هذه، وهثل غالب بوادى أهل الحجاز»[2].

ويقول: «وفي سنة (١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م) عم المحل والغلاء والقحط من الشام إلى اليمن في البادي والحاضر، وماتت الأغنام وكل بعير يشال عليه الرحل وهثل أكثر البوادي في البلدان».

---

(١) الفاخري: ١٠٢، ابن بشر: ٢/٢٣٩، ٢٤٠ ابن عيسى: ٢٠١.

(٢) المحل هو القحط، صلهام (فصيحة) وتعني الأسد أما في نجد فيعنون بها السنة المقحطة، ولعلهم أخذوها من شدة الأسد وقسوته، هثل لفظة نجدية من الهثل وهو الضعف والانقطاع، يقال إنسان أو حيوان هثيل أو هثيلة: منهوك القوى، والمعنى جاء البادية متهافتين على البلدان واستقروا فيها فترة حتى أصبحوا سقطا وهثالة بسبب القحط. (الفيروزآبادي ٤/ ١٤٠، الفاخري ٧٣، ابن بشر ٢/٢٠٩).

وقد صور أحد الشعراء البدو في هذه السنين العجاف بأنهم قد انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم تشرد وترك مواشيه وهرب بنفسه لعله يجد منطقة يعيش فيها.

٢-وقسم صبر وصابر حتى واجه الهلاك مع مواشيه.

٣- وقسم التجأ إلى القرى والأرياف.

يقول:

غدا الناس أثلاثا فثلث شريدة   يلاوي صليب البين عار وجائع

وثلث إلى بطن الثرى دفن ميت   وثلث إلى الأرياف جال وناجع[1]

وقد يطيب المقام لبعض أبناء البادية في القرى والأرياف فيتركون باديتهم ليقطنوا في هذه القرى والأرياف إما مشتغلين عند الحضر في مزارعهم أو يزرعون هم بأنفسهم، أما بعضهم فإنه لايصدق أن يرى في الأفق سحابة أو بادرة مطر حتى يولي وجهه شطر باديته لايلوي على شيء تاركا للحضري قريته وبيوته الطينية التي ينعي بها عليه والتي يعتبرها البدوي سجنا لاتصلح إلا للحضري الذي لايستطيع استمرار العيش في الحياة الصحراوية.

رابعا: أن البدوي يفخر بإبله وخيله وتربيتها وفي الوقت نفسه ينعى على الحضري تربيته للأبقار معتقدا أن تربية البقرة ذل وإهانة، ولعل للبدوي في تربيته للإبل والخيل واعتزازه بها هدفا ساميا وهو مقارعة الخصوم، وسرعتها، وخفتها في الترحال إلى مواطن الكلأ فلو كان معه أبقار لأعاقته عن الوصول بسرعة إلى مضان العشب ولتمكن القبائل الأخرى من سبقه إليها وهذا هو السبب في اعتقاد البدوي أنه أعرف من الحضري في أمور الحياة. ولطالما تغنى البدو بالإبل والخيل كما

---

(١) الفاخري: ٩٨، ٩٩، ابن بشر: ٢/٢٣٥، ابن عيسى: ٩٥، ٩٦

يتغـزل بمحبوته. ولعـل ما ورد في حديث الـعينة الذي سبـق ذكره في موقف الإسلام من البدو وما يؤكد أصالة هذه النظرة والتمييز في تربية الأبقـار إذا جرت إلى الـذل والمهانـة والقـعود عن الجـهاد والتـصدي للمعتدين.

أما عن الخـيل فالتغنـى بهن كثير، إلا أن هـذا المدح للخيل مـن شاعرة «زعب»[١] يتضمن مدحا للخيل وتوضيحا لـلطريقة التي تربى بها خيل الحرب وهي عدم تلقيحها لأن ذلك ينهك قواهـا بسبب الحمل الذي في بطنها، قالت شاعرة بني زعب:

خيـل تغـذّى للـبلا والمـعارك	تهرب صناديد الـعدا في طرودها
لاتلقّحون الخيل يازعب يا أهلي	ترى لقـاح الخيل يردي جـهودها
إذا جن سماح الخدّ مايلحقن بكم	وإن جن من السندا لزوم يكودها[٢]

(١) زعب ينسبون إلى جدهم زعب بن مالك من بني سليم بن منصور من قيس عيلان، وكان لبعض رجال هذه القبيلة صحبة، وفي القرن السادس- اشتهرت بقطع الطريق على الحجاج القادمين من الشرق كغيرها من القبائل العربية، وكان لها ذكر في تاريخ قبائل نجد قبل القرن العاشر إذ كانت تقطن منطقة العرض وإلى الشمال الغربي منها ثم اعتراها ضعف وتشتت ولها بقية في المنطقة ويرجع لها عدد من الأسر النجدية والسورية والأردنية، إضافة إلى انتشار أفخاذ منها في العراق ولبنان وأفريقية وتركيا .. للتفصيل (ابن حزم: جمهورية أنساب العرب ٣٦١، ابن الأثير الكامل ٢٧/٩، ابن حجر: الإصابة ٢٥/١، ٤٥٠/٣، ٦٥١ الزركلي ٧٧/٣، حمد الجاسر: جمهرة أنساب الأسر المتحضرة ٣٤٥/١، ٣٤٦، عبدالله البسام: علماء نجد ٣٨٦/٢، ٣٨٧، عمر كحالة: معجم قبائل العرب ٧٢/٢، ٧٣، حمد الحقيل: كنز الأنساب ١٥٤، ١٥٥، محمد التميري: المرجع السابق ١٧٨، ١٧٩).

(٢) العدا: الأعداء، وهي رواية ترهق صناديد العدا في ملاحقتها، ترى لقاح الخيل: اعلموا أن تلقيح الخيل، إذا جن: إذا جئن مخففة، سماح الخد: الأرض السهل السير فيها، السندا: من السند وهو ما علا من السفح، وعموم المكان المرتفع الذي يصعب السير فيه، كما يطلق على ما ربا من الأرض وإن كان قليلا، ويقول النجديون:فلان مسند أي متجه جهة القبلة =

أما انتقاد الحضري على تربيته البقر فإن في بيت زوجة العنقري السابق تصوير دقيق لذلك:

ياشيب عيني من جلوس بقرية ومن شوفي بقران تربط حلوقها

والبدوي يري أن إقامة الحضري في القرى والمدن مجالاً للدعة وعدم تغيير نمط الحياة الذي يضفي عليها حيوية ونشاطا فهو في هذا ينعى على الحضري ديمومته على هذه الإقامة، ويمقته لأنه لايلتقي معه حتى في أبسط أساليب الحياة الاجتماعية لدى البدو وهو الرعي، وإن كان هذا يحصل من الحضري النجدي لأنه يعيش حياة متداخلة بين البادية والحاضرة في تلك الفترة إلا أن البدوي يرى في عدم استمراره على ممارسة الرعي أدنى مايمكن أن يفصل بين حياته وحياة البدو حيث يقول أحد شعراء البدو:

ياحضران دايم في البلاد ماترعون في الدار العذية[1]

وكما يعتز بتربية الخيول وركوبها فإنه يذم الحضري على عدم تربية لها ومعرفته لركوبها المترتب على ذلك عجزه عن القيام بالأعمال التي يرى البدوي فيها عنوان الشجاعة والإقدام في الغزو ومقارعة الخطوب، ويبدو أن بعض البدو يتجاهلون كثيرا أمثال حادثة العنقري التي لاشك أنه قد أعاد فيها بعض

= وهي الحجاز لارتفاعه، كما يقولون: فلان محدر أو منحدر إذا اتجه جهة الشرق لانخفاضه وعدم وجود جبل بينه وبين البحر. (الفيروزآبادي ١/٣٠٣، ابن بشر٢/٢١٢، العبودي: الأمثال ٢:٦٤٩، وعن الأبيات وقصتها: ابن رداس ٨٢-٩٨، محمد الثميري: ١٧٨-١٨٦).

(١) العذية: يبدو أنها من العذاة بفتح العين والذال مع تخفيفها، التي هي الأرض الطيبة البعيدة من الماء فيكون المعنى على هذا أنكم أيها الحضر لاتغادرون بلدانكم ولا تقومون بالرعي في الأرض البعيدة من الموارد لأنكم لاتستطيعون هذا البعد. (الفيروزآبادى ٤/٣٦١، وعن البيت ابن بليهد:صحيح الأخبار ٢/١٢٤).

الثقة لابن الحاضرة من غير أن يغمط البدوي حقوقه باتصافه بكثير من الصفات الطيبة، وإذا كان قسم من الحضر قد انشغل بأسلوب حياته الحضرية عن تربية الخيول ومقارعة الخطوب، وإن كان في الوقت المناسب يستطيع رد من اعتدى عليه، فإن هذا ما يتيح لابن البادية أن يصمه مطلقا بعدم العلم بتربية الخيول وركوبها كما في هذا البيت المكمل للبيت السابق:

ولاتدرون عن ركب الجياد   دايم حاضرة في كل هية[1]

وإلى وقت قريب فقد كان قسم من البدو يستنكفون القيام بغارات على الحضر في بلدانهم، أو الدخول معهم في حرب مكشوفة يبتدئونها هم، أو القيام بأي عمل من شأنه سلب الحضري، ولم أتبين سببا واضحا لهذا الاستنكاف[2]، ولعل هذا يدخل في نطاق نظرة الازدراء والاحتقار للحضر والسائدة في قسم من بادية نجد، إذ أنهم يحتقرون الحضري لدرجة تمنعهم من التعامل معه في أبرز دواعي الشجاعة والإقدام وهي الحرب، أو سلب ونهب مايمت له بصلة، أو أن ذلك كان نتيجة لمسالمة الحضري، ومحاولة من بعض البدو إيجاد نوع من الثقة المتبادلة بين البدو والحضر، هذه الثقة التي يبدو أن قسما من البدو يحرص على إيجادها لتخفف حدة التوتر في العلاقات الاجتماعية السائدة بين الفريقين، وهذا مايؤكد لنا وجود علاقات أخوة وتعاون بين قسم من البدو أبى أن يسيء إلى الحضر، وقسم من الحضر رضي أن يبادل هؤلاء البدو وهذه النظرة بمثلها وهي مايحتم وجودها الظروف الاقتصادية التي

---

(١) الهيّة: لم أجد أصلا لهذه اللفظة فيما بين يدي من كتب اللغة، وهي تعني في نجد الحرب مثلها مثل الكون التي تعني هي الأخرى الحرب وإن كان لها أصل لغوي، فالكون هو الحدث. (الفيروزآبادي ٢٦٤/٤، وعن البيت: المرجع السابق ١٢٤/٢).

(٢) ابن بليهد: المرجع السابق: ١٢٢/٢.

تخنق بالفريقين وخاصة البدو في فترات المحل عندما يضطرون إلى الإقامة قرب القرى والمدن النجدية.

وعلى العموم فقد كانت نظرة البدوي للحضري تتسم في غالبها بالجانب السيئ لافيما مر من الصفات وحسب، بل إن البدوي يعتقد أنه أقوى جسما، وأسلم فطرة، وأكثر كرماً وأبرز شجاعة، وأمتن خلقا، إضافة إلى قرب لهجته من العربية الفصحى، هذا عدا سماحة البدو والوفاء والحرص على حماية الأهل والجيران والغرباء والدخلاء وإكرامهم مما يعتقد البدوي أن الحضري يفقد كثيرا من هذه الصفات بسبب تأثره بأساليب الحضارة في بلده أو في البلدان المجاورة. هذا التأثير الذي جعله سلبيا يترك كل شيء لايعنيه[1].

٢- وضع المرأة البدوية ووظيفتها:

إن الدارس لوضع البادية عموما يلاحظ احترام البدوي للمرأة سواء

---

(١) مكى الجميل: البداوة والبدو في البلاد العربية ٣٦، وحتى في الوقت الحاضر رغم أن مغريات الحضارة أقوى منها في الزمن السابق، ورغم تحضر قسم كبير من أبناء البادية ورضائهم بهذا التحضر بل تحمسهم له فقد كان قسم من البدو يرى النظرة التقليدية السابقة تجاه حياة الحضر متمنيا أن لو كان باقيا في باديته يتنسم حريتها ويعيش مع مواشيها حتى قال بعضهم:

ياليتني بالبادية ماتحضرت ... ولاعرفت المدن واللي سكنها

ليتني مع الأوباش إن رحت وإن جيت ... ليت الغنم والإبل مارحت عنها

صحيفة الرياض عدد: ٥٠٧٤ في ١٤٠٢/٥/١٨هـ، ص ١٥من تحقيق صحفي للقسم من البدوالمعاصرين.

وقد عقد ابن خلدون في مقدمته (من ص ١٠٦- ١٢١) عدة فصول مشتملة على فروق كثيرة بين الطرفين يستطيع الباحث الاجتماعي أن يستأنس بها في دراسته لأسس التعامل الاجتماعي بين البادية والحاضرة وتحليل هذه النظرة السيئة لحياة الحضر من البدو التي كما أن لها جذورا قديمة واستمرت في العصر الحديث والمعاصر فإنها ستستمر ولن تختفي مادام هناك بادية وحاضرة.

كانت قريبة له أم بعيدة، وأن هذا الاحترام ليسمو فوق أي احترام، إنه احترام الرجل الذي يغار على المرأة والذي يعتبرها شريكة حياته، وإذا كان العرب قبل الإسلام يئدون البنات، وإذا كانت نظرة الحضر إلى المرأة حتى وقت قريب تتسم في بعض المناطق بالقسوة، فإن البدوي النجدي في تلك الفترة لم يذكر عنه معاملة المرأة بأي قسوة، ولو حصل شيء من هذا لأبرزه الشعر العامي سواء كان لدى البدو وصفا للحال، أو لدى الحضر من باب ذم البدو، وكل الذي أبرزه الشعر العامي عن وضع المرأة في المجتمع البدوي النجدي أن بنت البادية تتمتع بحرية واسعة في القيام بجهدها الفاعل في حياة قومها العامة، فهي تستطيع أن تعبر عما يختلج في نفسها من أحاسيس، وقد أتاحت لها رحابة الصحراء والعيش بين الأغنام والإبل تفتق قريحتها فراحت تقرض الشعر طارقة لأكثر أبوابه[1].

وقد أعطت هذه الحرية لبنت البادية المجال في أن تعبر عن رأيها بكل صراحة ووضوح، فتثيرها مواقف الشجاعة ومناسبات الكرم فتمدح أو تفخر، وتبصر مواطن الضعف والنقص فتهجو أو تتهكم بصراحة كاملة، كل هذا في حدود العفة والأصالة، وأكثر ما يعجب المرأة في الرجل شجاعته وكرمه فتتزوجه على هذا الأساس؛ لأن المجتمع البدوي يفرض وجود هاتين الصفتين في الرجل الكفء. وإن في قصة هذه الشاعرة من بني لام تصويراً لمكانة المرأة وأثرها في إنهاض الهمم، كما أن فيها تصويراً لتأثر المرأة البدوية من فقدان الصفتين السابقين في الرجل. ذلك أن هذه المرأة تزوجت ابن عمها أمير القبيلة وكان مغرما بكثرة الغزو حتى أنه أتعب ناقته فأصبحت هزيلة، ولما مات أخذت أخاه بعده فسمنت الناقة من قلة غزوه، فرأت هذه الناقة مرة وقارنت

---

(١) عبدالله بن رداس: شاعرات من البادية ص١٤.

بين حالها الأول والأخير فرثت زوجها الأول بهذه الأبيات التي تتهكم فيها بزوجها الأخير على قلة غزوه، وقالت:

لا وابن عمّي كلّ ماجيت أبا أنساه   إلى له تذكّرني مع الذّود حايل

لا وابن عمّي تطرب الهجن لغناه   من كثر ماتوحيه صبح وقو ايل

لاوابن عمّي كل عذرا تمناه   عليه ترفات الصَّبايا غلايل

لاوابن عمّي تنثر السّمن يمناه   على صحون كنّهنّ النثايل

ينلاع قلبي كل ما أوحيت طرياه   كما يلوع الطّير شبك الحبايل

أخذت أخوه أبغي عوض ذاك من ذاه   البيت واحد من كبار الحمايل

الزّول زواله والحلايا حلاياه   والفعل ماهو فعل واف الخصايل[1]

ولما سمع زوجها هذا الشعر أضمر لها سوءاً لكنه ذهب غازيا، ولم يعد حتى هزلت الذلول ولم تستطع إيصاله إلى الحي فجثمت قربه لاتستطيع المشي فأرسل زوجته لتأتي بها ولترى حالها لعلها تشهد بشجاعته، فلما رأتها هزيلة

---

(١) لا وابن عمي: لهفي على ابن عمي، كل ما جيت أبا أنساه: حاولت أن أسلو عنه، أبا: أبغي، إلي له الخ: تقودني لذكراه ناقة مع الإبل، ومعنى حايل: ليس فيها حمل ، الهجن: الإبل الأصايل، لغناه: لحداه، ماتوحيه: تسمعه، صبح وقوايل : أول النهار وأوسطه، جمع قائلة من القيلولة، تمناه: تتمنى قربه والزواج منه، ترفات الصبايا غلايل: المترفات من النساء مشنقات في قلوبهم حسرة، تنشر السمن يمناه: يفدق السمن على طعام ضيوفه، كناية عن كرمه، كنهن النثايل: كأنهن النثايل: والنثايل جمع نثيلة وهي كومة التراب والمعنى أن الطعام فوق الصحون كأوام التراب، ينلاع قلبي: يخفق تصيبه اللوعة، أو حيت طرياه: سمعت ذكره وخبره، شبك الحبايل: الشباك التي تصاد بها الطيور، والحبايل: جمع حبالة وهي من آلات الصيد في نجد، أبغي عوض ذاك من ذاه: أريد أن يعوض القريب الحي فقد البعيد الميت، الزوال: القامة وشكل الجسم، الحلايا: الأوصاف الجسمية الدقيقة، واف الخصايل: كامل الخصال الطيبة، عن الأبيات وشرحها: (ابن رداس: ١٤٥، ١٤٦).

قد ذوى جسمها وذهب شحمها أرادت أن تتحدث عن شجاعة زوجها الأخير فقالت شعرا تشيد بذكره:

ثوّر من العارض ركيب يهيف يتلون «ابن عروّج» مقدم «بني لام»

زها بهم حب القرايا النّظيف وسلاحهم صنع الفرنجي والأروام

ياما انقطع في ساقته من عسيف ومن فاطر تسبق على الجيش رقدّام

عقب الشحم وملافخه الرّديف قامت تضوكع مثل مرهوص الأقدام[(1)]

إن هذه القصة تدل على أن بنت البادية تعيش حياة الحرية الحقيقية، وأنها في الوقت نفسه أهل لهذه الحرية؛ فهي تقدر من يستحق التقدير، وتنظر إلى الرجل نظرة إعجاب واقعية من خلال مايقدم عليه من صور البطولة، وهي في المقابل تنظر نظرة أخرى للرجل، نظرة الكره حتى لو تزوجته، فإنها إذا لم تر فيه صفات الزوج الكفء من كرم وشجاعة فهي على استعداد

---

(1) ثوّر: حرك قافلة الحرب واتجه من بيته الغزو، ركيب: تفخيم لركب أو جيش، يهيف: يسرع في سيرة (فصيحة)، يتلون: يتبعون، ابن عروج: هو وديد بن عروج كما في إحدى الروايات وهو زعيم بني لام وزوج الشاعرة، زهابهم: زاد سفرهم، حب القرايا: هو القمح لأنهم يأتون به من القرى التي فيها المزارع، الفرنجي: واحد الأفرنج تعبير يطلق على النصارى وهو تعبير إسلامي يكثر في كتب التاريخ وإن كان يقصد به النصارى من أصل أوروبي الذين جاءوا مع الحملات الصليبية، الأروام: الروم يقصد بهم الترك أحيانا وفي هذا الشطر ذكر لمصادر السلاح في نجد، انقطع: تعب وتوقف عن السير، ساقته: في عقبه، عسيف: الشابة من المواشي تعود على الركوب عليها، والمقصود هنا الإبل التي وطنت لأول مرة في حياتها على الحمل والركوب، فاطر: الفطر هو الشق، وانفطر ناب البعير طلع أي كبر، وتطلق على الكبيرة والسمينة، الشحم: بعد السمنة، الملافخة: اللفخ هو الضرب أو اللطم، الرديف: الراكب الثاني، والمقصود مضايقة الرديف بكثرة الشحم، تضوكع: تنحني وتتحرك ببطء رافعة رجل وحاطة أخرى من التعب، مرهوص: أي مصاب بالرهصة وهي قرحة تصيب باطن حافر الحصان وتطلق على ما يصيب باطن الأقدام عموما. الفيروزآبادي (١/ ٢٦٩)(٢/ ١١٠، ٢٠٥) (٣/ ٢٠٧) وعن الأبيات وشرح بعض كلماتها ابن رداس (١٤٦- ١٤٨).

لتركه، ولو أدى ذلك إلى أن تعيش حياة أقل من حياتها معه، فهذه إحدى البدويات تزوجت رجلا يدعى «هقاش» فمكثت معه مدة ولما لم ترفيه صفات الرجل الكفء هربت منه وقالت أبياتا تعرض فيها به، ومنها:

حظّ والنّدم جاب لي هقاش ... وأنا من البيض مقروده

لاهو كريم ولاهوّاش ... والخيل ماصقلت عوده

يايوه أنابا انهزم وانحاش ... ماني على النّذل مردوده[1]

وإذا حدث خلاف بين الزوجين فإن الرجل لايستطيع أن يضرب زوجته لأن العزة والأنفة تمنعه من ذلك، وإذا فعل ذلك- ونادرا مايفعل- فإن المرأة تصيح بصوت عال تدعو وصيها أو حاميها سواء كان أبا أو أخا أو عما أو نحو ذلك فيهدىء الزوج ويجعله يستمع إلى صوت العقل، أو يختلف هو والزوج وربما يتضاربان فتحدث مشكلات تتطلب حلا على مستوى شيخ القبيلة[2].

والمرأة في البادية شريكة الرجل في الأعمال بل تؤدي أعمالا مهمة لايستطيع الرجل العمل بها، فهي علاوة على قيامها برعي الأغنام وربما الإبل في بعض الأحيان فإنها تقوم بجمع الحطب إضافة إلى غزل شعر الماعز وصوف الغنم ووبر الإبل ليكون بيوتا وبسطا وألبسة، وهي تقوم كذلك بدبغ الجلود لتعمل منها القرب للماء والصملان- جمع صميل- للبن، ولتعمل منها أنواعًا

---

(١) حظ الندم: الحظ السيئ، من البيض مقروده: من النساء الجميلات سيئات الحظ، هواش: أي محارب شجاع من الهوشة وهي الفتنة وتطلق على الحرب، ماصقلت عوده: من الصقل وهو الشحذ والمعنى لم يتدرب على ركوب الخيل، يوه: لفظة نجدية تطلق على الأم في حال النداء لها أحيانا، أبا: أريد، انحاش: أهرب، ماني: ما أنا، على النذل مردوه:لا أحد يستطيع ردي إلى هذا النذل. الفيروزآبادي (٢/٢٩٤)(٣/٤). وعن الأبيات وقصتها وشرح بعض كلماتها ابن رداس (٢١٥).

(٢) Burckhardt. Notes. (1/177).

من البسـط الجلدية يكسوهـا الفراء وهو مايعـرف «بالجاعد»[1]. وتقوم بإعداد اللبن والسمن والإقط (البقل) الذي تعمله بعد تجفيفها للبن فتجعله على شكل أقراص لذيـذة الطعم، ثم إنـها تقوم بجـلب الماء من موارده لإعـداد وجبات الطعام والشراب والغسيل، وتقوم بطحن الحنطة بالهاون «النجر» أو النقيرة[2]. هذا إذا لم يقم الرجل بطحنه في القرى بواسطة[3] الرحا[4].

---

(١) تقوم المرأة بغزل الشعر بواسطة المغزل وهو آلة خشبية له رأس على أربعة جهات تديره المرأة حتى يتجمع عنده الشعر أو الصوف على شكل خيوط ثم تقوم بنطوها على شكل قطع تخيط مابينها لتجعل منها بيتامن الشعر وتجعل من الصوف بسطا أو ساحات كما تصنع منها أكياساً لها عرى وهي ما تسمى بالمزاود- جمع مزودة- أو الخروج جمع خرج. أما الجلد فعند الذبح حتى وقت قريب كانوا يفرضون على الجزار للأغنام أن لايكون بالجلد أثناء السلخ شقوق ليستفاد منه قرب وصملان وتعقد من جهة الذيل والأيدي والأرجل ويكون مكان الرقبة فما، أو يفرض من النصف ليكون جاعدا أو فروة تلبس أثناء الشتاء.

(٢) الهاون فصيحة، والنجر، والمهباش لم أجد لهما أصلا فيما بين يدي من كتب اللغة إلا أن يكون النجر من النجر بتشديد النون وفتحها وهو النحت والمهباش من الهبش بفتح الهاء وسكون الباء وهو الضرب وكل هذه الثلاث أسماء لمسى واحد كان يدق فيه كافة مستلزمات البيت من البن والبهارات وإلى هذا الوقت وهو يستعمل وإن كان ذلك على نطاق ضيق، أما النقيرة فهي مأخوذة من أصل فصيح أي المنقورة من الحجر إذ أنها حجرة متوسطة الحجم ذات سمك متوسط تتخذ من الحجر الأصم (البازلت) وينقر في وسطها نقيرة تسع مقدار قبضة اليد ٤ مرات تقريبا، ومعها حصاة صلبة طولها حوالي ٤٠ سم أو أقل قليلا، وقد تعمل النقيرة من الخشب كما يعمل النجر من الخشب أيضا، والنقيرة أقدم استعمالا في نجد من النجر لأنها من مصنوعات البيئة وإلى وقت قريب وهي تستعمل مكان النجر (الفيروزآبادي: ١٣٨/٢، ١٤٧، ٢٩٣، ٢٧٨/٤).

(٣) الرحا: بفتح الراء جمعها رحى (فصيحة) وهي تصنع من الحجارة الصماء (البازلت) وهي تتكون من طبقتين على شكل دوائر يكون في الفوقانية فتحة صغيرة يدخل معها الحب لتدور به الرحا بمقبض خشبي مثبت على الطبقة العليا ويخرج الحب مطحونا أو مجروشا بين الطبقتين، والرحا أقسام فمنها ماهو للحب وهو الكبير، ومنها ماهو للورد اليابس والأبازير والشنان وما إلى ذلك: وهو الصغير، وفي المثل النجدي «رحيّة ورد» والرحية تصغير رحا يضرب المثل للأداة التي لاتحدث إزعاجا من جراء العمل لأن الطحن برحا الورد لايحدث صوتا كما تحدثه رحا القمح محمد بن ناصر العبودي: الأمثال العامية (٥٨١/٢) المثل رقم (٩١٦).

ونظرا لوجود الحرية التي تتميز بها الحياة البادية في الصحراء فإن المرأة قد تتيح لبعض الضيوف في بعض الأحيان الدخول للبيت واستضافتهم إذا كان البيت خاليا من الرجال وتصنع لهم القهوة والشاي وتقدمها لهم في حدود الحشمة والأدب، وربما قدمت له الحطب ليصنع القهوة بنفسه ليأتي الرجل فيحيي الغريب متجاذبا معه أطراف الحديث عن الربيع والغزو والمواشي وتختلف القبائل في هذا إذ الأغلب أنها لاتستقبل الضيوف مباشرة[١].

وقد تهان المرأة في البادية، فيحدث أن تمنع من الزواج، إما بسبب عيب - لايصل إلى حد الجرم - ارتكبته، أو لأنها رفضت قريبا لها- كابن عمها - وأهلها يريدونه، وتسمى المرأة في هذه الحالة «المحيّنة» أخذًا من تحيين الشاة أو الناقة وهو تصريتها، أي منعها من الحلب، وذلك إذا أرادوا تسمينها أو الرغبة عن حليبها أو إذا قل حليبها في فترة الحمل، وفي هذا المجال، قالت إحدى فتيات قبيلة عنزة تخاطب فارسا يسمى «دبّي»:

وراك ماتويق يادبّي   على المحيّنات لك نوبة[٢]

وبعض القبائل تطلق على هذه العادة التحيير وعلى الفتاة محيرة كأن ابن عمها حيرها عن أن تعمل في نفسها شيئا، وهذا حق من حقوق ابن عم الفتاة

---

(٤) Burckhardt. Nots. (1/177). Mohmmed. Then. Althenayan.

(١) عبدالجبار الراوي: البادية (٣٠٣).. (1/188) Burckhardt.

(٢) وراك: لماذا أو مالك، ماتويق: لاتطلع أو تطل، نوبة: مرة. ابن رداس: ٢٤٦)، والتحيين والتصرية كلها فصيحة الفيروزآبادي (١٣٤/٢) (٢١٨/٤)، وقد سمعت أن لفظة المحينات المقصود بها فخذ المحينات، ومن الدهامشة من العمارات من عنزة وكأن هذه الفتاة تستعدي دبى الشمري المشهور بفروسيته وظفره على هذا الفخذ فلا يكون هذا البيت وقصته من قصص التحيين النسوي إلا أن هذا لايمنع أن تكون هذه الفتاة محينة وأرادت أن تسلي نفسها بهذه الأبيات وتستعدي دبى على هذا الفخذ، عن المحينات: حمد الجاسر: معجم قبائل المملكة (٧٢٥/٢).

الأدنى عند كثير من القبائل بحيث أنـه يمنعها من أن تتزوج أحداً غيه إذا رغبها ورفضته عند ذلك ولايستطيع أبوها أن يزوجها من غيره إلا برضاه، ولو حصل وتعجل وأقدم على تزويجها بغير رضى ابـن أخيه فإنه يصبح مهددا بالقتل بين فترة وأخرى من ابن أخيـه، والزواج نفسه يعرض للتنكيـل الذي قد يصل إلى القتل لرضاه بزواج المحـيرة، فإن لم يحصل هذا الزواج بسبب رفـضه التخلي عن حقه المزعوم فإن البنت تعيش في عذاب التحيير إلى أن توافق على الزواج منه كرها أو تظل عانسا إلى أن تموت، ويحدث من جراء هذا العمل مشكلات في المجتمع الـبدوي لا أول لها ولا آخر قد تجر إلى حـروب ومقاتلات إن لم تكن بين قبيلتي الطرفين فعلى الأقل بين أفراد منهما[١].

ويعد تقديم ابن العم على غيره في الـزواج ظاهرة اجتماعية أصيلة عند القبائل العربية منذ قبل الإسلام وخلال تاريخه، فإذا جاء رجل يريد خطبة ابنة رجل سئل ابـن عمها إن كان لها ابن عـم عن رغبته ورأيه في ابنـة عمه، فإن أظهر رغبته في الزواج منها فـهو الأول والمقدم على غيره، وزوجت منه، وإن أظهر عدم رغبته في الزواج منها زوجـت من غيره، وقد يأبى ابن العم تزويج ابنه عمه من غيره، ويصر على أن تكون له ولكنه يأبى تحديد موعد الزواج أو فسخه، وقـد تأبى ابنة العم الزواج مـن ابن عمها ويأبي ابـن العم إلا الزواج منهـا فتعيش الـفتاة في هم وغم يـنعكس أثره عـلى الأسر بل علـى الأفخاذ والقبائل نتيـجة تمسك كل من الطرفين برأيه، فتنشـأ من جراء ذلك خصومات ومنازعات قد تصل إلى إراقة الدماء بين القبائل العربية، مما جعل هذه الظاهرة الاجتماعية من أسباب الحروب والقتال بين الـقبائل العربية قديما وحديثا، ولم يفلح المصلحون والوعاظ في التقليل من آثارها في المجتمع البدوي[٢].

---

(١) فهد المارك: من شيم العرب (٣٧/١)(٢٨١/٤- ٢٨٥).

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط (١) دار العلم للملايين بيروت. ١٩٧٠، نشر مكتبة النهضة بغداد (٦٢٨/٤).

وتطلق بعض القبائل على هذه العادة التحجير أخذًا من الحجر وهو المنع، ويبدو أن بعض أفراد القبائل يرمي من وراء إطلاق لفظة التحجير إلى التغالي بفتاته فيأخذ عوضا كبيرا من طالب يدها حتى يفك هذا التحجير، وهذه العادة موجودة إلى وقت قريب بل حتى الوقت الحاضر عند بعض أفراد البادية، رغم إفتاء علماء الدعوة بتحريمه والتشديد على فاعله كما سيأتي بيانه[١].

وسواء كانت هذه العادة بلفظ التحيين أو التحجير فإنها تؤدي مفهومًا واحدًا لدى قبائل بادية نجد بل لدى القبائل البدوية عامة في شبه الجزيرة، وهي تعتبر نظرة سوداء مظلمة نحو المرأة البدوية، ووجودها في هذا المجتمع البدوي يعتبر علامة قسوة ونظرة متخلفة نحو المرأة ودورها الرئيس في المجتمع ولاتتكافأ مع وضعها الاجتماعي الممتاز الذي مر ذكر جوانب منه.

وعموما- وعدا وجود هذه العادة- فإن المرأة البدوية تعيش مكرمة معززة سواء كانت أُمًّا أو زوجة أو بنتا أو أختا، وهي بالنسبة لهذا التكريم في درجة لاتستطيع المرأة الحضرية- على تكريمها أحيانا- أن تصل إليها، وهذا عائد لتعدد الأعمال التي تقوم بها ولوجود الصحراء المنفتحة التي تفرض على الرجل سلوك هذا السبيل الذي من أبرز مظاهره- بالإضافة إلى ماسبق من الجوانب الإيجابية- ذهاب النساء مع محارمهن إلى أسواق المدن والقرى النجدية للامتيار وعرض بعض منتوجات البادية فيها، والبدو في هذا يعتقدون أن نظرة المرأة أقوى ورأيها أحكم من الرجل في كافة أمور البيت ومستلزماته لأنها صاحبة الشأن فيه، ولايحبون في هذا المجال أن يفعلوا شيئا بغير إذن ورضى نسائهم[٢]، ولولا وجود العادة السيئة السابقة لعاشت المرأة البدوية في صحرائها حرة تتصرف كما تشاء، ولفاقت في وضعها الاجتماعي الفريد، وضع الرجل البدوي بشكل عام.

---

(١) ابن قاسم: الدرر ٦/٣٢١.

(٢) حسن الريكي: لم الشهاب ١٨٥،

٣ ـ الرق والأرقاء:

(أ) لمحة عن الرقيق في الخليج والجزيرة العربية في العصر الحديث:

على الرغم من زوال رق الأرض في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي، إلا أن الأوروبيين ـ وصفة الاستعمار متأصلة في نفوسهم ـ شرعوا في البحث عن بديل له واتجهت أنظارهم إلى أفريقية ليتخذوا من زنوجها البديل، فأخذوا يقيمون مراكز تجارية على سواحلها أو جزرها القريبة من السواحل، وكان الأسبان والبرتغاليون أول من أقام هذه المراكز لتكون منطلقا لاستعمار القارة الأفريقية، وفيها كان يبيعون الأفريقيين بضائعهم وصناعتهم ويشترون منهم، وكانوا كثيراً ما يقايضونهم بالرقيق والرقيق الفقير بشكل خاص وكانوا يحملونهم إلى أسواق أوروبا فيبيعونهم على أهلها للعمل في الزراعة وكافة الأعمال الجسمية المرهقة[١].

وفي سواحل إفريقية الشرقية كان الأوروبيون قد اصطفوا تجارا من أهلها الذين كان يصيدون الزنوج ويبيعونهم للأوروبيين، أما في سواحلها الغربية فكان الأوروبيون أنفسهم يقيمون بها فيفتعلون حروبا بينهم وبين الزنوج يأسرون منهم أسرى يحولونهم إلى رقيق ويفرضون على بعضهم إتاوات سنوية رؤوسا من الرقيق[٢].

أما الرق في الخليج والجزيرة العربية فكان كذلك من سواحل أفريقية الشرقية، فمن زنجبار تبحر السفن محملة بالرقيق إلى مسقط التي تعتبر أكبر مركز لتجارة الرقيق في القرن الثامن والتاسع عشر الميلاديين كما أنها توزع الرقيق على دول الخليج وفارس والعراق والهند، وهناك المراكز الحضرمية التي

---

(١) عبدالسلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره مطابع اليقظة. الكويت ١٤٠٠هـ ص١٥٠ ـ ١٥٢.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥٥.

تبيع رقيقها في موانئ البحر الأحمر كالحديدة وجدة، ولقد كان للقواسم الذين كانوا يعتبرون أكبر تجار الرقيق في الخليج نصيب وافر في هذا إذ كانوا يبيعون الرقيق إلى سكان نجد عن طريق ميناء القطيف[1].

ثم إن هناك مصدرًا آخر للرقيق وهو الهند فإن سفن حاكم مسقط كانت بعد أن تفرغ رقيقها الأفارقة في بومباي تعود محملة ببعض نساء الهند لبيعهن في مناطق أخرى ومنها منطقة الخليج، كما كانت سفن باقي إمارات الخليج تجوب البحر العربي والمحيط الهندي لتأتي بالفتيات الهنديات اللاتي يتم اختطافهن أو شراؤهن من أهلهن كل عام، ويبدو أن هذا المصدر كان يجلب عن طريقه رقيقًا من أجناس أخرى غير الهنود كالسيلانيين مثلا، كما أن مدن الشام والعراق كانت مصدرًا لرقيق آخر من شمال آسيا كالجركس والأرمن.

وإذا كانت الحكومة البريطانية خلال القرن الثامن عشر قد حاربت الرق في منطقة شرق أفريقيا والخليج والهند فإن الباحث يعتوره الشك إزاء هذا الإجراء لأن السفن البريطانية كانت في هذه الأثناء تبحر إلى أوروبا محملة ببعض الرقيق. ويبدو أن أوروبا وقد اتخمت من كثرة الرقيق الذين بدأت تصدرهم إلى أمريكا من كثرتهم قد أخذت تحرم على من هم تحت سيطرتها من حكام الخليج حينئذ تجارة الرقيق عامة، ثم تساهلت بأن طلبت منعه على الأوروبيين فقط، وكما هو معروف أن الكثرة البشرية تحدث مشكلات اجتماعية نتيجة كثرة الطلب على الخدمات العامة، إذا فإن بريطانيا قررت أن يتوقف مد أوروبا بالرقيق خشية البطالة، ومزاحمة الأوروبيين في معيشتهم وما إلى ذلك لا محاربة للرق من ناحية إنسانية كما يبدو[2].

---

(١) جون. ب. كيلي: بريطانيا والخليج (١٧٩٥ - ١٨٧٠م) ترجمة محمد أمين عبدالله. طبع مطبعة: عيسى الحلبي. القاهرة. نشر وزارة التراث القومي والثقافة، بسلطنة عمان ٢/٧، ٨، ٩، ١٧.

(٢) جون. ب. كيلي: المرجع السابق جـ٢/ الصفحات ٢٤، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ٧٩.

وثمة سبب آخر دعا بريطانيا إلى الضغط على تجار الرقيق العرب وهو أنها تريد أن تصطفي هؤلاء الرقيق وخاصة الأطفال لإدخالهم إلى النصرانية بواسطة إحدى الهيئات التبشيرية التي أقامت لها في الهند فرعًا لمؤسسة إرسالية للكنيسة تحت اسم «الملجأ الأفريقي»[1].

(ب) الرقيق والخدم لدى بادية نجد:

لقد سبق أن ذكرت أنه كان لنجد والجزيرة العربية مصادر شتى لجلب الرقيق فعلاوة على الذي يبقى من رقيق الأوروبيين في شرق أفريقيا والذي يأتي إلى داخل الجزيرة عبر مسقط واليمن، فهناك الرقيق الذي يأتي عن طريق بغداد كرقيق الكرج أو عن طريق مكة أو القاهرة.

ومن الطبيعي أنه لا يمتلك الرقيق إلا الوجهاء والأغنياء من البدو فإن كل شيخ قبيلة قوي يحصل سنويا على عدد من الرقيق الذكور والإناث يصل إلى خمسة أو ستة أشخاص.

وإذا كان بعض البادية يعاشرون رقيقهم من النساء كما أباحته الشريعة الإسلامية مؤدين لما يترتب على ذلك من حقوق وامتيازات فإن بعض البادية يمتنع عن معاشرة رقيقاته، فيذكر بركهارت: أن بعض البدو قد يمتنع عن معاشرة رقيقاته لكنه لا يذكر السبب، ولعل السبب في ذلك الجهل منهم بأحكام الرق في الإسلام وكجزء من جهادهم بالإسلام قبل الدعوة معتقدين بأن ذلك لا يجوز، وربما أن السبب هو ترفعهم عن الأرقاء حفظا لأنسابهم، ولكن هؤلاء البدو يعاملون رقيقهم بمنتهى السماحة والكرم فإذا ظهر لهم

---

(١) أرنولد. ن. ويلسون: الخليج العربي، ترجمة د. عبدالقادر يوسف، طبع مؤسسة فهد المرزوق الصحفية، ونشر مكتبة الأمل، الكويت، ص: ٣٧٢، وقد بحث الكتابان الرق في الخليج والجزيرة العربية في العصر الحديث بالتفصيل إلا أن الباحث يداخله الشك في كثير من نقاط الموضوع.

إخـلاص الرقيق للقـبيلة لبـضع سنوات فـإنهم يمنحونه الحـرية بلا مقـابل بل ويزوجونهم من رقيقهم الإناث، أو من نسل الرقيق الذي نشأ في القبيلة[1].

ومن فـرط تكريم رجـال البادية لـرقيـقـهم الذين يودون تحـريرهم أنهم يشهدون على ذلك وربما كتبوا وثيقة بذلك ومن علامات التحرر لديهم السماح لهم بحلق رؤوسهم.. كل هذا حتى لا يستـرق مرة أخرى لأنه أصبح في هذه الحلة حرًا بحيث أنه يسكن فـي خيمة لوحده، وقد زادت الخـيام التي تتبع ابن سمير[2] عن خمسين خيمة كلها لأشخاص كانوا رقيقا فحررهم، ويبدو أن من أهداف تحرير الرقـيق لدى البادية هو إضفـاء نوع من الأبهة على شيخ القـبيلة يستفيد من هذا التحرر في الأبهة ومن كـرمه لم يكن يتقاضى منهم مالا مقابل هذا التحرر إلا أنه يطلب منـهم أن يزوجوا بناتهم لرقيقه المشـترين أو المحررين حديثا، كـما أنه أيضا إذا حصل أن غـزوا وغنموا يعطوه أحد الجمـال القوية، ويظهـر أنه يطلب ذلك لا على أساس الـعتق بل من باب أن له الأمـر والنهي على القبيلة إن كان شيخًا أو على الأسرة إذا كان فردًا عاديا.

ومن الثابت اجـتماعـيا أن الرقيق رغم تحـررهم فإنهم يظلون محـتفظين ببعض مظـاهر الرق فلا يتزوجـون من إمرأة عـربية، بل من بعـضهم، أو من أرباب الحرف الـذين يستـقربهم الحال قـرب القبـيلة، ورغم هذا فإنــهم سواء تحـرروا أو لم يتحـرروا فـإنهم يلقون مـن أبناء البادية طيـب المعاملة وحـسن الجوار[3].

---

(١) Burckhard. Notes. 1/181

(٢) ابن سمير هو والطيار وابن ملحم رؤساء أفخاذ من بني وهب من عنزة التي تنتشر بين بادية الشام وشمال نجد، عبدالجبار الراوي: البادية، ص٢٣٥، ٢٣٦، معجم قبائل العرب ١٢٥٤/٣.

(٣) Burckhardt. Notes 1/182.

أما الخــدم وهم غالبا من العرب الفــقراء ويسمــون «الصبيان» ويقــومون بأدوار شبيهــة بأدوار الرقيق إلا أنهم يعملون بالأجر الشهــري الذي قد يحسب لهم بعد سنــة أو عشرة أشــهر ويقومــون برعي الأغنام والإبل وتقديم القــهوة للضيوف، أما أجورهم، فقد تتكون من حــمار أو جمل صغير سواء بعد تمرينه «عسفه» على المشي بالراكب أو قبل ذلك إضافة إلى زوج من الأحذية «زربول» وقميص «ثوب» وكــوفية «طاقيــة» وشماغ، وعباءة وجلد شــاة إما على شكل فروة يستعملها في الشتاء أو على شكل ســفرة يستعملها في بيته أو على شكل قربة للماء أو سقاء للبن[١].

وعلى أي حال فــقد كان الرقيق والخــدم يلقون من البادية عمــوما وبادية نجد على وجــه الخصوص كل مســاعدة واحتــرام وتكريم، ويكفي أنه إذا تحرر الرقــيق أو انتهت مــدة الخادم زوده ســيده، خــاصة إذا كــان رئيس القبــيلة بما يحتاجه من خيام وإبل وأغنام تاركا له الحرية في البقاء معهم أو مغادرة القطين إلى حيث يشاء، أو الرحيل معهم إلى مــواطن كلأ أحسن أو البقاء في القطين الأول، والأرقاء والخدم غالبًا ما يرغبون البقاء في كنف سيدهم، وإذا اضطروا إلى الافتراق فإنهم يظلون يذكرون كل ما لاقوه من رعاية وتكريم.

ولعل من قصة مسعود ـ مملوك ابن هذال ـ أحــد رؤساء فخذ الخبلان من عنزة ـ مــا يؤكد توفــر شعور المحــبة والوفــاء بين أبناء البادية وأرقــائهم، هذا الشعور المبني على توفر عناصر الشجاعة والإخلاص لدى الرقيق، وتوفر المحبة والتــقدير لدى البــدوي ذلك أنه كان لابن هذال مملوك اســمه مــسعــود أحبــه لشجاعته وإخلاصه، وقد عامله كما يعامل أبناءه حتى إنه زوجه وهو في حال الرق تكريما ووفاء له، ويبدو أنه كان تمهيدًا لتحريره متى طلب ذلك ولما خلف

---

(١) Burckhardt. Notes 1/182, 183.

أولادا خافت زوجته من بيع أولادها لأنهم لا يزالون في حال الرق فطلبت من زوجها أن يطلب العتق عنوانا على حسب سيده له، وما كان من ابن هذال الذي أحب مسعوداً حب الرفيق المخلص والصديق الوفي إلا أن وافق على عتقه، إضافة إلى أنه أعطاه بعضًا من الإبل، وقطيعًا من الغنم، وربما بعض النقود والأطعمة، ويظهر أن ابن هذال قد أدرك سر هذا الطلب ولا يريد إخباره به حتى لا يؤثر على نفسه فخيره بين أن يرحل معه في إحدى فترات الربيع إلى منطقة أكثر كلأ أو يبقي في مرابعهم الأولى، فآثر البقاء نزولا عند رغبة زوجته التي رغم هذا الجود والمعروف من ابن هذال فإنها أنكرته، ورحل ابن هذال وحاشيته وبقى مسعود وعائلته حرا في حياته الجديدة، إلا أنه وهو يمر كثيرا بالمنازل التي ينزل فيها مع ابن هذال إما لقنص أو غزو في المرابع الأولى - أخذ يحن كثيرا إلى سيده وصديقه ابن هذال كلما مر بهذه المنازل وتذكره، وفي ذات مرة مر به ركب في طريقه إلى مرابع ابن هذال الثانية التي رحل إليها فبكى وقال هذه الأبيات وأرسلها من أحدهم إلى ابن هذال، وكان مما قال:

ياركب يا مترحلين على كوم	يا اللي بكم عيرات النضا همامي
إيلا لفيتوا ديرة أصحاب من قوم	فاحكوا ترى حمض الرجال العلامي
أبكي هلي ياناس منيب مليوم	وأضن من يبكى هله ما يلامي
أبكي فريق غربوا هلت التوم	تعطروا المعيار والشط حامي
أقفوا كما طير قلب راسه الحوم	غربية ما يندرى وين هامي
قلبي عليهم صايبه ونة البوم	ونات وجعان طواه الهيامي
وادى الرمة يذكر به العشب ديهوم	ترعى به القطعان والرزق حامي
هذى مرابط خيلهم دايم الدوم	حقب العيون مشورات القتامي
وذا مشب النار والحفر مثلوم	مركى الدلال المشعبات الشوامي

من طاوع الثنتين يصبـر على اللوم يصبـر على فرقى هله والعـمامى[1]

---

(١) على كوم : بضم الكاف: القطعة من الإبل جمع كوماء بفتح الكاف (فصيحة) الناقة العظيمة السنام، العيرات بكسر العين (فصيحة) تطلق على كل ما أشير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا وهي هنا الإبل، والنضاء: السباق، همامي: لعلها من الهموم: بفتح الهاء الناقة الحسنة المشى (فصيحة) إيلا، إلا: عامية من إذا الدالة على الزمان الماضي، لفيتوا، من اللفاء بمعنى الوجود والوصول، حكوا: انقلوا كلامي (فصيحة)، ترى: من ألفاظ التأكيد النجدية بمعنى اعلموا يقينا، حمض الرجال العلامي: الحمض ما تأكله الدواب من شجر الحمض المتنوع ليساعدها على الهضم، والعلامي: من الإعلام وهو الإخبار، وقد شبه تغير فؤاده من فراق سيده بالدواب المحتاجة إلى الحمض، أو يكون قد قصد الحقيقة من قولهم: رجل حامض الفؤاد: متغيره أو فاسده، منيب مليوم: عامية مخففة من أنا بملوم، هلي: أهلي: هله: أهله على عادة النجديين بإسقاط همزتها تخفيفا، فريق: طائفة من الناس (فصيحة) غربوا: اتجهوا غربا، هلة التوم: عامية من هلال التوأم، والتوم وهي لفظة نجدية تعني التوأم، وهي عند البدو في مثل هذا الشطر تعني كل شهرين لهما اسم واحد كالجمادين (الجمد) والربيعين (الربعان) وأحيانا شوال وذي القعدة على أساس أنهما في الفطر من رمضان (الإفطار) والمعنى هنا أنهم سافروا أول الربيعين أو أول الجمادين، تعطووا المعبار والشط حامي: تعطووا أخذوا، أو قطعوا، المعبار: معبر الوادي وقت جريان المطر فيه، والشط حامي: أي وشط الوادي يمشي بقوة، كما: أي مثل، طير قلب رأسه الحوم: طير أكثر الطيران في الجو والحوم في الفضا مما أثر على تفكيره فأصبح يتقلب لا يدري أين يتجه، غربية: جهة الغرب، ما يندري: ما يعلم، وين: أين، هامي: من التهمم بمعنى الطلب أي لا يعلم أن طلبها، وجهتها التي تريد، صاييه: عامية من مصيبة، ونه: مخففة من أنه بمعنى التأوه، وجعان: من الوجع، طواه، الهيام: أي أخذت مني شدة الحب مع الفراق كل مأخذ، ديهوم: من الدهم بمعنى كثرة الأخضر أو يقال حديقة دهماء ومدهامة: أي خضراء تضرب إلى السواد نعمة وريا ومنه قوله تعالى: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ سورة الرحمن آية ٦٤، القطعان: جمع قطيع، حامي: إما أن يكون من الحمى على عادة القبائل في أنها تحمي لنفسها مرعى خاصا بها، أو من الكثرة بمعنى أن الرزق فيه كثير، دايم الدوم: دائما والمعنى كثيرا، حقب العيون: من علامات الحسن في الخيل باحاطة البياض على عينيها، مثورات القتامي: مثيرات الغبار في الحرب، مشب النار: مكان إيقادها، والحفر مثلوم: أى حفرة النار التي لها فرجة لإدخال الحطب منها، مركى الدلال: مكان ارتكائها على النار أو حولها، المثعبات: أي التى تصب القهوة كما يصب المثعب (أفصح من الميزاب والمرزام) أو تصب القهوة ثعابيب أي صافية، الشوامي نسبة إلى الشام المشهورة بجودة دلالها، كبغداد، من طاوع: وافق (فصيحة)، الثنتين: نفسه وزوجته، فرقي هله والعمامي: فراق أهله وأعمامه (أسياده). لما تقدم من تحليل الأبيات: (الفيروزآبادي ١/٤٠، ٤١، ٢/٩٨، ٣٢٨، ٣/٦٠، ٢٧٥، ٤/١١٥، ١٧٣، ١٩٢، ١٩٧، ٣١٩، ٣٨٦، ٣٩٦، العبودي: الأمثال ٥/١٧٩٦، ١٧٩٧ مثل رقم ٢٩٨٣، وعن الأبيات: التميرى: الفنون الشعبية ١٦١).

ويروى أنه لما وصلت القصيدة إلى ابن هذال تأثره بقوة معانيها قائلا: لولا أنه قال: اقفوا كما طير قلب راسه الحوم لدفعت إليه أموالى كلها، وأرسل له بعد ذلك أموالا طائلة تقديرا لوفائه السابق وصدق تعبيره عنه في هذه القصيدة[١].

ولا شك أن ابن هذال - بما عرف عن عتيقه إخلاصه وأمانته ووفاءه - قد أتى بما رغب به الإسلام من إسقاط بعض نجوم المكاتبة، ويبدو أنه لم يكاتب أصلا بل أعتقه إعتاقًا خالصا وزاد بتطبيقه لقوله تعالى: **﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾** أن قدم له قسما من أمواله ومواشيه مساعدة له في بناء حياته الجديدة مما جعل مسعودًا يعيش حياة اجتماعية أرقى بكثير من حياته في حال رقه، هذا على أنه كان يعيش في رقه مكرما معززا.

وابن هذال ويبدو أنه قد ألحق أو سمح لمسعود أن يلحق نسبه به قد طبق قواعد الإسلام في الولاء استنادا لحديث «الولاء» لمن اعتق و «الولاء لحمة كلحمة النسب» و «مولى القوم منهم»[٢]، وهو بهذا الإجراء قد رفع من مكانة مسعود وأسرته بارتقائه - ولو بالولاء - لنسب قبيلة تعد من أكبر القبائل العربية وأصرحها نسبا في نجد، وهو بهذين الإجراءين - المكاتبة والولاء - بالإحسان فيهما قد قرر الحقيقة الاجتماعية التاريخية التي تثبت بأن الإسلام جاء موافقا - بل مؤيدا - للعديد من الأخلاق الكريمة والمثل العليا والصفات الطيبة التي تمثل بها العرب، وأصبحت عندهم في مكان عزيز لا يقبلون معه لها التغيير، وفي المقابل من ذلك فإن قسما من بادية نجد قد تمثل بمبادئ الإسلام المتعلقة بمكارم الأخلاق إلى جانب بعدهم - النسبي - عن الإيمان بمعتقدات هذا الدين والقيام بشعائره.

---

(١) عن القصة والأبيات: الثميري: المرجع السابق ١٦١ ، ١٦٢.

(٢) عن أحكام الولاء : البهوتي: مرجع سابق ٢, ٦٤٠ - ٦٤٧.

وتنطلق نظرة بعض البدو للرقيق والأرقاء من نظرة الإسلام ووضع كثير من الأرقاء فيه. هذا الوضع الذي رفع بلالاً وصهيبًا وعماراً وسلمان الفارسي ووضع أبا لهب وأبا جهل وأبا طالب بما آمن به الأولون، وبما حاربه وكفر به الآخرون، وتمثل هذه النظرة أبيات الخلاوى التي يقول فيها:

بلال عتيق وخصه الله بالتقى وسلمان بالإسلام والدين ساد به
وأبو طالب عم النبي ما حظى به وأبو لهب تبت أياديه خايبه
فلا في الورى جود على جود صاحب أبو طالب قد فاز بالنار حاجبه[1]

واستنادا إلى ما سبق فإن جميع ما كانوا أرقاء في السابق للقبائل النجدية قد ألحقوا نسبهم بها مما ترتب عليه تكثير هذه القبائل ورفع الوضع الاجتماعي لهؤلاء الأرقاء بعد تحررهم حيث عدوا من ضمن التركيب الاجتماعي لهذه القبائل لهم ما لأفرادها وأفخاذها وعليهم ما عليهم، ويدين كثير من أبناء هؤلاء الموالي الموضع الجيد الأمثل الذي حصل عليه آباؤهم أو حصلوا عليه فيما بعد بالتحرر مما يعطي الباحث انطباعا بأن فئة الرقيق أو الموالى فيما بعد قد لقيت من بادية نجد - في الغالب - كل عطف ورعاية وتكريم لم تلقه فئة الرقيق أو الموالى في كثير من المناطق المجاورة أو غير المجاورة، وهذا أثر على تشبع هؤلاء الأرقاء أو الموالي فيما بعد بكثير من عادات البدو الأصيلة وأخلاقهم الكريمة[2].

---

(١) عبدالله بن خميس : الخلاوي ٢٥٤.

(٢) عبدالله بن خميس : من أحاديث السمر ٢٥٢/١ - ٢٥٥.

٤ ـ أمثلة من العادات والتقاليد البدوية :

١ ـ الكـــرم :

لقد كان الكرم ومـا زال أبرز صفات ابن البادية حتى الفـقير منهم ومن الطبيعى أن الضيف يجلس عند بعض القبائل شهورا ولا تسأله من أين أتى وما هو هدفه، وهذا غالبا ما يحصل إذا اخـتلف أحدهم مع قبيلته، ومن هنا ينشأ الحلف مع القبيلة الجديدة سواء كان على مستوى الفرد أو الجماعة.

ومن عادة أبنـاء البادية إذا أصابهم مـحل ولم يكن عندهم مـا يقرون به الضيف فإنهم ـ وخـاصة رئيس القبيلة ـ يختفـون عن الضيف خشية مـواجهته وهم لا يجدون ما يكرمونه به(١).

ويعتبر البدو إشعـال النار في البادية دلالة واضحة على الكرم حيث كان لها الأثر الكبـير على مرتـاد الصحراء قديمـا، حيث يكون هناك التيـه والجوع والخوف مما يجعل إشعال النار بحـد ذاته بشير اطمئنان ودلالة وشبع ودفء في الشتاء والصيف، ومن هنا جاء المثل «شـبّاب نار» للرجل الكريم الذي لا تخبو ناره لإعداد طعام الأضياف، وقـد أصبح إضرام النار في البادية في الليل عادة متأصلة يعمل بها الغني والفقير حتى يهتدي بها السائرون في الصحراء(٢).

ويكرم أبناء البادية دابة الضيف كـإكرامه فيعلفـونها من أطيب ما لديهم من الحشيش، ويضـعونها في مكان أمين، وإذا كان الضيف مـثله مثل المضيف

---

(١) إبراهيم سليمـان الطامي: نزهة النفس الأدبيـة في القـصص والحكايات الغريبـة. مطبـعة كرم بدمشق ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ص ٣٩، ٤٠.

(٢) ومثله المثل ما تطفأ ضـوه: أي ما تخمد ناره عن المثلين. العبـودي: الأمثال ٢/٦٦٥، ٣/١١٩ مثل رقم ١٠٤٨، ١٩٣٠.

عرضة لنهب الحنشل[1] فإن المضيف ـ خاصة إذا كان غنيًا ـ يعوض الضيف عن أية خسارة قد تلحق به خلال وجوده في ضيافته وتلك في الحقيقة من أرقى درجات الكرم.

وإذا لم يكن للضيف صديق أو معارف في القطين الذي نزل عليه فإنه يترجل عند أول خيمة تظهر له سواء كان صاحبها في البيت أم لا، وإذا كان الضيف لديه حاجة تتطلب بقاءه في القبيلة مدة طويلة فإنه بعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام يذهب إلى خيمة أخرى في القطين ثم إلى أخرى حتى تقضى حاجته أو يصل إلى المكان الذي يقصده، هذا رغم إلحاح صاحب الخيمة الأولى بالبقاء عنده[2].

ويقول بركهارت: «إن العرب في قبيلة نجدية يرحبون بالضيف بأن يصبوا فوق رأسه كوبا من الزبد السائح»[3]. ولا أعرف أصلا لهذه العادة فيما اطلعت عليه من مصادر مكتوبة أو مروية تؤيد وجود هذه العادة في بادية نجد. وعلى كل لعل هذا السكب للزبد بعد أن يخلع الضيف كوفيته لتدهن رأسه حيث إن شعر رأس ابن البادية يتميز بالكثافة.

٢ ـ السكن:

من البدهي أنه ليس في البادية مساكن ثابتة بل هناك بيوت شعر ترحل مع ابن البادية أينما رحل إلى حيث الكلأ والعشب وموارد المياه.

ويعد البدوى مسكنه بنفسه ـ كما مر ـ إذ يستعد لذلك بجمع شعر الماعز

---

(١) سيمر تعريف الحنشولي والحنشل في الغزو عند البادية.

(٢) Burckhardt. Notes 1/178., 179.

(٣) Burckhardt. Notes 1/78.

وصوف الغنم ووبر الإبل، لتقوم المرأة بغزلها ونسجها على شكل قطع تخيط ما بينها حتى تشكل بيتا كاملا.

وتنقسم بيوت الشعر إلى أقسام بحسب أحجامها، فالذي يرفع بعمودين فقط ويسمى «مقرون» لأن العمودين متقابلان، والذي يرفع على ثلاثة أعمدة يسمى مثولث.. وهكذا المرويع والمخومس والمسودس.

ويدور حول البيت ساحة من الشعر أيضا تسمى «رواق» أشبه ما تكون بالفناء لبيوت الحضر، أما في المثولث فما فوق فيكون الرواق من الخلف فقط، ويثبت الرواق والبيت بأوتاد تربط بها خيول الضيوف عند الحاجة.

وإذا كان الحضر يتوسعون في بيوتهم كل حسب مقدرته وحاجته، ففقير البدو يسكن مقرونًا، وربما أقل كذات العمود الواحد، وترتفع المستويات الاجتماعية في السكن لتصل لشيخ الفخذ أو القبيلة الذى يسكن في السويع الذي يقسم إلى أقسام يفصل بينها حاجز من الشعر ويكون قسم منها للضيوف وقسم للطعام، وقسم للنوم، وقد يدخل البدوى صغار الأغنام في البيت خشية البرد.

وفي بعض الأحيان فإن البدوي يشترى بيت الشعر جاهزا من القرى لأن بعض البدو يعرض فيها ما يزيد عن حاجته، من الشعر في السوق على شكل بيوت أو على شكل ساحات[1].

ولعل القسم الأكبر في البيت بعد قسم الرجال والمضيف هو القسم الخاص بالنساء أو الحريم (المحرم)، وتستقبل فيه المرأة ضيفاتها من النساء كما يمكن خزن جميع الأمتعة الخاصة بالأسرة من سجاجيد وبسط ومفارش إلى

(١) عبدالجبار الراوي : البادية ص ٢٧٥، ٢٧٧.

جانب ما يمون الأسرة من حبوب ودقيق وبن وما إلى ذلك من الأغذية[1].

كما يوضع إلى جانب أحد جدران البيت مجموعة أحجار توضع عليها قرب الماء، وأسقية اللبن، وعكك السمن، أو قد تعلق في أحد أعمدة البيت التي يعلق فيها أيضا أدوات الإنارة من سرج وفوانيس[2].

وعموما فقد كيف البدوي سكنه مع جو الصحراء الحار صيفا البارد شتاء فجعل بيت الشعر يضفي على جو الأسرة دفئا في الشتاء وبرودة نسبية في فصل الصيف.

٣ ـ الملبس:

يحرص البدوي على ارتداء الملابس الفضفاضة المريحة، والخفيفة صيفا والثقيلة شتاء، وإن كان قد يلبس الثقيلة أيضا في فصل الصيف، ويتكون من قميص طويل عريض، ويجلب البدو خام هذه الملابس من القرى النجدية التي تستورده من بلدان الخليج كالبحرين والأحساء والكويت أو من العراق، وربما ذهب البدو على شكل قوافل للامتيار من هذه البلدان بأنفسهم، ويشكل الشام وتركيا والحجاز واليمن وعمان مصادر أخرى لجلب القماش إلى نجد حاضرة وبادية[3].

ومنذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي احتكرت شركة الهند الشرقية تجارة القماش تقريبا في منطقة الخليج إلى الهند حيث أقامت لها مراكز في بعض مدن هذه المنطقة وخاصة البحرين والبصرة اللتين

---

(١) مجلة الدارة: العدد الثالث والرابع ـ السنة الثانية، شوال ١٣٨٦هـ/ أكتوبر ١٩٧٦م، ص١٨٧، ١٨٨، ١٨٩.

(٢) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ص ٢٢٠.

(٣) الريكي : لمع الشهاب ١٧٤ ـ ١٧٦ ، ١٧٩، ١٨٠، الراوي: البادية ٢٧٢.

كان عن طريقهما يشتري تجار الخليج حاجة المنطقة من البضائع الإنجليزية والهندية وخاصة الأقمشة والتي شكلت صادراتها إلى المنطقة فيما بين عامي ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م ـ ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م الثلث من مجمل صادراتها منها ويعتبر قماش Elis هو أبرزها رواجا في المنطقة، ولعله المعروف لدى عامة نجد باللاس وهو نوع من الحرير الصناعي، إضافة إلى البز الهندي وأنواع أخرى من الأقمشة البريطانية والهندية والفارسية، ومن المؤكد أن نجدا حاضرة وبادية قد عرفتها في تلك الفترة[١].

وكانت تتم حياكة هذه الأقمشة على شكل قمصان إما في القرى النجدية أو تقوم ابنة البادية بحياكتها بنفسها فتجعل أزرارها من القماش نفسه، وتوسع أكمامها سعة تلائم الثوب الفضفاض، وتسمى بالردون، وكان طول الردون من علامات الرجولة عندهم، إضافة إلى أن البدوي قد يستعملها في بعض الأحيان ليحفظ فيها ما يحتاجه من بن وبهار وربما طباق، فهي تقوم مقام الجيوب، هذا علاوة على إمكانية تمنطقه بها إذا أراد أن يقوم بأى عمل يتطلب جهدًا قويًا وحركة سريعة[٢].

ولا يختلف بدو نجد عن حضرها في تلك الفترة اختلافا ظاهرا في اللباس إذ يتفقون معهم في لبس القمصان الفضفاضة من دون الأقبية التي قد يلبسها الأغنياء والوجهاء من الفريقين، كما يتفقون معهم في لون اللباس إذ يلبسون معا البياض والأديمى، والأسود، والعودي (أي القرنفلي) والسمائي[٣]، وتخضع هذه الألوان لحالة الطقس والوضع الاجتماعي لدى الفريقين، ولكنها كلها لا تخرج عن العادات النجدية في اللباس في عدم جر الثوب بإطالته تحت

---

(١) الريكي: ١٧٤، ١٨٠، عبدالأمير الأمين: المصالح البريطانية في الخليج العربي ص٥٥، ٩٠، ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٢) الريكي : ١٨٥، ابن رداس : ٥٥، ١٥٧.

(٣) الريكي : ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥، ولعل الأقبية هي المعروفة نجديا بالصاية.

الكعبين، أما الجيوب فكما أن قسما منهم كان يكتفى بالردون عنها فإنه يبدو أن بعضهم علاوة على هذا يضع جيوبا للقميص ولكن ليس على الشكل الحالي، بل توضع على أحد جانبي صدر القميص من داخله ويختلف البدو عن الحضر - في الغالب - في عدم العناية باللباس الخارجي - القميص، ولعل مرد ذلك إلى ظروف الحياة القاسية التي لا تتيح له العناية بهذا اللباس من ناحية خياطته على الشكل الدقيق الذي يخيطه به الحضر[1].

ويتمنطق البدوي بحبل حول بطنه يرفع ثوبه عن الأرض ليساعده على سرعة الحركة وربما استعمله عقالا لبعيره، ويلبس تحت الثوب سروالا تتفنن نساء البدو في زركشة أكمامه على عكس الثياب الخارجية، ويبدو أنه يكتفي بذلك فلا يلبس شيئا تحت ثوبه حول الصدر والبطن كما يفعل الحضري في تلك الفترة وبعدها، إلا أنه يتفق مع الحضري في لبس الكفية[2] أو الشال المهدب في الصيف والشتاء، وبعض البدو كالحضر يلبسون على الكفية عمامة حمراء - لعلها الشماغ - وهي مخططة بلون أحمر مما يبدو معه أن الشماغ المعروف الآن قديم في الاستعمال في نجد، وقد يلبس تحت الشماغ كمة (أو طاقية)[3] أو يكتفى بالشماغ وحده، والعقال[4] ولو كان قطعة حبل ضروري

---

(١) العبودي : الأمثال ٢:٤٨٣ مثل ٧٥٢.

(٢) الكفية قيل إنها من الكف بمعنى الجمع أي المكفوف بعضه إلى بعض وهناك من يقول إنها تحريف عن الكوفية نسبة إلى الكوفة وهناك من يؤكد أصلها العربي، ومن يذكر أنها ليست عربية، في جدال طويل عريض ليس هنا مجال تفصيله، وهي عموما اسم جامع لكل ما يوضع على الرأس عدا العمامة فهي تشمل الشال والغترة والشماغ والحطة والمنديل الرأسي والحلالية والقزية والمحرمة والدسمال، وللتفصيل في هذا انظر: (أحمد رضا العاملي: قاموس رد العامي إلى الفصيح ٥٠٤، ٥٠٥).

(٣) الطاقية اسم لكل ما يوضع تحت الكفية ويدخل بعضهم القلنسوة في معناها، والطاقية ليست فصيحة وفصيحها الكمة لأنها تغطي الرأس كما تغطي الأكمام اليدين (المرجع السابق، ٣٦١، ٣٦٢).

(٤) العقال، والبريم، والمرير، والعصابة، والخزام، والسب كلها أسماء لمسمى واحد حسب المناطق

لابن البادية ليمنع ما على رأسه من لباس من السقوط وخاصة ضد العواطف[1].

أما النعال فينتعل البدوي نعالا خفيفة يشتريها من المراكز التجارية في القرى النجدية وإن كان غالبا ما يترك التنعل سواء كان ذلك في فصل الصيف أو الشتاء، وهذه النعال من المصنوعات المحلية التي تتم عن طريق خرازتها بيد أبناء القرى، وهي في تلك الفترة تتسم بالبساطة المتناهية إذ لا تعدو أن تكون سيورا من القد تلف القدمين وتدخل منها الأصابع[2].

ويلبس البدوي شتاء وصيفا عباءة وهو في هذا يتفق - إلى حد ما - مع الحضري وأفخر العبي القيلانية المشتهر منها اللون الأسود وسميت القيلانية لأنها تحاك من نوع من الصوف والوبر يسمى القيلاني، ويبدو أنها من المنسوجات التي تجلب لشبه الجزيرة من الهند ثم تحاك في الأحساء على شكل عباءة محاطة بالحرير ومشايخ القبائل وأثرياء المجتمع، أما عامة الناس فإنهم يلبسون عبيا شقراء عادية تصنع من الصوف العادي، وأحيانا من تلك التي تكون مخططة بأبيض وأسود وتجلب محاكة من الشام والعراق والأحساء وقد تحاك قليلا في نجد[3].

ويبدو أن من أطيب العبي العباءة الشرقية[4]، ولا أعلم هل هي القيلانية نفسها أو تنافسها في الجودة. إلا أنه يمكن من معرفة جهة ورودها وهي شرقي الجزيرة أو العراق إمكانية اعتبارها القيلانية نفسها أو أن الثنتين من مكان واحد.

العربية. (المرجع السابق ٥٠٥، ٥٠٦).

(١) الريكي : ١٨٠، ١٨٥، والراوي : ٢٧٣.

(٢) الراوي : ٢٧٣.

(٣) الريكي : ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥.

(٤) المنقور : الفواكه ١/١٩٧.

وفي الشتاء قد يلبس عوضا عن العباءة الفروة التي تتكون من الغنم بشعره بعد دبغه، وتكسيته من جهة الجلد بقماش، والفروة كساء البدوي في الحضر، كما أنها فراشه ولحافه عندما يسافر أو يغزو، ومنهم من يرتديها حتى في الصيف اتقاء لسموم الصحراء الملتهبة وشمسها الحارقة، ويقوم أبناء البدو بتشكيلها وصنعها بأنفسهم وأحيانا يجلبونها محاكة من المراكز التجارية النجدية أو غيرها[١].

أما المرأة البدوية فتتفق هي الأخرى مع المرأة الحضرية في ألبستها وزينتها، فنساء الأثرياء يلبسن الحرير الهندي والبز الفارسي والشامي والرومي (التركي)، أما عامة النساء فيلبسن نوعا من القماش أسود اللون متوسط القيمة أو قليلها، وتلبس البدوية فوق رأسها خمارا أسود اللون وقد تعصب رأسها بعصابة تمسكه من العواصف وتختلف عن الحضرية بوضع البرقع الذي تخرج منه عينيها، وفوق هذا كله قد تلبس عباءة تختلف نوعيتها حسب الوضع الاجتماعي فالثريات يلبسن نوعًا من العبي القيلانية تقارب في جودتها القيلانية الرجالية وهي محاطة بخيوط الذهب، أما عامة النساء فيلبسن عبيا سوداء تقل قيمتها كثيرا عن القيلانية ويجلب النوعان من بلاد الأحساء وشرقي الجزيرة عامة، وتتميز البدوية أحيانا بتركها للعباءة ولبس ثوب فضفاض أسود اللون إن كانت متوسطة الحال، وملونا وفاخرا إن كانت من الأثرياء، ويسمى هذا درعا أو دراعة،ونساء الحضر في الغالب لا يلبسنه[٢].

أما الحلي فإذا كان الحضري يحرص على أن تتحلى نساءه بمختلف أنواع الحلي حسب الوضع الاجتماعي الذي يعيشه فإن البدوي هو الآخر يحرص

(١) الراوي : ٢٧٣.

(٢) الريكي : ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٥، ويغسلون ملابسهم بالإشنان وهو من أشجار البادية وأحيانا بالصابون الذي بدأت نجد تعرفه منذ تلك الفترة.

على ذلك وتتفنن نساء الفريقين في هذا فتلبس نساء الأثرياء منهما أفخر مسبوكات الذهب المرصعة بالجواهر النفيسة من الياقوت الأحمر والأخضر وغيرهما، وأنواع الفصوص الراقية والزبرجد والأحجار الكريمة سواها، أما عامة النساء فيلبسن أنواعا من الحلي أقل قيمة من السابقة[1].

وتلبس النساء البدويات أنواعا من القلائد الخرز التي يعتقد البدو في تأثيرها الشديد على بعض الأمراض، وتعقص على جدائلها نوعا من الحلي، كما تسور معصمها بأسوار من الحلي تختلف جودته حسب الوضع الاجتماعي، وتجمل البدوية أصابعها بخواتم من الذهب أو الفضة أو النحاس، كما تضع على أذنيها وأنفها أقراطا وأزمة، وتسور رجليها بحجول أو خلاخيل[2].

وعموما فالبدوي في تلك الفترة لا يختلف كثيرا عن الحضري في طرز ألبسته كما لا تختلف البدوية عن الحضرية في ألبستها وحليها ومظاهر زينتها الأخرى، ومرد ذلك كله أن الحضري في نجد آنذاك كان - في الغالب - يعيش حياة متداخلة بين البادية والحاضرة، هذا إضافة إلى أن البدوي كان حريصا على أن يتأثر بالحضري في بعض مظاهر حياته وخاصة اللباس انطلاقا من النظرة القائلة: «البس ما يعجب الناس» مع احتفاظه بمظاهر حياته الأخرى التي يرى أنه يبز الحضري فيها.

---

(١) المصدر السابق: ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٥.

(٢) الأزهار النادية: ١٢/١٣، ٣٥، ٥٧، ٥٨، وتتزين المرأة البدوية بمختلف الأصباغ المعروفة آنذاك، جاكلين بيرين: ١٢٦.

٤ ـ المأكـــل :

يروى عن الحارث بن كلدة[١] طبيب العرب في الجاهـلية قوله: لما سئل عن أفضل الدواء؟، قال: الأزم أي قلة الأكل ويعتقد البدوي بهذه النظرة وأنها تبعث على دوام الصحة في البدن، فهو على هذا يكتفي بالقليل جدا من الزاد حضرا وسفرا مما يظفر عليه من صيد الحيوان أو الطير، إن لم يستغن عن ذلك كل الاستغناء ولكنه حـينما يأتى إليه ضيف صديق أو غـريب يظهر من الطعام الشيء الكثير[٢].

ويتـألف طعام البـدوي غالبـا من التمـر واللبن، أو حليب الإبل الذي يشربه أحيانًا بعـد الحلب مباشرة، إضافة إلى الأقط وهو مـا يسمى بالمضير أو البقل الذي يقدمونه مع السمن، ولقد كان الإكثار من السمن دلالة على الكرم فكانوا يقدمون الطعام إما رزا[٣] أو حنطة مطحونة مخلوطة بالسمن، ويضعون له حفرة في وسط الصحن ليـأخذ الضيف اللقمة ويغمســها في السمن، قالت شاعرة بني لام التي سبق ذكرها:

---

(١) هو الحارث بن قلدة الثقفي أحد حكماء العرب من أهل الطائف، رحل إلى فارس مرتين فأخذ الطب من أهلها وبرع فيه حتى أصبح طبيب العرب في عصره، ولد قبل الإسلام، واختلفوا في إسلامه، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر من به علة أن يتطبب عنده، توفي سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م له كتاب «محاورة في الطب» وهو خلاصة الحوار الذي جرى بينه وبين أنو شروان في إحدى سفراته إلى فارس. (الزركلي ١٥٩/٢، الموسوعة العربية ٦٨٥).

(٢) الراوي : ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) عرف العرب الرز قديما وكانوا إلى وقت قريب يسمونه الرنز والرز والأرز، بفتح الهمزة وضم الراء وقد أورده ابن القيم في زاد المعاد وأثنى على مادته الغذائية . كما أورده المنقور في الفواكه ٢٤٩/١ مما يدل على معرفة النجديين به كأحد أنواع المأكولات لديهم، كما أشار صاحب اللمع إلى معرفة النجديين بالرز في تلك الفترة ولأنه محصول خارجي فإن مما يبدو أن نجدا لا تعرفه إلا في فترات الرخاء أما فترات قلة الموارد فإنه يختفي وتبقى المحاصيل المحلية هي الرائدة في المواد الغذائية، (ابن القيم: زاد المعاد ١٥٧/٣، الفيروزآبادي ١٦٥/٢، الريكي: ١٧٤، ١١٧٦).

لا وابن عـمي تنثـر السـمن يمناه   على صـحـون كـنهن النشـايل[1]

أما الحنطة «أو حـب القرايا كمـا يسمـونها»[2] فكانوا يأكلونهـا بعد أن يطحنونها في الـقرى ويعملونهـا على شكل خبز أو أنواع أخـرى من الطعام. وكان أبناء البـادية يمتارون التمر من القـرى حتى أنهم في بعض السنوات أثروا على المعروض في الـبلدان من التمر فـفي سنة ١١٢٥هـ/١٧١٣م خفى التـمر حتى وصل إلى مائة وزنة بالأحمر[3]، ومن الطبيعي أن يصل اهتمام أهل نجد عموما وباديتهم خصوصا بالتـمر لأنه يشكل مادة أساسية للطعام اليومي لهم، ولأنه أكثر أنواع الغـذاء قيمة من الناحيـة العملية وخاصة لمن كـانوا على سفر لأنه لا يتطلب أي إعـداد، ومن هنا زاد اهتمـام البدوي به، والذي كـان على استعداد لأن ينافس الحضري عليه في السوق[4].

وكما يستعمل البدو الحنطة مطحونة فـإنهم يستعملونها مجروشة مدهونة بالدهن الكثير وهي ما تسمى « الجـريش» المعروفة إلى الوقت الحاضر وهم قد استـفادوا معـرفة هذا الطبق من الحضـر الذين يلتقون وإياهم سـواء بسواء في إفراطهم في السمن مع هذا الطعام[5].

---

(١) ابن رداس: ١٤٥، ١٤٦.

(٢) كما قالت الشاعرة السابقة في بيت سبق ذكره:

زهابهم حب القرايا النظيف   وسلاحهم صنع الفرنجي والأروام

(٣) الفاخرى: ٩٥، ابن بشر: ٢/٢٣١.

(٤) D. M. Then. Altheenayan. History. W. in. Nagd. p. 5.

ومن هنا جاء المثل: «لو التمر عند البدو ما باعوه»، وكذلك المثل: «التمر ما يودع عند البدو» متصورين محبة البدوي الشديدة للتمر.

العبودي: الأمثال العامية: ٣/١٦٤٦، مثل رقم ١٨٤٦. الجهيمان الأمثال الشعبية: ٣/١٣٩، ٢٨٢، ٦/٢٩٨، الأمثال: ١٥٩٨، ١٩٨٤، ٥٦٧٧.

(٥) الريكي: ١٨٢.

وعلاوة على المحاصيل المحلية من القمح والذرة والتي تلقى التقدير الكبير من بادية نجد كما مر، فإن شحها أو عدمها في فترة من الفترات يدفع البدو إلى الامتيار من المناطق المجاورة وخاصة العراق التي قد اشتهر قمحها «عيشها» بين بادية نجد وحاضرتها على حد سواء بأنه الرافد الأول للمحاصيل المحلية، وكان هذا الطعام مضافا إليه لحوم الإبل والغنم كاملة منتهى الكرم، ويحرص البدو في هذا المجال على السمينة منها وخاصة الإبل المسماة بالفاطر لأنها تتميز بكبر الجسم ووفرة الشحم[١] ومن هنا جاء قولهم: «الشاطر يذبح فاطر»[٢]، ويصور ذلك هذين البيتين للخلاوي في ممدوحه منيع بن سالم:

يا ما ذبح لـلضيف كوم من النضا إلى شح في ماله خبيث الجاش

يذبح لهم من كل كبش مقرن وعيش العراقي بالصحون فراش[٣]

ويبدو أن اتفاق البدو مع الحضر في أسلوب طبخ بعض الأكلات المعروفة وعدم دقة البدو في جودة هذا الطبخ إنها نسبة إلى الحضر لأنهم الأصل في معرفتها، هذا الاتفاق مع هذه الملابسات جعلت الحضر يتندرون على البدو في أسلوب طبخ هذه الأكلات مما يمكن معه إدخال هذا في مجال النظرة السلبية من الحضر نحو البدو[٤].

---

(١) المصدر السابق: ١٨٢، ١٨٣.

(٢) الشاطر : قيل إنها فصيحة وقيل مولدة، واشتهرت بين العامة قديما وحديثا على عدة معان وهو هنا الذكي الحاذق اللبق في عماه أو السباق المسرع إلى معالي الأمور. ((الزبيدي ٣/٩٩، أحمد رضا: ٢٩٢).

(٣) ياما : كثيرا، إلى : إذا، الجاش: تأتي بمعنى النفس، ولعله هنا يقول وإذا شحت نفسه عن ذلك ذبح لهم أكباشا مقرنة أي لها قرون، وهي مرغوبة في نجد، وعيش العراق أو العراقي: المجلوب من العراق، فراش: من فعال بمعنى مفعول أي مفروش. عن البيتين: (ابن خميس، الخلاوي ٣٠٩).

(٤) الجهيمان : الأمثال : /١٤١.

وكما هي طبيعة البدوي العربي عموما في الحفاظ على كل ما هو أصيل موروث فإن البدوي النجدي - وفيما يتعلق بالضيافة وتقديم الطعام بشكل خاص - يحرص بشكل ملفت للإعجاب على التقيد لدرجة الحماس بأبرز مظاهر الكرم الموغلة في القدم وهي أسلوب تقديم الطعام للضيفان الذي يتجاوز الكرم الحاتمي ليصل إلى الأسلوب الإبراهيمي في الكرم وتقديم الطعام، وهذا الأسلوب الذي يعتبر قمة في مجاله، والذي أشار إليه القرآن الكريم في قول الله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]، والقرآن الكريم إذ يرصد هذا الكرم وأسلوب الإطعام الإبراهيميين فإنما ليبرز آداب الضيافة والإطعام كما كان إبراهيم أبو الضيفان يتمثل بها أو كما يرغب القرآن نفسه أن يتعود الناس عليها.

وانطلاقا من هذه العادة الإسلامية القديمة فإن البدوي في نجد يحرص على تقيده بهذا الأسلوب - تقديم الطعام للضيوف وعدم تكليفهم عناء الذهاب إليه - بغض النظر عن علمه أو جهله بمصدره واقترانه بسنة إبراهيم عليه

---

(١) الذاريات : الآيات: ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، وقال ابن كثير في تفسيره (٤/٢٣٦)، ﴿فراغ﴾ أي انسل خفية في سرعة، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ : أي من خيار ماله ﴿فقربه إليهم﴾ : أي أدناه، ﴿قال ألا تأكلون﴾ : تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولا فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتي سمين، مشوي - كما في سورة هود آية ٦٩ - فقربه إليهم: أي لم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل: [قال ألا تأكلون﴾ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل» انتهى كلامه. قلت : ولو قارنا بين هذه الآداب وغيرها مما حملته هذه الآيات لوجدنا أن ابن البادية يتصف بها تمام الاتصاف ويحرص على أن لا يحيد عن أي واحدة منها قيد شعرة، وانظر (الراوي : البادية ص٣٠٢).

الســلام، ومن هنا فإن البـدوي يراعي عـدم تكليف ضيـوفـه عناء مغـادرتهم المضيف إلى مكان الطعام بل يأتي بالطعام إليهم في مـضيفهم ويضع الصحون المسمـاة المناسف (جمع منسف)[1] والتي تحوى نوعـا من البر أو الرز وفـوقه السمن والشحم واللحم يأتي به من أطيب أغنامه، وإن لم يجد منها ما تصلح أن تكون ذبيحة جيدة اشترى ولو اضطره ذلك إلى استدانة ثمنها، ويصور هذه العادة هذان البيتـان لإحدى البدويات التي توجـه أخاها إلى عـوائد البدو في الكرم وأسلوب تقديم الطعام للضيوف حيث تقول:

خل الشـحم والسـمن للربع تكثـر   مع منسف واف عليـهم تـشـيله
من ضيـننا وإلا فـضين المتـجـر   عطهم ثـمنهم نقـد وإلا بحـيلة[2]

وطريقة الأكل لدى البـدو تخضع للوضع الاجتـماعي بينهم فالأمـير أو شيخ القبـيلة تقدم له سفرة كبيـرة من الجلد يوضع عليها طعامه بخـلاف عامة البدو الذين يقدم لهم الطعام بدون سفر أو سمط في جفان، أو صحاف خشبية يجلسـون حولهـا متحلقين، ولا يأكـلون إلا باليمين أمـا اليـسرى فـلا يمكن استـعمالها إلا عند الضـرورة أو للاستناد عليهـا، وهـم في هذا يصدرون عن عادة عربية إسـلامية أفضلية التيمن في الأمـر كله وخاصة عند الأكل، وللبدو طريقة في الأكل تتلخص في لمامـة ما في اليد على شكل مضغة بعـد ضغطها وتلبيـدها ثم ازدرادها بعد ذلك، وإذا تناثر منهـا شيء على اللحيـة قرب الفم

(١) المنسف : هـو الصحن الكبير مملوء طعاما وهو عـامي بدوي له أصل فصيح: (أحمد رضـا: ٥٥٠).

(٢) خل الشحم والسمن الربع يكثر: أي دعها تكثر والمعنى أكثرها لقومك: أي كن كريما، والربع: بفتح الراء، الجماعة من الناس (فصيحة) وافٍ: أي حارا عليهم: المعنى تحمله إليهم وهو لايزال حارا، من ضيننا: الضين: عامية من الضأن، المتجر: جمع تاجر، عطهم ثمنهم نقد وإلا بحيلة: أي انقدهم ثمن الضـأن أو اشترها مؤجلة وتحيل عليهم لتأجيل الثمن بـأي حيلة والمهم أن تكرم ضيفك بسرعة. (الفيروزآبادي ٣/٢٤، الراوي: البادية : ٣٠١ وعن الأبيات: ابن رداس: ٢٧٠، ٢٧١).

نفضـوه أو أعادوه إلى الفم ببساطة متناهية[1]، ويحرص شيخ القبيلة أو رب الأسرة على المبالغة في خدمة ضيفه ممثلا ذلك بتقطيعه اللحم أو ما في الطعام من مادة جيدة كالكمأة مثلا ويضعها مما يلي ضيفه حتى لا يكلفه عناء البحث عنها داخل الجفنة[2]، وكما رصد الرحالة الغربيون هذه الطريقة مبدين إعجابهم بكافة مظاهرها منذ فترة متقدمة[3] فإنهم قد أبدوا سخريتهم وتندرهم من المبالغة في خدمة الضيف ومظهرها السابق الذي ربما أثار تقززهم واشمئزازهم ومنعهم من تناول الطعام، ولا يستعمل البدوي للأكل إلا يديه وأصابعه، ولكنه إذا رغب الضيف في ألا يستعمل يديه أتى له بأي مادة خشبية أو معدنية يأكل بواسطتها[4]، وإذا نهض أحد الطاعمين حل محله أحد الجالسين ممن كانت المائدة قد ضاقت بهم ليذهب المنتهي إلى غسيل أيديهم بالماء والتراب أو بالتراب وحده عندما لا يجدون صابونا[5]، وإذا كانت هذه الطريقة لازالت معروفة لدى البدو وقسم من الحضر مما يبدو معه أنه لا فائدة في عرضها فإن رصدها من قبل الرحالة الغربية منذ فترة متقدمة جداً يضفي عليها طابع العراقة.

---

(١) الراوي: ٣٠٨، العبودي: الأمثال ١٧٩١/٥ مثل: ٢٩٧٤، جاكلين بيرين: ١٢٧، والسفرة، والسماط فصيحان. (الفيروزآبادي: ٣٦٦/٢، ٤٩)

(٢) بيردي قوصيل: الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤ ـ ١٩١٤م) ترجمة أكرم فاضل ـ المؤسسة العامة للصحافة والطباعة. نشر وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة الكتب المترجمة (٤) ١٣٨٨هـ/ ١٣٦٨م ص٦٦، ٦٧.

(٣) لعل من أوائل من قام بهذا العمل الرحالة الفرنسي السفير لويس دارفيو، الذي بدأ رحلته من بادية الشام سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م ثم توغل في جزيرة العرب وبعد انتهاء رحلته ألف مجموعة كتب منها «رحلة في فلسطين نحو الأمير الكبير زعيم أمراء البادية العرب المعروفين بالبدو» و«أخلاق عرب البادية وعاداتهم» (جاكلين بيرين ١١٧ ـ ١٢٧).

(٤) بييردي قوصيل : المرجع السابق ص ٦٦، ٦٧.

(٥) يبدو أن الصابون قد عرف قديما في نجد وإن كان ذلك على نطاق ضيق. (بيرين ١٢٧).

ولقد كان البدوي الذي يقدم لجماعته وضيوفه طعاماً وفيراً محل إعجابهم وتقديرهم خاصة في سني المحل والشدة، وذلك لأن كافة الملتصقين بهذه القبيلة أو هذا الفخذ سينالهم شبع وري من أي تكريم لأي ضيف أو وجيه إذ بعدما يطعم كل الضيوف ممن كان الطعام لأجلهم يأتي بعدهم رجال القبيلة وشبابها ثم بعدهم الرعاة والخدم والرقيق ليوزع الباقي على كلاب القرية بعد ما ترسل الجفان إلى بيت المضيف إما لتأكل منها النساء أو ليوزعنه بمعرفتهن، وكل هذا كان مجال مدح ورثاء لمن يقوم به فهذه إحدى البدويات ترثي زوجها بقولها:

له حكرة بها الجماعة مكاريع   تأخذ بعدهم ساعة للتوالي[1]

واستنادا إلى كل ما سبق وإلى وقت قريب بل إلى العصر الحاضر ولصعوبة الحياة في الصحراء وشح الموارد فيها فإن الكرم والإكثار من الطعام وزعامة القبيلة أمور تتداخل فيما بينها وبين البدو، ومن يكثر تقديم هذا الطعام لأبناء قبيلته وضيوفه وضيوفها فإنه هو الذي يتسنم إمارة القبيلة إضافة إلى المؤهلات الأخرى كالشجاعة ولا يمكن بأي حال من الأحوال انتخاب أي شخص لمشيخة القبيلة ما لم تتوفر فيه عناصر الشجاعة والجود، وانحداره من أصل معروف بهما، إلا أنه تبقى صفة الكرم ،إطعام الضيوف والقبيلة بين فترة وأخرى هي التي تؤهل الرجل للزعامة أو الوجاهة في البادية، وإلى وقت قريب، ولقب «مصوت بالعشا» يعتبر من ضمن عناصر الوجاهة والزعامة في القبيلة يحرص على التخلق به زعماء القبيلة ووجهاؤها، وتتلخص صفته كما

---

(١) حكرة : أي جفنة كبيرة مصنوعة من الخشب تقوم مقام الصحن الكبير وتشبه الموقعة الكبيرة عند الحضر، بها الجماعة مكاريع: أي أن جماعتك يحيطون بها يأكلون منها بكثرة ونهم وقد استعارت الشاعرة الكرع الذي هو الشرب بينهم عن طريق الفم، للأكل كناية عن الجوع، تأخذهم ساعة للتوالي: أي تبقى بعدهم في انتظار من يأتي للأكل منها، (ابن رداس ٣٥٢، ٣٥٣، الراوي : ٣٠١، بيرين: ١٢٧).

كان يفعله أحد زعماء القبائل النجدية في أن يأمر هذا الزعيم أحد رجاله فيعلو مرتفعا حوله ليرفع صونه مناديا أهل القبيلة ومجاوريهم والمارين بالصحراء: من كان يريد عشاء فليتفضل، وأصبح بعد ذلك هذا اللقب مثلا يطلق على كل كريم في الصحراء[1].

٥ ـ المشرب:

يعاني البدوي من شح المياه في الصحراء ولهذا فهو يستغل مواطن الأمطار في الوديان وغيرها «كالغدران» ليجلب منها ماء للشرب[2]، كما أنه يحرص أن يضرب أطنابه قرب مورد ماء، ويتكلف البدوي في نقل مياه الشرب حيث ينقلها إما على الجمال أو الحمير بواسطة القرب. الأمر الذي جعله يحرص أشد الحرص على المياه[3]، ويحاول أن يعوض عنها بما لديه من مشروبات أخرى.

ويبقى الحليب أهم مشروبات البدوي بعد الماء، ولهذا فإنه وهو في المرعى أو عند البيت يحلب ما لديه من إبل أو غنم ويقدمه لضيوفه وأهله. ويفضل البدو شرب حليب الإبل خاصة بعد حلبه مباشرة من الثدي، وإذا كان في المرعى ولم يكن معه إناء للحلب فإنه يرضع الثدي رضعا إذا كانت الناقة هادئة الطباع.

أما حليب الأغنام فإنه أحيانا يسخنه على النار ليشربه حليبا، أو يتركه حتى يروب لتقوم المرأة بخضه في الأسقية «جمع سقاء» لتعده لبنا خالصا

(١) محمد الأحمد السديري: أبطال من الصحراء : ٢٤٧، بيرين: ٢٢٢، ٢٢٣، الدارة ٣ع/ ٣س، ص٢٥.

(٢) عبدالجبار الراوي: البادية ٦٦.

(٣) المرجع السابق : ١٧٩، ١٨٠.

سائغا للشاربين يقدمه البدوي لأهله وضيوفه مع التمر، وتخرج المرأة منه الزبد لتغليه على النار لإخراج السمن البـري الممتاز، أو تطبخه لتصنع منه الأقط «أو البقل».

أما قهوة البن: فقد ذكر الشيخ المنقور أنها انتـشرت بصفتها مشروبا في القرن التاسع الهجري[1]، وأن العلماء اختلـفوا فيها بين الحـلال والحرام حتى صدرت الأوامـر السلطانية العثـمانية بإبطالهـا من الأقطار إلى أن استقـر الأمر على شربها من غير إنكار مما ساعد على انتشارها في أنحاء العالم[2].

---

(١) الفواكه العديدة: ٢/٨٥ ذكر بعض الباحثين أن الرازي (٢٥١هـ/ ٨٦٥م ـ ٣١١هـ/٩٢٣م قد ذكرها في كتابه الحاوي. إلا أن هانز هولفريتز فقد ذكر أن العرب قد عرفوا البن قبل الإسلام وأيام الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان في تلك الفترتين يدخل في نطاق التجارة من اليمن التي تعتبر الموطن الأصلي للبن الأصيل حتى الآن، ولعل اسمها اللاتيني كافيا أرابيكا يؤكد أن الغرب قد عرفوها عن طريق العرب المسلمين. (هانز هولفريتز: اليمن من الباب الخلفي ٢٥، ٢٠٦، جاكلين بيرين ١٠٦ ـ ١٠٨، ١١٣ ـ ١١٦. الموسوعة العربية ٤٠٦ مادة بن، مجلة قافلة الزيت ٢٢/٤/ص١٩ ـ ٢٥، مـجلة الكويت عـدد ٦ص ٨٨ ـ ٩٥، وقـد أوردت هاتان المجلتـان مقالتين عن القهوة وقصة انتشارها في العالم).

(٢) لقد لقي انتشار شرب القهوة في أول أمره الكثير من الجدال والنقاش بين العلماء والمفكرين والساسة، ولم تقتصر على ذلك منطقة دون أخرى فقد حرم شربها عدد كبير من مفكري أوروبا كما أن الكنيسة الإيطالية قد اعتبرتها مشروبا ملعونا في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، إلا أن العلماء المسلمين منذ القرن التاسع كان لهم مواقف مؤيدة لهذا المشروب باعتبار حله، فقد كان المحللون أكثر من المحرمين ومن ضمن من حرمها ولقي معارضة شديدة في هذا كبير علماء مصر آنذاك (أحمد بن عبدالحق السنباطي) الذي ذمه وذم من تابعه أحد المكيين بقوله:

حرمـوا القهـوة ظلمـــا   زادهــــم ظلمـا ومقتـــا
إن طلبـت النص قالـــوا   ابن عبدالحــــق أفتــى

ويبدو أن من أسباب تحريم المحرمين لها في العالم الإسلامي كون اسمها «القهوة» كان يطلق في اللغة العربية على الخمر من العنب أو التمر ولهذا فإن المتنطعين في الدين الذين يفسرون القهوة تفسيرا حرفيا يحرمونها على أنفسهم ويرون تحريمها على عامة المسلمين إلا أن الكتب التي ألفت تبين حل هذا المشروب أكثر من التي تحرمه إضافة إلى رجوع جميع من أفتى بالتحريم إلى الحل عدا ابن عبدالحق، ومن ألف فيها الزبيدي صاحب تاج العروس إذ أن =

ونظرا لأن معرفة العرب بالبن بصفته مشروبا قديما لم تكن واسعة، فإن القهوة البنية لم تدخل إلى بلاد العرب كمشروب بشكل واسع إلا في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ودخلت تدريجيا إلى نجد في هذا القرن أيضا[1].

وعلى أي حال فقد أصبحت القهوة عنوان الكرم وعلامة الرجولة في نجد عموما وفي باديتها على وجه الخصوص، وطالما تغنى بها الشعراء البدويون كما يتغنون بمحبوبتهم، كما أنها تعتبر من دواعي الرثاء المميت، فهذه إحدى شاعرات البادية ترثي زوجها بأبيات قالت منها:

مرحوم يا مهلّي بالضيف   يا مكثر الهيل بالدلة[2]

وكما أن كثرة رماد القدر واسوداده، علامة على الكرم فإن اسوداد الدلة علامة على ذلك أيضا؛ لأنها دائما قرب لإعداد القهوة وتجهيزها وجعلها حارة لأى ضيف يأتي فجأة، وفي هذا تقول إحدى البدويات حاثة أخيها على الاتصاف بصفات الرجولة:

= الرسالة اسمها «تحفة بني الزمن في حكم قهوة اليمن» ولعثمان بن قائد النجدي رسالة فيها، وقد عقد بشأن ذلك عدد من المؤتمرات أبرزها مؤتمر مكة عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، ويبدو أن اتخاذ المقاهي في أوروبا والعالم الإسلامي - مراكز للثرثرة والنقاش السياسي والأدبي ولعب الميسر، وخشية اشتباهها بالخمر هي أسباب دعت إلى تحريمها في بعض الفترات، (الفيروزآبادي: ٤/ ٣٨١. الزبيدي: التاج ١٠/٣٠٨، المنقور: الفواكه: ٢/٨٥، عبدالله البسام: علماء نجد : ٣/٦٨٥، الموسوعة العربية ص٤٠٦، مجلة العرب جـ ٩، ١٠/ س ١٢/ص ٧٠٧، مجلة قافلة الزيت، العدد لسابق ص٢٠، مجلة الكويت العدد السابق ص ٩٥).

(١) المنقور: ٢/٨٦، الموسوعة العربية ٤٠٦.

(٢) مهلي: أي يكثر من قول أهلا، يا مكثر الهيل بالدلة: هذا كناية عن المبالغة في الكرم. (ابن رداس: ٣٤٢).

يا اخـويّ يا ريف الهزال المناكـيف   يامـقلّط للضـيـوف حـلو النّوال
دلالن كـما الغربـان سود مهـاديف   من كثـر ما هى للسّعـاير تصالي[1]

ويقرن ابن البادية بين الإكثار من ذبح الأنعام للضيوف وبين إعداد القهوة لهم فلو قدم لهم الطعام وعليه عدد من هذه الأنعام ولم يقدم القهوة لعد ذلك معيبا، باعتبار أن تقديم القهوة ركن أساس في الكرم. قالت إحداهن تمدح أحد الكرماء:

يا مـا قطع من راس كـبش سـمين   وله دلّة دايم علـى النّار مـركـاه[2]

ولقد كـان اهتمام البدوي بالحصول على البن كبيـرا قد يفوق اهتمـامه بالحصول على الطعام، فإنه يقطع الفيافي والقـفار في سبيل أن يبتاع من القرى المحيطة بالصحراء أو البلدان المجاورة البن والهيل والقرنفل، وأواني القهوة، ثم إنه يحافظ على هذه المواد والأواني كـأعز ما يملك خوفا من مـداهمة ضيف له فلا يجد ما يقهويه به[3].

وتتفق القهوة مع الطعام في أسلوب تقديمها لدى البدو بخضوعه للوضع الاجتماعي بينهم إذ أن أول القهوة، وطيبـها يقدم إلى الضيوف الكبار ومشايخ القبيلة ووجهائها أو من خدموا القبيلة شجاعة وكرما، أما رعاع القبيلة ومن لم

(١) ريف الهزال المناكيف: ربيع الجوعى العائدين من السفر المتعب كناية عن إعداد الطعام والقهوة (الكرم) يا مقلط لضيوف حلو النوال: أي مقدم للضيوف التمر، دلال كما الغربان: سود كالغربان، كناية عن كثرة ما عمل فيها من القهوة، مهاديف: لطهن الهدف بمعنى الانتصاب أي منتصبة على النار، للسعاير: جمع سعيرة وهي النار، تصالي: تصطلي فيها. (الفيروزآبادي: ٢٠٧/٣، ابن رداس ١٣١، ١٣٢).

(٢) يا ما قطع من رأس كبش سمين: أي كثيرا ما ذبح خروفا سمينا إكراما لضيفه، دلة دايم على النار مركاة: أي أن دلته موضوعة بجانب النار دائما استعدادا لأي ضيف قادم، مركاة: مرتكئة أي مستندة (فصيحة) (الفيروزآبادى: ٢٣٦/٤، ابن رداس ١٢٦).

(٣) قافلة الزيت : العدد السابق، ص٢٢.

يسدوا خـدمات جليلة للقـبيلة فلهم آخـر القهوة، ومن هنا فـإن القهـوة بهذا الأسلوب تعـتبـر أسلوبا من أساليب التكريم والتـقدير لدى البـدوي، وهي إذ تكرس هذه المفاهيم الاجتماعية بين البدو أكثر من الطعام فإنما لأن لها دوراً في التخـفيف من المجهود الـذي يؤديه الإنسان بخلاف الطعـام الذي يعتبر حـاجة ضرورية، ومن هنا كانت نظرة البدوي بل النجدي عـموما على أن القهوة هي صاحبة التقدير الأول بين المشـروبات والمأكولات، وهي المادة الوحيدة التي بها يكرم البدوي ضيفه لأول مرة قبل الطعام وبعده[١].

ويحرص الـبدوي على صنع القـهوة بطريقـة تجعل الضيـوف، والمارين بالصحراء يتلذذون بذلك ويقدمون على المجيء إليها من بعيد فيدق بالنجر أول مرة إشارة إلى بدء عـمل القهوة ليتـجمع لها الضيوف والسـمار في الليل، ثم يبدأ بتجـهيز مادة القـوة حمصا للبن ودقًا له وللهـيل في النجر، وهو في هذا يؤكد على رفع صوت النجـر حتى يتزايد عدد القادمين إليـه، ويكثر من الهيل أو القرنفل «أملاح القهوة»[٢].

وبعد أن تجـهز القـهوة يقف الذي يقدمـها على قـدميه مـهمـا قل عدد الضيـوف ممسكاً الدالة بيده اليـسرى مادا الفنجـان بيده اليـمنى، وأن أي خرق لهذه العادة ليواجـه بالنقد والتقريع والتعنيف ويحرص على عدم إكـثار القهوة في الفنجال لأن الزيادة فـيها نوع من الاحـتقار نظرًا لأن القـهوة لا تستلزمـها حاجة الإنسان الجسدية بقدر ما تتطلبها حاجته الذهنية والفكرية[٣].

---

(١) عـبـدالله الصـقـري: من نوادر الأشـعـار ط (١) ١٤٠١هـ/ ١٩٨٦م. مطابع الرياض، ص١٣٣ الراوي: ٣٠٥.

(٢) الراوي ٣٠٧.

(٣) المرجع السابق: ٣٠٧.

ويعتني البدوي والنجدي عموما بأواني القهوة وخاصة الدلة حرصا لا يتوفر لأواني البيت الأخرى، وهو في هذا المجال لا يطيق أن يرى في الدلة أى لون طارئ يؤثر من بعيد أو قريب ـ على طعم القهوة المتميز فيبادر بالذهاب بها إلى الصناع أو الصلب ليجلوها ويطلوها بالمواد التي تحافظ على معدن النحاس الذي تصنع منه الدلة.

وإلى وقت قريب والنجدي عموما يحرص على اختيار أواني القهوة وخاصة الدلة من أطيب أنواعها صناعة ويجلبها إما من بغداد كالدلال البغدادية، أو من الشام كالدلال الرسلانية ـ نسبة إلى رسلان وهو مشهور بصناعة الدلال ـ وكانت الرسلانية ـ بشكل خاص ـ تلقى قبولاً أكثر لما تتميز به من دقة في الصناعة وجمالها. وفي هذا تقول إحدى البدويات معجبة بكرم أحد أبناء البادية:

راعي دلال متقنة عمل (رسلان) ونجر يطقه للنشامى يجونه[1]

أما الطباق أو التتن[2] أو التنباك[3] أو الدخان وهي كلها أسماء لمسمى واحد هو التبغ فقد ذكر أحد المؤرخين أن ظهوره في العالم الإسلامي قد بدأ

---

(١) راعي: صاحب، يطقه: يدق فيه، النشامى: الكرماء الشجعان وأحدهم نشمي، يجونه: يأتونه. ابن رداس: ١٥٧، ١٥٨.

(٢) التتن: محرفة من التركية (توتون) ومعناها الدخان عامة ثم قصرت على التبغ لأن الدخان أهم سمة فيه. (مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ٦/سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٢٠٥ من مقال للدكتور أحمد السعيد سليمان، بعنوان: «تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل»).

(٣) التنباك بتشديد التاء وضمها: أخذتها التركية باسم طومباق أو تومباق من الهندية، وقيل إنه من الفرنسية Tabac بمعنى التبغ، وقيل أخذتها التركية عن الإيطالية بصيغة تنباكو بفتح التاء ودخلت العربية بصيغة تنباك، وقيل أصلها فارسي، وقيل هي مركبة من كلمتين لاتينيتين هما: Ton بمعنى وحدة، Bacco اختصار تبغ. د. كرسي: الدخينة في نظر طبيب، طبع مطابع الأصفهاني بجدة، نشر مكتبة المعارف الطائف (١٠٨). المجلة السابقة: العدد السابق (٢٠٨).

سنة ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م[1]، إلا أن المنقور ذكر في فواكهه نقلا عن الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة (ت ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م) عدد من آراء العلماء فيه من المذاهب الأربعة وكأنهم افتوا بتحريمه والنهي عن تعاطيه، وبداهة فابن عطوة من عرضه لآراء هؤلاء العلماء وتأييدهم لها فإنه ينظر إلى الدخان نظرة تحريم[2]، والمهم أن بدء معرفة العالم الإسلامي به كان متقدما فمن المتوقع أن يكون قد ظهر بين المسلمين منذ أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي تقريبا، ولا يمنع هذا أن يكون التاريخ الثاني ١٠١٢هـ هو تاريخ شيوعه وانتشاره بشكل واسع بين المسلمين، إضافة إلى أن معرفة بعض المناطق بأي عادة اجتماعية قد تتأخر عن بعض المناطق الأخرى، على أن القضايا الاجتماعية من الصعب تحديد تاريخ لابتدائها أو انتهائها في أي مجتمع[3].

---

(١) عمر الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ط (١) نشر دار المعرفة بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م (٥١١/٢) من فقرة في آخره بعنوان: «وقائع مهمة بعد هذا التاريخ» ليست من تأليف الوردي.

(٢) المنقور (٧٨/٢) بل يبدو أن بروز هذه الظاهرة واستعمال لفظ (التتن) لها أسبق بكثير من هذه الفترة، يدل على هذا عنوان رسالة في التحذير من شرب الدخان اسمها: «المواعظ الحسنة الحسينية في مستعمل شرب التتن وشجرته الخبيثة وآلته القبيحة» التي وضعها السيد عماد يحيى بن أحمد بن محسن الصنعاني المتوفى سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م أحد علماء اليمن وقد حقق الرسالة الدكتور عبدالله بن محمد الطيار، ونشرتها مكتبة التوبة، الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) يقال إن موطن التبغ الأصلي أمريكا وزرعه فيها الهنود الحمر قبل وصول الأوروبيين إليها، ثم أدخل إلى أوروبا عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م كأداة للزينة ثم انتشر شربه فيها عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م، أما العالم الإسلامي فقد عرفه في حدود سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م تقريبا وأتى به يهودي يدعي الطب إلى المغرب، ودعا الناس إليه، وأدخله إلى تركيا العثمانية رجل نصراني ووصل الحجاز عن طريق الحجاج المغاربة والهنود، وقد بلغ من افتتان كثير من الناس به أن أطلقوا عليه اسم «طابة» وألف فيه إمام وخطيب المسجد الحرام عبدالقادر بن محمد الحسيني الطبري (ت١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م) رسالة أسماها «رفع الاشتباك عن تناول التنباك» وذكر فيها أن أجوده الذي يأتي من الهند قد بيع بمكة بعشرين ديناراً للرطل مما يدل على رغبة بعض الناس به، أما علماء نجد - قبل الدعوة - فقد وقفوا منه موقف التحريم فعلاوة على ابن عطوة، ألف الشيخ عبدالله بن عضيب (١١٦١هـ/ ١٧٤٨م) رسالة في تحريم الدخان. أسماها بعض الناس به، أما علماء نجد - قبل الدعوة - فقد وقفوا منه موقف التحريم فعلاوة على ابن عطوة، ألف =

وعلى أي حال فنتيجة لاحتكاك البدو بالحضر في الأمور التجارية وغيرها فقد حصل تأثر الأولين بالآخرين في شرب الدخان، وهذا كله نتيجة لاحتكاك حاضرة نجد بسكان المناطق المجاورة سواء كان في الخليج أو في الحجاز أو الشام أو العراق أو غيرها من البلدان، إضافة إلى أن من الممكن أن تكون بادية نجد قد عرفته في هذه المناطق بشكل مباشر حيث إنها تمارس الامتيار والاتصال الاجتماعي معها بشكل خاص، ولا يستبعد المرء أن يكون انتشاره في نجد عامة وباديتها على وجه الخصوص عن طريق أوائل الرحالة الغربيين الذين كانوا فعلا - يغرون أبناء البادية البسطاء أن يعطونهم معلومات ويساعدونهم على اجتياز الصحراء بأمان مقابل حفنات من البن والدخان وقطع من الأقمشة، والتي لم تجعلهم يجتازون الصحراء آمنين فحسب بل يحلون على البدو محبوبين معززين مكرمين[1] .

ولم ينتشر الدخان بين أبناء البادية بشكل واسع في أوائل هذه الفترة إلا أنه أصبح فيها وفيما بعدها من الانتشار بحيث عد سمة من سمات الكرم البدوي بعد الشجاعة لدى بعض البدو لأنهم يقرنون بينه وبين القهوة، وإطعام الطعام، فإن من يذبح دوما لضيوفه وقبيلته، ويدير القهوة كثيرا على زائريه وماري الصحراء، ويفتح أكياس تبغه ليملأ أصحابه وضيوفه غلايينهم، ويشرك أصحابه وأقرباءه من غنائم غزوه يكتسب في نظر قبيلته احتراما وقدرا قد يفوق قدر واحترام شيخ القبيلة نفسه، ومن هنا كان للتبغ لدى بعض البدو قدر لا يقل عن القهوة[2] .

= الشيخ عبدالله بن عضيب (١١٦١هـ/ ١٧٤٨م) رسالة في تحريم الدخان. أسماها (الأفعى)، وفصل المنقور القول فيه مبينا آراء العلماء وفتاويهم، (المنقور: الفواكه: ٢/٧٨ ـ ٨٧، عبدالله البسام: علماء نجد: ٢/ ٥٢٠، الموسوعة الميسرة ٤٨٩ مادة تبغ، مجلة العرب جـ ٩، ١٢/١٠، ص ٦٨٦، مجلة الحرس الوطني ع٥/س٢/ص١٠٨).

(١) بيرين : ٢٧٦، ٢٧٧، الدارة ع ٣ /س ٣/ ص ٢٢.

(٢) بيرين : ٢٢٥.

ونظرا لأن صناعة التبغ لـم تتطور فقد كان يصل إلى البادية إمـا بأكياس أو بالوزن وهم يمتارونه عن طريق بعض تجار نجد في تلك الفترة الذين يجلبونه إما من الخليج أو من جدة التي وجد فيـها اثنان وثلاثون تاجرا لا يتعاطون إلا تجارة التبغ[1]، وقد يأتيهم عن طريق الرحالة الغربيين الذين يجوبون الصحـراء ـ كما مر ـ.

وكان لنساء البـادية وقفات ضد انتشار التبغ فجعلن ينصحن أزواجهن بتركه مـبينات مضاره على الجسم والأسنان والمال، وذلك في حدود النصيحة لأنهن ما يلبـثن أن يعتذرن إذا رأين من الزوج إصـرارًا عليه. فهـذه زوجة ابن هذال «أمير الحبلان من عنزة» تقول ناصحة زوجها عن شرب الدخان:

يا شـارب الدخان شـاربك لا طال　　　إيّاك وإيّـا واحـــد جــاز دونه

مـا دام به نقص على الحـال والمال　　　أيضـا وشــرّابه يـدمّـر سنـونه

فغـضب ابن هذال لقولهـا فاسـترضته بأبيـات يشم منها رائحـة التهكم بالمدخنين:

شـرّابة التنبـاك فـيـهم سـعـة بال　　　واللّي طويـل شـاربه يـقـصـرونه

يسـتـاهل التنبـاك مـثل ابن هذال　　　اللّي يصـرّه في مـشـاني ردونه[2]

---

(١) جاكلين بيرين : ص ٢٣٦.

(٢) شاربك لا طال: لن يطول شاربك، والمقصود : لن تبغ المجد، إياك، وأيا واحد جاز دونه: أي قارن بنفسك وأنت تشرب التبغ مع شخص سليم منه تجد الفرق صحة وغنى وطيب نفس. ما دام به نقص على الحال والمال: أي مادام أنه ينقص من صحتك ومالك، وشرابه يدمر سنونه: كما أن شاربه أسنانه تسود وينخر فيها المرض، شرابة : جمع شارب، سعة بال: أي سعة صدر. وواضح تهكمها وإلا فالمدخنون فيهم ضيق نفس وعدم تحمل، اللي طويل شاربه يقصرونه: الذي يتطاول عليهم يردعونه دون قصد، يستاهل: يستحق، يصره: يربطه، في مثاني ردونه: داخل أكمامه الواسعة. (ابن رداس: ١٥٨).

أما هذه البدوية فيبدو أن نصحها قد أثر على زوجها فترك شرب الدخان، ولعل لصوغ أبياتها دور في ذلك فإن على عكس أبيات زوجة ابن هذال فيها مخاطبة لقلبه واستدرارا لعاطفته قالت:

لا تشرب التّتن بالمملوح	يخرب ثناياك يا الغالي
لولاك عندي وزين الروّح	ما شرت لك يا بعد حالي[(١)]

ورغم أن وسائل شرب التبغ لم تكن متطورة في ذلك الوقت فقد وجدت الغلايين التي كان يجلبها التجار النجديون إلى البادية من جدة التي كان يباع فيها الغلايين بكثرة[(٢)]، وربما حصل عليها البدوي أثناء الحج، إلا أنه يبدو أن السجائر لم تكن موجودة في ذلك الوقت فقد كان بعض البدو يشترون التبغ وزنا أو جزافا ليلفوه بقراطيس أو يشربونه بواسطة الغلايين التي يبدو أنهم كانوا يحصلون عليها أيضا عن طريق الرحالة الغربيين.

وعلى أي حال فإن البدوي الذي بلي بالتبغ لا تهمه الوسيلة التي يشربه بها، فقد يشربه ملفوفا في خرقة أو قد يشربه بواسطة العظام الصغيرة القديمة التي تأتي على شكل غليون والمنتشرة في الصحراء، قال أحد شعراء البادية الذين بلوا بالتبغ:

لولا شراب العظم يوم انّي أملاه	أكويه بالجمرة ويكوي جروحي
مع دلّة صفرا على النار مركاه	أبصر بصبتها على كيف روحي
لا طق طقّة محّة البيض بخباه	لا قام هاجوس الضماير يجوحي[(٣)]

---

(١) المملوح: المليح أو الجميل أو الغالي، يخرب ثناياك: يفسد أسنانك، لولاك عندي وزين الروح: أي لولا أنك عندي تعدل نفسي من الحب، ما شرت عليك، لم أبدلك مشورة، يا بعد حالي: هذا دعاء بأن تكون فداء له وأن تموت قبله. (ابن رداس: ٢٦٨).

(٢) بيرين : ص ٣٣٧.

(٣) عبدالله الصقري: المرجع السابق، ص ١٢٨. لولا شراب العظم .. الخ: لولا أني أشرب التبغ بالعظم حالة كوني أملأه تبغاً وأشعل النار فيه ليكوي جروحي، مع دلة صفراء.. إلخ: أي ومع =

أما النارجيلة[1]، فيبدو أن ابن البادية في تلك الفترة لم يعرفها، ولعل ذلك راجع إلى كثرة ترحاله وتنقله وغزواته التي يصعب معها حمل النارجيلة في كل وقت بخلاف التبغ الذي يمكن أن يحمله في أكمام ثوبه ـ كما مر، ولم أجد أثراً يبين استعمال البدوي لها على عكس ابن الحاضرة، ومما لا شك فيه أن المدخنين من أبناء البدية لم يكونوا بالكثرة التي يعتقد أنها طغت على مظاهر الحياة الاجتماعية البدوية، لكنها على أي حال ظاهرة لدى بعض البدو تستحق الرصد والتحليل والنقد.

٦ ـ الْخُوَّة[2]:

لن أتطرق للخوة كمصدر اقتصادي هام للبادية وبادية نجد التي تقع على طريق الحجاج وقوافل التجارة على وجه الخصوص. . . وإنما سأبحث الخوة كنموذج للعلاقات الاجتماعية التي كان متعارفا عليها بين البادية أنفسهم في ذلك الوقت وبين الحاضرة والبادية.

= الدخان أشرب قهوة من دلة صفراء موضوعة على جانب النار وأسكب منها ما يجعل نفسيتي تتكيف وترتاح... لولا هذا كله، لا طق طقة محة البيض.. إلخ: أي لأقوم من مجلس فزعا عند أدنى هاجس يختلج في ضميري، والمعنى لا أتحكم في أعصابي.

(١) النارجيلة أو النارجيل: هو جوز الهند وقد يهمز، وهو معرب أصله العربي (المقل)، وهو نخلة طويلة تشبه نخلة التمر إلا أنها أدق منها وألين نبعا. ويكون في قنوها الكبير ثلاثون نارجيلة ولها لين له خاصيات وهناك نارجيل البحر له خاصيات أخرى، ويؤخذ من جوز الهند مادة النارجيلة التي تدخل عناصرها في مشروب النارجيلة أو الشيشة أو البربورة كما كان يعرفها حضر نجد في تلك الفترة. (الفيروزآبادي ٤/٥١، ٥٦، وذكر فيها أن اليهود كانت تدخن به، الزبيدي، ٨/١١٨، ١٣٣، ١٣٤، الموسوعة العربية ٦٦٤، ٦٦٥ مادة جوز الهند).

(٢) الخوة مأخوذ من الإخاء والتآخي، والمقصود منها في نجد الرفقة في الطريق والحماية من قطاعه ولها جانبان، اجتماعي وهو مدار حديثنا، واقتصادي ويدخل في الحياة الاقتصادية لدى البادية وهو الذي يتقاضى عنه رسم «الإخاوة». وقد أطلق أحد الكتاب على هذه العلاقات اسم دبلوماسية البدو ولا شك أن هذه التسمية وإن كانت حديثة ومقنعة إلا أنها من باب التجاوز يمكن إطلاقها على هذه العلاقات، انظر (صحيفة السياسة الكويتية عدد ٤٨٧٢ سنة ١٦ الخميس ٢٥ ربيع الأول ١٤٠٣هـ/ ٢١ كانون ثاني / يناير ١٩٨٢م ص٢٠).

لقد كانت الخوة التي تنشأ بين مختلف القبائل والعشائر البدوية يحكمها نوع العلاقة الاجتماعية بين هذه القبائل والعشائر من قرابة أو حلف أو صداقة أو عداوة:

١ - علاقة القرابة: تلتزم القبيلة التي يكون جزء منها متحضرا والجزء الآخر بدويا فيما بينها على حماية الحضر منها أثناء اجتيازهم الصحراء للحج أو التجارة أو الاعتشاب[(١)] من كلأ الخلاء فترة الربيع، ويتعاون البدو والحضر في بعض القبائل تعاونا وثيقا، فقد يستغني البدو عن إبلهم التي يستخدمونها في الغارات والحروب ليؤجروها لإخوانهم الحضر الذين يستخدمونها طيلة ثلاثة أشهر في مشروعات الري لقاء كمية من القمح والتمر، وإذا حصل هجوم سواء كان على الحضر أو على البدو تواعد الجميع للقتال سواء كان لرد ذلك الهجوم أو القيام بهجوم مماثل؛ مما أدى إلى اكتساب الحضريين في بعض القبائل - كشمر والدواسر مثلا - نوعا من صفات البادية، فيذهب عدد من سكان القرى والمدن خلال الربيع إلى البادية بخيلهم وإبلهم وقطعان أغنامهم للرعي وجمع الحشيش[(٢)]، كما أن لأكثر الأسر البدوية مزارعاً، ونخيلاً، وأن تضامن الحضر مع البدو في أي قبيلة ليسهم إسهاما عظيما في زيادة سلطتها ونفوذها..، وهذا التعاون لا يترتب عليه أي التزام مادي ولكنه التزام تفرضه القرابة والعصبية[(٣)].

---

(١) الاعتشاب، فصيحة من العشب وهو الكلأ الرطب والتعشب والاعتشاب أصوب من الإعشاب سواء كان ذلك من فعل الإنسان أو الحيوان. (الفيروزآبادي: ١/١٠٤، الزبيدي: التاج: ١/٣٨٢ مادة عشب).

(٢) الحشيش لفظة فصيحة من فعيل بمعنى مفعول وهو العشب بعد حشه وجمعه. (الفيروزآبادي ٣/٢٦٨، ٢٦٩، الزبيدي: التاج ٤/٢٩٧، ٢٩٨).

(٣) جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب ص٢٧٨، ٢٧٩.

٢ ـ **علاقة الحلف**: وغالبا ما تكون بين البدو فتتحالف القبيلة الضعيفة مع القبيلة القوية على أن تقوم بحمايتها من اعتداء المعتدين من القبائل الأخرى، ولا يترتب على قيام القبيلة القوية بذلك أي التزام مادي، إلا أنه يبدو أن الضعيفة تعترف بسيادة القوية عليها مع اشتراط أن تكونا متعادلتين في نقاوة النسب(١).

ولعل اشتراط نقاوة النسب له ما يبرره إذ أن هاتين القبيلتين ربما اضطرتا للتزاوج فيما بينهما ـ والبدوي شديد الحرص على نقاوة نسبه، وقد تضطر الضعيفة ـ مع مرور الوقت ـ إلى إلحاق نسبها بنسب القوية، وقد تضعف القوية فتلحق نسبها بنسب الضعيفة التي ربما تقوت، فإذا كانتا متعادلتين في النسب لا يقف أمام ذلك حائل.

وقد ينشأ الخلاف بين مجموعة من القبائل، أو مجموعة من العشائر الضعيفة على أن تجتمع لتحمي نفسها من القبائل القوية، وتتخذ لها مواقع قريبة من بعضها، ويتكون بعد ذلك حلف تنتسب إليه القبائل، والملاحظ أن عددا من القبائل في نجد قد تكونت نتيجة الحلف بين أفخاذ من قبائل شتى أو فخذ قد يحالف قبيلة كبيرة ويتم هذا إذا جاور هذا الفخذ هذه القبيلة المرموقة في مرابعها(٢)، وأن هذه القبائل لتشبه الكيانات السياسية الصغيرة التي تتفق فيما بينها لتكون كيانا سياسيا كبيرا يحميها من اعتداء المعتدين وطمع الطامعين.

---

(١) جاكلين بيرين: المصدر السابق ص٢٧٨.

(٢) الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام: علماء نجد خلال ستة قرون (٢/٥٩٨). محمد بن أحمد السديري: أبطال من الصحراء (١/١٠٦، ١٠٧).

٣ ـ **علاقة الصداقة**: وتكون في الغالب بين القبائل القوية التي لا تستغني عن إقامة هذه العلاقة فيما بينها اتقاء لشر قطاع الطرق من كلا القبيلتين لئلا يغير أحدهما على الآخر، وتأمن بموجبها من أن يلقى أي فرد معاملة سيئة من القبيلة الأخرى، إلا أنه لا يحق لأي قبيلة أو عشيرة أن تمنع صديقتها من الإغارة على أي قبيلة أو أي قافلة تريد، ما لم يكن مع هذه القافلة «خوي» من القبيلة الصديقة[(١)].

وتشبه هذه العلاقة علاقة الصداقة بين الدول التي تقوم علاقاتها الندية فيما بينها، منعا للاعتداء، وتحقيقا للمصالح المشتركة بين الطرفين.

ولا يترتب على إقامة هذه العلاقة أي التزام مادي لكن كل قبيلة تسهل للأخرى تحقيق مصالحها في الرعي، وتساعدها إذا تعرضت للهجوم من قبيلة أقوى منها.

٤ ـ **علاقة العداوة**: وذلك في حال انعدام العلاقتين الثانية والثالثة فتتوتر العلاقات بين القبائل وحينئذ ترفع يد كل فرد من أفراد القبيلة، أو العشيرة العدوة، ولا تكف القبائل عن الاعتداء فيما بينها إلا إذا كونت فيما بينها هدنة قد تتحول إلى صداقة، وإلا فإن أي مجتاز من أحد القبائل المتعادية للصحراء التي تقطن فيها القبيلة المعادية لقبيلته عليه أن يدفع رسم مرور «إخاوة» وإلا تعرض للسلب والنهب من هذه القبيلة..، وإذا كان الغالب على هؤلاء المجتازين عدم الدفع لهذه الإخاوة لأنهم يعتبرونها ذلا وإهانة، فإنهم قد يتعرضون ـ إضافة إلى السلب والنهب ـ للأسر وعند ذلك ينطبق عليه نظام «الربيط» الذي سيأتي بيانه[(٢)].

---

(١) جاكلين بيرين: المصدر السابق (٢٧٨).

(٢) جاكلين بيرين : المصدر السابق، ص٢١٨، ٢٧٨.

وإن التاريخ السياسي لمنطقة نجـد بشكل عام والبادية بشكل خاص.. إن هذا التاريخ ليحفل بالكثير من الغارات والغزوات التي تتعرض لها الحاضرة من البادية والقبائل البدوية فيما بينها.

ويعتـبر عدوا لأي قبـيلة كل عابر سبـيل عادي، وإذا ما أراد أن يجـتاز الطريق الذي يمر بهذه القبيـلة عليه أن يختار مرافقا منهـا يعطيه مبلغا من المال يتفق عليه فيما بينهما وينطبق هذا على قوافل الحج والتجارة التي تجعل لها في كل قبيلة تتـوقع الدخول إلى أراضيهـا «أخوة» من هذه القبيلة تقـدم لها منحة سنوية مجزية مع عمولة نقدية[1].

إلا أن هذا لا يكفي فقـد تصادف القـوافل وهي تجتاز الصـحراء ومعـها «الخوي».. قد تصـادف فريقا من قبـيلة لس معها من ينتـمي إليها فتـتعرض للنهب والسلب ولا يستطيع هذا «الخوي» أن يعمل شيـئا.. صحيح أن القبيلة تتعـهد مـقابل رسـوم الإخاوة فـقط، إلا أن العادة جـرت أن لا يجتـاز أحد موطن[2] قبيلة مـا إلا ومعه خوي منهـا أو من حلفائها، فإذا أراد اجـتيازه إلى موطن قـبيلة أخـرى بحث عن خوي من هذه القـبيلة الثـانية أو من حلفـائها وهكذا.

ويبدو أن بـعض القبائـل تتعهـد بأن توصل دافع الإخاوة إلـى بر الأمان وذلك لأنها تكون قـد اتفقت مع القبائـل الأخرى على عدم التعـرض للقافلة التي يكون معها «خـوي» منها.. وإلا اعتبر ذلك انتهاكا لشـرف القبيلة كلها، وتدفع القبيلة المعتدية ثمن ذلك غالبا، فلا يكفى القبيلة الحامية أن تعيد للقافلة

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٨.

(٢) ابن بلهيد: صحيح الأخبار ٢/١٢٦، ١٢٧، وقد ذكر فيها نماذج من الخوة، وانظر مجلة الدارة ع٢/ س٣/٢١ص، جاكلين بيرين ص٢١٨.

ما سلب منها بل إنها تقوم بسلب القبيلة المعتدية إثر حرب طاحنة تأخذ من أفرادها أسارى، وهذا ما حدا بركهارت للقول عن هذه القبائل الحامية: «إن السلامة تشترى منهم شراء، ولكنها سلامة مضمونة»[1].

ونظرا لأن البدو يعدون الحضر أعداء طبيعيين لهم في تلك الفترة، فإنهم لا يسمحون لهم أن يضربوا أطنابهم بجوارهم - وخاصة في فترة الربيع التي يحرص الحضر فيها على الرعي وجمع العشب والحطب، إلا إذا اشترطوا الجوار منهم وعند ذلك أحيانا يلتزم البدو بحماية الحضر، لكن الحضر بقدر ما يكونون أقوياء وكثر بقدر ما يزداد امتناعهم عن تنفيذ مطالب البدو بالرحيل عن جوارهم، وتنشأ من جراء ذلك حروب بدوية حضرية يكون البقاء فيها للأغلب[2].

٧ - نظام الغزو: من المعروف أن الغزو يعتبر من أهم الأنشطة الحياتية لدى البدو، وهم يعدون أنفسهم في حال الضرورة له، فهم لا يستطيعون العيش طويلا في حالة سلام، وإلا نقصت ثرواتهم. الأمر الذي يصبح معه الغزو والحرب حاجة ملحة في حياة البادية.

ولكن البدوي ينظر للغزو من ناحية أخرى، إنه ينظر إليه على أنه زاد روحي لنفسه التواقه إلى الشجاعة والفروسية، ثم إنه ينظر إليه على أنه حاجة أدبية لاستكمال الرجولة ومظاهر الهيبة، ومنعة الجانب في قيامه باستعراض قوته ومواهبه أمام القبائل الأخرى، وحتى يجد ما يتمجد به أمام شباب قومه الذين يرون في ترك الغزو إذهابا للشجاعة، وإطفاء لنار الحمية، والبدوي من

---

(١) جاكلين بيرين ٢١٨.

(٢) Mohammed Thenayan. Al Thenayan: History Writing in Nagd. p13.
وجاكلين بيرين ٢٧٨.

هذه الناحية لا ينظر إلى الغـزو كأسلوب لكسب العيش والثراء فحـسب، فهو يلقي بنفـسه في المهالك، وقـد يبذل من ماله ومـن شباب قـومه أضعـاف ما يكسب من الغنائم التي قد لا يسـتفيد منها بل يـغرقها على قومـه قبل وصوله إلى أهله... ولكنه ينظر إليه كوسيلة لكسب الهيبة والسمعة الأدبية[1].

وعلى كل فقد أخـضع البدو الغزو لنظام دقيق وكـامل ومنظم، ومرجع ذلك كله قانون الشرف الذي يحـرص عليه البدوي على أنه يطبقـه على نفسه بصراحة[2].

ولعل أهم مـا في هذا القـانون هو عـدم جـواز القـتل ـ بأي حـال من الأحوال ـ إلا إذا كان ثأرا يراد الانتقام له[3].

وإن في نظام الغزو لدى البـادية بعض التفـاصيل المشوقـة التي بالغوص فيها يتضح أبرز جانب في الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد قبل الدعوة.

فـعندما يقـرر رئيس الغزو ـ وهو ليس بـالضرورة شـيخ القبـيلة ولكنه شخص محـترم من وجهائهـا... عندما يقرر القيـام بغزو بعيد، فـإنه يجمع الفرسان، ويجعل مع كل واحد منهم رفيقا أو اثنين يركبان جملا قويا، وتتقدم الإبل حاملة الطعام والشراب على الخيول التي تسير خلف الإبل في أول الأمر حتى لا تتعب قبل الساعة الحاسمـة، فإذا اقتربت الخيول من الإبل حدد رئيس الغزو ثلاثة أمكنة على المـرافقين أن ينتظروا فيهـا الفرسان الذين يندفـعون إلى الأمـام للهجـوم على القبـيلة المقـصودة. وتكون هذه الأمكنة على مـسافـات متباعدة يكون أولهـا قريبا من المخيم المقصود، والثالث يبـعد عنه مسافة يوم،

---

(١) جاكلين بيرين: ص ٢٢٣، عبدالجبار الراوي: البادية ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) Burckhardt, Notes on the Bedouins. and Wahabys. 1/158.

(٣) جاكلين بيرين : ٢٢٣.

وينتظرون فيه ثلاثة أو أربعة أيام حتى إذا انتـهت هذه المدة ولم يعد المهاجمون فإن عليـهم أن يرجعوا مـسرعين إلى موطنهم حـتى لا يلحق بهم العدو، وإذا نجحت الغزوة في الحصول على غنائم، فإن الرفيق يكافأ بناقة واحدة حتى ولو لم يحصل صديقه الفارس إلا على جمل واحد.

ويحدث في هـذه الغزوات البعـيدة أن يهلك جـميع الفـرسان إذا تمكن المخـيم المهاجم من صـدهم، وقطع الطريق بينهم وبـين رفاقـهم الذين معـهم الطعـام والشراب، فـعندئذ لا مـفر مـن أن يهلكوا في الصـحراء القـاحلة أو يستسلموا ليتعرضوا للتجريد والسلب وربما التربيط كما سيأتي[١].

وهكذا نرى أن القوة هـي الفيصل في هذا النظام الذي لـيس الهدف منه السلب والنهب فحـسب بل هناك هدف آخر وهو احتلال مـوارد المياه ومواطن الكلأ لهدف أكبـر من ذلك وهو استلام مركز الصدارة بين قـبائل نجد، يوضح ذلك ما كانوا ينتخون به في هذا الغزو من شعار أصبح بعد ذلك مثلا لكل من يريد زعامة أو إمارة: «نجد لمن طالت قناته»[٢].

ويقرر بركـهارت على ضـوء إقامتـه بين البدو إنه عندمـا يأتي الغزو من مسافة بعيدة ليهاجم مخيما ما فإنه لا يهمه ما في الخيام من ممتلكات وعتاد بل يسرع بقـيادة الإبل والخـيول، وعلى العكس من ذلك إذا كـان معسـكر العدو قريبا، فإن المنتصرين يأخذون معهم الخيـام بجميع ما فيها، ويبدو أنهم يفعلون هذا لقربهم من منازلهم، وفي هذه الحـالة التي يكونون قد انتهـزوا عدم وجود مدافعين من العدو فإن الشجاعة من النساء تستطيع أن تسترد أحد جمال زوجها

(١) Burckhardt, Notes 1/137-139.

(٢) خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ـ الطبعة الثانية دار العلم للملايين ـ بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ١/١١١، ومجلة الدارة ع١/ س٤، ص٢٧، ٢٨ من مقال للدكتور عبدالله العثيمين.

بترجيها رئيس الغزو الذي يرى أنه من الشرف أن يعطيها جملا واحدا ومن نصيبه الخاص[1].

وفي هذه الحالة من الغزو والتي تكون على مستوى كبير، ولمسافة بعيدة، ولعدو مقصود فإن قسمة الغنائم تتبع أسلوبين هما:

١ ـ كل فارس يسلب ما يسلب فهو لحسابه هو، وذلك بأن يكون هذا السلب لأول من يلمسه ولو لم يأخذه إلا بعد فترة، المهم أن يكون أول من لمسه سواء كان بحربته أو بعصاه أو بيده، ولهذا فإن كل واحد من الغزو يسارع إلى لمس أكبر عدد ممكن من الإبل أو الخيول مشهدا أحد أصحابه بأنه لمسها[2].

٢ ـ يتم تقسيم الغنائم تقسيما متساويا وذلك بعد أن يحصل رئيس الغزو على جزء لا بأس به ـ عشر المسلوبات ـ بالإضافة إلى نصيبه العادي كعضو من أعضاء الغزو.. هذا إذا كانت المسلوبات كثيرة والغزو قليلاً، أما إذا كان الغزو كثيراً والمسلوبات قليلة فإن رئيس الغزو يجمعها أمام خيمته ويوزعها بين أعضاء الغزو توزيعا متساويا ـ ويأخذ حقه كعضو من أعضاء الغزو فقط.

وهكذا نرى أن قسمة الغنائم لا تحكمها ضوابط شرعية لأن هذا الغزو في أصله ليس غزواً دينياً أو جهادياً بل هدفه السلب والنهب أو السيطرة على موارد المياه ومواطن الكلأ، ويتبوأ الزعامة القبلية في نجد، وهو يندرج في حالة البعد عن الدين التي تحكم الحياة الاجتماعية عن بدو نجد وهو ما جهدت الدولة السعودية لحملهم على التمسك بتعاليمه.

وتختلف القبائل في توقيت غزوها، فعنزة مثلا لا تقوم بالمهاجمة في الليل إذ أنهم يعتبرون دلك «بوقا» أي خيانة يترتب عليها مذبحة عامة لا

---

(١) Burckhardt, Nots... 1/138, 139, 140.

(٢) المصدر السابق. 1/141

تريدها القبائل فيما بينها. أما قبيلة شمر فإنها تهاجم العدو بالليل وهم يسمون هذا «بياتًا أو مبايتة»[(١)] يتم على أثرها سوق الماشية، لكنهم لا يأخذون الرجال ولا النساء ولا العبيد أسرى، ولا يقتل البدوي عامة من لا يقاوم إلا من كان له عليه ثأر[(٢)].

ويفشل الهجوم في حالة ما إذا أشعرت القبيلة المقصودة بهذا الغزو بواسطة من كانوا بين ظهراني العدو سواء كانوا من أفرادها أو المتعاطفين معها، وقد يشعرها أحد أفراد القبيلة المعادية لرغبته في إنقاذ بعض أصدقائه، ويطلق على أحد المشعرين «نذير» حيث تكون القبيلة المقصودة قد استعدت لهم فتحصل معركة فاصلة قد لا تنتهي إلا بإزاحة القبيلة المهاجمة عن مواطنها، ومن هنا فإن الغزو الذي على مستوى مفرزة من القبيلة يتطور إلى حرب مكشوفة بين قبيلتين تنتهي بتنقلات قبلية تتغير بمقتضاها حدود هذه القبائل[(٣)].

ولقد زخر تاريخ الغزو لدى القبائل النجدية بغزوات عديدة فيما بينها أثرت على الوضع القبلي حيث ينتج عنها ـ وخاصة الكبيرة ـ إزالة قبيلة من مرابعها لتحل محلها فيه قبيلة أخرى، وشيئا فشيئا حتى تكثر هذه القبيلة ويكثر أحلافها فتتسنم زعامة القبائل النجدية الأخرى، بل تصبح مرهوبة الجانب في نجد جميعها حاضرة وبادية مما جعل الوضع القبلي في نجد يتغير فترة بعد أخرى، فتختفي أسماء قبائل من الوجود نهائيا ـ وإن كان يبقى منها أسر تحت

---

(١) البيات والمبايتة فصيحتان، والمعنى الإيقاع بالليل وقد وردت عدة آيات كريمة بهذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ الأعراف (٤)، بياتا: ليلا، والقائل: النائم بالظهيرة، والقيلولة: نوم نصف النهار إذا اشتدت القيلولة. (الشوكاني التفسير ١٨٨/٢).

(٢) Burckhardt. Notes 1/141, 142.

(٣) المصدر السابق: 1/142,143

أسماء أخرى، وتضعف قبائل فلا يعد لها ذلك المجد والقوة اللذين كانت تدل بهما على سائر النجديين كما سبق بيان جانب منه عند الحديث عن بادية نجد قبل الدولة السعودية[1].

ويمكن للباحث اعتبار الغزو عاملا من عوامل الطرد السكاني من نجد سواء كان ذلك في فترات الخصب والنماء حينما تفد قبائل من جنوبي الجزيرة أو من غربيها مزيحة القبائل النجدية الأصلية عن أماكنها فتضطر هذه القبائل إلى النزوح شمالا وشرقا أو غيرهما من الجهات تحت ضغط هذه القبائل الجنوبية لتضغط هي بدورها على قبائل هذه الجهات أو تعيش معها بسلام، أو سواء كان ذلك في فترات الجدب والمحل حينما تضطر بعض القبائل النجدية أو جزء منها إلى النزوج منها إلى الجهات الأخرى وخاصة بلاد الرافدين والشام فتبعد قبائل هذه الجهات أو جزءا منها أو تعيش معها بسلام لتصبح بعد ذلك من قبائل هذه المناطق ناسية الموطن الأصلي لها، ومن هنا جاء انقسام كثير من القبائل النجدية إلى أقسام بعضها في نجد والبعض الآخر في مناطق أخرى بل وجود قبائل نجدية بأسمائها القديمة التي لم يعد لها في نجد أي ذكر[2].

٨ ـ السلب والسرقة:

من الصعب اعتبار أبناء البادية لصوصا بشكل عام كما ينظر إلى ذلك الغربيون الذين قاموا برحلات إلى شبه الجزيرة العربية، غير أنه ـ في الوقت نفسه ـ لا يمكن إغفال وجود قسم كبير من بعض القبائل البدوية يقوم بأعمال اللصوصية وقطع الطريق.. لكن بوركهارت الذي عاش فترة متنقلا بين البدو

---

(١) ابن بلهيد: صحيح الأخبار ٢/١٢٧ ـ ١٣١.

(٢) س. هـ لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٠٤، ١٠٥، وقد ذكر فيها نزوح قسم من قبيلتي شمر وعنزة إلى العراق والشام، كما ذكر قبيلة بني لام من ضمن القبائل العراقية، وانظر: الحلاق ـ حوادث دمشق اليومية ص٨٨، ١٠١، ١٨٦.

يقرر بأنه يجب أن لا نلصق بهذه الممارسة مفاهيم الإجرام نفسها التي نحتفظ بها لقطاع الطريق ومقتحمي المنازل في أوروبا، فاللص العربي يعتبر مهنته مهنة شريفة، ومن يسرق من المخيم، أو بين القبائل الصديقة - يوصم بالعار، لأن أساس الفخر فيما يتعلق بالسرقة هي أن تكون من الأعداء[1].

وإذا قرر البدوي قطع الطريق أو الإغارة على مخيم بطريقة سرية لنهب أي شيء تقع عليه يده، فإنه يأخذ معه عددا لا بأس به من الرفاق، ويأخذون معهم زادا قليلا من الدقيق والملح أو التمر، وقربة صغيرة من الماء، ويبدأون رحلة على الأقدام قد تستغرق ثمانية أيام، وفي الغالب فإن اللصوص وقطاع الطرق لا يركبون، وعندما يصلون قريبا من المخيم المستهدف، يبعثون نحو الخيام ثلاثة من أجرئهم، عليهم أن يصلوها في منتصف الليل، بعد التأكد من نوم أهلها، وعلى البقية انتظارهم على مسافة قصيرة من المخيم، وتبدأ مهمة الثلاثة من خلال أعمالهم التي أوكلوا بها، فأحدهم يسمى «المستنبح» ويتخذ موقعه خلف الخيمة المستهدفة محاولا إثارة انتباه كلاب الحراسة التي تهاجمه في الحال، فيهرب فتتبعه إلى مسافة بعيدة عن المخيم ويبدو أنه يربطها أو يسلمها للمنتظرين، وفي الغالب يشغلها بنفسه حتى يتم رفاقه المهمة، وهكذا يتم تخليص المهمة من هذه الكلاب، وسمي المستنبح لأنه يثير الكلاب فتنبح لإثارة أهل المخيم الذين قد لا يستيقظون، أو عندما يستيقظون ولا يرون أحدا يأمنون.

وهنا يأتي دور «زعيم الفرقة» وهو اللص الكبير، الذي يتجه نحو الإبل ليفك حبالها ويقود واحدة من النوق إلى خارج المخيم فتتبعه الأخريات بدون أية حركة يمكن أن تستفز أهل المخيم لأن الإبل لا تحدث صوتا إذا لم يكن عليها حمل.

---

(١) Burckhardt. 1/158, 160.
وجاكلين بيرين: ٢٢٣، ٢٢٤.

أما الثالث ويسمى « القعيدة» لأنه يجلس عند مدخل الخيمة لئلا يخرج منها أحد ومعه عصا طويلة وثقيلة يرفعها عند المدخل ليطرح بها أي شخص يحاول أن يتقدم إلى أن يهرب الزعيم بالإبل فيتخلص بطريقة ما ـ من أهل المخيم ليلحق به، فيسوق معه الإبل التي قد تصل إلى ٥٠ جملا بسرعة إلى مكان اللقاء.

وتبدأ بعد ذلك قسمة الغنائم ليأخذ رئيس المجموعة والممثلون الثلاثة الرئيسيون حصة أكبر من الغنيمة(١).

أما إذا فشلت المهمة فإن نتائج عكسية تنتظرهم بالسجن كما في الربيط، أو قد يسلموا ولكنهم يخسرون ما سلبوا كما في الدخيل.

٩ ـ نظام الرّبيط والدّخيل(٢):

نظرا لأن هذين النظامين متداخلان فيما بينهما فمن الصعب إلقاء الضوء على أحدهما مستقلا عن الآخر.

قد تفشل مهمة اللصوص بأن يراهم جار للخيمة المستهدفة فيوقظ أصدقاءه من أهل الخيام الأخرى ليحيطوا بهم، والذي يمسك واحدا منهم فإنه يعتبر ربيطا له «أي سجينًا».

ثم يبدأ الرّبّاط بسؤال ربيطه عن غرضه مع ضربه على رأسه فيرد الربيط «جئت للسرقة ولكن الله أطاح بي»، فيقوده إلى خيمته حيث يثير أسر أي

---

(١) Burckhardt, 1/158-160
وجاكلين بيرين : ص٢٢٤.

(٢) إن نظام الدخيل بمثابة حماية سياسية للمجرم، كما أنه أسلوب لتخليص الربيط من أسره، وهو نوع من أنواع الاستجارة والحماية وبعض القبائل تقصر الدخالة على أبناء قبيلتها فقط، وهذا النظام وإن كان يعتبر نوعا من النخوة والتكريم إلا أنه في المقابل يعتبر أسلوبا من أساليب ضياع الحقوق عند البادية فهو من قبيل أنصر أخاك ظالما أو مظلوما بمفهومها الجاهلي لا الإسلامي. (فهد المبارك، من شيم العرب ١٤١/٢، مجلة الدارة: ع١/ س٤، ص٢٧).

لص ابتهاجا كبيرا، ولكي لا يهرب بسهولة أو يصبح دخيلا لأي أحد: تحفر حفرة في أرض الخيمة نحو قدمين ويمدد فيها الأسير بعد ربط قدميه ويديه بالسلاسل إلى الأرض، ويشد شعره إلى وتدين على جانبي رأسه ويثبت حول الحفرة أعمدة يوضع فوقها أكياس الحبوب أو أي شيء ثقيل، وتترك فتحة صغيرة فوق وجه الربيط ليتنفس من خلالها، وسنرى كيف أن هذه الفتحة تؤدي دورا مهما في خلاصه، ويحاول الرّباط أن يستخرج منه أي فدية لكنه ـ إن كان ـ من عائلة غنية نفى ذلك مصورا نفسه شحاذا أو فقيرا، إلا أنه إذا عرف الرّبّاط بحقيقته فإن عليه أن يدفع فدية كبيرة، وإذا أصر على ادعاء الفقر وإخفاء اسمه الحقيقي فإن هذا يطيل من سجنه، ولعل غياب الرباط ولو هنيهة فرصة لا تعوض ليهرب الربيط إلى أقرب خيمة معلنا أنه دخيل لصاحبها[1].

ويستميت أقاربه وأصدقاؤه من تخليصه من سجنه: إما بالقوة المكشوفة، أو تأتي إحدى قريباته في صورة «شحاذة» وتحاول أن تجعل نفسها ضيفة لدى الربّاط، وفي الليل تدخل إلى خيمة الربيط، وفي يدها كرة من الخيوط التي غزلتها، وتفرد طرفها لتلقي به مع الفتحة التي فوق وجه الربيط ليعض عليه أو يثبته إلى قدمه، ثم تخرج المرأة من الخيمة، وهي تفرد الخيط حتى تصل إلى أقرب خيمة مجاورة فتوقظ صاحبها، وتجعل آخر الخيط عند صدره وهي تقول: «انظر إلي: استحلفك بالحب الذي تحمله لله، ولنفسك أن تجعل هذا تحت حمايتك»: «تراني بالله وبك هذا دخيلك»[2] وينتشي صاحب الخيمة لأن

---

(١) Burckhardt, 1/160-163-165

وجاكلين بيرين: ص٢٢٤.

(٢) السنة أن يعطف بثم لأن العطف بالواو يقتضي التسوية مع الله وهذا شرك. وهو يصور جانبا من جوانب الحياة الدينية لدى بادية نجد قبل الدعوة، وقد عقد الشيخ محمد بن عبدالوهاب باباً تحت عنوان «قول ما شاء الله وشئت» للتفصيل فيه وشرحه: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ـ نشر وتوزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء الرياض، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٢.

الدفاع عن الدخيل من الأمور الواجبة في البادية، ويعني أن القائم به محبوب وله وجاهة. وينهض ليمشي مع الخيط الذي يرشده إلى موقع الربيط ليوقظ الرباط ويريه الخيط الذي يمسك به الربيط بنفسه أو رجله ويعلن أنه دخيله ويجب أن يتحرر، فتفك السلاسل التي ربط فيها، وتقطع قيود شعره، بسكين، ويطلق سراحه ويعامل معاملة الضيف.

وإذا حصل أن انتقل المخيم الذي فيه الربيط عن مكانه فإنهم يحملونه مربوطا فوق بعير، وعندئذ يجتهد صديقه الذي يكون قريبا من المخيم في استغلال فرصة ما لفصل البعير الذي عليه الربيط عن الإبل الأخرى، ويذهب به إلى خيمة أخرى أو شخص من القافلة ليحرر الربيط، أما إذا فشلت محاولته وقبض عليه فإنه يعامل هو الآخر كربيط.

وهناك وسيلة أخرى وهي الفدية، وتكون إما أن يضحي أبوالربيط بجميع ممتلكاته لأنه يعتبر أنه من الشرف له أن يكون ابنه حنشولي[(١)]، وهو إذ يفديه هذه المرة فإنه يرجو أن يعوضه سريعا من نتاج غارة أكثر نجاحا.

وإذا لم يجد وسيلة من تلك الوسائل فإنه يبرم بعض شروط الفدية، فإذا تحدد المبلغ فإنه يحدث أن يكون بين قبيلة الرباط أفرادا من قبيلة الربيط يكفلونه ليجمع المبلغ من قبيلته، ويأتي بها إلى الرباط ويتحرر.

---

(١) Burckhardt, 1/105,167,169, 170, 171

ولفظة حنشولي عامية نجدية ليست فصيحة إلا أن تكون محرفة من حشل بفتح الحاء وسكون الشين، وهو الرذل من كل شيء لغة في الحسل وقد ذهب العبودي إلى هذا الرأي على أساس أن الحنشل من أردأ الناس لأنهم يغتصبون الضعفاء، ويتحاشون من يكون معهم سلاح إلا أن هذا الرأى وإن جاز لغويا أو أمكن تعليله من واقع النقد الاجتماعي إلا أن التاريخ الاجتماعي يثبت أن الحنشولى رجل شجاع ذكي بارع، ولقب حنشولي أو حنشل يدل على المهارة حتى أن من يطلق عليه لا يغضب من ذلك وهذا شيء متعارف عليه عند البادية والحاضرة على السواء رغم أن المحنشل (بضم لميم وفتح الشين) إذا ظفر بالحنشولي أدبه، للتفصيل (الفيروزآبادي ٣٥٧/٣، الزبيدي: التاج ٢٧٨/٧، ٢٧٩، العبودي: الأمثال ٤٣٣/١، ٤٣٤، جاكلين بيرين ٢٢٤).

أما إذا عجز عن جمع قيمة الفدية فيستسلم إلى ربّاطه ليعود أسيرا.

وفي بعض الأحيان فإن الربيط يحرر بدون فدية، أو فدية متواضعة جدا، خاصة إذا تعرضت حياته للخطر نتيجة لسجنه، لأنه إذا مات وهو في رباطه، فإن دمه يقع على الرَّبَّاط الذي تثأر منه قبيلة الربيط(١).

ويمكن للبدوي إذا قابل بدويًا عدوا له وهو يمشي على قدميه أن يجعل منه ربيطا، لأنه يفترض فيه النية المبيتة على سرقة مخيمه في هذه الليلة.. هذا إذا رآه قريبا من المخيم، أما إذا قابله في مكان يبعد أكثر من مسيرة نهار، فإنه لا يخول له أن يجعل منه ربيطا بل عليه أن يعامله معاملة العدو العادي الصريح، لأنه جرت العادة عند البدو أن لا يقترب العدو من مخيم عدوه على رجليه، أو في أعداد قليلة إلا من أجل السرقة.

أما إذا أرادت القبيلة هجوما صريحا فإنهم يأتون راكبين الخيول أو الجمال، وهدفها ليس السرقة فقط بل الاستيطان في مواطن الكلأ والماء، وهنا إذا فشلت محاولتها فإن أفرادها يعاملون معاملة الأعداء الصرحاء، وليس معاملة اللصوص، وفي هذه الحالة فإنهم يجردون ويسلبون ولكنهم لا يسجنون، وإن كانت قلة من القبائل لا تفرق في ذلك.

ومن تكريم البادية للمرأة أن النساء لا يمكن بأى حال من الأحوال معاملتهن كربيط، ومن يفعل ذلك فقد أخل بقانون الشرف، ولم أعثر على عقاب اللص من النساء لدى البادية لأنه يبدو أن هذا نادر الحدوث، أو أنه تعاقب القبيلة أو الأسرة التي تنتمي إليها ولا تعاقب بشخصها(٢).

أما فيما يتعلق بالدخيل: فقد تأصل بين البدو كقانون أنه بمجرد أن يصبح شخص ما في خطر حقيقي من شخص آخر، ويستطيع أن يلمس

(١) Burckhardt, 1/67, 169.

(٢) Burckhardt, 1/169-170

شخصا ثالثا حتى لو كان الملموس أخا للمعتدي، أو إذا لمس شيئا عزيزا بين يدي شخص كسيف أو رمح أو عصا أو ملابس، أو بإلقاء حجر عليه، فإنه بمجرد أن يعمل هذه، يصبح دخيلا للملموس، وبمجرد أن يقول: «أنا دخيلك» «أنا محميّك» «تراني بالله وبك أنا دخيلك» يعلن الملموس أن هذا دخيلي وسأدافع عنه[1]. وهذا يشبه نظام الجوار الفردي الذي عرفه تاريخ العرب قبل الإسلام.

ويمكن للربيط منذ اللحظة الأولى التي يجري فيها رباطه أن يطلب أن يكون دخيلا، ولكن هذا في أول يوم، ففي الأيام التالية لا يقبل هذا الطلب... هذا إذا أتاح له الربّاط ذلك.

ويمكن للصوص بمجرد أن يعلموا أن خطتهم قد انكشفت أو أن ضوء النهار قد أزف مما يعرضهم للخطر، أو أن أحد جماعتهم قد أصيب بعجز، ولم يعد في مقدوره أن يتبعهم، يمكنهم والحالة هذه أن يدخلوا أحد الخيام قائلين: «نحن حنشل نريد أن نتحول» فيقول لهم صاحب الخيمة «سلمتوا» أي أنتم آمنون، ويعد لهم القهوة والإفطار، ويستضيفهم طيلة المدة التي يريدون البقاء فيها، وعند رحيلهم يعطيهم زادا يكفيهم للوصول إلى أهلهم.

فإذا التقوا أثناء عودتهم إلى أهلهم بجماعة معادية من القبيلة التي كانوا ينوون سرقتها وفشلت خطتهم، وأرادوا بهم شراً فإنهم بمجرد قولهم: «نحن مالحون» أي أكلنا طعاما عند الخيمة الفلانية تتركهم هذه الجماعة وتخلي سبيلهم، ويكون هذا بمثابة جواز، ويمكن لشهادة مضيفهم أنهم أكلوا عنده أن تخلصهم من أيدى أي بدوي يعترضهم سواء كان من القبيلة التي كانوا ينوون سرقتها أو من أي قبيلة صديقة لها[2].

---

(١) جاكلين بيرين: ص٢٢٤.

(٢) Burckhardt, 1/161, 162, 164, 170,172.

إلا أنه إذا كان هؤلاء اللصوص من اللؤم بحيث أنهم بعد استضافة حاميهم لهم وفي أثناء عودتهم إلى أهلهم قد سرقوا بعض البدو الذين في الطريق من القبيلة التي كانوا ينوون سرقتها وعفي عنهم فإنهم يفقدون امتيازهم كدخلاء يلجأ الشخص المسروق إلى مضيفهم الذي يرسل في الحال إلى شيخ قبيلة اللصوص مطالبا بممتلكات هذا الشخص على اعتبار أنها سرقت بطريقة مخالفة لقوانين الشرف، فإذا ما أعادها اللصوص حل الموضوع، أما إذا رفضوا فإن المضيف نفسه يذهب إلى شيخ قبيلتهم، ويجمع القبيلة كلها بما فيها اللصوص ويبرز الطبق الذي أكلوا فيه عنده «رمز الحماية الممنوحة لهم» طالبا منهم إعادة الممتلكات المسروقة فإن استجابوا انتهى الموضوع، وإلا فإن المضيف يرفع الطبق ويقول للصوص: أنتم خونة ويكون نتيجة ذلك فقدانهم لأن يكونوا ضيوفا أو دخلاء بل يمكن لمضيفهم أن يجردهم من جميع ممتلكاتهم، ويعاملهم مرة أخرى معاملة الربيط إذا ظفر بهم، وتسمى هذه الحالة «رفع الجناية» وتتجاوز حالة رفع الجناية كونها تنطبق على من سرقوا مضيفهم إلى انطباقها على كل رجل من إحدى القبائل يعمل شيئا مع رجال القبيلة الثانية وخاصة المرتبطة معها بأي نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية التي مر ذكرها، وعندما يعمل هذه الجناية فإن المجني عليه يأتي إلى رئيس قبيلة الجاني ويشتكي إليه فيبلغ رئيس القبيلة بصورة تعميمية بأن فلانا عليه جناية، فلا يستطيع رجل من القبيلة إجارته إذا استجار به، وإن أجاره فإن هذا يعد من الخيانات العظمى في البادية، فيرغم المجير على تسليم المستجير ويقتل ليس عقابا للمستجير وحده بقدر ما هو عقاب أدبي ونفسي للمجير إذ أن قتل المستجير أو تأديبه يعاني منها المجير معاناة شديدة لأنها تعد خفرا لاجارته وعهده، ولا شيء أشد على المجير من ذلك، ولهذا فإن المجير يعمل المستحيل ويهدد ويتوعد حتى لا تخفر إجارته، ولا ينقض عهده، وعموما فمن المتعارف عليه بين قبائل البدو

أن مرفوع الجناية لا يعطى عهدا، ولو حصل وأعطاه أحد رجال القبيلة أي عهد فإن رئيس القبيلة له الحق في أن ينقض هذا العهد ولا يأبه به معاقبا المعاهد والمعاهد بما يشاء من العقاب(١).

وهكذا نرى أن الحياة الاجتماعية لدى البادية لا تخضع لنظام عادل صارم في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كانت هذه العادات والتقاليد تختلف من قبيلة إلى أخرى قربا أو بعدا من تحقيق العدالة والعيش الكريم سواء لابن البادية أو المار فيها، إلا أن بعض هذه العادات وخاصة المتعلقة بالعهود والحماية ينطبق عليها المفهوم الجاهلي لمبدأ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، فهي وإن كانت قد راعت قوانين الشرف والعدل في بعض الجوانب فإنها جعلت ابن البادية يعيش أحيانا في فوضى يأكل فيها القوي الضعيف، ويتعصب فيها كل لقبيلته وأسرته، ورغم كونها فوضى مقننة بأعراف وتقاليد بعضها حسن وبعضها سيىء إلا أنها في حاجة إلى عقيدة صافية وحكم شرعي ينمي الحسن ويوجهه وينبذ السيىء، ويعيد هؤلاء البدو إلى دينهم الإسلامي الذي يعيشونه مشوها يحتاج إلى توضيح وتطهير. وهذا هو ما جهدت الدولة السعودية في القيام به في الدور الأول للدعوة السلفية حتى كللت هذه الجهود بالجهد العظيم الذي قام به المؤسس الكريم للدولة السعودية المعاصرة الملك عبدالعزيز في تحضير البدو ونشر تعليم الدين بينهم.

---

(١) فهد المارك: من شيم العرب ٢/١٥٢ ـ ١٥٧، وانظر:
Burckhardt, 1/ 168, 172, 173

الباب الثالث

أثر الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية على الحياة الاجتماعية في بادية نجد

توطئـــة.

الفصل الأول: مواقف بادية نجد من الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية.

الفصل الثاني: أثر الدولة والدعوة على الحياة الدينية عند بادية نجد.

الفصل الثالث: أثر الدولة والدعوة على مظاهر الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد:

١ - أثرهما على الوضع الأمني.

٢ - أثرهما على الخوة، والقضاء على العصبية القبلية.

٣ - أثرهما على التحرك الجماعي وزعامة القبيلة.

٤ - أثرهما على بعض أساليب الحياة العامة والعادات والتقاليد لدى بادية نجد:

(أ) أثرهما على نظام الربيط والدخيل.

(ب) أثرهما على وضع المرأة.

(ج) أثرهما على الملبس.

(د) أثرهما على المشرب وبقية العادات.

توطئة:

لقد كان من الطبعي أن تولى الدولة السعودية والدعوة السلفية الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد اهتمامها فقد كانت البادية تشكل غالبية سكان نجد في تلك الفترة كما مر.

ومن هذا المنطلق جاء تركيز الشيخ محمد على نقد الأوضاع الدينية لدى هذه البادية كما مر، إلا أن من الصعب أن يلم الباحث بآثار الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية ؛الجوانب الاجتماعية لدى بادية نجد لأنه سيواجه بالحقائق التالية:

(أ) شح المصادر التي تحدثت عن هذه الفترة فيما يتعلق بآثار الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية للمجتمع النجدي من جميع النواحي، وخاصة على البدو، ولو ذهبنا نتتبع هذه الآثار في هذه المصادر إلى جانب الأحداث السياسية والعسكرية لوجدنا أن هذه الآثار لا تشكل إلا نسبة ضئيلة من الحديث عن هذه الفترة.

(ب) طبيعة هذه المظاهر مثلها مثل المظاهر الاجتماعية لدى أي أمة أو شعب فيها الحسن وفيها السيئ، وفيها ما يمكن اعتباره مظهراً حضاريا يعكس ما لدى البدو من قيم اجتماعية مثلى وفيها ما هو إلى شريعة الغاب أقرب.

(جـ) طبيعة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسها وأنها تجديد لهذا الدين، وتطبيق لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة ومعتقد السلف الصالح، ومعروف أن الرسالة الإسلامية جاءت بإقرار ما لدى العرب من عادات وأعراف اجتماعية حسنة،

وتهذيب ما كان إلى الخير أقرب، ونبذ ما كان متنافيا مع القيم الاجتماعية المثلى التي جاء بها الإسلام، وعلى هذا الأساس عاملت الدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ما لدى أهل نجد من مظاهر اجتماعية، فأقرت بعضها ولم ير لها أثر فيها، ونبذت أو حسنت بعضها فبدأ تأثيرها واضحا.

(د) طبيعة البدو أنفسهم في كونهم رحلا لا يستقرون في مكان معين مما يصعب معه على السلطات السياسية والدينية ملاحقتهم في هذه الصحراء الفسيحة، ويستحيل بالتالي نزع هذه العادة الاجتماعية أو تلك منهم، وهذا إضافة إلى حساسية البدوي عند التعرض لقيمه وعاداته الاجتماعية بأي نقد، مما جعل هذه السلطات لا تصطدم بالبدوي بسبب هذه العادات بشكل مباشر لأنها تسير على مبدأ ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] فهي قد اكتفت باستعداد البدوي لتقبل تعاليم الدين الأساسية وأركانه الرئيسة عامة لما كان يعيشه من فراغ عقدي من جهة، وما يتمتع به من فطرة سليمة وصفاء نفس من جهة أخرى، واكتفت باستعداده قبول مبدأ الولاء العام للدولة والالتزام بهذه الأركان، أما العادات الاجتماعية وبعض الجوانب العقدية أيضا فلم يتخل عنها إلا تدريجيا[2]، وإرضاء للكيان السياسي للدولة الجديدة والذي ما إن سقط حتى عادت بعض هذه المظاهر إلى حالتها الأولى.

---

(١) النحل الآية ١٢٥.

(٢) ولا شك أن الدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد التزمت الطريقة النبوية في التعامل مع البدو ودعوتهم للدين فيما مر بيانه بنظرة الإسلام نحو البدو والبداوة وخاصة الحديث المعروف المتفق عليه الذي قال فيه الأعرابي «والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص» لما عرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام فقال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام «أفلح والله إن صدق» وقد مر عرض الحديث بتمامه في التمهيد.

(هـ) محدودية الإمكانات لدى الدولة السعودية إذ لم يتوافر لها عدد من العلماء الذين لديهم الوعي الكافي بجوانب الحياة الاجتماعية التفصيلية لدى البادية، إضافة إلى عدم فهمهم الفهم الكافي لنظرة الإسلام نحو البدو، في استثارته نوازع الخير لديهم، هذا فضلا عن انشغالهم في أغلب الأوقات بإخضاع المدن والقرى والقبائل من ناحية، وصد المعتدين على الدولة السعودية من النجديين وغيرهم من ناحية أخرى.

إلا أن الباحث لا يعدم ولو إشارات خفيفة يلتمس معها بعض آثار الدعوة على بعض المظاهر الاجتماعية لدى بادية نجد.

الفصل الأول

مواقف بادية نجد من الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية

بدأ الشيخ بعد ما استقر في الدرعية تحت حماية أميرها محمد بن سعود يراسل هو والإمام بن سعود أهل البلدان وعلماءهم، ورؤساء قبائل البادية يوضحان مبادئ الدعوة السلفية ونظام الدولة السعودية المبني على أساسها[(١)]. وأن هدفها لا يعدو الرجوع إلى الدين الإسلامي بمنابعه الصافية، وتعميم الوعي فيه، وتحقيق الكيان السياسي لهذه الدولة لتوفير الأمن الاجتماعي بين البادية والحاضرة على حد سواء فاختلفت المواقف البدوية إزاء ذلك في البداية.

ولعل من أوائل القبائل البدوية تلبية للدعوة وولاء للدولة السعودية هم أفخاد من قبيلة سبيع العارض[(٢)]، ولهذه البادرة جذور من الولاء والتبعية لآل سعود مذ كانوا أمراء الدرعية فقد كان ولاء هذه القبيلة قبل الدعوة يتنازعه آل معمر في العيينة وآل سعود ففي سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م اشتركت هذه القبيلة ـ أو أفخاذ منها ـ مع ابن معمر في حرب أهل حريملاء، ويبدو أن هذا الولاء قد استقر أخيرا لآل سعود ففي سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م اشتركت هذه القبيلة مع زيد بن مرخان ـ أمير الدرعية آنذاك ـ في محاولته غزو العيينة، هذه المحاولة التي أودت بحياة زيد هذا عندما مناه محمد بن حمد بن معمر ـ خرفاش ـ بتلبية مطالبه ودعاه إلى العيينة مع بعض آل مقرن وأمر رجاله أن

---

(١) ابن بشر (٢٦/١).

(٢) سموا سبيع العارض تمييزاً لهم عن سبيع القبلة وهي مناطق رنية وما والاها . لمع الشهاب (٦٣).

يرموه إذا دخل مقر الإمـارة فرموه فمات، فتولى بعده في الدرعـية محمد بن سعود[1].

وكمحصلة طبيـعية لهذا الولاء انضمت قبيلة سبـيع العارض إلى الدولة السعودية ودعوة الشـيخ محمد بن عبدالوهاب، ولئن كـان قد حصل من هذه القبيلة أو أفخاذ منها عدم استجابة أولية للسلطة الجديدة إلا أن استجابتها عامة تعتبر من أولى الاستجابات إن لم تكن أولها، وكبداية لهذا فإن فخذاً من هذه القبـيلة قد تعـرض في سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م لإغارة من الدرعيـة، وغنم جيش الدولة مـنهم غنائم من الإبل والأمـتعة وقتل عشرة رجال، كـما أنه في سنة ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م غزا عبدالعزيز بن محمـد عربانا من سبيع وغنم منهم مائتي بعير[2].

وعدا هاتين الحـادثتين فقد كانـت علاقة هذه القبـيلة بالدولة الـسعودية الأولى علاقـة ولاء وتبعية، وقـد وعى قادة هذه الدولـة هذه الحقيقـة فأخذوا يدافعون عـنها ضد القبائل المـعادية لها ففي سنـة ١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م أخذ غزو من العجمان فريقا من سبيع فثأر لهـم عبدالعزيز بن محمد في جيش الدولة ـ وقتل منـهم أشخاصا وأخذ ركابا، وقـد فتحت هذه الغزوة وهـذا الثأر المجال

---

(١) ابن بشر (٢/٢٢٩، ٢٣٧)، وتشير الرواية إلى أن محمد بن سعود كان مستهدفًا في حالة القتل هذه لكنه التجأ إلى بعض الأماكن الحصينة في القصر ورفض أن يخرج حتى بعد أن أعطاه ابن معمر الأمان وبقي ومن معه إلى أن أعطتهم الجوهرة بنت عبدالله بن معمر عمه الأمير محمد بن معمر الأمان فخرجوا سالمين وعاد محمد بن سعود ومن معه إلى الدرعية فتولى الإمارة فيها.

(٢) ابن غنام: روضة (٢/٥٨، ٦٣). ابن بشر (١/٥٣، ٥٦). ونظراً لكثرة الأفخاد فمن الصعب الحكم على قبيلة معينة بالولاء أو عدمه إذ قد توالي أفخاذ وتبقى أخرى على عداوتها ثم إن نظام الغزو عند القبائل يؤدي إلى تغير الولاء في فترات متقاربة إلا أنه يمكن الحكم على هذه القبيلة في عمومها أنها موالية للدولة السعودية في فترة التأسيس الأولى.

أمام الحسن بن هبة الله المكرمي ـ صاحب نجران ـ لغزو الدرعية عندما لجأ إليه العجمان طالبين منه الثأر ومنوه بالقضاء على الدولة السعودية، أو الحصول على غنائم الحرب على الأقل[1].

ولم تمض سنة على هذه الحادثة حتى أصبحت سبيع تشكل قسما كبيرا من التشكيل البدوي لجيش الدولة ففي سنة ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م اشتركت سبيع في المعركة التي دارت رحاها بين صاحب نجران وقوات الدولة السعودية[2]، ويبدو أن هذه القبيلة قد بايعت على الولاء والطاعة للدولة السعودية في أواخر سنة ١١٧٧هـ[3]، إلا أن هذا الولاء لم يكن شاملا للقبيلة فقد تعرضت أفخاذ منها لغزو من الدولة سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، وفي سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م غزا الإمام عبدالعزيز بن محمد قسما من سبيع يبدو أنه نقض البيعة، ولكن عبدالعزيز نفسه قد ثأر لسبيع سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م عندما تعرضت لغزوة من دهام بن دواس أخذت منها إبلا، ولعل إغارة سعدون بن عريعر على هذه القبيلة سنة ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م كانت بسبب ولائها للدولة السعودية[4]، هذا الولاء الذي وإن كان مذبذبا بالنسبة لبعض أفخاذها فإن مما يظهر أن أغلبية أفخاذ هذه القبيلة قد ثبتت على ولائها وهو ما يمكن أن يفسر به الباحث اشتراك سبيع في جيش الدولة السعودية من ناحية، وتعرض بعض أفخاذها

---

(١) ابن غنام (٢/٦٤) وذكر فيها أن الذين أخذوا سبيعا غزو من أهل اليمن، وانظر ابن بشر (١/ ٥٦، ٥٧).

(٢) ابن بشر (١/٥٧، ٥٨).

(٣) مؤلف مجهول: كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، دراسة وتحقيق وتعليق د. عبدالله الصالح العثيمين مطابع دار الهلال الرياض، منشورات دارة الملك عبدالعزيز ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص(٦٢).

(٤) ابن غنام (٢/٧٥، ٧٧، ٧٨، ١٠٦). ابن بشر (١/٦٤، ٦٦، ٦٧، ٧٣، ٨٨). مؤلف مجهول (٧٤). وقد أشار صاحب لمع الشهاب إلى قدم موالاة سبيع للدعوة ص (٣٧).

لتأديب ذلك الجيش من ناحية أخرى، ويبدو أن الدولة السعودية قد أوعزت لقادتها مساعدة هذه القبيلة إذا تعرضت لغزو أو غزت هي، وأكبر دليل على ذلك مساعدة سليمان بن عفيصان لسبيع عندما غزاها زيد بن زامل أمير الدلم، هذه المساعدة التي كانت سببا في مقتل ابن زامل وبعض رجاله واستنقاذ إبل سبيع[١]، وعلى العموم فإن هذه القبيلة تعتبر في نظر مؤرخي هذه الفترة من القبائل الموالية للأئمة السعوديين فقد ظلت تشترك في المعارك التي تدور رحاها بين الدولة السعودية الأولى وأعدائها سواء كان من بني خالد في شرقي الجزيرة العربية أو من الأشراف في غربيها، أو ضد الحملات التي وجهت للقضاء على الدولة السعودية من خارج الجزيرة[٢].

ويذكر صاحب اللمع عن سبيع العارض: «أنهم في عين الطاعة والانقياد لآل سعود وهم معهم في الحمية وتعصب[٣] كان كاللحمة وأبناء العم، ودائما مهما ركب أحد من آل سعود في الحروب فهم معه ولا يأمن أحدا مثل ما يأمنهم ولهم شجاعة معروفة في نجد»[٤]. ولعل تأديب إبراهيم باشا، والقادة الأتراك من بعده لهذه القبيلة من بعض قبائل نجد يؤكد قدم ولائها للدولة السعودية، كما يؤيد ما ذهب إليه صاحب اللمع في هذا المجال[٥].

ويبدو أن قبيلة السهول وهي من القبائل المهمة في منطقة العارض وما حولها تعد من أبرز القبائل النجدية ولاء للدولة السعودية يؤيد ذلك عدم ذكر

(١) ابن غنام (٢/١١٩). ابن بشر (١/٩٥، ٩٦) أحداث سنة ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م.

(٢) ابن غنام (٢/١٥٧). ابن بشر (١/١٢٧، ١٣٥، ١٤٢، ١٦٢).

(٣) هكذا وردت ولعل الألف واللام قد سقطتا من أول الكلمة.

(٤) ص (٦٣، ٦٤).

(٥) ابن بشر (١/٢٩١، ٣٠٠). لوريمر: دليل الخليج العربي: القسم التاريخي (٣/١٦٢٦).

هذه القبيلة ضمن من كانت الدولة السعودية تشن غاراتها عليها في أول قيامها، كما يؤيد ذلك اشتراكها في أغلب الجيوش والغزوات التي يقوم بها القادة السعوديون لتوحيد نجد أو التصدي لغزوات القوى المجاورة.

ففي سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م اشترك السهول مع قبائل أخرى في غزوة قادها محمد بن عبدالله بن معيقل[١] أمير شقراء فغزا بعض القبائل في الحجاز كما أنهم استمروا معه في هذا الغزو في السنة نفسها حيث اشتركوا مع بعض البدو والحضر في غزوة اتجهت إلى بعض القبائل في عالية نجد، وكان قد أوعز إلى ابن معيقل فيما يبدو أن يكون في هذه الغزوة الثانية ردءاً لهادي بن قرملة الذي كان يقوم ببعض الغزوات ضد بعض القبائل في هذه المنطقة[٢].

وتوالت مشاركة قبيلة السهول في غزوات الدولة السعودية الهادفة إلى توحيد منطقة نجد بدوها وحاضرها أو التصدي للقوى المجاورة التي تريد غزو الدولة السعودية ففي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م اشترك السهول في غزوة ضمت عدداً من البدو والحضر وقصد منها التصدي لجيش الأشراف في عالية نجد حيث تحقق النصر للجيش السعودي، ومهدت الطريق أمام القوات السعودية للتوغل في الحجاز وغيرت موقف الأشراف من الهجوم إلى الدفاع[٣].

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن معيقل من أبرز قادة الدولة السعودية الأولى من الوهبة من تميم من أهل شقراء، عين أميراً لها فترة قاد عدداً من الغزوات سواء كان بمفرده أو ردءاً لغيره من القواد أو تحت قيادة سعود بن عبدالعزيز وأبرز الغزوات التي قادها أو اشترك فيها سنة ١٢٠٥هـ، ١٢٠٨هـ، ١٢١٠هـ، ١٢٢٤هـ، ويلاحظ وجود أسر بهذا الاسم منهم آل معيقل في القرائن من شمر، وآل معيقل في الخرج من بني زيد، ابن بشر (١/١٠٩، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٨، ١٩٦)، الفاخري (١٢٥، ١٣٧)، عبدالله البسام: تحفة المشتاق (ورقة ـ ٩٦، ٩٧، ١٠٧). حمد الجاسر : جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد (٢/٨٤٤، ٨٤٥).

(٢) ابن بشر (١/١٣٢).

(٣) المصدر السابق (١/١٣٥). العثيمين : تاريخ المملكة (١/١٣٠). وهذه الوقعة هي وقعة الجمانية التي سيرد ذكرها.

وفي السنة التالية ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م اشترك السهول في غزوة مكونة من البدو والحضر بزعامة محمد بن معيقل انضمت إلى جيش بقيادة سعود بن عبدالعزيز وذلك للتصدي لقوات أرسلت من قبل ولاة العراق العثمانيين لغزو الدولة السعودية[١].

وفي سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م اشترك السهول في غزوة بقيادة سعود بن عبدالعزيز يبدو أنها امتداد للغزوة السابقة ورد على غزو الولاة العثمانيين وقصدت هذه الغزوة جنوب العراق -حيث التحمت القوات السعودية ببعض القبائل في هذه المنطقة وتحقق النصر فيها للجيش السعودي[٢].

وبهذا يتبين أن قبيلة السهول من أبرز القبائل ولاءً للدولة السعودية ومشاركة في غزواتها حيث عدت في أغلب هذه الغزوات مهمة في التشكيل البدوي للجيش السعودي.

ولقد كان تقرير الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن قبيلتي عنزة والظفير ومواقفهما من الدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب متوافقا مع الأحداث التاريخية التي تبين تعاون هاتين القبيلتين أو إحداهما أو أفخاذ منهما مع مناوئي الدولة السعودية، فقد شاركت الظفير أكبر مناوئي الدعوة من الزعماء النجديين ـ دهام بن دواس ـ وذلك في غزوته لمنفوحة[٣] عندما أعلن

(١) المصدر السابق (١/١٤٢) وهي الغزوة التي قادها ثويني العبدالله شيخ المنتفق سنة ١٢٣٧هـ.

(٢) المصدر السابق (١/١٥٠، ١٥١) وعلاوة على هذا فقد تصدوا لهجوم من قبل قوات محمد علي، حقق السهول فيها انتصاراً ساحقا على الفرقة التي أرسلت لمهاجمتهم مما يدل على ثباتهم في ولائهم للدولة السعودية وعدم مصانعة قوات محمد علي في نجد ابن بشر (١/٣٠٦).

(٣) منفوحة: بلدة قديمة ذكرها الأصفهاني، والهمداني، والبكري، وياقوت واشتهرت قديما بأعشى بن قيس الذي لاتزال بعض أطلاله باقية في جنوبها وظلت بلدة لوحدها إلى أن أصبحت أحد أحياء مدينة الرياض. للتفصيل في موقعها وتاريخها الأصفهاني (٣٦٠، ٣٦١). الهمداني (٢٦٤، ٢٨٤، ٣٠٧) وذكرها أحيانا باسم منفوحة وأحيانا باسم المنافيح. البكري =

أهلها ولاءهم للدولة السعودية؛ مما يعطي الباحث بعض التصور عن هذه القبيلة وأنها تنظر للدولة والدعوة نظر عداء[1]، ويؤيد ذلك أن هذه القبيلة قد ساعدت بعض أهل الزلفي[2] وأهل سدير والوشم في إغارتهم على بلدة رغبة[3]، بدعوة من بعض أهلها الذين نقموا على أهل بلدتهم دخولهم في طاعة الدولة، وتمكن الغزاة من دخول البلدة ونهب الأموال[4]، كما أن هذه القبيلة قد ساعدت بعض أهل الوشم وأهل سدير وبعض أهل الجنوب على غزوة ضرماء بدعوة من بعض أهلها الذين جلوا عنها، ويبدو أن ذلك كان بسبب عدم موافقتهم لعامة أهل ضرماء على الولاء للدولة والدعوة، وقد حدثت هاتان الغزوتان لهاتين البلدتين سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥١م[5].

= (١٢٧٢/٤، ١٣٦٨). ياقوت (٢١٤/٥، ٢١٥)، (وابن بشر: ٢٩/١، ٣٠، ٣٣، ٣٤)، وللاستزادة من أخبارها في ابن بشر انظر: أحمد مرسي عباس: فهارس عنوان المجد. ط(١) مطبعة المدينة الرياض - نشر دارة الملك عبدالعزيز ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ١٤٩، ابن خميس معجم اليمامة : ٣٩٧/٢ - ٤٠٠).

(١) ابن بشر : ٣٠/١.

(٢) بلدة قديمة ذكرها الأصفهاني وياقوت باسم زلفة وذكرها البكري باسم الزليفات إلا أن ابن بليهد قال إن زلفة غير زليفات وأن زليفات هي القرى التابعة للزلفي التي تحمل هذا الاسم منذ القدم، وقد حفلت الزلفي بأحداث كثيرة، وأنجبت عددا من العلماء والفضلاء وللتفصيل فيها موقعا وتاريخا (الأصفهاني: ٢٥٠، ٢٦٢، ٢٦٥، البكري: ٧٠٠/٢، ياقوت: ١٤٦/٣، ابن بشر: ٤١/١، ٤٣، ٥٢، ٦٦، ٧٩ وفيه أخبار كثيرة عن الزلفي، للاستزادة منها يمكن الرجوع إلى: أحمد مرسى عباس. المرجع السابق ١٣٠، ١٣١، ابن عيسى: ٧٢، ٨٠، ١١٠، ١٧٤، ١٩١، ابن بليهد: ٤٧/٥، ٤٨، مقبل الذكير تاريخه المخطوط ورقة ١٥٨، ابن خميس: ٥٢٩/١ - ٥٣٥).

(٣) رغبة: إحدى بلدان المحمل. لم أر لها ذكرا فيما بين يدي من معاجم البلدان القديمة، وذكر ابن عيسى أن محلاتها الأولى قد بنيت سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م، ولها تاريخ حافل حيث خرجت قضاة وعلماء ومرت بها أحداث مهمة قبل العهد السعودي وخلاله وللتفصيل (ابن بشر : ٤٠/١، ٤١، ٥٠ - ٥٢، ٥٦، ٨٨، ٣٠٢، ٢٢١/٢، ٢٣٠، ابن عيسى: ٦٢، ٧٦، ٩٠، ١٠٩، ٢٢٧، والذكير: ورقة ١٢٩، عبدالله البسام: علماء نجد: ٢٠٤/١، ٢٠٩، ابن خميس: ٤٧١/١ - ٤٧٤).

(٤) ابن غنام : ١٦/٢، ابن بشر: ٤١/١.

(٥) ابن غنام: ١٦/٢، ابن بشر: ٤١/١. كما أن ابن سويد شيخ الظفير قد ورد ذكره في بعض =

وكانت الدولة السعودية حريصة كل الحرص على تأديب هذه القبيلة على مناوأتها وتحزبها ضد الدولة ففي سنة ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م انتهز عبدالعزيز بن محمد ورود آل عسكر من الظفير على مورد ماء قرب رغبة فصبحهم بعد أن استنفر كافة رعاياه من البدو وحدثت بينه وبينهم معركة هزم فيها آل عسكر وقتل زعيمهم وبعض رجاله وأخذ عبدالعزيز وجيشه كثيرا من أثاثهم وإبلهم غنيمة[١]، وتعتبر هذه الغزوة من أولى غزوات الدولة ضد هذه القبيلة إن لم تكن أولها، إضافة إلى أنها تعد من كبريات الغزوات التي شنتها القوات السعودية ضد مناوئيها في المرحلة الأولى من انتشارها، ويكفى دليلا على ذلك أن عبدالعزيز قد استنفر لها جميع رعاياه بادية وحاضرة يدفعه إلى ذلك قوة بأس هذه القبيلة وقدرتها على تجميع نفسها وتهيئة أعوان لها من البدو والحضر.

ويذكر مؤرخو نجد أن هذه القبيلة قد شاركت في تسهيل مهمة المكرمي في غزوته لنجد حيث اجتمع على تأييده زعماء المعارضة السياسية النجدية من بادية وحاضرة عاقدين العزم معه على القضاء على الكيان السعودي الجديد[٢].

وفي سنة ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م أرسل الإمام عبدالعزيز بن محمد ابنه سعود للغزو، وفي رواية أنه سار هو بنفسه فذكر له غزو من آل ظفير فلحق بهم وقتل عددا منهم وأسر آخرين[٣].

= حالات التآمر ضد الدولة السعودية الأولى (ابن غنام ١٤/٨، ابن بشر ٣٩/١).

(١) ابن غنام : ٥٧/٢، ابن بشر: ٥٢/١.

(٢) ابن غنام: ٦٧/٢، ابن بشر: ٥٨/١ أحداث سنة ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م.

(٣) ابن غنام: ٨٠/٢ ويذكر أن الذي قام بالغزو سعود بينما يذكر ابن بشر: ٧٤/١ أنه عبدالعزيز، ويتفقان في تفصيل الغزوة كما يتفقان في أن عبدالعزيز قد قصد الظفير في السنة السابقة لتلك السنة وأنه هزمهم وأخذ بعض مواشيهم وقتل بعض رجالهم. (ابن غنام: ٨٠/٢، ابن بشر: ٧٤/١، حسين خلف خزعل: حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب: ٣٠١/ ٣٠٢).

أما عنزة فقد كانت هي الأخرى مناوئة للدولة في بدايتها، ففي سنة ١١٧٢هـ/ ١٧٥٨م سار عريعر بن دجين متجها لغزو نجد واشترك معه بعض حاضرة نجد ممن لم يدخلوا في طاعة الدولة وانضم إليهم فخذ الحبلان من عنزة بزعامة ابن هذال، ويبدو أن هذا الجمع من كبر الحجم بحيث أصبح مصدر خطر على الدولة الوليدة إذ أن كثيراً من النجديين حاضرة وبادية قد اشتركوا فيه، ومن لم يشترك فيه بقي محايدا أو نقض عهده مع الدولة حتى يتبين الأمر، وأخذت الدولة في الاستعداد التام لمواجهة هذا الغزو فأمر عبدالعزيز البلدان النجدية بالاستعداد والتحصين كما تم بناء سورين محصنين بأبراج حول الدرعية، إلا أن هذا الجمع لم يتمكن من تنفيذ خطته ويبدو أن ذلك بسبب خلاف نشب بين مجموعاته ففشل وعاد كل إلى محلته، مما اضطر الدولة لتأديب كافة من ساهم فيه من النجديين حاضرة وبادية، إلا من طلب العفو واستعد لدفع ما تقرره الحكومة من جزاء مادي عن هذه الخيانة[1]، وإذا كانت المصادر لم تذكر القبائل النجدية الأخرى التي اشتركت في هذه الأحزاب فليس معنى هذا عدم اشتراك بعض هذه القبائل، إلا أن ذكر عنزة وحدها يعني أنها اشتركت بأكبر عدد من أبنائها مع عريعر، وأن القبائل الأخرى اشتركت بأعداد أقل.

والذي يظهر أن هذا الفخذ من عنزة من العداء للدعوة والدولة في مراحلها الأولى بحيث أن انهزامه أمام أي من القبائل النجدية، ولو لم تكن قد والت الدعوة بعد، مصدر فرح لأتباع الدولة، فقد حدث سنة ١٩١٥هـ/

(١) ابن غنام: ٥٤/٢ - ٥٦، ابن بشر: ٥١/١، ولكن صاحب اللمع أشار إلى قدم موالاة أفخاذ من عنزة للدولة: (ص ٣٧). مما يدل معه على التذبذب في الولاء بين أفخاذ من قبيلة واحدة أو تغير ذلك الولاء بين فترة وأخرى.

١٧٨٠م أن قصد سعدون بن عريعر مع الحبلان غزو الدهامشة من عنزة[١]، وصارت الهزيمة على الدهامشة مما دفع بهم إلى الاستنجاد بقبيلة مطير فالتقى الجمعان وقتل من بني خالد والحبلان عدد كبير فرحل ابن عريعر إلى مرابعه فاضطرا ابن هذال للاستعانة بالظفير وبقية أفخاد عنزة لمنازلة مطير، وتواعدوا للقتال فحصل بينهم مداولات وجولات حتى هزم الظفير والحبلان، وكان الإثخان في عنزة واضحا إذ قتل عدد من رؤسائهم وفرسانهم، ويلمح الباحث فرح مؤيدي الدعوة لهذا النصر المطيري من عبارة ابن غنام: «فأراد الله أن يوافقه - ويقصد ابن هذال - مطير في ذلك السير فناوخه أولئك العربان وقتل جديع وأخوه وثلاثة معهما فباؤوا بالخسران»[٢]، ولا يستبعد أن يكون تحالف أفخاذ من عنزة والظفير والخوف من قوة هذا التحالف وتأثير انتصاره على مستوى ولاء بعض بادية وحاضرة نجد للدولة ما حدا بابن بشر هو الآخر إلى تسجيل فرحته بهذه الهزيمة[٣]، إضافة إلى أن هذا التحالف يدخل في سلسلة

---

(١) الحبلان والدهامشة كلاهما فخذان يرجعان إلى العمارات من بشر من عنزة فالدهامشة يرجعون إلى العلى العمارات والحبلان يرجعون إلى الجبل العمارات. حمد الجاسر: (معجم قبائل المملكة : ٢/٥٥٦)

(٢) ابن غنام : ٢/١٠٨.

(٣) ابن بشر: ١/٩١، وقد ذكر مقبل الذكير في تاريخه ما ملخصه أن هذه الوقعة بين عنزة ومطير كانت سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م وأنها تسمى وقعة الحجناوي حيث وقعت فيه وهو موضع بين البدائع والرس، والذكير في هذا قد خطأ ابن غنام وابن بشر في تحديد تاريخ الوقعة، ووضح مكانها، وبين سببها في أن عنزة كانت من قوة الجانب بحيث ترهبها أكثر القبائل النجدية حاضرة وبادية، وكانت تهيمن على معظم بادية القصيم ومطير تجاورها من الشرق وحدث أن أمحلت مرابع مطير في حين أخصبت مرابع عنزة فطلبت مطير الجوار مدة الربيع وهي ثلاثة أشهر ووافقت عنزة على ذلك حتى إذا انتهت هذه المدة أنذر ابن هذال أمير عنزة الدويش أمير مطير بانتهائها وبأنهم مصبحوهم غدا، ولم تفد محاولات علوي والجبلان من مطير في الإمهال ثلاثة أيام فأيقنوا بالحرب والتقى الجمعان في الحجناوى فانهزمت عنزة وقتل جديع بن هذال وبعض قادته، وسجل مسعود الملقب حصان إبليس أمير الجبلان من مطير هذه الوقعة في أبيات شعبية بعث بها إلى الإمام عبدالعزيز بن محمد ليس هنا مجال ذكرها تبين أن مطيراً =

التحالفات بين هاتين القبيلتين والتي تؤثر من قريب أو بعيد على الجبهة النجدية ودرجة ولائها للدولــة السعودية الأولى، إذ ما من شك في أنه لـو انتصر على مطير سـيدفعه إلى غزو القبـائل والبلدان النجـدية الموالية للدرعيـة إن لم يغز الدرعية نفسهـا، وعلى أي حال فإن هذا يدخل في النزاعات القبـلية التي بقي أثر منها وجدت الدولة في القضاء عليه.

ومن المؤكد أن تـخوف الدولة من هذا التحـالف في محله فقـد اجتمع قسم كبير من عنـزة والظفير في هذه السنة نفسها ولا يـبعد أن يكون قد انضم إليـه أخلاط أخرى من حـاضرة وباديـة نجد التـي لم توال الدولـة حيث بـلغ مجموع هذه الأحزاب سبعة آلاف مقاتل، وقد نزلوا على مبايض[1]، فلما علم بهم الإمام عـبدالعزيز استنـفر أتباعه من الـبادية والحاضرة وبعث ابـنه سعوداً لغزوهم حيث اتجـه إليهم ولما يعلم بعددهم الكـبير في سدير[2]، ويقال إنه قد دخل معهم في معركة جانبية استكثرهـم بعدها فخشى الهزيمة الساحقة خاصة وأنه لم يستطع هزيمـتهم، وفي أثناء إقامته القصيرة في ذلك الـبلد استنفر أهل سدير رجالا وركبانا فأتوا إليه من كل مكـــان فسار بهم إلى المــاء الســـابق ـ مبايض ـ، ونازل هؤلاء الأحزاب الذين فرحوا برجوع سعود وقومه معتقدين بأنهم سيقعون غنيمة سهلة لهم اعتمادا على المنازلة الأولى، إلا أن سعودًا وقد

= كانت قد والت الدعوة. وللتفصيل في رأى الذكير وتحليله لهذه الغزوة انظر (مخطوطته السابقة ورقة ٣١، ٣٢).

(١) مبايض: بضم الميم بلدة قديمة كانت مورد ماء تحمل اسمها الحالي وأحيانا أبايض وقد ذكرها جغرافيو البلدان المسلمون بهذين الاسمين وكان بها يوم من أيام العرب في الجاهلية بين بكر وتميم، وتقع شرقي مجزل وغربي العرمة بينهما وهي اليوم هجرة يقطنها بعض من قبيلة مطير وتعد إحدى هجر منطقة سدير وتتبعها إداريا، للتفصيل (الأصفهاني: ٢٥٧، ٢٨٤، ٣٢٩، الهمذاني ٢٨٥، ٣٩٦، البكري: ١١٧٩/٤، ١١٨٠، ياقوت: ٥١/٥، الفاخري: ١١٩، ابن بشر: ٨٦/١، ٨٧، ٩١، ٩٤، ابن بليهد: ٩٠/٢، حمد الجاسر: مقدمة المعجم الجغرافي: ١٠٨٠/٢، ابن خميس: اليمامة: ٣٢٦/٢ ـ ٣٣٠).

(٢) هي تمير الواقعة جنوب شرقي المجمعة وهي معروفة منذ القدم بهذا الاسم، (الأصفهاني:=

تقوى بأهل سدير قد عزم على المقاتلة مهما كانت شديدة فنازلهم على مائهم وحصلت معركة كبيرة ما لبث بعدها الأحزاب أن انكشفوا وولوا مدبرين وهرب قسم منهم إضافة إلى ما يربو على المائة من القتلى من الفرسان والرجال، وغنم سعود وجند منهم حوالي سبعة عشر ألف رأس من الغنم وخمسة آلاف من الإبل، وخمسة عشر فرسا هذا عدا الأمتعة والأثاث مما كان معهم في غزوتهم أو في مقاطنهم القريبة من مكان المعركة(1).

لقد كان هذا التجمع البدوي فيما يبدو وأكبر تجمع واجهته الدعوة من أهل البادية وإذا كان من غير المستبعد انضمام تلك الأخلاط الحضرية والبدوية إليه التي ساهمت في كبر حجمه، فإن تزعم هاتين القبيلتين (عنزة والظفير) له أعطاه قوة إلى قوته لأن هاتين القبيلتين تعتبران من القبائل الكبيرة في نجد في تلك الفترة كثرة عدد وسعة نفوذ وقوة وبأس(2)، وما من شك في أن انتصار جيش الدولة على هذه الأحزاب كان مصدر فرح وسرور للدعوة والدولة ومؤيديها في نجد يفوق الفرح والسرور الذي نشأ من هزيمة هذه الأحزاب السابقة في معركتها مع مطير، هذه الهزيمة التي لم تحل بينها وبين تجميع هذا العدد الضخم لغزو الدرعية في عقر دارها أو منازلة جيشها إذا ما أراد التوجه إليهم، وإذا كانت مصادر تلك الفترة لم توضح هذين الهدفين لهذه الأحزاب فإنهما ـ ما من شك ـ يعدان من الأهداف الأولية لهما، ويلمح الباحث أنة الفرح والسرور تلك من عبارة ابن غنام: «فحين حمل عليهم المسلمون طاعنوهم ساعة، ثم جدوا في الفرار لا يلوون، فتولى المسلمون أكتافهم حين

= ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٨٤، ٣٢٩، الهمذاني: ٢٨٥، ياقوت: ٤٦/٢، ابن بليهد: ٢٤٥/٤، ابن خميس: ٢٠١/١، ٢٠٢).

(1) ابن غنام: ١١١/٢، ابن بشر ٩١/١، حسين خزعل: ٣٠٢.

(2) لعل المثل: «كل قوم دون عنزة» يؤكد أن ليس في نجد أحد يقاوم عنزة في تلك الفترة (الريكي: ٥٩، العبودي: الأمثال: ١٠٥٤/٣ مثل رقم ١٦٨١ وروى المثل «كل قوم ولا عنزة» وأورد سببه فيما يقال).

حقق الله تعالى انكشافهم»[1]، ومن عبارة ابن بشر: فأدال الله المسلمين عليهم وانهزم تلك العربان فولوا مدبرين»[2].

ولا توضح لنا المصادر المعاصرة هل هذا التجمع البدوي قد حظي باشتراك فعلي من سعدون بن عريعر العدو الألد للدولة السعودية، أو بدعمه وتأييده على الأقل سواء كان ذلك في منازلة هذا التجمع لمطير أو في معركته مع جيش الدولة، إلا أن هذه المصادر وغيرها من مراجع تاريخ نجد قد ذكرت أن سعدونا هذا قد جمع جموعا من بني خالد وشمر وعنزة والظفير سنة ١١٩٦هـ/ ١٧٨١م وسار بهم إلى القصيم بعدما علم بوجود قسم من العلماء وطلاب العلم وأئمة المساجد يدعون لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية وهو يريد أن تكون القصيم موالية له بعدما فقد نفوذه في العارض، ويبدو أن بعض أمراء القصيم قد رضي بالتبعية لبني خالد[3] مما دفع سعدونا أن يرسل إلى أمراء القصيم بقتل من يوجد لديهم من هؤلاء بحكم إمارته العامة عليهم كما يزعم فوافق على ذلك بعضهم وامتنع البعض الآخر، وهذا ما عجل في مسيره لتأديب الممتنعين وقتل من لديهم من الدعاة للدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولما وصل إلى بريدة طلب أن يؤتى بمن في عنيزة من الدعاة وقتل اثنين منهم[4]، ثم حصل بينه وبين معارضيه من أهل القصيم عدة جولات جانبية ونهب وسلب من كل منهما

---

(١) ابن غنام: ٢/١١١.

(٢) ابن بشر: ١/٩١.

(٣) ابن غنام (٢/١١٢، ١١٣). ابن بشر (١/٩٢). مقبل الذكير: المرجع السابق (ورقة - ٣٣).

(٤) ذكر ابن غنام وابن بشر في الصفحات السابقة أن ابن عريعر عندما وصل إلى بريدة أرسل إليه أهل عنيزة - على سبيل الإكرام والامتثال - مؤيدي الدعوة في عنيزة عبدالله القاضي، وناصر الشبيلي فقتلهما صبرا، بينما يذكر الذكير - وهو من أهلها - أن ابن عريعر هو الذي طلب أن يؤتى بطالب العلم الذي في عنيزة على حين جهل من أميرها المسافر إلى الدرعية لمقابلة الإمام عبدالعزيز بن محمد وبالتالي فلم يكن ذلك التصرف من ابن عريعر برضى من أمير عنيزة ولا أهلها وهذا هو المتوقع.

لمواشي الطرف الآخر حتى غادر القصيم بمجموعه ولم يظفر بشيء، واستغل أمير بريدة حجيلان بن حمد العليان الذي كان قد والى الدولة السعودية ذلك لتأديب الأمراء الذين أيدوا سعدونا والتشنيع على بقية أهل القصيم - خاصة عنيزة - ببعض الدعوة وقتل أئمة المساجد المؤيدين للدعوة، وهو ما وجد أذنا صاغية من سعود بن عبدالعزيز فغزاها مع حجيلان بغتة سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م، وأوغرت تلك الأحداث فيما بعد صدري مؤرخَيْ نجد ابن غنام وابن بشر ضد أهل القصيم عامة، وهو ما يلمحه الباحث في تاريخهما لهذه الأحداث في تفصيل ليس هنا مجال البسط فيه[١].

والمهم في هذا أن عنزة والظفير كانتا من القبائل البدوية الرئيسة في جموع سعدون تلك، ولعل هزيمتهما أمام جيش الدولة كما مر هو السبب الرئيس في اشتراكهما في هذه الجموع إضافة إلى نظرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب نحوهما هذه النظرة لاشك أنها مبنية على مواقفهما المعادية للدعوة والدولة.

وفي سنة ١٢٠٢هـ غزا سعود بن عبدالعزيز بجيوش من حاضرة نجد وباديتها وأغار فيها على عنزة وهي مجتمعة في عالية نجد فقتل منهم رجالا وغنم أموالا، ويظهر أن هذه آخر الغزوات الكبيرة التي تعرضت لها هاتان القبيلتان مجتمعتين أو كل واحدة على انفراد وبعدها ركنتا إلى الهدوء وضعفت شوكتهما بعد أن جلا قسم كبير منها إلى العراق، ودخل قسم في طاعة الدولة

---

(١) ابن غنام (٢/١١٢، ١١٣)، ابن بشر (١/٩٣، ٩٤). الذكير (ورق ٣٣ - ٣٤). ولقد حاولت أن أجمع بين روايتي ابن غنام وابن بشر لحادثة قتل المطاوعة بالقصيم وورود هذا التجمع له وبين تصحيح الذكير لها، ولاشك أن الذكير بهذا قد أحسن صنعا بتوضيح جانب خفي من القضية، وهو إذ ترحم على المؤرخين السابقين فإنما أراد أن يردعلى ما وقعا فيه من أخطاء بخصوص هذه القضية والتي صورتهما في صورة المتحاملين على أهل القصيم، وقد أورد أبياتا شعبية للعرف مولى عبدالله بن رشيد أمير عنيزة آنذاك تؤكد قوة دليله في رده على هذين المؤرخين.

السعودية الأولى[1].

ويبدو أن قسما من قبيلة الظفير قد والى الدعوة في أوائل عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، وفي فترة قريبة من موالاة سبيع لها[2]، على أن ابن سويط زعيم قبائل الظفير قد قام بدور الوساطة بين الإمام محمد بن سعود وبين المكرمي صاحب نجران في غزوته لنجد سنة ١١٧٨هـ، وإذا علمنا أن هذه الوساطة قد تمت بناء على طلب من الشيخ محمد والإمام محمد بن سعود أدركنا أي مدى كان يحظى به ابن سويط بالتقدير لدى أئمة الدعوة وبالسمعة العالية في نجد كأحد الزعماء القبليين البارزين فيها آنذاك أو على الأقل اتصافه بالحياد في بعض فترات هذا النزاع، وكان موضوع الوساطة للمصالحة بين الطرفين وأن يغادر النجراني العارض إلى وطنه، ويطلق كل منهما أسرى الطرف الآخر الذين أسروا في المعارك التي حدثت في المنطقة - وقد حدث ذلك فعلا، ولا يملك الباحث إزاء هذه الوساطة الناجحة وما صاحبها من تشجيع ابن سويط للمكرمي على غزو العارض[3]، وعلى اشتراكه في التجمعات البدوية ضد الدعوة وعلى غزو جيش الدولة لقبيلته كما مر، لا يملك إزاء هذه التناقضات إلا أن يعتبر هذه في سلسلة التذبذب الذي تتسم به علاقات القبائل البدوية مع الدولة في تأييدها فترة والانقلاب عليها أخرى بعدها ومناوأتها حينا والخضوع لقوتها حينا آخر.

وليست هذه القبيلة بدعاً في ذلك، فهذا شأن كثير من القبائل

(١) ابن غنام (١٣٨/٢). ابن بشر (١٠١/١). حسين الشيخ خزعل (٣٠٢) لكنه وهم في ذكره أن الغزوة كانت على الظفير.

(٢) مؤلف مجهول: كيف كان ظهور شيخ الإسلام ص (٦٢).

(٣) ابن غنام (٦٧/٢) ولكنه لم يشر إلى دور ابن سويط في هذه الوساطة بينما أشار إليها ابن بشر (٥٨/١، ٥٩).

والأفخاذ، بل هو شأن بعض البلدان التي لم تألف هذه الجهود التوحيدية بسبب ما ران عليها من فترات التخلف والتفرق وما تعمق في نفوس أهلها عامة وخاصة من نزعة استقلالية وشعور سلبي تجاه الوحدة الإقليمية(١).

وموالاة قبيلة الظفير للدولة تتضح جليا عندما اشتركت هذه القبيلة أو أفخاذ منها مع سعود بن عبدالعزيز في غزوته لبني خالد قرب الأحساء وذلك في سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، حيث هزم بنو خالد وقتل عدد من رجالهم وغنم سعود وجنده منهم غنائم كبيرة: إبلا وغنما وأثاثا وأمتعة، وأهمية هذه الغزوة واشتراك الظفير فيها تأتي من أنها قد غيرت ميزان القوى بين نجد والأحساء لصالح الدولة حيث دانت الأحساء لحكومة الدرعية وقدم بدوها وحضرها لمبايعة سعود والدخول في طاعته، وإن كان هذا الدخول في الطاعة لا يعد نهائيا لكنه على أي حال مهد للاستيلاء الأخير على هذه المنطقة سنة ١٢٠٨هـ(٢).

إلا أن هذه الموالاة لم تستمر طويلا فقد اجتمعت جموع كثيرة من بادية نجد أبرزهم قبيلة الظفير وذلك في شمال نجد، ويبدو أنه قد بلغ الإمام عبدالعزيز الأمر فأرسل جيشًا بقيادة ابنه سعود وذلك سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م وأغار عليهم حيث قتل منهم رجالا وغنم غنائم كثيرة وأفشل خطة هذه الجموع في غزوة الدرعية أو البلدان والقبائل المؤدية لها على الأقل(٣).

ولا شك أن هذه الغزوة بهذه النتيجة قد أثارت الظفير ومن تحزب معها

---

(١) العثيمين : تاريخ المملكة (١/٩٤).

(٢) لم يذكر ابن غنام (٢/١٤٢) اشتراك الظفير مع سعود في غزوته بينما ذكر ذلك ابن بشر (١/١٠٥).

(٣) ابن غنام : ٣/١٦٩، ١٧٠، ابن بشر: ١/١٣٣، حسين خلف خزعل: ٣٦٣.

فيه فأخذت على عاتقها اهتبال أي فرصة للانتقام من الدولة السعودية، ففي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م وعندما عزم ثويني بن عبدالله - شيخ المنتفق - على غزو نجد ثانية انضمت إليه قبيلة الظفير بأكملها مشكلة قوة كبيرة في جيشه، وذِكْر المؤرخين لها من دون سائر القبائل التي اشتركت في هذا الغزو دليل على دورها الرئيس وكثرتها العددية فيه(١).

ويمكن اعتبار هذه الغزوات بين الدولة السعودية وقبيلة الظفير سواء كانت بمفردها أو مشتركة مع قبائل أقوى أخرى من أبرز ملامح المرحلة الثانية لعلاقة هذه القبيلة بالدرعية، هذه العلاقة التي رغم أنها أدت إلى جلاء قسم كبير من هذه القبيلة إلى العراق كما مر، فقد ظل هذا القسم رغم بعده عن منطقة نفوذ الدولة السعودية في هذه المرحلة هدفاً لغزواتها تتحين الفرصة لغزوه - وخاصة إذا تحزب مع قبائل أو قوى أخرى ضدها، كما يحرص هو الآخر على استغلال الفرص للانقضاض على الدولة السعودية أو المؤيدين لها، وفي هذا المجال اجتمعت أفخاذ من شمر والظريف وغيرهما من البوادي التي جلت عن نجد وقطنت جنوبي غرب العراق عند أفخاذها التي رحلت إلى هذه المنطقة في فترة متقدمة فاستغل سعود بن عبدالعزيز فرصة وجوده فيه لغزو بعض بلدانه فغزا هذه الجموع سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م فحصلت بينهم عدة معارك سجال إلى أن انتهت بهزيمة هذه الجموع وغنم سعود وجنده كثيرا من ماشيتهم وأثاثهم(٢).

وقد انتهت غزوات هذه المرحلة بتقديم قسم من القبيلة الطاعة للدولة السعودية. وأبرز مظاهر هذا الولاء دفع الزكاة الشرعية للحكومة حيث

---

(١) ابن غنام: ١٩٣/٢، ابن بشر: ١٤١/١. وكانت غزوة ثويني الأولى عام ١٣٠١هـ/ ١٧٨٦م.

(٢) ابن بشر : ١٥٠/١، ١٥١.

أصبحت زكاة الظفير تشكل موردا أساسيا من موارد الزكاة الواردة لبيت المال في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، إلا أن دفع هذه الزكاة ـ في الواقع ـ لا يعدو عند بعض القبائل أن يكون مظهرا من مظاهر الولاء الاسمي الذي ما إن تختفي دواعيه كما تزعم حتى تسرع بعض القبائل في نقضه، ولعل من أبرز دواعيه قوة شخصية الإمام عبدالعزيز التي أسرت كثيرا من القبائل وحفزتها نحو الطاعة والانقياد بما تحمله من حزم وعطف على الرعية في وقت واحد[1]، وفي هذا الصدد تشير الأحداث إلى أن هذه القبيلة بمجرد أن توفي عبدالعزيز سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م حتى بدت منها بوادر تحلل من ربقة الولاء للدعوة ودولتها. ولما كانت بعض فرائض الدين تعتبر مظاهر ولاء كالزكاة فقد كان ترك دفعها إلى الدرعية مظهر تحرر لدى، أي قبيلة تريد ذلك، وتشير عبارة ابن بشر: «وكان قد حدث من عربان الظفير حوادث من تضييع بعض فرائض الدين وإيواء المحدثين وتوهيلهم وإضافتهم»[2]، إلى أنه ربما كانت بعض المشاعر التعبدية بالإضافة إلى الزكاة في نظر بعض القبائل أمورا ينبغي التخلص منها إذا ما أرادت التحرر من الولاء السياسي للدولة السعودية، ولا يبعد أن تكون الظفير قد حدث منها ذلك فعلا في سبيل هذا التحرر إضافة إلى إيوائها الناقمين والمعارضين لحكم آل سعود وفي هذا المجال ـ وفي سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م غزا قسم من بوادي الشمال الذين ليسوا تابعين للدولة السعودية بتضامن البوادي التابعة للدولة وأضافهم الظفير علاوة على اشتراك قسم من الظفير أنفسهم في هذا الغزو بل قد غزا الظفير بمفردهم بعض البلدان

---

(١) ابن بشر: ١/١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) ١/١٨١. ولاشك أن تحلل بعض القبائل من أداء الزكاة أو غيرها من العبادات منشؤه الجهل والاعتقاد أن هذه مظاهر سيادة للدولة وقضاء على بعض المظاهر القبلية، ومن هنا فإن الدولة معها الحق. في تأديب القبائل المخلة بهذا الجانب انطلاقا من أنه أحد أركان الدين أولاً ومظهر من مظاهر سيادة الدولة ثانيا.

والبوادي التابعة للدولة السعودية وأخذوا منها مواشٍ وأمتعة[1].

وأبرز هذه الغزوات هو ما حدث بين الظفير ومطير حيث قتل عدد من رؤساء القبيلتين فأرسل لهم الإمام سعود للإصلاح وكف أيدي بعضهم عن البعض الآخر، وتوعد من اعتدى منهم على الآخر، إلا أن الظفير لم يأبهوا لهذا التوعد فاستمروا يتحينون الفرص لغزو مطير وغيرها من البوادي أو البلدان المؤيدة للدرعية[2].

واجتمعت هذه الأسباب كلها مع بعض المواقف السابقة لبعض الأفخاذ من هذه القبيلة ضد الدولة ليسير لها سعود في هذه السنة وورى في هذه الغزوة بغيرها[3]، فلما اجتاز بواديهم في الدهناء أوهمهم أنه يريد غزو جنوب العراق حتى يتبين صدقهم حيث أمرهم بالنفور معه فنفر معه شرذمة قليلون، ولما رأى تمسك غالب القبيلة بموقفها ضده حرف الجيوش عن جهة العراق إليهم وشن عليهم غاراته فأعملت فيهم القتل والنهب وأخذ قسما كبيرا من أموالهم إضافة إلى ما نهبوه من البوادي والبلدان في غزواتهم السابقة، وكانت هذه الغزوة الكبيرة ضد هذه القبيلة بمثابة النهاية للفصل الأخير لوجودها في نجد إذ لم ينج منها إلا الشريد، وتفرق الباقون في المناطق النجدية حيث أخلدوا للسكينة فيها وربما تحضروا، بينما هرب القسم الأكبر على شكل جماعات إلى جنوب العراق، وإلى الجزيرة الفراتية، وإلى مناطق الخليج المجاورة.

---

(١) المصدر السابق: ١/١٨١، ١٨٢، صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ط (١) منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ١/٨٨، ٨٩.

(٢) ابن بشر ١/١٨٢، المختار: ١/٨٨. وهذا يبين جانبا من حرص الدولة السعودية على الإصلاح بين القبائل وإضعاف الروح القبلية.

(٣) لقد كان هذا من الأساليب الحربية الناجحة التي كان أئمة الدولة السعودية يتبعونها محققين في ذلك الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فيما يرويه كعب بن مالك رضي الله عنه إذا أراد غزوة ورى بغيرها - متفق عليه. وانظر ابن القيم: زاد الميعاد، ٣/٩٦.

أما الإمام سعود فإنه بعد اطمئنانه إلى القضاء على عدوان هذه القبيلة وتحزبها ضد الدولة ورحيلها عن نجد، وحل هو الآخر إلى الزلفى فأخذ يقسم الغنائم فيها، ويعيد لأهل سدير وغيرهم من المناطق والبوادي الأموال والمواشي التي أخذها منهم الظفير في غزواتهم السابقة(1).

وقد حرصت الأفخاذ الظفيرية التي قطنت العراق على قطع الطريق على القوافل المتجهة إلى نجد والعائدة منها إضافة إلى غزوها البوادي والبلدان المؤيدة للدرعية والمجاورة لها، وكل هذا رد على تأديب الإمام سعود لهم في الغزوة السابقة، إلا أن سعودا أرسل لهم جيشا في سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م حيث صادف غزو الظفير اجزيرة الفراتية يضم كبار رؤساء الظفير، والتحم هذا الجيش بهم قرب الحفر وأعمل فيهم قتلا وأخذ أموالهم غنيمة(2).

وكما سلف فإن عنزة بعد غزو جيش الدرعية لها سنة ١٢٠٢هـ قد استسلمت للدعوة والدولة وأبرزت ولاءها بدفع زكاتها لبيت المال ليس بالنسبة لمن يقطن منها نجدا فحسب بل دفع أفخادها الذين يقطنون في الشام زكاتهم إلى الدرعية تضامنا مع أبناء قبيلتهم في نجد واعترافا بقوة وسعة نفوذ هذه الدولة(3)، إلى أن عنزة الشام كانت أحيانا تمتنع عن دفع الزكاة وتناوئ حكومة الدرعية لأنها تعتبر نفسها خارج منطقة نفوذ هذه الحكومة، ولكن سعودا كان يطمح إلى بسط نفوذه عليها باعتبارها قبيلة نجدية الأصل وتمشيا مع مبدأ نشر الدعوة وتوسيع النفوذ، ففي سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م استنفر الإمام

(١) الفاخري: ١٣٣ وذكر أن ذلك في شهر ذي الحجة لكنه لم يفصل أحداثها كما فعل ابن بشر: ١٨٢/١، المختار: ٨٩/١ حيث أمرهم أن يتعرفوا عليها فكل من عرف ماله أتى بشاهدين أو شاهد ويمينه وأخذ ماله.

(٢) الفاخري : ١٣٤، ابن بشر : ١٨٥/١، ١٨٦.

(٣) ابن بشر : ١٧٣/١، ٢٣٢.

سعود كافة رعاياه بادية وحاضرة في نجد والحجاز والجنوب والشرق وسار إلى بوادي عنزة الشام، ولما وصلهم حصل بينه وبينهم جولات حربية جانبية أثارت أهل الشام عموما ورجع منها بغنائم كثيرة من مواش وأموال بعد أن قتل منهم عددا، وكانت هذه سببا في تغيير باشوية الشام[١].

واستمرت قبيلة عنزة نجد على ولائها للدولة السعودية الأولى طيلة عهدي الإمامين عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود تؤدى الزكاة وتخضع لكافة الأحكام الصادرة من الدرعية[٢]، ولم يذكر لها أدوار ذات أهمية فيما بعد ذلك إلا ما كان من تعرضها لغزوة من إبراهيم باشا بعد هدم الدرعية مباشرة مثلما حدث تماما مع سبيع كما مر؛ مما يوحي بأن هذه القبيلة قد استمرت على ولائها للدولة السعودية ولم تؤيد حملات محمد علي على نجد كما حدث من بعض القبائل البدوية[٣].

أما مطير وهي من القبائل الرئيسة في نجد فقد تعرضت في سنة ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م لغزوة من الدولة السعودية بقيادة عبدالله بن محمد بن سعود[٤] إلا أنها كانت قد استعدت لهذه الغزوة فقد سبق النذير إليها فجهزت

---

(١) ابن بشر : ١٩٨/١، ١٩٩.

(٢) ابن بشر: ١٧١/١، ١٧٢، ٢٣١، ٢٣٢.

(٣) ابن بشر : ٢٩١/١، على أن جلاء قسم كبير من عنزة إلى الشام قد ساهم إلى حد كبير في تقليص الأدوار الكبيرة التي كانت تقوم بها عنزة في نجد مما لم تظهر معه أعمال بارزة لهذه القبيلة.

(٤) هو أحد أبناء الإمام محمد بن سعود ويبدو أنه أصغر من الإمام عبدالعزيز وهو والد تركي بن عبدالله - الجد الثاني للملك عبدالعزيز، والذي انتقل به حكم آل سعود من أبناء عبدالعزيز بن محمد إلى أبناء عبدالله بن محمد في الدورين الثاني والثالث، ولعبدالله هذا عدة مشاركات في الغزو ففي سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م غزا أفخاذا من سبيع وبلد العودة، وفي هذه السنة غزا مطيرا، وفي سنة ١١٩١هـ/١٧٧٧م غزا حرمة ومناطق من سدير، وفي سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م =

ستمائة فرس، فلما حصلت الجولة الأولى من المعركة اعتقد جند الدولة السعودية أنهم سينتصرون عليهم لأنهم يظنون أن مطيراً لم تكن تعلم بهذه الغزوة فأخذوا بعض إبلها، فما كان من جند مطير إلا أن ردوا عليهم - وهم أهل الردات[1] بهذه الخيول المعدة، فحصل بين الفريقين معركة قتل فيها عدد من جند عبدالله وفروا إلى الدرعية هاربين، ولم تشر المصادر النجدية إلى عدد القتلى من غزو الدرعية لكنه فيما يبدو كان كبيرا كما لم تشر إلى عدد القتلى من مطير، وكانت هذه الغزوة أولى غزوات الدولة السعودية ضد هذه القبيلة[2].

ولا شك أن هذه الهزيمة قد أثارت قادة الدرعية ضد هذه القبيلة فأرادوا أن يستعدوا لها، ولما تعلم، فيأخذوها على غرة، فجهز الإمام عبدالعزيز جيشا يظهر أنه أكبر من السابق ولم يكل أمر قيادته لأحد بل قاده بنفسه، ولم يدرك من هذه القبيلة إلا ألف رجل فقتل منهم خمسين وغنم منهم غنائم رجع بها

= غزاها مرة أخرى وفي سنة ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م غزا الزلفى وفي السنة التي بعدها غزا الخرج واليمامة وفي عام ١٢١٨هـ كاد أن يقتل مع أخيه عبدالعزيز وجرح فتصارع هو وقاتل عبدالعزيز حتى صرعه عبدالله، وقد توفى سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م في الدرعية. للتفصيل: (ابن غنام: ٧٥/٢، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٦، ١١٠، الفاخري: ١٣٢، ابن بشر: ٦٤/١، ٦٦، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ١٦٧، ١٢/٢، ١٤، ابن عيسى: ٤٢، ٤٣، ١٣٠، ١٤٠).

(١) سموا أهل الردات لأنهم مهما انكسروا وانهزموا وتبعهم العدو يتحينون الفرصة حتى يردوا عليه ويغلبوه. (الريكي: ٦٢، ٦٣، ابن بسام: الدرر المفاخر ٩٧، ٩٨). وانظر الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) ابن غنام: ٧٦/٢ وقد فصل الكلام عن الغزوة ولكنه لم يشر إلى قيادة عبدالله بن محمد لها، ابن بشر: ٦٦/١، مؤلف مجهول: كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: ٦٧، على أن صاحب اللمع ذكر أن مطيرا قد والت الدعوة في فترة متقدمة من بدايتها (ص٣٧) فإن صح هذا فإن هذه المعركة تدخل ضمن المعارك التي تشنها الدولة ضد بعض الأفخاذ التي لم توال منها لو أن ذلك يرجع إلى عدم الثبات على هذا الولاء وهذا أمر معروف عند البدو والحضر في تلك الفترة.

إلى الدرعية ولم يقتل من جيشه أحد[1].

ومن المعتقد أن هاتين الغزوتين قد دفعتا هذه القبيلة أو بطوناً منها إلى إعلان ولائها للدولة السعودية ولو أنه كان في بعض المراحل ولاءً مذبذبًا، ففي موقعة الحجناوي[2] التي هزمت فيها عنزة من قبل مطير نلاحظ فرح مؤرخي الدعوة ابن غنام وابن بشر بهذا الانتصار المطيري كما مر، مما يؤكد رضا القادة السعوديين عن هذه القبيلة المبني على ولائها لها، هذا الولاء الذي صورته أبيات سعود (حصان إبليس)[3] التي أرسلها للإمام عبدالعزيز بن محمد والتي منها:

يا راكب من فوق ناب الفقارا   كن الضواري تنهشه من مقافيه
إلى مشيت الليل هو والنهار   تلفي إلى قصر بيّن هو وراعيه

(١) مؤلف مجهول: المصدر السابق: ٦٧، ولكنه لم يحدد تاريخ هذه الغزوة، إلا أن تاريخها بعد السابقة فيما يبدو.

(٢) الحجناوي: كانت قرية تابعة للرس منذ فترة متقدمة ثم اندثرت وأصبحت مزارع فقط، ويقال إنها كانت موغلة في التقدم وهي تقع الآن بين الرس والبدائع بقرب نحو البدائع على ضفة وادي العاقلي (العاقل قديما) ملتقى وادي التسامح ووادي الرمة، وقد كانت هي والشبيبة مركزين استراتيجيين لجيوش محمد علي وعبدالله بن سعود (ياقوت ٤/٦٨، ابن بشر: ١/٢٥٠، ابن عيسى: ١٤١، العبودي بلاد القصيم: ٢/٧٨٥، ٧٨٦).

(٣) هو مسعود الجبلي رئيس فخذ الجبلان من علوا من مطير. ولم أجد ترجمة كاملة له فيما بين يدي من المصادر إلا اشتراكه في موقعة الحجناوي مع الدويش أمير علوا وفي موقعة العدوة والتي حدثت بين قبائل من مطير وشمر من جهة وجيش الدرعية من جهة أخرى قتل فيها سعود سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م وكان فارسا مغوارا ولعل ذلك هو سبب تسميته حصان إبليس جريا على عادة العرب في تسمية من يتصدى للفروسية بأسماء قبيحة كذيب، وعير وشيطان، (ابن بشر: ١/١٠٩، ١١٠، الذكير: العقود: ٣٢، حمد الجاسر معجم قبائل المملكة: ١/٨٥، ٢/٥٤٨، وذكر الفاخري: ١٢٣ أنه من البراعصة ، الريكي: ٩٩ وذكر أنه هو الذي كنى نفسه حصان إبليس أو الشيطان وأن اسمه سعود من البراعصة).

أقره سلام وخبره كيف صارا ما دبر المولى لحكمه نسويه[1]

وختم القصيدة بأبيات يصور فيها شجاعة مطير، وأن الذي اضطرها لإبراز هذه الشجاعة هو غدر عنزة بها بعد ما أعطتها الجوار، ويجدر بالذكر هنا أن هذه الغزوة كانت في عداد الغزوات التي غيرت ميزان القوى القبلية في نجد.

وكغيرها من القبائل فلم تكن كل هذه القبيلة قد والت الدعوة في هذه الفترة المتقدمة بل بقي أفخاذ على مناوأتها للدعوة أو لم تستجب لها بسرعة غيرها ففي سنة ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م سار سعود بن عبدالعزيز إلى أحد بطون هذه القبيلة التي تقطن شمالي نجد حيث التقى بهم وقتل عددا من رجالهم وزعمائهم وغنم بعض إبلهم وغنمهم وخيلهم وأثاثهم[2].

وفي سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م أغار سعود بن عبدالعزيز بأمر من أبيه على أخلاط بدوية أكثريتها من مطير في عالية نجد، ويبدو أنهم قد علموا باستعداد سعود لهم فانهزموا، ثم ما لبثوا أن استعدوا بخيولهم إلا أن جند سعود كروا عليهم فحصلت بينهم معركة ضارية انهزمت هذه الأخلاط في

(١) ناب الفقارا: أي التي ظهر فقارها كناية عن الإبل لبروز سنامها، كن: مخففة من كأن، الضواري: جمع ضاري وهي السباع، تنهشه: النهش اللسع والعض (فصيحة)، مقافيه: من خلفه وهو في هذا يصف بعيره بشدة العدو كأن وراءها سباعاً تعضها فهي لا تني من سرعة السير هربا منها، إلى : إذا، تلفي: تصل، بين: واضح، راعيه: صاحبه، والمعنى تصل إلى قصر هو كالعلم في الوضوح سواء المبنى أو صاحبه والمقصود: الإمام عبدالعزيز بن محمد، أقره سلام: الواجب نصب سلام، خبره: أعلمه، نسويه: نعمله. (الفيروزآبادي: ٢٩١/٢، أحمد رضا: ٢٧٥، وعن الأبيات: الذكير العقود: ٣٢).

(٢) ابن غنام: ١١٨/٢، ١٩، الفاخري: ١٢٠، ابن بشر: ٩٥/١، ابن عيسى ١٢٠، حسين خزعل: ٣٠١.

إثرها فقتل منهم سعود وجنده نحو خمسين وغنموا غنائم متنوعة[١].

وفي السنة نفسها وعندما سير الشريف غالب بن مساعد[٢] جيشا إلى نجد لمحاربة حكومة الدرعية والبلدان المؤيدة لها أيده عدد من القبائل البدوية واشرأبت إليه أعناق المناوئين للدولة السعودية حيث أرسله الدويش زعيم مطير مؤيدا، كما انضم إليه عدد من قحطان وشمر والدواسر، وأيقن المعارضون والمؤيدون للدولة نجاح حملة الشريف هذه، وكان تأييد هذه القبائل له حافزا لتكثيف استعداداته بالرجال والعتاد، واستنفر الإمام عبدالعزيز كافة البلدان والبوادي المؤيدة واستعد الجيشان للالتقاء، إلا أن ذلك لم يحصل فرابط جيش الشريف في السر بعد أن حاول هدم بعض حصونه ولم يستطع، ثم مالبث الشريف غالب نفسه أن سار على رأس مدد نزل به على الجيش الشريفي في السر ثم تحول إلى عالية نجد وأقام فيها أكثر من شهر لتهييب حاضرتها وباديتها ثم رحل إلى الحجاز بعد أن قتل من جموعه خمسون في إحدى الجولات، ثم

---

(١) ابن غنام: ٢/١٤٥، ابن بشر ١/١٠٧، الريكي: ٩٥، ٩٦ وقد ذكر فيهما أن سبب الغزوة موالاة مطير للشريف غالب وتنكرها للدولة السعودية.

(٢) هو الشريف غالب بن مساعد بن سعيد من بني الحسن تولى شرافة مكة بعد وفاة أخيه سرور وتنازل أخوه عبدالمعين له عنها بعد أن ظل فيها يوما أو بعض يوم وقيل أياما، في أيامه بدأ الخلاف السعودي الشريفي يشتد وأظهر غالب خلال مراحله عددا من التناقضات: كالحرب ومنع حجاج نجد ومكاتبة أعداء الدولة السعودية من داخل نجد وخارجها كآل عريعر إلى موالاة الدعوة واعتبار نفسه عاملا لها، ولما جاء محمد علي لحرب الدعوة تحول عنها فاستخدمه محمد علي فترة قصيرة ثم شك فيه بسبب خدمته السابقة للسعوديين أو بسبب تغير مواقفه بسرعة ثم قبض عليه محمد علي بحيلة وأرسله إلى مصر مع أولاده فتركيا حيث أرسل إلى سلانيك فمات فيها سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م. للتفصيل (أحمد دحلان: خلاصة الكلام: ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٦٠ ـ ٢٧٩، الريكي: ٩٥ ـ ١٠١، ابن بشر: ١/١٠٦ ـ ١٠٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٥١، ١٥٢، ٢٥٣، وللمزيد من أخبار غالب فيه: فهارس ابن بشر: ٧٦، أحمد السباعي تاريخ مكة ص ٤٤٨ ـ ٤٥٠، ٤٨٧ ـ ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٤، ٥٠٤، ٥١١، الزركلي ٥/٣٠٤، ٣٠٥، د. منير العجلاني: عهد عبدالعزيز بن محمد ١٣٨ ـ ١٦٤، عهد سعود بن عبدالعزيز، ٥٤، ٦٣، ١٣٥ ـ ١٤٠).

تفرغت الدولة السعودية لتأديب البوادي التى أيدت الشريف في حملته تلك؛ فأغار سعود بأمر من أبيه على بعض قبيلة مطير برئاسة الدويش فقتل منهم عشرين وأخذ بعض إبلهم[1].

على أن قسما كبيرا من مطير برئاسة حصان إبليس قد تجمعوا في السنة نفسها مع قسم من شمر وغيرهم بعد أن انسحب الشريف إلى مكة وشكلوا تجمعا مناوئا للدولة في شمال نجد، فسار إليهم سعود بعد أن انتهى من هزيمة الدويش، وكان هذا التجمع المطيري الشمري كبيرا مما جعل سعودا يستنفر بادية نجد وحاضرتها لمنازلتهم فحدثت بينه وبينهم موقعة كبيرة قرب حائل فانهزم هذا التجمع وقتل منهم قتلى أغلبهم من الفرسان والقادة كحصان إبليس وغيره، وغنم جيش الدرعية منهم غنائم كثيرة مختلفة، ثم استنفر هذا التجمع ما حوله من القبائل لينازل سعودا وجيشه مرة أخرى، ويبدو أن مطيرا قد وكلت القيادة إلى شمر بعد مقتل أكثر فرسانها إلا أن الهزيمة ما لبثت أن حلت بهم مرة أخرى، فقتل سعود منهم قتلى من القواد والجنود، وأخذ أموالهم غنائم، وتعتبر هذه المعركة من أقوى المعارك بين الدرعية والتجمعات البدوية المناوئة[2].

وتوالت بعد ذلك غارات الجيش السعودي ضد مطير، ولعل مما زاد في كثرتها ما سبق من تأييدها للشريف، وتحزبها ضد الدولة مع عدد من القبائل

(١) ابن غنام: ٢/١٤٥ ـ ١٥٠، ابن بشر: ١/١٠٧ ـ ١٠٩، ابن عيسى : ١٢٥، الريكي: ٩٦ ـ ٩٨، العجلاني: عهد عبدالعزيز: ١٤٢، ١٤٣.

(٢) ابن غنام: ٢/١٥٠ ـ ١٥٢، الفاخري: ١٢٣، ابن بشر: ١٠٩،١، ١١٠، مؤلف مجهول: ٩٥، ابن عيسى: ١٢٥، الريكي: ٩٩، ١٠٠، وذكر فيها أن حسين الدويش اشترك في المعركة بعد هزيمته الأولى، وكانت المرحلة الأولى من المعركة ضد العدوة وهي قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من حائل بحوالي ٧٠كم، أما الثانية فكانت عند ياطب وهو مورد ماء يبعد عن حائل شرقا بحوالي ٤٠كم (حمد الجاسر: شمال المملكة: ٢/٨٨٨، ١٣٩٩).

المناوئة، ففي سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م أرسل الإمام عبدالعزيز بن محمد هادي بن قرملة[1] مع جيش من قحطان فأغار على قسم من مطير وهم على أحد موارد المياه في عالية نجد فحصل بين القبيلتين قتال شديد انهزم على أثره المطران وأخذت قحطان منهم عدداً من الإبل غنيمة[2]، ولا يستبعد الباحث أن تكون هذه الغزوة وغيرها بين هاتين القبيلتين داخلة في نطاق التحرك القبلي في نجد الذي ينتهي بإزاحة قبيلة عن مرابعها واحتلال المتصرة مكانها، كما أنها وغيرها كذلك تدخل في سلسلة الغزوات التي يرجع سببها للتنافس بين هاتين القبيلتين على احتلال مركز الصدارة القبلية في نجد، ولاشك أن الدولة السعودية وهي التي يهمها استتباب الأمن وتحقيق النظام والقضاء على العصبية القبلية قد تستخدم لذلك بعض القبائل التابعة لها والتي تعد قوة مهمة في التشكيل البدوي لجيش الدولة، ومن هنا فقد تستفيد بعض هذه القبائل من هذه التبعية للحصول على قدر من النفوذ القبلي في نجد، ولا يجوز أن يفهم من هذه الأحداث أن الدولة تسعى إلى إذكاء التنافس بين القبائل إذ الثابت أن

---

(١) هو هادي بن غانم الجحدري القحطاني، وينسب إلى أمه قرملة، بايع أئمة الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م فأصبح شيخاً لقحطان وعد أحد كبار قادة الدولة السعودية الأولى حيث قام بجهود رئيسة في توسيع رقعتها، ففزا في هذه السنة مطيرا واشترك قبلها مع قاعد بن ربيع الدوسري في إحدى غزواته، وتعرض سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م لغزوة مع الشريف غالب بسبب مواقفه المؤيدة للدولة وفي السنة نفسها اشترك مع البوادي التابعة للدولة في غزوة الجمانية ضد الشريف غالب وكان مشاركاً رئيساً فيها، وغزا في سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م قبيلة البقوم المؤيدة للشريف، كما شارك بصفة رئيسة في معركة الحرمة في السنة نفسها، وغزا في ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م بجموع من قحطان وعتيبة الطائف فهرب الشريف منها، قتل سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م في معركة الصفراء - قرب بدر - إحدى المعارك التي دارت بين قوات محمد علي والدولة السعودية الأولى، وتولى بعده ابنه محمد بن هادي. ابن غنام (٢/ ١٣٠، ١٤٨، ١٧١). الفاخري (١٢٤، ١٤٠). ابن بشر (١/ ١٠٠، ١٠٧، ١١١، ١٣٤ - ١٣٦، ١٤٩، ١٥١، ١٦٢، ٢١١). مؤلف مجهول (١١٩). الريكي (٩٩).

(٢) ابن غنام (٢/ ١٥٧). الفاخري (١٢٤). ابن بشر (١/ ١١١).

أئمة الدولة السعودية في كل أدوارها كانوا حريصين على إضعاف العصبية القبلية وإحلال الإخاء الإسلامي مكانها[1].

وفي السنة نفسها وبعد أن انتهت هذه الغزوة بهزيمة مطير لملمت صفوفها واتصلت ببعض القبائل المناوئة كحرب وربما شمر كذلك، وتمركزت هذه الجموع في شمالي نجد بين منطقة حائل والمدينة حيث شكل هذا التجمع البدوي خطراً جديداً على الأمن والنظام، مما جعل سعودا يسارع إليهم بجيش كثيف بلغ عشرة آلاف مقاتل صبحهم فيه في موقعهم وحصلت بينه وبينهم معركة هربت بعدها هذه الأحزاب البدوية لا تلوي على شيء بعد أن قتل منهم ثلاثون، وغنم سعود وجنده منهم غنائم مختلفة من إبل وخيل وأمتعة وأموال. وسواء كانت هذه الغزوة قبل التي سبقت أو بعدها[2] فإن القيادة السعودية قد عقدت العزم فيها على إخضاع قبيلة مطير لسيادتها، والحيلولة بينها وبين أن تؤيد المناوئين للدولة، أو تتزعمهم ضدها، ومن هنا فإن هذه الغزوة بما حشدت لها الدولة السعودية من جيش كثيف واستعدادات كبيرة يمكن اعتبارها آخر الغزوات الكبيرة التي وجهتها هذه الحكومة ضد مطير

---

(١) ذكر صاحب اللمع في كلامه عن معركة العدوة التي سبقت أن عنزة قد صاحبت جيش الدرعية في غزوته لمطير ـ عدوتها ـ الريكي: ٩٦، قلت: إذا كانت عنزة قد استغلت هذه الغزوة لصالحها فإن القيادة السعودية لم تضع مثل هذا الهدف في حسبانها بقدر ما يحقق مثل هذا الاشتراك استتباب النظام والخضوع للحكومة لتبدأ مرحلة من تصافي القبائل فيما بينها، وهو ما كانت تفعله هذه الحكومة بالصلح حينا والقوة حينا آخر.

(٢) ابن غنام: ١٥٧/٢، الفاخري: ١٢٤، مؤلف مجهول: ٩٨ وذكر أن الغزوة كانت ضد حرب ولم يشر إلى مطير فيها مع تواتر ذلك لدى مؤرخي نجد، ابن بشر: ١١١/١، وقد ذكر ابن غنام هذه الغزوة قبل غزوة ابن قرملة، إلا أن الفاخري وابن بشر ذكراها بعدها بل إن الفاخري ذكر أنها سنة ١٢٠٧هـ مما يؤكد تأخرها عن غزوة ابن قرملة، وأنها آخر غزوات الدرعية الكبيرة ضد مطير، وهذه الغزوة تسمى غزوة الشقرة وهي مورد ماء شمالي الحناكية. (ابن بليهد: ٢/ ١٠٣، ١٠٤).

وأحلافها وبعدها انخفضت حدة مناوأة مطير للدولة السعودية الأولى - في أوج قوتها على الأقل - وركنت هذه القبيلة بعدها إلى الهدوء[(١)].

وعدا غزوتين صغيرتين نسبيا إذا ما قورنتا بالغزوات الكبيرة ضد مطير أحدهما توجهت من القصيم إلى أحد موارد المياه في السر وكانت تقطنه مطير، وكان جيش القصيم التابع للقوات السعودية يبلغ ألفا ومائتي رجل ومائة وثلاثين فرسا فقط وحصلت معركة صغيرة بين الجانبين انهزمت فيها مطير وقتل من أفرادها خمسون وأخذ منها عدد من الإبل والخيول والأغنام كغنائم[(٢)]. والأخرى سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م والتي أغار فيها سعود على تجمع صغير من عتيبة ومطير في الحرة وحصل بينه وبينهم قتال قتل فيه رئيس الخيالة السعودي في هذه الغزوة، وقتل من التجمع البدوي حوالي ثلاثين رجلا بين قائد وجندي، وغنم سعود منهم عددا من الإبل والأغنام والأمتعة[(٣)]، عدا هاتين الغزوتين فلم يذكر المؤرخون غزوات ذات بال بين مطير وجيش الدولة السعودية، إذ بعد تلك الغزوات الكبيرة السابقة والت مطير الدولة السعودية وبرهنت على ذلك باشتراكها في الغزوات التي توجهها الدولة إلى القبائل والبلدان المناوئة لها، فضلا عن أدائها للزكاة الواجبة شرعا للحكومة وخضوعها لكافة الأحكام الصادرة من الدرعية[(٤)].

وفي سبيل ذلك فقد اشترك قسم كبير من مطير في غزوة أرسلتها الدولة

---

(١) حسين خلف خزعل: ٣٠١.

(٢) مؤلف مجهول : ١٢٠.

(٣) ابن غنام: ٢/١٧١ - ١٧٣، الفاخري: ١٢٧، ابن بشر: ١/١٣٤، ١٣٥ واسم رئيس الخيالة السعودي الذي قتل في هذه المعركة سبيل بن نصير المطرفي.

(٤) انظر على سبيل المثال لهذه الموالاة ابن بشر: ١/١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٢، ١٧١، ١٧٣، ٢٢١.

سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م إلى قبيلة بني هاجر[1] في عالية نجد، وذلك ضمن جيش اشترك فيه كذلك عدد من أهل البلدان والقبائل المؤيدة للدعوة، وعادت هذه الغزوة بنجاح تمثل في قتلها عددا من بني هاجر وأخذها قسما كبيرا من إبلها وأغنامها وأمتعتها غنائم، هذا بالإضافة إلى اشتراك مطير أو أفخاذ منها في عدد من الغزوات والمعارك التي كانت الدولة توجهها ضد أعدائها في داخل نجد وخارجها[2].

أما شمر فيبدو أن تأييدها للدعوة كان متقدما مثلها في ذلك مثل بعض القبائل البدوية أو أفخاذ منها كما مر، فيشير صاحب اللمع إلى أن كثيرا من شمر قد دخلت في طاعة الدولة السعودية منذ عهد الإمام محمد بن سعود، وهو في هذا لا يبين هل دخلت هذه القبيلة في هذه الطاعة عن طريق الغزو أو عن طريق الاقتناع، ولكنه يؤكد أنها رجعت عن هذه الطاعة كما رجع عنها كثير من البلدان والبوادي النجدية بسبب قدوم المكرمي صاحب نجران وعريعر ابن دجين زعيم بني خالد بجيوشهما لغزو الدرعية والقضاء على حكومتها الجديدة، واستغل قسم من شمر هذا الأمر للإغارة على الأطراف الموالية لهذه الحكومة[3].

---

(١) قبيلة متفرعة من شريف من جنب أحد أفخاذ قبيلة قحطان المعروفة في جنوبي المملكة وكانت منازلها في سراة عبيدة حتى انتقلت منها في القرن الثالث عشر الهجري إلى منطقة الأحساء وبقي منها أقسام في الجنوب وبعض مناطق نجد، ومن أبرز من أنجبتهم قبيلة بني هاجر الشيخ عبدالله بن حسين المخضوب (١٢٣٠/١٨١٤م - ١٣١٧/ ١٨٩٩م) العالم المعروف وصاحب الخطب المنبرية، للتفصيل: (عبدالله البسام: علماء نجد: ٢/٥٣٠ - ٥٣٢، حمد الجاسر: معجم قبائل المملكة: ٢/٨٦٩ - ٨٧٢، جمهرة أنساب الأسر المتحضرة: ٢/٩٥١، ٩٥٢، عمر كحالة: ٣/١٢٠٦).

(٢) ابن غنام : ٢/١٦٩، ابن بشر: ١/١٣٢، ١٣٥، حيث ذكر في السنة نفسها غزوة اشتركت فيها مطير أرسلتها الدولة السعودية لتأديب عتيبة، وذكر اشتراك مطير بزعامة فيصل الدويش في معركة الجمانية ضد الشريف غالب وذلك سنة ١٣١٠هـ/ ١٧١٥م.

(٣) الريكي : ٣٧، ٤٣.

وكان رد القادة السعوديين على هذا أن جهز الإمام محمد بن سعود جيشا بعد رجوع النجراني وعريعر إلى بلديهما في نهاية ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م يبلغ ستة آلاف مقاتل بقيادة ابنه عبدالعزيز فغزاهم ليلا وقتل منهم عددا كثيرا وأسر مائتي رجل أو يزيدون ثم قفل راجعا إلى الدرعية وقد تم هذا الغزو بمشورة من الشيخ محمد بن عبدالوهاب مثلما كان يتبع ذلك الأسلوب وخصوصا في المراحل الأولى لقيام الدولة السعودية الأولى[1].

ولما غزا عريعر القصيم حينما بدت منها بوادر تأييد للدولة كما مر انضمت شمر إلى الجموع التي أيدته وسارت معه في غزوته تلك، ولعل تلك الغزوة الكبيرة التي قام بها عبدالعزيز ضد شمر وما ترتب عليها من نتائج أضرت بهذه القبيلة مع أسباب أخرى تكاتفت لتجعل هذه القبيلة تناوىء الدولة السعودية وتتحزب مع كل من يحاول الإساءة إليها[2].

ولما توسعت الدولة السعودية الأولى وكثرت بالتالي غزواتها وأعمالها ونظرا لقرب القصيم من منطقة الجبل ولكون القصيم تابع الدولة قبلها، فقد وكل أئمة هذه الدولة إلى أمراء القصيم مهمة غزو الشمال عموما وخصوصا قبيلة شمر وتأديب المناوئين فيها للدعوة، ويبدو أن الدولة قد وكلت الأمر في بدايته لعنيزة حيث غزا أميرها (ابن رشد) قوما من شمر فأسر منهم مائتي رجل فدوا أنفسهم بأموال[3]، مما يوحي بأن عنيزة كانت أقدم ولاء للدولة من كثير من بلدان القصيم حتى نظر بعض مؤرخي تلك الفترة إلى القصيم في

(١) المصدر السابق: ٤٣، وأعيد إلى الأذهان ما سبق أن أشرت إليه في نظام الغزو أن الغزو عند شمر يتم في الليل «بيات» فكأن عبدالعزيز عاملهم بأسلوب الغزو لديهم.

(٢) ابن غنام: ١١٣/٢ ولكنه لم يذكر شمرا ضمن هذه الجموع إلا أن ابن بشر: ٩٢/١ ذكرها ضمنا.

(٣) مؤلف مجهول : ص ٨٢.

مرحلة تبعيته الأولى للدولة السعودية من خلال دخول عنيزة تحت الحكم السعودي أن أمير عنيزة كان هو الحاكم على القصيم التابع للدولة[1].

على أنه في مرحلة تالية فيما يبدو استطاعت بريدة أن تكون منافسة لعنيزة في هذا التأييد ليكون شاملا لمنطقة القصيم بأكملها، إلا أن حادثة قتل بعض أئمة المساجد في القصيم وما صاحبها من ملابسات لعبت فيها بعض الأهواء جعلت القادة السعوديين يبدون شيئاً من الشك نحو أمير عنيزة وبعض أمراء بلدان القصيم الأخرى، واستتبع ذلك تحويل انطلاق الغزو نحو الشمال وخاصة شمر إلى إمارة بريدة التي أصبحت أبرز بلدان القصيم.

وفي نطاق ذلك غزا أمير بريدة حجيلان بن حمد آل أبي عليان ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م منطقة شمر، ولما علم بورود قافلة من جنوب العراق محملة بمؤن لأهل هذه المنطقة اهتبلها فرصة حيث رصد لهذه القافلة في إحدى البلدان المجاورة وتمكن من أخذ القافلة بما فيها بعد أن تم قتل عدد كبير من رجالها[2].

ولما كانت شمر قد اشتركت مع ثويني بن عبدالله في غزوته لمنطقة القصيم سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م فقد غزاها حجيلان في آخر هذه السنة بأمر من الإمام عبدالعزيز، وسار معه في هذه الغزوة قسم كبير من أهل القصيم وغيرهم من البوادي التابعة للدولة حولها، وحاصر المنطقة وضيق على أهلها

---

(١) المصدر السابق: ٨٢، ٨٣ حيث قال عن أمير عنيزة: «وابن رشيد المذكور هو شيخ من تحت يد عبدالعزيز ومطيع له، وحكمه على القصيم».

(٢) ابن غنام: ١٢٦/٢ وذكر فيها اشتراك بعض عنزة مع حجيلان، ابن بشر: ٩٨/١، حسين خزعل: ٣٠٣، ولا ريب أن إنهاك الخصوم اقتصادياً كان من الأساليب الحربية المعروفة الناجحة التي اتبعها القادة السعوديون، وهو أسلوب حربي يتبعه كثير من القادة قديماً وحديثا. (العثيمين: تاريخ المملكة ١١١/١).

فطلبوا منه الأمان، وتعهدوا فيه بأن يعودوا موالين للدعوة تابعين للدولة السعودية حيث بايعوه على دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والسمع والطاعة، وكانت هذه الغزوة متجهة إلى القسم الحضري من منطقة شمر، ولما غادر ثويني منطقة القصيم وتفرغ حجيلان لتأديب المؤيدين له من البوادي أغار في السنة نفسها على بوادي شمر حيث قتل منهم ما يقرب من مائة رجل وأخذ منهم غنائم متنوعة[(١)].

ومبايعة القسم الحضري من شمر وغيرها ممن يقطنون تلك المنطقة لا يعني أن بوادي شمر قد ثبتت على ولائها السابق للأئمة السعوديين بل ذكر صاحب اللمع أن حربا قد حدثت بسبب هذا الولاء بين القسم الحضري لشمر الموالي للدولة، وبين القسم البدوي برئاسة الجرباء حيث أرسل الحضر للإمام عبدالعزيز أن الجرباء يغير عليهم لهذا السبب، إضافة إلى اشتراك بادية شمر مع عدد من بوادي نجد والحجاز التي أيدت الشريف غالب في غزوته السابقة لنجد، كل هذا حدا بالإمام عبدالعزيز أن يرسل ابنه سعودا بجيش كي يؤدب شمر ومطير على هذا التأييد كما سبق بيانه في معركة العدوة التي كانت زعامة التجمع البدوي فيها لشمر، حيث كان قائد هذا التجمع مصلط بن مطلق الجربا ابن زعيم شمر قاطبة[(٢)]، ومن طريف ما يروي ابن بشر في هذه الموقعة

---

(١) ابن غنام: ٢/١٣٠، ابن بشر: ١/٩٩، ١٠٠، حسين خزعل: ٣٠٣.

(٢) ذكره صاحب اللمع باسم سلطان بن مطلق، ويبدو أن مصلط يطلق أحيانا على سلطان، وذكر الراوي في كتابه «البادية» (ص٢٥١) أن أسرة الجرباء نسبوا إلى أمهم التي ابتليت بالجدري ففير بشرتها على عادة العرب قديما وحديثا بالتسمي بأمهاتهم سواء من جهتهم إذا كانت أمهم ذات مركز وسمعة عالية، أو من غيرهم إذا كانت غير ذلك ومن أمثلة ذلك باهلة والطفاوة وقرملة، وذكر المارك في شيم العرب (٤/٣٣٣) أن مطلق الجرباء كانت رئاسته في تلك الفترة على شمر قاطبة بل ترأس تحالفا من عنزة وشمر والظفير. (من شيم العرب: ١/٦٨) مما يعني أن هذه القبائل رأت فيه الكفاية القيادية لزعامتها مجتمعة.

أن مصلطا هذا قد نذر أن يجشم فرسه مجلس سعود الخاص ومكان أكله فأرخى عنان فرسه، لذلك وما أن قرب من المكان حتى اختطفه جند سعود ورماه أحدهم بعود فيه نار كان يشوى به خبزاً حيث سقط عن جواده فقتل، وبقتله انهزمت تلك البوادي حيث أخذ سعود وجنده يتتبعونهم يومين وهم لا يلوون على شيء فقتل منهم عدد كبير وسيقت نعمهم وأخذت أموالهم وأمتعتهم غنائم[1].

ولما كان الإثخان في مطير وشمرشديدا، إضافة إلى أن هذه المعركة تعتبر من المعارك الكبيرة بين قبيلة شمر والجيش السعودي فقد كانت نتائجها على هذه القبيلة واضحة إذ خضع قسم كبير منها للدولة السعودية بعد حروب يسيرة استتبعت تلك المعركة الكبيرة، وجلا قسم كبير آخر من هذه القبيلة إلى بوادي جنوب العراق والشام بزعامة مطلق بن محمد الجربا الذي ما من شك في أن هزيمته في تلك المعركة علاوة على مقتل ابنه مصلط كانا سببين رئيسين وراء دفعه بجموع كثيرة من شمر نحو تلك المناطق التي وجد فيها مستقراً ومقاماً لوجود أفخاذ شمرية سابقة في هذه المنطقة حيث اتجه بقسم منها نحو السماوة جنوب غربي العراق، وأصبح هذا القسم يسمى شمر الجرباء والرئاسة فيه لآل محمد الجرباء[2]، وبجلاء مطلق وهذه الأقسام من تلك القبيلة عن نجد دانت

---

(١) ابن غنام: ٢/١٥٠ ـ ١٥٢، الفاخري: ١٢٣، ابن بشر: ١/١٠٩، ١١٠، الريكي: ٩٩، ١٠٠، ابن عيسى: ١٢٥، حسين خزعل: ٩٧ ووهم حين قال إن زعامة الجرباء كانت لعنزة على أنه خلط بين أحداث شمر ومدينة عنيزة، ثم تأكد في ص: ٢٩٩ أن إمارة شمر في أسرة الجرباء وأورد أحداث معركة العدوة كما ذكرها المؤرخون الآخرون.

(٢) الريكي: ١٠٠، حسين خزعل: ٢٩٩، الراوي: البادية: ٣٤٤ ـ ٣٥١ وذكر فيها أن أول من رحل من نجد هو فارس الجربء وهو يتفق في هذا مع لونكريك (١٠٤) الذي ذكر أن ذلك عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م على أنه قد ذكر مؤرخو نجد وغيرهم أن مطلقا قد رحل بقسم كبير من شمر ثانية من نجد للأسباب السابقة، ويؤكد الريكي (٦٢) أن الإمام عبدالعزيز بن محمد هو الذي أجلا قسما كبيرا من شمر مع مطلق في أواخر أيامه بسبب ما بدر منهم من خلاف ضده.

شمر النجدية للإمام عبدالعزيز بن محمد حيث أصبحت تؤدي الزكاة إلى بيت المال رمزا لهذه الطاعة، كما اشتركت في حملة الحج سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م تحت قيادة الإمام سعود بن عبدالعزيز، هذه الحملة التي كان من أهدافها كذلك توطيد الحكم السعودي في الحجاز واشتركت فيها قبائل نجد والحجاز والجنوب[١].

أما شمر فتحت تأثير ذلك الجلاء وأسبابه أخذت تكيد العداء للدولة وأتباعها متحينة الفرصة للإغارة على الأطراف الموالية لهذه الدولة، وكانت هذه القبيلة تتحزب في سبيل ذلك من القبائل النجدية الجالية إلى العراق للسبب نفسه كالظفير، ففي سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م غزا سعود بن عبدالعزيز بأمر من أبيه جنوبي العراق وأغار على بعض بلدانه فذكر له تجمعا بدويا مكونا من شمر الجربا والظفير وغيرهما، وكان هذا التجمع مقيما على أحد موارد المياه في جنوبي العراق، فالتقى به سعود ونازله وحصل بين الفريقين قتال شديد تداوله الفريقان وقتل فيه من جند سعود خمسة عشر رجلا، وفي المرحلة الأخيرة من الغزوة حمل سعود وجنده على هذا التجمع فقتلوا عددا من فرسانه من القبيلتين، وكانت نهاية المعركة أثر مقتل زعيم هذا التجمع مطلق بن محمد الجرباء الذي عثر جواده، وهو يطارد خيل سعود في نعجة عرضت له في طريقه أدركه بعدها زعيم السهول المشتركين مع سعود في هذه الغزوة فقتله فانهزم هذا التجمع وغنم الجيش السعودي إبلهم وأثاثهم وأمتعتهم[٢]، وهكذا انتهت حرب هذه القبيلة مع الدولة السعودية بدخول قسم

---

(١) ابن بشر : ١/ ١٧٣، ١٨٨، ٢٢٣ وذكر فيها اشتراك شمر بقيادة أمير الجبل محمد العلي مع أهل القصيم بقيادة حجيلان بأمر من السعوديين للإغارة على بوادي حرب قرب الحناكية.

(٢) ابن بشر: ١/ ١٥٠، ١٥١، عثمان بن سند البصري: مطالع السعود بأخبار الوالي داود ورقة ١٢١ حيث ذكر فيها مقتل مطلق الجرباء مشيرا إلى أن سعوداً كان يفضل أسره على قتله، ولعل ذلك لما يتمتع به مطلق من حنكة ودهاء وكرم أراد سعود أن يستثيره فيه ليضمه وقبيلته إلى صفه. أما الذي قتله فهو حزيم بن لحيان زعيم السهول.

منها في طاعة هذه الدولة وجلاء قسم منها إلى بوادي الشام والعراق حيث يمكن اعتبار هذا الانتهاء لهذه الحروب من معالم التقسيم القبلي لهذه القبيلة بين نجد والعراق، ويعد سبيلاً لزيادة الوجود الشمري السابق في هذه المنطقة، ودافعا من دوافع التحرك والتغيير الاجتماعي لأفخاذ وأسر أخرى منها أو من القبائل الأخرى التي أخذت تحذو حذوها.

أما الدواسر فقد ابتدأت علاقتها بالدولة السعودية حينما انضم فخذ الوداعين منها للحسن بن هبة الله المكرمي في غزوته للعارض سنة ١١٧٨هـ، التي مر ذكرها، إذ كان حويل الودعاني من المحرضين والمؤيدين بالأنفس والأموال للنجراني أسوة ببعض النجديين المؤيدين للمكرمي حاضرة وبادية، ولعل لقرب منطقة الدواسر من نجران وكثرة التعامل التجاري بين المنطقتين أثر كبير في هذا التأييد الذي برز مرة أخرى عندما قدم النجرانيون مرة ثانية سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م لغزو منطقة الدواسر قد اصطحبوا معهم قسما كبيرا من أهله يبدو أن الوداعين أيضا من أبرز هؤلاء، وحصل بين النجرانيين وبعض بلدان العارض مقاتلات صمد لهم في آخرها أهل ضرما مما اضطرهم للخروج منها والعودة من حيث أتوا وتفرقت الجموع التي أيدتهم نادمة على هذا التأييد المادي والمعنوي، وخاصة ما بذلته تلك الجموع من أموال طائلة في سبيل نجاح خطة النجرانيين[1].

ولم تشر أحداث تلك الفترة إلى أي محاولة قامت بها القوات السعودية لغزو منطقة وادي الدواسر سواء باديتها أو حاضرتها، وكان تركيز الغزوات منصبا على شمالي نجد وأوساطها، ولعل ذلك راجع لقوة بأس الدواسر بزعامة الوداعين بالإضافة إلى أن الخرج لم تخضع بعد وهي بزعامة زيد بن زامل تشكل عقبة أمام توسع الدولة في جنوبي نجد، إضافة إلى قربهم من

(١) ابن بشر (٨٠/١).

نجران التي يشكل حاكمها قوة لا يستهان بها خاصة وهي تقف موقف العداء من الدولة السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وما يمكن القول به من وجود تحالف بين بعض الدواسر وحاكم نجران، ثم إن الدولة السعودية قد تنشغل بمنطقة دون أخرى في بعض الفترات، إلا أن المرء لا يستبعد أن تكون هناك معرفة بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من بعض الدواسر سواء كان ذلك بالاتصال بينهم وبين الدرعية التي من الممكن أن تكون قد أوعزت لمن يوضح مبادئ الدعوة في المنطقة ولو لم يكن ذلك بشكل مباشر، أو كان ذلك نتيجة لقدوم بعض الدواسر لمنطقة العارض ومعرفتهم أو سماعهم بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وعلى أي حال ففي سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م قدم إلى الدرعية ربيع وبدن ابنا زيد الدوسري رئيس فخذ المخاريم من الدواسر وبايعا الشيخ محمد والإمام عبدالعزيز على السمع والطاعة عنهما وعن فخذهما حيث شكلا في الوادي قوة لا يستهان بها استطاعت أن تقف في وجه الذين يريدون غزو العارض من الجنوب، إضافة إلى دورها في نشر الدعوة والولاء للدولة السعودية في المنطقة، ورغم أن عددا كبيرا من قومهما من المخاريم قد انضموا إليهما، إلا أن قسما كبيرا من عشائر الدواسر الأخرى بقي على عدم ولائه للدولة السعودية إلى حين[1].

وفي ١٣٠٢هـ/ ١٧٨٧م قدم قسم كبير من الدواسر مع ربيع وبدن رئيسا المخاريم[2] لمبايعة قادة الدولة السعودية بعد معارك قامت بينهما وبين بقية

---

(١) ابن غنام: ١٢٢/٢، ابن بشر: ٩٧/١، مؤلف مجهول: ١٥٣ وذكر فيها أن ربيعا قد بايع قبل قومه بثلاث سنين، ويمكن أن يفهم من هذا أن المخاريم أنفسهم لم يبايعوا إلا سنة ١٢٠٢هـ إلا إذا كان يقصد عموم الدواسر.

(٢) ذكر ابن غنام أن ربيعا وبدنا فيهما رئاسة المخاريم منذ مبايعتهما الأولى بينما ذكر ابن بشر في الحادثة الأولى أبناء الرئيس وفي الثانية بلقب رئيس المخاريم مما يبدو معه أن أباهما في الأولى كان موجودا وتوفي بعدها إلا أن رواية ابن غنام - فيما يبدو - أدق، ويمكن تعليل رواية ابن بشر بوجود خطأ مطبعي أو أثناء نقله من ابن غنام هذه الأحداث.

الدواسر بزعامة الوداعين وكانت بسبب ما قاما به من إزالة ما في الوادي من أشجار وأحجار كانوا يقدسونها[1]، واستعان ربيع وبدن بالإمام عبدالعزيز الذي أمدهما بجيش من قحطان بزعامة مبارك بن عبدالهادي بن قرملة، وخضع قسم كبير من أهل الوادي بعد هذه المعارك لطاعة ربيع ومبارك، وبقي قسم على محاربته للقوات السعودية واستفزع أهل نجران الذين جاءوا بخيلهم ورجالهم وحدثت بينهم وبين قوات الدولة والمؤيدين له من الدواسر عدة مقاتلات انهزم فيها الوداعين والرجبان من النجرانيين الذين تركوا حلفاءهم وعادوا إلى نجران فما كان من الرجبان والوداعين إلا نزلوا على طاعة ربيع الذي قدم مرة أخرى بقسم من أهل الوادي إلى الدرعية للمبايعة حيث أكرمتهم الحكومة غاية الإكرام، ولم يفت ربيعًا هذه المرة أن يطلب من الشيخ محمد والإمام عبدالعزيز معلما يتولى تعليم الدواسر أمور دينهم مؤكدا في هذا أن الخضوع نتيجة الحرب لا يستمر طويلا مبينا أن الدواسر سيكونون قوة في يد الدولة إذا ما انضموا إليها على بصيرة وعن اقتناع، ووافق الشيخ محمد والإمام عبدالعزيز على ذلك حيث أرسلا معه واحدا من كبار العلماء والمعلمين في عهد الدولة السعودية الأولى هو الشيخ عبدالله بن فاضل[2] ليكون معلماً

---

(١) لا يستبعد وجود مثل هذه الاعتقادات في مجتمع رانت عليه قرون من التخلف والبعد عن الدين فإذا كانت قد وجدت لدى بعض الحضر مخالفات عقدية وشرعية فمن باب أولي سيوجد عن البدو شيء من ذلك على اختلاف درجة هذه الاعتقادات بين قبيلة وأخرى بل إن من يطلع على شيء من الأوضاع الدينية لدى بعض القبائل في الفترات التي أعقبت سقوط الدولة السعودية الأولى أوالثانية وقبل توحيد الملك عبدالعزيز للبلاد يجد كثيراً من مظاهر البعد عن الدين لدى البدو.

(٢) هو الشيخ عبدالله بن فاضل أحد علماء الدرعية، ويبدو أنه كان محل ثقة الشيخ محمد وأئمة الدولة السعودية الأولى حيث كانوا يرسلونه معلما للبلدان التي تتطلب جهدا كبيرا في التعليم والإقناع إما لفشو الجهل فيها كوادي الدواسر، أو لوجود فئات معارضة لدعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب ولمذهب أهل السنة عامة كالأحساء، فقد كان معلما في المنطقتين حيث انتقل من الوادي إلى الأحساء بعد الاستيلاء عليها سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م من تلاميذه الشيخ سليمان ابن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ت ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م) والشيخ عبدالرحمن بن حسن بن عبدالوهاب (ت ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) وقد تتلمذ عليه الأخير في السيرة ويبدو أن الأول تتلمذ عليه =

لأمور الدين وإماما للصلاة، حيث بقوا على هذا الولاء مدة ستة أشهر إلا أن فخذ الرجبان والوداعين نقضوا هذا الولاء - وليس من المعروف سبب ذلك -، فأرسل الإمام عبدالعزيز إليهم جيشا قاتلهم فهزمهم حتى طلبوا من قائده الأمان، الذي طلب منهم الذهاب إلى الدرعية لترى فيهم رأيها فقدموا على الإمام عبدالعزيز وعاهدوا على السمع والطاعة، فاشترط عليهم دفع ثلاثة آلاف ريال منها ألف معجلة مع ألف بندق فقبلوا بذلك الشرط وسلموا المعجل منها[1].

ويبدو أن الرجبان والوداعين استنكفوا أن تكون إمارة الدواسر في المخاريم[2] ففي سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م غزا قاعد بن ربيع الدوسري مع هادي ابن قرملة بني هاجر فانتقض عليه بعض الدواسر حيث قتل من جيش قاعد عددا وأسر آخر، وكان من أبرز المنسحبين عن قاعد حويل الودعاني وجماهر الرجباني مع قومهما: الوداعين والرجبان، ولعل كون القيادة بيد قاعد وهما

= فيها، وفي يوم الجمعة ١٠ شوال ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م وبعد مضي أشهر معدودة على مبايعة أهل الأحساء للإمام عبدالعزيز نكص جماعة منهم عن هذه البيعة حيث قتلوا الأمير السعودي وصاحب بيت المال والمعلمين حيث بلغ مجموع القتلى ثلاثين رجلا كان من بينهم الشيخ عبدالله ابن فاضل، (ابن غنام: ١٣٥/٢، ١٦٢، الفاخري: ١٢٥، ابن بشر: ١٠٣/١، ١٢٩، عبدالرحمن ابن عبداللطيف آل الشيخ: مشاهير علماء نجد وغيرهم: ص٢٩، ٥٩، ٦٥، عبدالله البسام: علماء نجد: ٥٦/١، ٢٩٤، محمد القاضي: روضة الناظرين ١٢١/١، ٢٠٠) وذكر فيها أن عبدالرحمن بن حسن قد تتلمذ عليه في الأصول والفروع والحديث وعلوم اللغة العربية والفرائض وحسابها مما يدل على أن الشيخ ابن فاضل كان من كبار العلماء حتى لقب بعالم الدرعية).

(١) ابن غنام: ١٣١/٢ - ١٣٦، ابن بشر : ١٠١/١ - ١٠٤.

(٢) ذكر الشيخ حمد الجاسر في معجم قبائل المملكة: أن المخاريم أحد أفخاذ الرجبان الذين هم من الوداعين من الدواسر، وللتفصيل في هذه الأفخاذ الثلاثة انظر (معجم قبائل المملكة: ١/ ٢٦٥، ٧٢٦/٢، ٨٥٩).

يريان نفسيهما أكبر وأقدر على القيادة منه سببا رئيسًا في هذا الانسحاب[١].

وازدادت مشاركات الرجبان والوداعين في بعض غزوات القوى المجاورة على الدولة السعودية وأتباعها في منطقة جنوبي نجد، حينما أرسل الشريف غالب جيشه لغزو نجد فانضمت إليه القبائل النجدية كما مر وانضمت إليه جموع من الدواسر مؤيدة، ولم يكتف الرجبان والوداعين بالتأييد فقط كما فعلت سائر القبائل النجدية بل أرادوا أن يكونوا قوة رئيسة أخرى مساندة للشريف وقبلوا - في هذا الصدد - أن يكون وادي الدواسر ولاية شريفية حيث أمر فيهم الشريف غالب الشريف شاكر الذي تولى قيادة جيش شريفي قوامه الرجبان والوداعين وبني هاجر ومفرزة من الجيش الشريفي القادم من الحجاز، ونظرا لخطورة هذا التجمع فقد بادر قادة الدولة السعودية بإرسال جيش على وجه السرعة بقيادة نغيمش بن حمد[٢]، وشكل مع ربيع ومبارك بن عبدالهادي الودعاني مجلس قيادة للجيش السعودي القادم من الدرعية وجموع الدواسر الموالين للدولة، والتقى هذا الجيش في وادى الدواسر بالجيش الشريفي والجموع البدوية المؤيدة له وحصل بين الجيشين عدة مقاتلات وجولات انهزم فيها جيش الشريف وجموعه بعد أن قتل من الطرفين عدد من الرجال[٣].

وتسكت الأخبار عن علاقة الدواسر بالدولة السعودية بعد هذه المعركة،

---

(١) ابن غنام ١٤٣/٢، ١٤٤، وقد ذكر فيها أن قاعداً اسم آخر لربيع بينما ذكر ابن بشر: ١/ ١٠٧ في الحادثة نفسها أن قاعدا ابن لربيع وهو الذي يتفق مع الأحداث الأخرى التالية التي تدل على تولي قاعد إمارة الدواسر بعد أبيه ومع ذكر ابن غنام لذلك في سنة ١٢١٠هـ القادمة على أن يخلط بين كون الإمارة لأبيه أو له.

(٢) نغيمش بن حمد: أحد قواد الدولة السعودية الأولى وهو من أهل التويم، (ابن بشر: ١٠٨/١)، ولعله من آل ابن حمد من آل يمنى من قحطان، (حمد الجاسر: جمهرة : ١٧٩/١).

(٣) ابن غنام: ١٤٨/٢، ابن بشر: ١٠٨/١، الريكي: ٩٦.

إلا أنه يبدو أن لهـا تأثيراً قويًّا في خضـوع قسم كبيـر منهم، وتمثـل هذا في اشتراكهم مع الجيش الذي أرسلته الدولة لتأديب بني هاجر كما مر، وليس من المعروف هل كـان الرجبان والوداعين ضمـن الجيش السعودي أو مـن المؤيدين لبنى هاجر والبقوم في تحزبهم ضد الدولة السعودية الأولى[1].

واشتركت الـدواسر مع عدد من القبائـل التابعة للدولة وكـان ذلك سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م بزعامة ربـيع الذي أصبح أميرا عاما علـى الدواسر حاضرة وبادية، والتقت هذه الجموع بجيش الشريف في مورد الجمانية بعالية نجد حيث انهزم جيش الشريف، على أنه في السنة نفسها غزا قاعد بن ربيع مع قسم من الدواسر قبـيلة بني هاجـر حيث قتل منهـم عددا من الرجال وأخذ قـسما من الإبل والخيل والأغنام والأموال كغنائم[2].

وواصل الدواسر بزعامة ربـيع غزو القبائل والبلدان غير المـنظمة للدولة والمنـاوئة لها لـتوسيـع رقعة الدولـة وكسب الأمـوال لبيـت المال، ففي سـنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م غزا ربيـع بجيش كثيف مـن الدواسر ومعهم غيـرهم بأمر الإمام عبدالعـزيز الذي حدد له قبائل الطـائف مقصدا حيث غزا قبـيلة شهران وقتل منهم عددا من الرجال وغنم إبلا وأغناما[3].

وبدأ نجم ربيع العـسكرى في الصعود حيث أصبح مـن كبار قادة الدولة

---

(١) ابن غنام : ١٦٩/٢، الفاخري ١٢٥، ابن بشر: ١٣٢/١ وهي التي قتل فيها ناصر بن شرى أمير بني هاجر سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م، وأشار إلى اشتراك الدواسر في جيش الدولة ابن بشر فقط.

(٢) ابن غنام: ١٧٢/٢، ١٧٣ وذكر أن قاعد بن ربيع في غزوته لبني هـاجر رئيس للدواسر، بينما ذكر اشتراك ربيع في الجمانية وهو رئيس للدواسر وسار على ذلك ابن بشر: ١٣٥/١ إلا أنه وصف قاعداً بأمير وادي الدواسر بينما وصف ربيعاً بأمير جميع الدواسر حاضرة وبادية.

(٣) ابن غنام: ١٩٩/٢، ابن بشر: ١٤٧/١،

السعودية الأولى، وأمراء المناطق الذين يحظون بتقدير واحترام أئمتها، وقد قابل هذا الرجل هذه الثقة بالتفاني والإخلاص لهذه الدولة، وفي هذا المجال غزا سنة ١٣١٢هـ/ ١٧٩٧م بجنود من الدواسر وغيرهم منطقة بيشة حيث نازل أهلها وضيق عليهم الحصار حتى بايعوه على الولاء للأئمة السعوديين، إلا أن الشريف غالب لما علم بذلك سارع بإرسال جيش التحم مع أهل بيشة وحاصرهم وقطع بعض نخيلهم، وقتل عددا من رجالهم مما أثر على ولائهم للدولة السعودية حيث تحولوا عنه ودخلوا في طاعة الشريف[1].

ولعل أبرز عمل بطولي قام به الدواسر بقيادة ربيع بن زيد هو اشتراكهم الرئيس في معركة الخرمة ضد الشريف غالب في السنة نفسها حيث سار الشريف بجيش كثيف بادية وحاضرة، ويبدو أنه استثار من قدم للحج أو للجوار من المصريين والمغاربة حتى أصبح جيشه ضخما في العدد والعدة سار به حتى نازل بعض بلدان الجنوب، ونزل الخرمة[2]، ولما كان سعود بن عبدالعزيز غازيا في شمال نجد وجنوب العراق في المعركة التي قتل فيها مطلق الجرباء كما مر[3]، فلم يرد الرجوع بكامل جيشه بل رد مفرزة من هذا الجيش تكون عونا لمن يتعرضون لهجمات الشريف إلى أن يأتي إليهم جيش آخر من

---

(١) ابن غنام ١٩٩/٢ وقد ذكرها سنة ١٢١١هـ بينما ذكرها ابن بشر: ١٤٩/١ في سنة ١٢١٢هـ، وذكرها ابن غنام مرة أخرى سنة ١٢١٢هـ، ٢٤٢/٢.

(٢) الخرمة: بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من الطائف على وادي الخرمة أو تربة شمال حضن سكانها من سبيع مع بعض الأشراف وغيرهم تشتهر بزراعة النخيل وجودة التمور ترتبط بالطائف إداريا وتتصل به عبر طريق معبد بطول ١٨٠كم ويتبعها عدد من القرى. (الفاخري: ١٢٩ من حاشية المحقق، ابن بشر: ٥٣/١ من حاشية المحقق، حمد الجاسر: مقدمة المعجم الجغرافي: ٣٩٤/١، ابن خميس: المجاز: ١٨٦، ٢١٠، عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز: ٣/ ١١٨).

(٣) ومن الموافقات أن مقتل الجرباء وهزيمة الشريف غالب في يوم واحد. (ابن بشر: ١٥٢/١).

الدرعية أو من القبائل والبلدان المؤيدة التي لم تشترك في حرب الشمال وفي الوقت نفسه أرسل الإمام عبدالعزيز إلى هادي بن قرملة لينفر بمن لديه من قحطان، وإلى ربيع بن زيد لينفر بمن لديه من الدواسر وغيرهم وإلى أخلاط أخرى من البادية وبعث جيشا من الحضر، وأمر هذه الجموع بالمسير لملاقاة الشريف في الخرمة فسارت إليه - ويبدو أنها بقيادة ربيع وهادي، وقومهما هم الأكثرون - فأغارت عليه في منزله الخاص حتى أصيب جنده بالرعب فانهزموا لا يلوون على شيء تاركين خيامهم وأموالهم، والجيش السعودي وراءهم يعمل فيهم قتلا، ومن لم يقتل أدرك ظمأ وجوعا فكانت هذه الموقعة على حد تعبير ابن بشر: «وقعة عظيمة ومقتلة كبيرة[1] حتى بلغ عدد القتلى من الأشراف والمصريين والمغربة وقريش وعتيبة وثقيف ألفين وأربعمائة، وأخذ السعوديون ما في خزائن غالب المنقولة معه من النقود التي بلغت ثمانية عشر ألف مشخص[2]، كان يريد توزيعها صبيحة ذلك اليوم على الجند تشجيعا لهم إضافة إلى ما غنموه من الأسلحة والأثاث والأمتعة مع ما ردوا من الأموال والأمتعة التي أخذها الشريف من قحطان في غزوة سابقة، علاوة على

(١) ١/١٥١.

(٢) المشخص: عملة عالية القيمة من الذهب الخالص عيار أربعة وعشرين وهو من النقود الأوروبية التي كانت تضرب في البندقية منذ القرن السابع الهجري وسمي بالمشخص لوجود صور بعض قديسي ودوقات البندقية عليه ويبدو أن معرفة نجد بهذه العملة كان عن طريق الحجاز التي عرفتها عن طريق مصر، ولقي قبولا في هذه المناطق وغيرها حتى كان النجديون وخاصة البدو يطلقونه على الرجل الطيب الأصل والمحبوب.
(د. أحمد عزت عبدالكريم وآخرون: عبدالرحمن الجبرتي، دراسات وبحوث الهيئة المصرية العامة للكتاب، نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ص٥٧٧، الفاخري ٩٦، ابن بشر ١/٨٠، ١٥٢، ٢/٢٣٢).

الاستيلاء على المدد العثماني للشريف غالب[1] المكون من الإبل المجهزة للحرب، ورجع الشريف إلى بلده منهزما يتحين الفرص لمهادنة السعوديين إذ لم يلبث إلا فترة قصيرة حتى صالح الإمام عبدالعزيز سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م على تعيين حدود القبائل والأقاليم التابعة لكل منهما، وعلى السماح لأهل نجد بالحج، وما من شك في أن هذه المعركة برجحان كفتها لصالح السعوديين قد هيأت الأوضاع لهم للاستيلاء على الحجاز، وأبرز مظاهر ذلك دخول بعض القبائل الحجازية في طاعة الدولة السعودية حيث أصبحت هذه القبائل تثير المشكلات أمام الشريف، علاوة على ضعف الجانب العسكري، وسوء الحالة الاقتصادية، كل هذا وغيره مهد السبيل لدخول السعوديين الحجاز، وجعل الشريف لا يكترث بذلك بل يقبل أن يصبح تابعا للدولة السعودية[2].

والمهم في هذا أن هذه المعركة قد أثبتت إخلاص بعض القبائل البدوية للأئمة هذا الإخلاص الذي دفع بهذه القبائل إلى الاستماتة في حرب الشريف أكبر قوة كانت تناوئ الدولة السعودية على الرغم من أن أغلب الجيش السعودي يحارب في الجبهة الشمالية، على أن هذه القبائل كانت تقدر جيدا

---

(١) بينما ينفي دحلان في خلاصة الكلام: (٢٦٦) أن تكون الدولة العثمانية قد أيدت الشريف في معركته تلك وذلك في قوله: «وفي سنة اثنتى عشرة أرسل مولانا الشريف الشيخ أحمد تركي للدولة العلية يستنجدهم ويطلب منهم الإعانة على دفاع الوهابي فلم يجيبوا دعوته، ولم يلتفوا لذلك ولم يكترثوا به فمازال قائما بدفاعهم وحده»، بينما ينفي ذلك يؤكد ابن بشر مساندة الدولة للشريف غالب في غزوته تلك وأن إبل الدولة ورواحلها كانت من ضمن الغنائم التي أخذها السعوديون: (١٥٢/١).

(٢) للتفصيل في معركة الخرمة ونتائجها : ابن غنام: ٢٤٢/٢ ـ ٢٤٨، ابن بشر ١٥١/١، ١٥٢، دحلان: ٢٦٧. د: عبدالرحيم عبدالرحمن: الدولة السعودية الأولى. ط (٢) مطابع دار نافع، نشر معهد البحوث جامعة الدول العربية ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ص١٣٧ ـ ١٤٨، د: العجلاني: عهد عبدالعزيز: ١٥٤ ـ ١٥٨.

القوة الكبيرة والاستعداد العظيم الذي كان عليه جيش الشريف وخاصة هذه المعركة[1].

واستمرت بعد ذلك اشتراكات الدواسر في الغزوات التي ترسلها الدولة السعودية لتأديب المخالفين أو ضم بلاد جديدة، ففي سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م اشترك الدواسر في جيش بلغ مقداره ثلاثين ألف مقاتل لغزو نجران ـ القوة التي كانت قد غزت الدولة السعودية في أول نشأتها ـ وقد كان بلاء الدواسر فيها حسنا حيث قتل أمير الوداعين إبراهيم بن مبارك بن عبدالهادي، وإدريس ابن حويل الودعاني وعدد من الدواسر، وقد كان لهذه الغزوة الأثر الكبير في توسيع رقعة الدولة جنوبا، وأصبح إمام اليمن يحسب لقوتها حسابا كثيرا خاصة بعد ما خضع رئيس الحديدة وبيت الفقيه للسيادة السعودية[2].

ولا شك أن ولاء الدواسر بصدق وإخلاص يرجع السبب الأول والأخير فيه لصدق وإخلاص ربيع بن زيد الذي لا شك أنه عانى في سبيل تعميم هذا الإخلاص لكافة الدواسر بعد ما كان مقتصرا على فخذه (المخاريم) الشيء الكثير، وقد قدر الأئمة السعوديون لربيع هذا الإخلاص كل التقدير فرفعوه من إمارة فخذ صغير إلى إمارة الدواسر كافة ـ حاضرة وبادية ـ حيث استمر على هذه الإمارة ـ بلا منازع ـ طيلة عهدي الإمامين عبدالعزيز وسعود ليخلفه ابنه

---

(١) إن المطلع على هذه الأحداث ليعجب أن جيش الدولة الرئيس يحارب في الشمال ومع ذلك يتمكن أتباع الدولة السعودية من تحقيق هذا النصر الحاسم على الشريف في هذه الوقعة المهمة ولاشك أن هذا من القبول الذي آتاه الله هذه الدولة وقادتها ولا غرو في ذلك فهم حملة دعوة لتصحيح العقيدة ونشر تعاليم الدين.

(٢) ابن بشر: ١٨٦/١، ١٨٧، الريكي: ١٣٧، د. عبدالرحيم: ١٧٧ وقد فصل علاقة السعوديين باليمن في الصفحات ١٥٧ ـ ١٨٧، واشترك الدواسر في غزوة سعود لكربلاء سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م وفي حجته السادسة سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م. ابن بشر: ١٩٠/١، ١٩٥.

قاعد في عهد الإمام عبدالله بن سعود[1].

أما قحطان فقد بدأت علاقتها بالدولة السعودية حينما غزاها سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م وغنم منها إبلا وأموالا، ويبدو أن هذه الغزوة هي الوحيدة فيما قبل دخول هذه القبيلة في طاعة الدولة، وإذا علمنا أن قحطان لا تقل عن الدواسر قوة بأس وشدة مراس أمكننا ـ إلى حد ما ـ فهم السبب وراء قلة أو ندرة الغزوات التي وجهتها الدولة ضد هذه القبيلة في بداية تكوينها، بل إن سعودا وجنده قد ذهل في هذه الغزوة مما أظهرته قحطان فيها من ضروب البأس والشدة والشجاعة في القتال حتى شد عليهم بجنده وهزموهم[2].

على أنه لم تمض فترة قصيرة حتى قدم أحد أفراد هذه القبيلة وهو هادي ابن غانم ـ المعروف بابن قرملة ـ وذلك سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م على الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام عبدالعزيز وبايعهما على السمع والطاعة على دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم معلنا صدقه مع الدعوة واعداً بأن يجاهد بأفراد أسرته بقية قحطان حتى تخضع لسيادة الدولة السعودية وتنشر فيهم مبادئ الدعوة السلفية[3].

(١) ابن بشر: ١/١٧٧، ٢٣٧، ٢٨١، د: عبدالرحيم عبدالرحمن: ٢٣٦، د: عبدالكريم الغرايبة: قيام الدولة السعودية العربية. مطبعة الجبلاوي، نشر معهد البحوث، جامعة الدول العربية ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ص ٦٨، وقد وهم حين قال إن الولاء للسعوديين اقتصر على ربيع وابنه قاعد إذ لم تشر المصادر إلى هذا الاقتصار وإن الوادي كان مصدر متاعب للسعوديين بل كان الولاء فيه عاما وأبرز مثل لذلك اشتراكهم ـ حتى الوداعين فيما بعد ـ في الجيوش التي يرسلها القادة السعوديون أو تلك التي تتم بأمرهم.

(٢) ابن غنام : ٢/١٢٥، ١٢٦، ابن بشر: ١/٩٨، حسين خلف خزعل: ٣٠٥ وقد ذكر تاريخ الغزوة: ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م.

(٣) ابن غنام : ٢/١٣٠، ابن بشر ١/١٠٠.

ولم يكن هادي من كبار رجالات قحطان ولا مشهوريهم بل كان أحد أفراد فخذ الجحادر إذ لم تشر المصادر حتى إلى ترأسه هذا الفخذ كذلك، إلا أن صفات القيادة كانت موجودة لديه فيما يبدو، فاجتمعت هذه الصفات فيه مع الصدق والإخلاص في الولاء للدولة السعودية الأولى حتى استطاع أن يضم قحطان إلى طاعة هذه الدولة مشكلا منها قوة للجيش السعودي حيث أبلت قحطان بلاء حسنا في الغزوات التي قامت بها أو أمر ببعثها القادة السعوديون[1].

ويقرر صاحب اللمع أن هذه القبيلة قد بان منها النصح والإخلاص للدولة السعودية منذ مبايعة هادي ومن معه على السمع والطاعة مما جعلهم لا يقلون في ذلك عن بعض القبائل البدوية التي تابعت الدولة السعودية بصدق وإخلاص حيث إنهم قد أخلصوا في تبني المبادئ السلفية والخضوع التام للسيادة السعودية، ومنذ الوهلة الأولى لهذه البيعة وهم قد ألزموا أنفسهم الغزو باسم الدولة السعودية فيما والى بلادهم من الحجاز وتهامة واليمن وحتى أطراف حضرموت، ولم يفتروا عن هذه الغزوات منذ تلك الوهلة رغم وجود خروج عن ذلك مع بعضهم في فترات تخلت فيها القبائل البدوية أو بعضها عن هذا الولاء[2].

وتؤكد الأحداث التاريخية صدق هذا التقرير عن هذه القبيلة إذ في سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م، وفي الغزوة التي غزاها قاعد بن ربيع الدوسري ضد بني هاجر كما مر اشترك هادي بن قرملة معه فيها بجموع من قحطان وثبت معه على حين انخذل عنه قسم كبير من الدواسر أنفسهم كالرجبان والوداعين[3].

---

(١) ابن غنام: ٢/١٣٠، ١٣١.

(٢) الريكي: ٦٥، ابن بشر: ١/١٠٨.

(٣) ابن غنام: ٢/١٤٣، ١٤٤، ابن بشر: ١/١٠٧.

وتدل هذه الغزوة وغيرها من التي اشترك فيها الدواسر مع قحطان في الغزو باسم الدولة السعودية على صدق الطاعة للأئمة السعوديين في هاتين القبيلتين إذ استطاعت مبادئ الدعوة السلفية وجهود الدولة التوحيدية أن تجمع بينهما وتزيل ما كان بينهما من أحقاد وضغائن ورثته تلك الحروب والمناوخات[1] الكثيرة التي كانت تقوم بينهما - في فترة ما قبل قيام الدولة السعودية الأولى نظرا لقرب مرابعها من بعضها[2]، واستطاعت هذه المبادئ بقوتها وبحزم الدولة في جهودها التوحيدية وبعزم القبيلتين ممثلتين في ربيع وهادي على الإخلاص للدعوة وتناسي كل شيء في سبيلها، استطاعت هذه المبادئ وهذا الحزم والعزم أن يحولا القوة والشجاعة التي اشتهرت بها هاتان القبيلتان إلى قوة لنشر الدعوة وتوسيع رقعة السيادة السعودية في جنوبي شبه الجزيرة، وهذا ما يؤكد أن أئمة الدولة السعودية كانوا حريصين على التآخي بين القبائل في سبيل نشر الدعوة، وتحقيق الأمن والنظام في ربوع نجد.

ولما أرسل الشريف غالب جيشه بقيادة أخيه عبدالعزيز في السنة نفسها لغزو نجد كما مر تابعه قسم من قحطان وخاصة عندما نزل السر ورأت القبائل النجدية كثافة جيشه الذي عقد العزم به على القضاء على الدولة السعودية[3]،

---

(١) المناوخات: جمع مناوخة أصلها فصيح من أناخ الإبل إذا أجلسها، ونوخت الإبل جلست والمقصود به هنا المصافة للقتال، وحدوث هذا القتال فعلاً، فهو يطلق على زمن المعركة ومكانها، ويقال نوخ: أي هجم، ويكثر استعمال هذا التعبير لدى مؤرخي نجد، وعلى سبيل المثال: انظر: (المنقور: التاريخ: ٨١، الفاخري: ٦٧، ٧٢، ٩٤).

(٢) ذكر البسام في تحفته المخطوطة عددا من هذه الحروب والمناوخات في فترة ما قبل الدعوة وتكاد لا تمر سنة إلا ويحدث فيها مناخ أو أكثر بين هاتين القبيلتين يقتل فيها من زعمائهما وفرسانهما عدد كبير انظر (التحفة: الورقات: ١٣، ٣٧، ٤٤، ٥١، ٦١) وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

(٣) ابن غنام: ١٤٧/٢، ابن بشر: ١٠٨/١، الريكي: ٩٦: دحلان: ٢٦٥.

إلا أن فشل هذا الجيش والمدد الذي جاء إليه بقيادة الشريف غالب نفسه في تحقيق أي هدف من أهدافه جعل هذا القسم من هذه القبيلة يرجع عن تأييده للشريف كما رجعت عن ذلك أغلب بادية نجد، إضافة إلى أن قحطان قد تعرضت بعد انصراف الشريف وجيشه إلى مكة لغزو تأديبي من إحدى مفارز الجيش السعودي الذي جاء لملاقاة الشريف، ثم لتأديب القبائل التى أيدته بعد ذلك حيث أغارت هذه المفرزة على قحطان وأخذت عليهم إبلا أراد استردادها بعض فرسان قحطان، فالتحمت هذه المفرزة بهم وحصل قتال بين الطرفين هزمت قحطان على أثره وأخذ السعوديون منهم خمسة عشر فرسا[١].

وعدا هذه الغزوة التي كانت بسبب هذا التأييد للشريف والذي حصل من كثير من قبائل نجد، فإن قحطان قد عوضت عن ذلك بكثرة الغزوات التي قامت بها أو اشتركت فيها بقيادة ابن غنام سواء كان ذلك لتأديب مناوئين نجديين حضرٍ وبدوٍ أو لفتح بلدان جديدة خارج منطقة نجد.

وتعتبر معركة العدوة التي مر ذكرها أول اشتراك فعلي لقبيلة قحطان بشكل كبير بعد ثبوت ولائها للدولة السعودية حيث قاد هادي قسما كبيرا من قحطان للاشتراك مع جيش الدرعية بقيادة سعود بن عبدالعزيز، ويبدو أن هاديا وجموعه قد أبدوا في هذه الغزوة من ضروب البسالة في محاربة بعض القبائل المناوئة ما جعل شأنهم يشتهر في شبه جزيرة العرب بالولاء لآل سعود فضلا عن أن ذلك أعطى لهادي نفسه صيتا كبيرا لدى الأئمة السعوديين حيث عد من كبار قادتهم وولاتهم[٢].

---

(١) ابن غنام: ٢/١٥٠، ابن بشر ١/١٠٩، الريكي ، ٩٨، وذكر فيها أن قحطان التجأت بالإمام عبدالعزيز وطلبت منه الأمان والعفو عن اشتراكها مع الشريف فقبل منهم ذلك.

(٢) سبق ذكر مصادر موقعة العدوة، وعن اشتراك قحطان فيها: الريكي ٩٩.

وتوالت بعد ذلك غزوات قحطان بقيادة هادي بن غانم لتأديب القبائل المناوئة، فقد مر بنا أن مطيراً قد تعرضت لغزوة من هذه القبيلة ١٢٠٦هـ بقيادة هادي وبأمر من الإمام عبدالعزيز بن محمد حيث هزمتهم قحطان وأخذت بعض إبلهم، وقد اشترك مع قحطان عدد من البدو التابعين للدولة إلا أن القيادة والعدد الأكثر لهذه القبيلة، كما أن هذه القبيلة اشتركت في جيش الدولة الذي أغار على بوادي بني هاجر سنة ١٢٠٨هـ كما مر[1].

وقد شكل الثنائي الدوسري القحطاني قوة رئيسة في الجيش الذي أمر بتشكيله الإمام عبدالعزيز بن محمد من بوادي نجد وحاضرتها لملاقاة الشريف غالب سنة ١٢١٠هـ في عالية نجد، وذلك عندما أرسل هذا الشريف جيشا لغزو نجد التحم به الجيش السعودي حتى انهزمت جموع الشريف وكان لهادي وجنوده من قحطان دور رئيس في هذه الهزيمة فقد استطاعوا أخذ إبل كثيرة منه علاوة على خيمته ومدفعه مما عجل بهزيمته وتفرقت البوادي التي كانت معه وعاد إلى مكة، وكان الإمام عبدالعزيز قد أرسل مددا لهذا الجيش إلا أن هاديا استطاع أن ينهي المعركة لصالح الدولة السعودية قبل وصول المدد، وكانت هذه المعركة كسابقتها القيادة والأكثرية فيها لقحطان ثم الدواسر وبقية القبائل الأخرى[2].

وقد اشتركت قحطان ضمن البوادي التابعة للدولة في صد الهجوم الكبير الذي قام به ثويني بن عبدالله لغزو الدولة والذي لم يكتب له النجاح

(١) ابن غنام : ١٥٧/٢، ١٦٩، الفاخري: ١٢٤: ابن بشر: ١١١/١، ١٣٢.

(٢) ابن غنام : ١٧٣/٢، ١٧٤، والفاخري: ١٢٧، ابن بشر: ١٣٥/١، ١٣٦، دحلان : ٢٦٥.

حيث قتل ثويني ولم يصل إلى نجد وذلك سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م[1].

وكان لقحطان دور رئيس في تأديب القبائل الحجازية أو ما بين منطقة الحجاز ونجد والتي كانت تؤيد الشريف في غزواته على نجد ففي سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م غزت قحطان برئاسة هادي قبيلة البقوم الحجازية وكان أغلبها معروفا بالولاء للشريف، وهزم البقوم بعد قتل عدد من رجالهم، ثم بعد شهرين أعادت قحطان الكرة على البقوم حيث غنمت الأولى من الثانية عددا من الإبل والغنم وقتلت بعض الرجال[2].

ولعل أبرز دور قام به الثنائي الدوسري القحطاني هو الاشتراك الرئيس في معركة الخرمة التي مر ذكرها والتي كانت بإجماع المؤرخين الحجازيين والنجديين وغيرهم أعظم المعارك التي دارت رحاها بين الشريف غالب والدولة السعودية وكان لهذا الثنائي الدور الرئيس في هزيمة جيش الشريف هزيمة شنعاء كما مر، وقد صور الشريف راجح[3] هذا الدور وشدة بأس الدواسر

---

(١) ابن بشر: ١/١٤٢، ابن سند: مطالع السعود: الورقات: ١١٢، ١١٣، ١١٧. الفاخري ص ١٢٧ وقد حدد مقتله في الرابع من محرم سنة ١٢١٢هـ.

(٢) ابن غنام : ٢/٢٤٣، ابن بشر: ١/١٤٩.

(٣) هو الشريف راجح بن عمرو الشنبري، من أبرز القادة الأشراف أرسله الشريف غالب سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م على رأس كوكبة من الفرسان والرماة لصد غارة قام بها قسم من قحطان بقيادة سعد بن قرملة أخي هادي بن قرملة حيث انهزم القحطانيون وقتل سعد وغنم راجح منهم غنائم كثيرة، كما غزا سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م قوما من بني لحيان كانوا تابعين للدولة السعودية فهزمهم وغنم منهم، وفي سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م نجا من هجوم فرسان سعوديين أرسلهم المضايفي لنهب إبل الشريف، وكان الشريف غالب قد أرسله على رأس ستة من الخيالة لطرد فرسان المضايفي حيث لم ينج غيره، واشترك في أولى غزوات حملات محمد علي على الطائف مع ابن الشريف غالب سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م كما اشترك في غزوة لجيش محمد علي على تربة في السنة نفسها، وفي ذي القعدة من هذه السنة قبض محمد علي، على الشريف غالب وأراد أن ينصب راجحا على شرافة مكة فخاف منه أن يعمل به ما عمل بغالب فهرب إلى تربة =

والقحطانيين وقوتهم وشجاعتهم في هذه المعركة بالبيتين التاليين:

جونا الدواسر مع فريـق القحطانين　　كلـنا لهـم بالمد وأوفـوا لنا الـصاع

الأشراف لا نوعقب مـا هم بقاسين　　والشق مـا يرفاه خمسة عـشر باع[1]

= حيث اشترك في معارك البقوم التي هزمت جند محمد علي بتأييد من راجح وجند الشريف غالب الهاربين إليها، ثم صالحه محمد علي سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م بأموال كثيرة ومرتبات معلومة حتى أصبح من كبار جنده ومستشاريه، فبعثه إلى رنية سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م حيث دمر ثغورها السعودية وبعض بيوتها، واستطاع في السنة نفسها أن يحقق رغبة عزيزة عند محمد علي في القبض على طامي بن شعيب المتحمي أمير مقاطعة عسير للدولة السعودية وذلك بحيلة ودقة تدبير بعد أن عجز عنه في الحروب، وفي سنة ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م قتل الشريف راجح في معركة بين الأشراف الموالين لمحمد علي وقبائل عسير التي مقتت حكم محمد علي، للتفصيل في هذه النبذة: (ابن بشر: ٢١٥/١، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٤٦، أحمد دحلان: خلاصة الكلام: ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩١، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤، د. عبدالرحيم المرجع السابق: ص٣١١، ٣١٢، د: منير العجلاني: عهد سعود بن عبدالعزيز: ١٣٧ ـ ١٤١، ١٤٥، عهد عبدالله بن سعود ص٤٢، ٤٣).

(١) جونا: تحريف من جاؤنا، القحاطين: عامية من القحطانيين، الصاع: مكيل يعادل ثلاثة أكيال تقريبا، والمد: ثلثه، لا نوا: من اللين بمعنى التسامح، عقب: بعد، ما هم بقاسين: أي بعد ما كانوا متشددين، الشق: الفتق أو الخرق، يرفاه: من الرفأ (فصيحة) بمعنى خياطة الشقوق في الثوب، باع: مقياس طولي يعادل مترين. (الفاخري: ١٢٩، ابن بشر: ١٥٢/١) على اختلاف بسيط بينهما في رواية البيتين، ويروي ابن بسام في تحفة المشتاق ورقة : ٩٨ البيت الأول كالتالي:

جينا الدواسر مع فريق القحاطين　　كلنا لهم بالمد وأوفوا لنا الصاع

ويروي بعض الدواسر الشطر الأول: «جونا الدواسر مثل ورد محمين» ويكملون بقية البيتين كما وردا مؤكدين أن قحطان لم يكن لها دور رئيس في هذه المعركة بل أي دور على الإطلاق، وهذا يخالف ما هو مشهور في المصادر التاريخية لتلك الفترة سواء النجدية أم الحجازية التي تؤكد على دور قحطان الرئيس في هذه الغزوة بل في أغلب المعارك بين الشريف غالب والدولة السعودية الأولى: ويروي بعض الدواسر سببا آخر لهذه الغزوة ملخصه أن شخصا هرب من الشريف ولجأ إلى سبيع الخرمة فرفضوا ذلك فلجأ إلى الدواسر فحموه ومنعوا الشريف من الوصول إليه فشن الشريف عليهم هذا الجيش ولاشك أن هذا اختزال لأسباب هذه المعركة وملابساتها المعروفة والله أعلم. (إفادة من أحد أفراد قبيلة الدواسر، وهو يحفظ عددا من القصص والأبيات الشعبية القديمة مما ليس موجودا في المصادر المتوافرة ومما سيرد ذكر بعضها).

وسواء كان الشريف راجح قد قال هذه الأبيات بعد الهزيمة مباشرة أو بعد ما رأى أهم نتائجها وهي الصلح بين الإمام عبدالعزيز والشريف غالب وما ترتب على ذلك من الإسراع في ضم الحجاز، سواء كان هذا أو ذلك فإن هذين البيتين يصوران أثر هذه الهزيمة الكبير أمام تلك المعارك التي كان الشريف يشنها على هذا الثنائي ـ وخاصة قحطان ـ كما سيأتي، مما تعتبر معه هذه المعركة بنتيجتها قد عوضت قحطانا عن كافة الضربات التي تلقتها من جيش الشريف على مدى غزوات متعددة، كما أن هذين البيتين قد أوجزا النتائج والآثار التي ترتبت على هذه المعركة بما لا يمكن تغطيتها أو إصلاح ما قضت عليه أورد ما أضاعته من الرجال والمال والمعنويات، مما أثر على نفسية الشريف غالب والأشراف عموما في اتباع أسلوب اللين والمهادنة مع الدولة السعودية بعد أن كانوا لا يرضون معها بالحرب بديلا[1].

وبعد هذه المعركة العظمى أرسل قادة الدولة جيشا قوامه الدواسر والقحطانيين وفيه غيرهم لكن الكثرة والقيادة فيهم وذلك سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م بقيادة ربيع بن زيد الدوسري وهادي بن غانم القحطاني حيث سار الجميع إلى بيشة وحاصروها واستولوا على قراها بعضها بالصلح وبعضها بالعنوة وذلك بسبب تحول أهلها عن ولاء آل سعود إلى الشريف قبيل معركة الخرمة[2].

وكان لقحطان دور في ضم الطائف سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م حيث

---

(١) الفاخري : ١٢٩ من حاشية المحقق. وتسمى هذه المعركة بمعركة الخرمة الأولى تمييزاً لهم عن معركة الخرمة الثانية في عهد الملك عبدالعزيز والتي مهدت هي الأخرى لضم الحجاز كذلك.

(٢) ابن بشر: ١٥٧/١، مؤلف مجهول: ١١٩.

اشترك جيش من هذه القبيلة برئاسة هادي ضمن القبائل البدوية النجدية والحجازية التابعة للدولة، وقدتمكنت هذه الجموع من دخول الطائف عنوة، وهرب الشريف غالب إلى مكة، وكان ضم الطائف بهذه الصورة إيذانا بدخول مكة بل الحجاز كله[1].

وعدت قحطان قوة رئيسة في الجيش الذي أمر بتشكيله وتجميعه القادة السعوديون سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م لتأديب من حصل منهم خلاف من أمراء منطقة عسير حيث سار هادي بن قرملة بكافة قحطان واجتمع مع من أرسلتهم الدرعية من قبلها أو أمرت عليهم أبناء منطقة عسير المؤيدين لها حيث شكل القحطانيون قوة كبيرة في هذا الجيش الذي التقى بالمناوئين وهزمهم وغنم منهم غنائم كثيرة، كما اشتركت قحطان مع الجيش الذي غزا اليمن سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م حيث غنم منها غنائم متنوعة[2].

وفي سبيل هذا التأييد المطلق للدولة السعودية، وهذا العدد الكبير المتعدد الجهات من الغزوات في سبيل الدعوة وتوطيد أركان هذه الدولة فقد تعرضت قحطان لكثير من الغزوات من مناوئي الدولة من القوى غير النجدية، وتركز انطلاق هذه الغزوات التأديبية من أشراف الحجاز حيث كانت منطقة قحطان تقرب من مناطق نفوذ الأشراف مما جعل الغزوات التي تقوم بها قحطان أو تتعرض لها تتركز فيها بين الحجاز ونجد، وفي نطاق ذلك فقد كانت أخبار الغزوات الشريفية ضد القبائل المناوئة لها لا تخلو من ذكر لقحطان بمختلف أفخاذها بل يلمح الباحث تركز هذه الغزوات الشريفية عامة قحطان في الغالب.

وإذ لا مجال للتفصيل في هذه الغزوات فلابد من ذكر أمثلة لها تبين

---

(١) الفاخري: ١٣٢، وابن بشر: ١/١٦٢، وعن نظرة المؤرخين الحجازيين لضم الطائف انظر (دحلان ٢٧٣ - ٢٧٥).

(٢) ابن بشر: ١/١٩٤، ٢٠٠.

معاناة قحطان من كونها تقطن على حدود ألد أعداء الدولة السعودية في شبه الجزيرة وهم الأشراف علاوة على أن هذه القبيلة قد شكلت بتكثيفها الغزوات ضد الأشراف العدو الأول في القبائل النجدية للأشراف.

ومن هذا المنطلق فإن جل الغزوات الموجهة من الدولة السعودية ضد الأشراف تشكل فيها قحطان النسبة الكبرى كما مر، وفي المقابل فإن أغلب الغزوات التي كان يشنها الأشراف ضد السعوديين أول من يتضرر منها قحطان بمختلف أفخاذها.

وما من شك في أن اعتقاد قحطان بمبادئ الدعوة، وتحمسها لها، وولائها الصادق للدولة السعودية كانا - بادئ ذي بدء - الأسباب الرئيسة وراء شن الأشراف الغزوات المتلاحقة على هذه القبيلة بغض النظر عن الغزوات التي قامت بها أو اشتركت فيها ضمن الجيش السعودي ضد الأشراف الذين كان من ضمن ما يدفعهم لشن مثل هذه الغزوات كذلك - فيما يبدو - اعتقادهم أن قحطان من القبائل التي يجب أن تتبع في ولائها السيادة الشريفية.

وإذا كانت مصادر التاريخ النجدي تشح علينا بمثل هذه الغزوات على عكس التي كان يقوم بها السعوديون أو مؤيدوهم ضد الأشراف فإن مصادر التاريخ الحجازي تبرز مثل هذه الغزوات التي يبعثها الأشراف ضد القبائل المؤيدة للدعوة، فعلى سبيل المثال وتأديبا لقحطان على دخولها في طاعة آل سعود بعث الشريف غالب سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م غزوة قوامها عتيبة والبقوم وغيرهما، وذلك لمقابلة أحد أفخاذ قحطان حيث حصل بين الطرفين ملحمة أخذ بعدها جيش الشريف إبل قحطان ثم كرت عليه قحطان فهزمته ولكنها لم

تستعد إبلها[١] .

وفي سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م جهز الشريف غالب جيشا بقيادة أخيه عبدالمعين حيث اشتركت فيه كثير من القبائل الحجازية علاوة على الجند النظامي، وكان هدف هذا الجيش هادي بن غانم الذي كان مقيما مع قومه في أحد المواضع قرب الطائف، وكان هادي قد أنذر بالجيش ففر هاربا إلى نجد فحول عبدالمعين هدفه إلى القبائل والبلدان قرب الطائف والتي دخلت في طاعة السعوديين - ربما بتأثير هادي - حيث استطاع عبدالمعين القيام بعدد من الغزوات ضد هذه القبائل والبلدان بعد أن كان هدفه الوحيد هادي وجماعته[٢] .

وفي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م أرسل الشريف غالب جيشا لتأديب القبائل الخارجة عن طاعة الأشراف والمؤيدة لآل سعود، ولما كانت قحطان هي التي لها التأثير الأكبر في هذا المجال، فقد قصد هذا الجيش آل روق[٣] منها حيث قتل منهم عددا كبيرا وأخذ من قطائع إبلهم ثم رجع إلى مكة[٤] .

ولعل من أبرز الغزوات التي وجهها الشريف غالب ضد قحطان تلك الغزوة التي كانت في السنة السابقة ١٢١٠هـ، بل بعد مضى أقل من شهرين على الغزوة الأولى، وكان هدف هذه الغزوة مجموعة أفخاذ من قحطان

---

(١) دحلان : خلاصة الكلام ص٢٦٣، ويبدو أن اشتراك عتيبة في هذا الجيش ضد قحطان كان من ضمن دوافعه منافسة قحطان على أهم مناطق نجد الرعوية وهي عاليتها، مما يجعل هذه الغزوة وما شابهها تدخل في نطاق الغزوات التي أثرت على الوضع القبلي في نجد.

(٢) المصدر السابق : ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) آل روق أحد فخذي آل الأبيطن من آل محمد من قحطان، يربعون أحيانا قرب ضرما: (ابن بشر: ١١٥/٢، حمد الجاسر: قبائل المملكة ١٦/١).

(٤) دحلان: المصدر السابق : ٢٦٤.

اتخذت ما بين الطائف ونجد مسرحا لغزواتها التي تهدف من ورائها كسب التأييد والمال للدولة السعودية، وفي البداية قبض جيش الشريف على ثلاثة جواسيس يتنطسون الأخبار لهادي بن غانم حيث أخبر أحدهم بعد قطع رأسي صاحبيه بموقع ابن غانم وجنده، فجد جيش الشريف في طلبه حتى التقى الجمعان فهزم هادي بعد أن قتل من قومه ما يقرب المائة رجل، وبعد ذلك مباشرة التقى الجيش الشريفي بفخذ آخر من قحطان تابع للدولة السعودية فأغار عليه وقتل عددا من رجاله، واستولى على عدد من الإبل، وكان آخر مراحل هذه الغزوة أخذة فخذ كبير من أفخاذ قحطان كان غازيا لبعض القبائل في تلك المنطقة برئاسة شيخه الذي وجه هذه الغزوة باسم الدولة السعودية والتقى به جيش الشريف فقتل من رجاله خمسة وأربعين وأسر زعيمه وعدداً من جنده، واستولى على قطائع من الإبل، وقلائع من الخيل[1] ولعل أبرز ما ميز هذه الغزوة الشريفية قصر وقتها، إضافة إلى شمولها لعدد من بطون قحطان ممن كانت تؤدي أدوارا رئيسة فيما بين الحجاز ونجد لضم قبائل وبلدان إلى الدولة السعودية وكل بطن منها يعمل لتحقيق دوره على انفراد.

ويبدو أن هاديا وفخذه كان هدفا رئيسا لغزوات الأشراف ضد قحطان باعتباره أول المؤيدين للدولة السعودية، وعلى أساس أنه وجماعته أكثر قحطان إخلاصا لهذه الدولة وحرصا على تكثيف الغزوات في سبيلها وضم أكبر عدد ممكن من القبائل والبلدان لها، ففي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م غزا الجيش الشريفي جماعة من قحطان برئاسة هادي حيث حصل بين الطرفين مقتلة عظيمة أخذ فيها جيش الشريف فرس هادي الخاص، وإبلاً كثيرة له وجماعته[2] .

---

(١) المصدر السابق : ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق : ٢٦٥.

وقد برز في هذه الغزوات الشريفية القحطانية أكثر من قحطاني أثبتوا جدارتهم في قيادة الجيوش الصغيرة والكبيرة التي كانت تبعثها حكومة الدرعية أو تأمر بتشكيلها من أبناء القبائل الموالية لها، فقد أمد سعود حامية الطائف بجنود تحت قيادة سعد بن قرملة، وذلك حينما أرسل الشريف غالب مجموعة لمحاصرة الطائف والتضييق على حاميتها السعودية فتصدت لهم الحامية بدعم من سعد بن قرملة مما اضطر جند الشريف إلى الارتحال إلى مكة، ودخلت ثقيف في طاعة الدولة السعودية بعد أن كانت تشكل نسبة كبيرة في تلك المجموعة الشريفية[1].

ولقد تعرضت قحطان لمذبحة في إحدى غزواتها على الحجاز حينما بعث الشريف غالب قوة بقيادة الشريف راجح بين عمرو الشنبري عندما ذكر له أن عشرين من الخيالة التابعين لآل سعود ينهبون من البادية المؤيدة للشريف فأقبل الشريف راجح بأربعة عشر فارسا وعشرين من الرماة حيث رأى خمسمائة نفر من قحطان ـ ربما كانوا تابعين لأولئك الخيالة ـ فثار بينه وبينهم حرب لم تلبث قحطان بعدها أن هزمت هزيمة شنيعة، وكانت هذه المجموعة القحطانية بقيادة سعد بن قرملة الذي قتله الشريف راجح في هذه الغزوة، وقتل جنده كثيرا من قحطان بعد أن غنموا منهم إبلاً وفيرة وخيلاً كثيرة وأسلحة متنوعة[2].

وما من شك في أن ولاء قحطان الشامل للدولة السعودية يرجع السبب فيه لإخلاص وصدق هادي بن غانم في نشر مبادئ هذه الدعوة وتحقيق الولاء

---

(١) المصدر السابق: ٢٨١.

(٢) المصدر السابق: ٢٨٣، ٢٨٤، ولقد كانت قحطان في الغالب تدين بالولاء للشريف قبل الدعوة مثلها في ذلك مثل القبائل الحجازية وبعض القبائل الأخرى في عالية نجد في تلك الفترة كعتيبة وحرب، (د: الفرايبة ٨٢).

لحكومتها، وهو في سبيل ذلك قد دفع بـأفراد أسرته وخاصة أخيه سعد لقيادة المجموعـات القحطـانية الغازيـة لمناوئي الـدولة السعوديـة. ويختلـف وضعه الاجتماعي فـي قبيلته بعد الـدعوة عن ربيع بن زيد في الـدواسر، إذ لم يشر المؤرخون إلى اختلاف قحـطان عليه مما يبدو معه أن مشايخهـا كانوا يدينون له بالطاعة على أساس أنه ممثل الدعوة ودولتها فيهم بغض النظر عن غمور مركزه القيادي السابـق فيهم، بينما اختلـف الدواسر على ربيع وهو أمير فـخذ منهم فكثـر معارضوه ومـحاربوه، فعانـى من ذلك أكثر مـن معاناة هـادي، ولكن الاثنان لقيا من أئمة الدولة السعودية كل التـقدير في تعيينهما أمراء عامين على قبائلهم، وإن كان ربيع يختلف عن هادي في كونه أميرا بدويا حضريا له مركز ثابت فـي وادي الدواسر بينـما كان هادي أميرا بـدويا وذلك بحكـم اختلاف الوضع الاجتماعي بين القبيلتين حيث كـانت الدواسر فيها حاضرة وبادية بينما كان قحطان على الأغلب قبيلة بدوية في تلك الفترة[1].

ويمثل ولاء قحطان الشامل للدعوة وتفانيها في سبيل نشر مبادئها وتحقيق السيادة للدولة الـسعودية عاملا من ضمن العوامل الـتي أدت إلى دخول بعض القبائل الحجازية النجدية في طاعة هذه الدعوة[2] وخاصة عتيبة بغض النظر عن الأسباب الكـامنة وراء هذه الطاعة من جـانب القبائل الحجازيـة هل كان ذلك عن اقتناع بالدعوة أو كان ذلك بسبب الغيرة من قحطان؟ وربما لمحاولة التسلل إلى عالية نجد والاستيلاء على أهم مرابعها وطرد قحطان منها كما حصل ذلك من عتيبة فعلا.

---

(١) ابن بشر: ٢١١/١ وتولى رئاسة قحطان بعد هادي ابنه محمد. (ابن بشر ٩٠/٢).

(٢) لعل لالتزام قحطان في مبايعتها لآل سعود بإخضاع من تستطيع إخضاعه من قبائل الحجاز دور كبير في هذا. (الريكي: ٦٥).

إلا أن عوامل أخرى قد دفعت ببعض القبائل الحجازية النجدية للدخول في طاعة السعوديين لعل أبرزها تقريب الأشراف للعناصر الأخرى في الحجاز من أبناء العالم الإسلامي الذين يقيمون في الحجاز إما للمجاورة أو بعد الحج حيث شكلوا جيشا نظاميا للشريف علاوة على تبوئهم المراكز الإدارية بحكم معرفتهم السابقة في بلادهم مما جعل الأشراف والقبائل الحجازية يتبادلون العداء في أغلب الفترات وإن كان الأشراف قد يصطفون قبائل أو أفخاذاً أحيانا.

وسواء كانت هذه العوامل أو غيرها وراء دخول هذه القبائل تحت السيادة السعودية، فإن مبادئ الدعوة السلفية قد تغلغلت في قبيلتين من كبار القبائل الحجازية هما عتيبة وحرب اللتين يمكن اعتبارهما من أبرز القبائل التي لها وجود في نجد كما لها كيان في الحجاز، ذلك أن عتيبة كانت تتسلل إلى مرابع نجد من جهة الطائف، بينما كانت حرب تفد إلى نجد ويقطن بعض أفخاذها فيها من جهة المدينة وذلك منذ فترة متقدمة جدا عن قيام الدولة السعودية(١)، وقد استطاعت مبادئ الدعوة أن تصرف قسما كبيرا من هاتين القبيلتين عن الولاء للشريف إلى الولاء للأئمة السعوديين من دون تدخل مباشر منهم، وهذا من القبول الذي آتاه الله هذه الدولة في ولاء هاتين القبيلتين المهمتين.

أما عتيبة: فبحكم كون أغلبها حجازيا في فترة ماقبل قيام الدولة السعودية فقد والت حكم الأشراف، وبحكم التنافس بينها وبين قحطان على المراعي بين الحجاز ونجد فقد شكلت في البداية مناوئاً بارزاً للدولة التي كانت قحطان تغزو منطقة الحجاز باسمها، وأبرز مظاهر هذا اشتراكها في الحملات التي يقوم بها الأشراف لغزو منطقة نجد أو القبائل الموالية لآل سعود فيما بين الحجاز ونجد وخاصة قحطان، إضافة إلى غزوها بنفسها لقحطان يدفعها إلى

(١) فهما على هذا الأساس قبيلتان نجديتان.

ذلك ولاء قحطان للدعوة والدولة، وشنها الغزوات باسمها ضد القبائل والقوى الموالية لها، علاوة على منافسة عتيبة لقحطان في الاستيلاء على تلك المرابع.

ولعل أول مظهر لموقف عتيبة في البداية هو اشتراكها في أول غزوة شنها الأشراف في عهد غالب ضد الدولة السعودية سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م كما مر حيث شكل أفرادها قوة في جيش الشريف بالإضافة إلى الجيش النظامي والقبائل الحجازية الأخرى، إلا أنه لما لم يكتب لهذه الحملة النجاح تفرقت الجموع القبلية عن الشريف حيث رجع إلى مكة بجيشه النظامي، ويبدو أن هذه الغزوة كانت فرصة لعتيبة للزحف عن مواطنها قليلا باتجاه أطراف نجد من جهة الطائف تمهيدا للاستيلاء على عالية نجد فيما بعد[١].

وقد اشترك قسم من عتيبة في الغزوة التي بعثها الشريف غالب سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م والتقى بأفخاذ من قحطان دخلت في طاعة آل سعود كما مر، وكانت هذه الغزوة التي اشتركت فيها قبيلة البقوم مع عتيبة وجيش شريفي نظامي تهدف إلى تأديب من بايعوا الدولة السعودية من قبائل شرقي الطائف عامة إلا أنها وقد لقيت فخذا من قحطان فقد جعلته هدفها الرئيس نظرا لدور قحطان الكبير في دخول هذه القبائل في تبعية الدولة السعودية[٢].

ولما رأت عتيبة تأديب الدولة السعودية للقبائل النجدية وغيرها ممن أيدت الشريف في غزوته لنجد طلبت الأمان من الإمام عبدالعزيز والعفو عن جريرة اشتراكها في تلك الحرب فقبل منها تألفا لقلوبها في الطاعة، وحتى يحين

(١) المصدر السابق: ٩٦، ٩٩.

(٢) دحلان: ٢٦٣

موعد هذه الطاعة فقد قبل منهم ذلك بلا قيد أو شرط [1].

على أن البادية النجدية التابعة للدولة أخذت تغزو الحجاز وتركز على البوادي فيما بين الحجاز ونجد، وكان كل ذلك بعلم الإمام عبدالعزيز، وبأمره أحيانا، وأحيانا كان يبعث جيشا مكونا من الحاضرة والبادية إما لينضم إلى هذه البوادي المؤيدة، أو ليغزو بنفسه بوادي الحجاز، ففي السنة السابقة تشكل جيش سعودي مكون من أهل الوشم والبوادي النجدية المؤيدة وأمرهم الإمام عبدالعزيز أن يقصدوا بوادي الحجاز وخاصة عتيبة بعد أن تحولت إلى أطراف نجد من جهة الحجاز حيث وقع بين الجيش السعودي وهذه القبيلة قتال شديد هزم فيه السعوديون وأخذت عتيبة منهم مائة ركيبة وقتلت عددا من رجالهم على أنه قتل منها هي الأخرى عدد من الرجال[2]، وليس من المعروف سبب هذه الغزوة وهل كانت عتيبة قد نقضت ماعاهدت عليه الإمام عبدالعزيز أو أن هذه الغزوة قد وجهت نحو قسم منها لم يعاهد، أو أن هذه الغزوة في نطاق الغزوات التي تبعثها الدولة لكسب المال، وإبراز قوتها أمام القبائل الأخرى، وذلك حتى تهاب هذه القوة تمهيدا لتقديم مظاهر الطاعة من قبل هذه القبائل للسعوديين.

وفي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م غزا جيش من أهل الوشم وغيرهم قبيلة عتيبة حيث التقوا بقسم منها هزموه وأخذوا منه إبلا كثيرة، وكان هذا القسم مقيما على أحد موارد المياه في طريق الحجاج[3]، ويلمح الباحث من هاتين الغزوتين تحمس أهل الوشم لغزو عتيبة تنفيذًا لأوامر الدولة، على أنه يبدو أن

---

(١) الريكي: ١٠٠.

(٢) ابن بشر: ١/١٣١، ١٣٢.

(٣) ابن بشر: ١/١٣٤.

لذلك بعض الأسباب الأخرى التي ربما كان أقربها تعرض منطقة الوشم للنهب والسلب التي تستتبع الغزوات العتيبية بل وقطون قسم من عتيبة في مرابع منطقة الوشم والذي ازداد فيما بعد حتى أصبحت عتيبة تشكل أغلب بادية هذه المنطقة في الوقت الحاضر.

على أن الدولة السعودية لم تكتف بهذين الجيشين لتأديب هذه القبيلة على عدم دخولها في الطاعة، وولائها للأشراف؛ فأرسلت في السنة نفسها جيشا بقيادة سعود بن عبدالعزيز حيث أغار على أخلاط مجتمعة من عتيبة ومطير في الحرة والتقى الجمعان فيها فهزمهم جند سعود ولم يحل بين سعود واستمرار القتل فيهم إلا أنهم توعروا في الحرة ولم يستطع السعوديون اللحاق بهم والمشي في حجارتها فتركوهم ورجعوا، وكانت حصيلة هذه الملاحقة مقتل زعيم هذا التجمع (أبو محيور العتيبي) وأحد رؤساء مطير مع ثلاثين من رجاله، وقتل من السعوديين رئيس الخيالة بعد أن غنموا من هذا التجمع البدوي عددا من الإبل والأغنام والأمتعة[1] .

ويبدو أن قسما كبيرا من عتيبة قد التزم بعهد الأمان الذي تم بينه وبين الإمام عبدالعزيز بل اشترك مع الجيش السعودي الذي تشكل من هذا القسم من عتيبة برئاسة محمد بن حمود بن ربيعان، وفيصل الدويش مع قسم كبير من مطير وعدد من بوادي نجد، وكانت القيادة العامة لهادي بن غانم، وتقابل هذا الجيش مع الأشراف في عالية نجد في العشر الأواخر من السنة السابقة

(١) ابن غنام: ٢/١٧٢، ولم يذكر مطيرا مع عتيبة في هذه الغزوة، وذكر أن السعوديين أخذوا مايزيد على الألفي بعير والعشرة آلاف من الغنم، بينما ذكر الفاخري: (١٢٧) اشتراك القدح وهو من رؤساء مطير، وذكر ابن بشر: (١/ ١٣٤، ١٣٥) أن الإبل المأخوذة من عتيبة نحو مائة بعير، وكثيرا من الغنم، وذكر اشتراك مطير ومقتل ثلاثين من رجالها.

كما مر[١].

وما من شك في أن اشتراك هذا القسم من عتيبة في صف السعوديين يدل دلالة أكيدة على أنه قد دخل في طاعة الدولة وآمن بالدعوة السلفية وإن لم تصرح المصادر النجدية بذلك مما يبدو معه أن غزوات البوادي المؤيدة للدعوة لهذه القبيلة علاوة على غزوات الحاضرة، وجيش الدرعية قد آتت نتائجها المرجوة من القادة السعودين، ويؤكد حسن سياسة الإمام عبدالعزيز في استمالة كبار القبائل الحجازية لتشكل قوة ضغط على الشريف لتسهيل حج النجديين الذي يقف ضده بعض الأشراف ثم لتسهيل مهة ضم الحجاز كما يعطي تصورا باستغلال قسم من عتيبة لهذا الولاء للانسياح إلى المناطق الرعوية الجيدة في نجد.

ومعنى هذا أن ولاء قسم من عتيبة قد بدأ منذ سنة ١٢١٠هـ، وبهذا يمكن تعليل ماذكره مؤرخو نجد وأشار إليه صاحب اللمع من أن حمود بن ربيعان قد ناب عن قسم كبير من عتيبة ممن يخضعون لرئاسته، وكذلك بعض قبائل الحجاز في تأدية البيعة للإمام عبدالعزيز على السمع والطاعة وأداء الزكاة، وعدم التعرض للطرق وذلك سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، يمكن تعليل ذلك بأن القسم الذي طلب الأمان من عبدالعزيز ثم دخل في الولاء بعد تعرضه لعدد من الغزوات قد نقض ذلك الولاء لسبب أو لآخر، وربما تعرض هو وعدد من أفخاذ عتيبة وبعض قبائل الحجاز لغزوات جعلته يقدم الطاعة

---

(١) هي المعرفة بغزوة الجمانية وهي ماء بعالية نجد قرب جبل النير ولم يذكر:(ابن غنام ٢/ ١٧٣،١٧٤) اشتراك العتبان فيها بشكل خاص، ولا الفاخري ١٢٧، بينما ذكر ابن بشر: ١/ ١٣٥ اشتراك ابن ربيعان مع قسم من عتيبة مع الجيش السعودي وإن كان في طبعة وزارة المعارف ١٣٩٤هـ قد ورد اسمه على بن محمد بن حمود بن ربيعان بينما ورد في طبعة مكتبة الرياض الحديثة: ١٠٤/١ وغيرها من الطبعات الأخرى محمد بن ربيعان وهو الذي تطمئن إليه النفس على أساس أنه ابن حمود بن ربيعان لا حفيده، فقد ذكر دحلان في خلاصته: ٢٦٥ اشتراك ابن ربيعان في الجيش السعودي من دون ذكر اسمه).

والولاء للمرة الثانية وبشكل أشمل من السابق، وليس هذا بغريب على القبائل كما حصل من الدواسر، بل حصل من بعض البلدان كذلك، على أنه يمكن فهم إشارة مؤرخي نجد بأن هؤلاء المبايعين قد بذلوا دراهم معلومة نكالا[1] نتيجة لترتيب الإمام عبدالعزيز قبول بيعتهم الثانية بجعله على كل بيت منهم شيئا من النقود عقوبة ونكالا، بأن ذلك دلالة على نقضهم البيعة الأولى؛ لأن من أسباب توقيع النكال في الدولة السعودية الأولى؛ نقض البيعة أو الامتناع عن تقديم أي شيء يؤدى إليها كالزكاة مثلا[2].

ويبدو أن يكون ذلك القسم الذي اشترك مع الجيش السعودي ضد الأشراف برئاسة محمد بن حمود بن ربيعان قد استمر على ولائه، وأصبح أداة ضغط أو تأثير على القسم الأكبر من عتيبة وغيرها من بعض قبائل الحجاز التابعة للشريف أو المحايدة لتقدم الطاعة والولاء للدعوة والدولة في هذه السنة.

ويرى ابن غنام في روضته أن دخول هذا القسم الكبير من عتيبة وبعض قبائل الحجاز في طاعة الدولة السعودية كان أحد الأسباب التي دفعت بالشريف غالب أن يخرج بجموعه من نظاميين وبواد لملاقاة الجيش السعودي وتأديب هذه القبائل حيث وقعت بين الطرفين معركة الخرمة التي مر ذكرها[3]،

(١) النكال معناه العام: العقوبة قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ المائدة آية: ٣٨، والمراد به هنا غرامة مالية نقدية أو عينية أو هما معا بدون تأديب جسدي أو معه جزاء من خرج عن طاعة الدولة السعودية، أو حاربها، أو أخفى سائمته أو تجارته أو نتاجه فرارا من الزكاة. (تفسير الجلالين ص ١٤٩، ابن بشر: ١/ ١٧٣ من حاشية المحقق).

(٢) ابن غنام: ٢/ ٢٤٥ وذكر فيها أن العتبان وبعض قبائل الحجاز أرسلوا حمود بن ربيعان رسولا لهم في ذلك، بينما ذكر ابن بشر: (١/ ١٤٩) أن حمودا ومن تبعه من عتيبة وعربان الحجاز أرسلوا لعبدالعزيز في إبرام البيعة، وحمود بن ربيعان رئيس الروقة من عتيبة وتوفي سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، (ابن بشر: ١/ ١٦٢).

(٣) ٢/ ٢٤٥، وألمح إلى ذلك الريكي في اللمع ص: ١٠٠

ومعنى هذا أن دخول عتيبة وهذه القبائل في طاعة الدولة السعودية كان أحد الأسباب التي أشعلت نار معركة الخرمة، مما جعل الاتفاق الذي أعقب هذه المعركة بين الشريف وأئمة الدولة السعودية يتضمن في بنوده تحديد القبائل التابعة لكل منهما، ولاشك أن الفرع الذي والى السعوديين من قبل قد عد من أتباعهم.

على أن هذا لايمنع أن يكون قسم من عتيبة قد ظل على ولائه للأشراف وخاصة أولئك الذين بقوا في بوادي الحجاز القريبة من مكة حيث اشترك هذا القسم في هذه المعركة إلى جانب الشريف غالب وقتل منهم رجال، ويبدو أن هذا القسم قد اعتبر في عداد القبائل الحجازية في الصلح الذي أعقب هذه المعركة[1].

وقد اشترك القسم العتيبي التابع للدولة في الجيش السعودي الذي استولى على الطائف[2]، وليس من المستبعد أن يكون لهم دور رئيس في هذا الاستيلاء بحكم كونهم من بوادي المنطقة مما جعل هذا الاستيلاء يتم بصورة سريعة وبدون قتال كما مر.

واستمر هذا الفرع من عتيبة ممن يقطن نجدا في تقديم الطاعة والولاء للقادة السعودين مؤديا لأبرز مظاهرها وهي الزكاة[3]، ومشاركا في غزوات الجيش السعودي، أو يقوم بغزوات بأمر أو علم هذه الحكومة، وفي هذا النطاق غزا الهيضل زعيم الدعاجين[4] في أربعمائة مقاتل وقصد شمالا حيث

---

(١) ابن بشر: ١/١٥١. دحلان ٢٦٧، ٢٦٨، د. عبدالله العثيمين. تاريخ المملكة ١/١٣١.

(٢) ابن بشر: ١/١٦٢.

(٣) ابن بشر: ١/١٧٣.

(٤) الدعاجين واحدهم دعجاني أحد أفخاذ برقاء من عتيبة. (حمد الجاسر: قبائل المملكة: ١/٢٢٨، ٢٢٩).

التحم مع قسم من شمر والشرارات[١] ورجع إلى مرابعه[٢].

أما الفـرع الحجازي فقد ظل أحـد القبائل الحجـازية المهمة والتـي تقدم الولاء للأشراف في تلك الفترة، وكـان رؤساؤه من مستشاري بعض الأشراف وسفرائه حيث اشترك ابن حميد شيخ برقاء مـن عتيبة في سفارة بعثها الشريف غالب لأئمة الدولـة السعودية لأجل تجديد الصلح الذي تم فـي أعقاب معركة الخرمة، كما كان لبعض هذا القسم دور في القبض على بعض مناوئي الشريف ممن يعتبرون خارجين عن الطاعة في نظره وهم أتباع للدولة السعودية، على أن بعض أفخاذ هذا الفرع تدخل أحيانا في طاعة السعوديين عندما كانت الأوضاع السياسية في الحجاز تنقلب عن الأشراف إلى السعوديين[٣].

وتعد قبيلة العجمان من أهم القبائل النجدية، وقد بدأت علاقتها بالدولة السعودية الأولى سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م حينما غـزا العجمان بعضا مـن قبيلة سبيع التابـعة للدولة فانتقم لهم عـبدالعزيز بن محمد بأمر مـن أبيه، وقد فتح هذا الانتقام-كما مر- المجال أمام الحسن بن هبة الله المكرمي حاكم نجران لغزو العارض في السنة التاليـة انتقاما لقبيلة العجمان التي تمت بصـلة النسب لقبائل

---

(١) الشرارات واحدهم شراري. قبيلة ترجع إلى بني كلب القحطانية ومع الزمن دخل فيها قبائل من طيىء وعنزة وغيرهما وهي الآن قبيلة كبيرة ذات أفخاذ متعددة يكثرون في شمال المملكة الغربي في منطقة الجوف وما والاها (حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة ٤٣-٤٦، وقبائل المملكة ١/٣٨٨-٣٩٠).

(٢) مؤلف مجهول: ١٢٣.

(٣) دحلان: ٢٧١، ٢٧٢، وكان أبرز دور بعض هؤلاء الأفخاذ هو القبض على عثمان المضايفي زوج أخت الشريف غالب ووالي الطائف السعودي الذي انشق على غالب، وكان القبض عليه وتسليمه للشريف سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م. (ابن بشر: ١/٢١٧)، ولاريب أن إرسال ابن حميد لهذه السفارة لما يتمتع به من حكمة وبعد نظر وحرص على إقامة علاقة حسنة مع الأئمة السعوديين مما جعلهم يطمئنون إليه.

يام حيث دارت معركة الحائر المشهورة التي انتصر فيها الحسن المكرمي[1].

ومن الطبعي ألاَّ تتضح مواقف هذه القبيلة أو غيرها من قبائل نجد تجاه الدولة السعودية كما أنه من الطبعي أن تكون المراحل الأولى من هذه العلاقة قد تمثلت في غزوات من الدولة تجاه هذه القبائل بغية إخضاعها لسلطتها، وفي هذا الصدد فقد غزا الإمام عبدالعزيز بن محمد فخذا من العجمان سنة ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م وذلك في منطقة سدير وانتصر عليهم[2].

ويبدو أن معركة ضرماء التي حدثت سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م والتي انتصرت فيها قوات الدولة السعودية انتصارا حاسما على الحسن المكرمي ومؤيديه من حضر نجد وبدوها كالدواسر وحاكم الخرج زيد بن زامل والعجمان يبدو أن هذه المعركة كانت نهاية مرحلة مهمة في علاقة هذه القبيلة مع الدولة السعودية الأولى بل في وجودها في منطقة نجد، فقد بدأت بوادر موالاتها للدولة كما ظهرت ملامح تغير مرابعها إلى شرقي شبه الجزيرة فيما يبدو، فقد أشار ابن بشر إلى تفرق العجمان بعد هذه المعركة وأنه لم تقم لهم قائمة، وندموا على ما بذلوا من الأموال الكثيرة تأييدا للمكرمي وزيد بن زامل[3].

ولئن لم تفصل لنا المصادر المحلية متى بدأ ولاء هذه القبيلة للدولة السعودية الأولى لكنه فيما يبدو كان بعيد معركة ضرماء، على أن العلامة البارزة لهذا الولاء للدولة وهي اشتراكها مع القوات السعودية، هذه العلامة لم

(١) ابن غنام (٢/٦٤-٦٨). ابن بشر (١/٥٦-٥٨).

(٢) ابن غنام (٢/٨٢). ابن بشر (١/٧٥). وهذا الفخذ هو آل حبيش وكانوا مقيمين على مورد ماء في وادي صبحا قريبا من حوطة سدير.

(٣) ابن غنام (٢/٩١-٩٣). ابن بشر (١/٨٠، ٨١)

تظهر إلا سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م حينما شكل العجمان قوة مهمة في الجيش السعودي بقيادة محمد بن عيقل والذي اتجه إلى بعض بوادي الحجاز الموالية للشريف وانتصر عليها[1].

وفي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م اشترك العجمان في الجيش الذي أمر بتشكيله الإمام عبدالعزيز بن محمد من بادية نجد وحاضرتها للتصدي لقوات الشريف غالب حيث انتصر الجيش السعودي على القوات الشريفية في وقعة الجمانية كما مر[2].

وتتابعت مشاركات العجمان في القوات السعودية التي كانت تغزو أو تتصدى للقوى المعادية للدولة السعودية، ففي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م شارك العجمان في الجيش الذي قاده محمد بن معيقل وتكون من بادية نجد ومن حاضرتها لغزو بني خالد والتصدي للقوات العراقية بقيادة ثويني العبدالله شيخ المنتفق حيث تمكنت القوات السعودية من تحقيق نصر مؤزر على هذه القوات ومؤيديها من بني خالد لعد مقتل ثويني على يد أحد أتباعه كما مر[3].

ولقد حافظت هذه القبيلة على ولائها للدولة السعودية الأولى ومن مظاهر ذلك دفعها الزكاة لبيت المال في الدرعية، كما أنها تعرضت لغزو من إبراهيم باشا بعد معارك الدرعية مباشرة سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م حيث قتل بعضا منها لكن رجلا من هذه القبيلة تمكن من ضرب إبراهيم بخنجر كاد أن يقتل بسببها لكن القتل اخطأه إلى حصانه وتمزيق ملابسه حيث تمكن إبراهيم

(١) ابن بشر (١٣٢/١).

(٢) المصدر السابق (١٣٥/١).

(٣) المصدر نفسه (١٤٢/١).

باشا من الحصول على السلامة ربما بمساعدة بعض جنده فقفل راجعا إلى مخيمه، وهذه الحادثة تدل على صدق ولاء هذه القبيلة للدولة السعودية وكرهها ومقتها للغازي الأجنبي[1].

أما قبيلة آل مرة فلم تشر المصادر المحلية إلى أحداث مبكرة تبين موقفها من الدولة السعودية، لكنها أشارت إلى اتجاه سعود بن عبدالعزيز بأمر من أبيه سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م على رأس جيش غزا به مجموعة أحلاف من قبائل شتى أبرزهم آل مرة وهم على مورد ماء يسمى قنا[2] فلما اشتبك بهم تفازعت هذه الأحلاف فيما بينها فزاد المدد القبلي لها في مواجهة جيش الدولة السعودية فانهزم سعود بن عبدالعزيز وقتل عشرة من رجاله[3].

وفي سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م اشترك بعض من هذه القبيلة في بعض أحداث الخرج مؤيدين لزيد بن زامل بعد أن نقض عهده مع أئمة الدولة السعودية الأولى حيث هجم ابنه بمن معه من هذه القبيلة وغيرها من مؤيديه على أتباع الدولة في الدلم وقتلوا منهم عشرين رجلا[4].

وتأديبا لهذه القبيلة على وقوفها مع زيد بن زامل وتأييدها له في نقضه العهد مع الدولة السعودية فقد غزا الإمام عبدالعزيز نفسه هذه القبيلة في السنة نفسها فاتجه إليها وهي مقيمة في أحد المواقع في الخرج، وكانت قد استعدت لهذا اللقاء لكن الإمام عبدالعزيز اقترب من موقعها ليلا وكمن لها حتى إذا جاء الصباح شن الغارة عليها، إلا أن مجيئه إليها من مضيق وادٍ جعل هذه

---

(١) نفسه (١/١٧٣، ٢٩١).

(٢) قنا: بفتح القاف والنون مورد ماء قديم يقع غرب الحريق ويتبعها إداريا. سعد بن جنيدل: عالية نجد (٣/١٠٨٦، ١٠٨٧).

(٣) ابن بشر (١/٦٧).

(٤) ابن غنام (٢/٩٨). ابن بشر (١/٨٢).

القبيلة تستغل نقطة الضعف هذه فحصرت الإمام عبدالعزيز وجيشه في هذا المضيق حيث هزم وقتل من جيشه خمسون رجلا من أبرزهم أمير منطقة القصيم عبدالله بن حسن آل أبي عليان، وكان مشاركا الإمام عبدالعزيز في هذا الغزو[1].

ويبدو أن هذه القبيلة قد ركنت إلى الهدوء وسكنت إلى الطاعة والولاء لأئمة الدولة السعودية الأولى سواء كان ذلك بعد هذه الغزوة مباشرة أم بعد غزوات لاحقة لها، ومن مظاهر ولائها لهؤلاء الأئمة دفع الزكاة لبيت المال العام في الدرعية، حيث شكلت زكاة آل مرة موردا ماليا مهما، وعدت هذه القبيلة بالتالي من أهم القبائل الموالية للدولة السعودية الأولى[2].

أما حرب: فقد كانت علاقتها بالأشراف متذبذبة بين الولاء والعصيان إلا أن الغالب عليها المعارضة من قبل حرب لحكم الأشراف، وأبرز سبب لهذه المعارضة تحيز الأشراف لأمراء الحج الذين يرفضون أحيانا دفع ما كان مقررا دفعه لهذه القبيلة حين المرور بمواطنها أو الدخول إلى المدينة فيلجأون إلى الشريف الذي يجرد الحملات ضدهم وقد حفل التاريخ الحجازي بالعديد من هذه الغزوات بين الأشراف وحرب مما ليس مجال التفصيل فيها أو الإشارة إليها هنا، وهي تبين بعض الأسباب لولاء هذه القبيلة للدعوة السلفية ودولتها السعودية فيما بعد[3].

---

(١) ابن غنام (٢/٩٨، ٩٩). ابن بشر (١/٨٣). وكانت هذه الوقعة في مضيق واد وعقبة حوله تسمى مخيريق الصفاء في الخرج بينها وبين الحائر.

(٢) ابن بشر (١/١٧٣).

(٣) انظر على سبيل المثال لهذه الغزوات وتعرض عرب الحجاز وخاصة حرب للحجاج: (العصامي سمط النجوم العوالي: ٤/٢٠١، ٣٠٦، ٣٦٥، ٥١١، ٥٢٧، ٥٣٠، دحلان: ٧٥، ٢١٣، ٢١٦-٢١٨، ٢٣٣، ٢٦٦، السباعي: تاريخ مكة ٤٤٤، ٤٤٥، عاتق البلادي: نسب حرب: ١٢١-١٣٤، وانظر أيضا البديري: حوادث دمشق: ٧، ١٨٩، ١٩٢، ٢٠٧، ٢٠٨).

أما عن موقف هذه القبيلة من الدولة السعودية، فقد بدأ سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م بغزو سعود بن عبدالعزيز لقسم من حرب كان مجتمعا مع أخلاط بدوية من مطير وغيرها في شمال نجد كما مر، ويبدو أن القسم الأكبر في هذا التجمع كان لحرب لقرب مكان المعركة من مواطن هذه القبيلة حيث قتل سعود منهم ثلاثين رجلا، وأخذ قسما من أموالهم كغنائم[١].

وقد تعرض الفرع الحربي مما يلي القصيم لغزوة من أهل القصيم بقيادة أمير المنطقة سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، ويبدو أنهم كانوا يناوئون أتباع الدعوة والدولة في القصيم، وأن قادة الدولة السعودية قد وكلوا لإمارة المنطقة تأديبهم من قبلها، وقد قتل من حرب في هذه الغزوة عدد من الرجال، وغنم الجيش السعودي بعض إبلهم[٢].

وفي طريق عودة جيش أهل القصيم من إحدى غزواته للشمال سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م التقى بجمع من حرب هزموه، وأخذ منهم بعض الغنائم، وكان أهل القصيم في غزوة الشمال ضمن جيش سعودي مكون من أهل الوشم، وأما غزوتهم لحرب فيبدو أنها بعد أن تفرق الغزو السعودي كل إلى بلده[٣].

وما من شك في أن هذه الغزوات وغيرها بالإضافة إلى موقف الأشراف

---

(١) هي المعروفة بغزوة الشقرة. (ابن غنام: ١٥٧/٢، ابن بشر: ١١١/١، مؤلف مجهول: ٩٨ وذكر أن الغزوة اتجهت لحرب فقط).

(٢) ابن غنام: ١٦٤/٢، ابن بشر: ١٣٠/١، حسين خلف خزعل: ٣٦٣.

(٣) ابن غنام: ١٦٨/٢، ابن بشر: ١٣٢/١، ١٣٣ وقد ذكرا غزو أهل الوشم والقصيم والجبل لدومة الجندل في هذه السنة ولم يذكرا غزو حرب بينما أشار إلى ذلك صاحب كتاب كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: (ص ١١٢) وإن لم يذكر غزو الشمال فيها ولكن المحقق الدكتور العثيمين عقد مقارنة بين الغزوتين وضح فيها أن غزو حرب كان في هذه السنة، وتبعا لغزوة الشمال.

من حرب، علاوة على الفشل الذي مني به جيش الشريف غالب في غزوته الأولى لنجد سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م، كل هذا دفع بقسم كبير من هذه القبيلة سواء الحجازية منها أو النجدية إلى إعلان ولائها للدولة السعودية منذ فترة متقدمة[١].

ولقد كان لمبايعة حرب المدينة ممثلين في آل مضيان أثر في دخول المدينة تحت السيادة السعودية سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م والذي أضاف إلى دخول الطائف في هذه السيادة عامل ضغط على الشريف غالب حتى أعلن دخوله هو الآخر في طاعة الدولة السعودية أميرا إقليميا من قبلها على الحجاز. إذ تركز الضغط على الشريف من هاتين المدينتين المهمتين واللتين تعتبران مفتاح الجاز من جهة نجد ومفتاح نجد من جهة الحجاز فكان الشريف قد وقع بين فكي الرحى.

وكان لسيطرة حرب على بوادي المدينة علاوة على أحياء من المدينة نفسها أثر كبير في دخول المدينة في طاعة الدولة السعودية، وبيان ذلك أن رؤساء حرب من آل مضيان وفدوا على الإمام عبدالعزيز منذ فترة متقدمة وبعيد غزوة الشريف الأولى حيث بايعوا عن قبيلتهم، والتزموا بإخضاع المدينة للحكم السعودي، وطلبوا إيفاد أحد العلماء لتعليمهم أصول الدين وفروعه ثم بدأوا يطاولون المدينة بلا حرب، وفي هذه الأثناء جاءتهم أوامر من الإمام عبدالعزيز ببناء قصر للحامية السعودية فيها ثم بعد فترة تبعهم أهل قباء ومن حولهم، واستمروا على هذه المطاولة سنين يقطعون السابلة عن المدينة ويضيقون على

---

(١) الريكي: ١٠٠.

أهلها حتى بايع أعيانها وحاميتها وقضاتها للإمام سعود بن عبدالعزيز في السنة السابقة[1].

ولعل من أبرز مظاهر ولاء هذه القبيلة تأديتها للزكاة لبيت المال في الدرعية إذ شكلت زكاة حرب موردا ماليا للدولة منذ عهد الإمام عبدالعزيز، كما أن تولية مشايخها أصبحت تخضع لموافقة الأئمة السعوديين، وخاصة بين آل مضيان الموالين للدولة السعودية، وإن كانت الحكومة غالبا لا تخرج عن الأسلوب التقليدي الذي تسير عليه هذه القبيلة في تولية زعمائها[2].

وقد اشتركت حرب المدينة وخاصة آل مضيان ومن ينضوي تحت زعامتهم في منع الحج الشامي من دخول الحجاز سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م خوفا من أن يثير الشريف غالب الحجاج الشاميين ضد الإمام سعود، واشتركوا مع سعود في حجته في السنة نفسها، وكان الهدف من ذلك كله القيام بحركات استعراضية تبين قوة الدولة السعودية إذ لم يحدث من جراء ذلك أي حرب أو مقاتلة تذكر حيث فهم رئيس الحج الشامي ذلك فرجع إلى وطنه، ولا يبعد أن يكون ذلك قد أثار الدولة العثمانية ضد السعوديين[3].

ومما لاشك فيه أن هذه القبيلة بما تحمله من بغض للأشراف نتيجة لكثرة غزواتهم لها فيما قبل دخولها في طاعة الدولة السعودية وبعد ذلك قد استغلت اتباعها لهذه الدولة في القيام بكل ما من شأنه تعكير صفو الأمن في الحجاز ضد الأشراف، وكان وقت الحج هو المجال لهذه الأعمال بما يثبت فشل

---

(١) ابن بشر: ١/١٨٦، وتكاد تكون المدينة النبوية المدينة الوحيدة التي إذا ذكرت حرب ذكرت معها. (البلادي: المرجع السابق: ٤٠، ١٣٥)، وذكر ابن بشر في الصفحة السابقة أن لحرب دوراً في هدم القباب التي كانت على القبور والمشاهد في المدينة.

(٢) ابن بشر: ١/١٧٣، ١٨٧.

(٣) الفاخري: ١٣٥، ابن بشر: ١/١٨٨، وقد عزل رئيس الحج الشامي الذي رجع عن الحج.

الأشراف في السيطرة على الوضع الأمني في الحج، ففي حج سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م اشترك قسم من حرب في تجمع بدوي حجازي فقطع الميرة والماء عن مكة مما سبب تضايقا بين القليل من الحجاج الذين دخلوا مكة قبل حصار هذا التجمع لها، وأوجد في مكة مجاعة ربما كانت من الأسباب التي دفعت بالشريف غالب إلى إعلان ولائه للسعوديين فيما بعد(١).

وكان هذا الأسلوب إضافة إلى الإغارة على قوافل الشريف ناقلة الميرة عبر مواطن هذه القبيلة أو القادمة إلى المدينة هو أبرز الأساليب التي تتبعها في تأكيد معارضتها للأشراف وخاصة الشريف غالب حيث أضفى دخول هذه القبيلة في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب هدفا أبعد مما كانت ترمي إليه من قبل وهو مناوأة الشريف فقط، هذا الهدف الذي يرمي أيضاً إلى تثبيت أقدام السعوديين ونشر الدعوة السلفية في الحجاز وخاصة منطقة المدينة، ومحاربة البدع والخرافات فيها.

وفي سبيل ذلك فقد تعرضت هذه القبيلة لعدة غزوات من الشريف غالب لا على أساس قطعها الطريق أو تعكيرها صفو الأمن ضده فحسب بل لدخول هذه القبيلة أو أفخاذ منها في الدعوة السلفية، وإعلان ولائها السياسي للدولة السعودية، وتؤكد الأحداث وقوع عدد من الغزوات من الشريف لهذه القبيلة منذ فترة متقدمة، ولهذا السبب نفسه فقط، ففي ٢٥ محرم سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م. جهز الشريف غالب جيشا وأمر عليه أحد الأشراف وأمره بغزو قوم من حرب دانوا للدعوة السلفية بالولاء حيث غنم منهم غنائم رجع بعدها إلى مكة(٢).

---

(١) الفاخري: ١٣٤، ابن بشر: ١/١٨٢-١٨٥، ولم يذكر دور حرب فيها بالتحديد بينما ذكر ذلك دحلان: ٢٨٦ والسباعي: ٥٠٠، ٥٠١، والبلادي: ١٣٤. د/العثيمين: المرجع السابق ١/١١١.

(٢) دحلان: ٢٦٦.

وقد كشف الشريف غالب الغزوات ضد هذه القبيلة في هذه السنة مما يبدو معه أنها هي التي تمت فيها أول مبايعة من حرب للإمام عبدالعزيز، ففي ٢٥ ربيع الثاني منها أرسل الشريف غالب جيشا بقيادة أحد الأشراف أيضا أغار فيه على قسم من حرب كان قد تابع الدولة السعودية ربما كان القسم السابق وربما غيره، وحصل بين الفريقين مقاتلة على أحد المواضع الحجازية التابعة لحرب استطاع هذا الجيش الشريفي أن يغنم من الحربيين بعض مواشيهم[1].

على أن هذه المبايعة لم تكن-فيما يبدو- شاملة لأكثر حرب الحجاز، وأن زعماء حرب الكبار والعدد الأكثر منها لم يبايع في تلك السنة المتقدمة، وأن من دخل في طاعة الدولة لا يعدو أن يكون قسما صغيرا من هذه القبيلة، أو أن الإعلان العام عن هذا الدخول لم يكن في هذه السنة (١٢١٢هـ)، وفي هذا المجال تذكر المصادر الحجازية أنه في شهر صفر سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م جاءت الأخبار أن بداي شيخ حرب[2] دخل ومن معه من حرب في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب واستولوا على بعض البلدان الحجازية بمساعدة بعض القبائل المؤيدة للدعوة كذلك[3]، ومعنى هذا أنه ليس بين الدخول العام لحرب في طاعة الدولة، ومبايعة أهل المدينة إلا بضعة أشهر لا سنين كما يذكر

---

(١) المرجع السابق ٢٦٦.

(٢) هو بداي بن بدوي بن عيد بن مضيان من الظواهر من بني سالم من حرب تولى مشيخة القبيلة بعد وفاة أخيه بادي سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، وتوفي سنة ١٢٢٠هـ/١٨١٤م وتولى مشيخة حرب بعده أخوه مسعود بموافقة الإمام سعود بن عبدالعزيز. للاستزادة: (ابن بشر: ١/١٦٢، ١٨٦، ١٨٧، دحلان: ٢١٣، ٢٨٤، حمد الجاسر: معجم القبائل: ٢/ ٧٧٤).

(٣) دحلان : ٢٨٤، ومن الطريف أن دحلان-في معرض تحامله على دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب-يعبر عن الدخول في الولاء لها بالدخول في الطين حيث يقول:«وفي شهر صفر جاءت الأخبار أن بداي شيخ حرب دخل ومن معه في الطين. وفي ص٢٧٣ يقول عن عثمان المضايفي: صار يمدح ما ابتدعه محمد بن عبدالوهاب من الطين، ويثني عليه ويرغب في اتباعه والدخول في طينه» «وللاستزادة من الاطلاع على هذا التعبير المتحامل انظر: (٢٨٨، ٢٨٩).

ابن بشر إلا أن تكون المطاولة التي قامت بها حرب ضد أهل المدينة كانت من ذلك القسم الذي دخل في الدعوة سنة ١٢١٢هـ، ومن هنا فإن اشتراك حرب في محاصرة مكة في حج عام ١٢١٩هـ كان بعيد إعلان ولائها للدولة السعودية بأشهر.

وبهذا يمكن الجمع بين إشارة صاحب اللمع أن حربا أطاعت الدولة السعودية الأولى عقب فشل حملة الشريف غالب الأولى على نجد سنة ١٢٠٥هـ[١]، وبين إشارات ابن بشر من أن حربا كانت تؤدي الزكاة للإمام عبدالعزيز وأن المدينة بايعت على أثر بيعة حرب عام ١٢٢٠هـ[٢]، وما ذكره دحلان من غزو الشريف غالب لقوم من هذه القبيلة سنة ١٢١٢هـ مرتين بسبب دخولهم في طاعة الدولة السعودية، وما ذكره من أن ولاء حرب لهذه الدولة كان في أوائل سنة ١٢١٩هـ[٣].

هذه أبرز الملامح والأحداث لمواقف أغلب القبائل البدوية النجدية من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية وما ترتب على ذلك من موقف هذه الدولة من تلك القبائل سواء المؤيدة أو المعارضة وسواء كانت نجدية خالصة من تلك القبائل الأولى أو كانت نجدية حجازية كعتيبة وحرب، واللتين ذكرتهما مع القبائل النجدية بحكم وجودهما النجدي الكبير، وبحكم التأثر المتبادل بين فرعي هاتين القبيلتين الحجازي والنجدي.

وما من شك في أن استيفاء أحداث وملامح المواقف البدوية عامة من الدعوة والدولة السعودية يصعب التفصيل فيه إذ أن هناك قبائل أخرى مواقفها

---

(١) الريكي: ص١٠٠.

(٢) ابن بشر: ١/١٧٣، ١٨٦.

(٣) دحلان: ٢٦٦، ٢٨٤.

من الـدولة السعـودية غير واضـحة على ضـوء المعلومـات المتوافرة فـي إطار التذبذب في المواقف من بعض القبائل والبلدان.

على أن مواقف تـلك القبائل التي ذكرتـها لم تكن بالتفـصيل والوضوح اللذين يطـمح إليهما الباحث، ويـتمثل ذلك في اختلاف المـؤرخين في تاريخ دخول بعض القبائل في الولاء للدعوة، بل الغموض الذي يكتنف هذا التاريخ عند مؤرخ واحـد مهم في تاريخ الدعـوة كابن بشر الذي ذكـر أن حربا تؤدي الزكاة لعبدالعزيز ثم ذكر مبايعة حرب قرب سنة ١٢٢٠هـ، أي في عهد الإمام سعود، ثم إنه ذكر فـي هذه المبايعة أن بداي وبادي ابني بـدوي بن مضيان قد بايعا الإمام عبدالعزيز مما يؤكد أن ذلك كان قبل سنة ١٢١٨هـ وهي السنة التي قتل فيها عبدالعزيز، ثم إنه ذكر في أحداث سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م وفاة بادي ابن بدوي وتـولية أخيه بـداي مما يدل أن هذه المبايـعة كانت قبـل سنة ١٢١٧ لأنهما بايعا سويا عمن نبعهما من حرب[1]، إلا أن المصادر الحجازية كدحلان مثلا تذكر أن بداي قد بويع سنة ١٢١٩هـ علما أنه ذكر غـزو الشريف لأفخاذ منها سنة ١٢١٢هـ كما مر[2]، وهذا الاختلاف لاشك أنه يـجر إلى الغموض الذي يـصيب البـاحث عندمـا يحاول رصـد درجة ولاء مثل هـذه القبيـلة أو غيـرها، إضافة إلـى أن الباحث قـد يضطـر إلى الجمع بـين الروايات بصـفة الاحتمال لا التأكيد عندما يواجه بأن الـدولة قد شنت غزوات على قبيلة كانت قد أيدتهـا ودخلت في ولائها. مما يـبدو معه أن أفخاذاً قد والـت وأفخاذاً لم توال بعد أو أن من والى لا يـلبث بفعل عدة أسباب أن يتخـلى عن ولائه بعد فترة لاحقة.

---

(١) ١/١٦٢، ١٧٣، ١٨٦.

(٢) ٢٦٦، ٢٨٤.

وحقا ما قاله «جان ريموند»[1] في هذا المجال من أنه: «من المستحيل أن تحصى القبائل التي دانت للوهابية»[2] وكل هذا يرجع إلى كثرة الغزوات بين الدعوة وهذه القبائل والتي كان منطلقها كثرة نسبة البادية في نجد في تلك الفترة، ودورها الرئيس-بعد دخولها في طاعة الدولة السعودية-في سرعة انتشارها وسيادتها علاوة على التداخل في هذه الغزوات أحيانا بين توجهها ضد القبائل المناوئة أو المؤيدة لتأديبها على عمل قامت به مخالف لمبادئ الدعوة، أو مناوئ للدولة بعد أن تكون قد أعلنت ولاءها. أو تأخرها في تنفيذ بعض الالتزامات للدولة كالتأخر في الاشتراك في الغزو أو قلة عدد المشتركين منها أو التأخر في أداء الزكاة أو ما إلى ذلك من المخالفات.

وبصرف النظر عن سوء النية التي نظر بها بعض المستشرقين إلى الهدف من ولاء القسم الذي تابع الدولة من هؤلاء البدو في أنهم يظهرون منتهى التعصب والحماسة خدمة لمصالحهم الشخصية، هذه النظرة الاستشراقية التي لاشك أنه قد وجدت في بعض القبائل مايؤيدها بأن ظلت قلوب بعض أفرادها غلفا بعيدة عن التشرب بروح الدين الخالص الذي جاءت الدعوة السلفية بتجديده في النفوس[3] بصرف النظر عن هذه النية السيئة، فإن الباحث المنصف

---

(١) هو جان ريموند: ضابط مدفعية فرنسي سابق أرسل من قبل وزارة الخارجية الفرنسية في عهد نابليون للخدمة والتجسس لدى والي بغداد العثماني، كان على اطلاع واسع على التقارير والمؤلفات التي كتبت عن الدولة السعودية والدعوة السلفية بالإضافة إلى أنه شاهد عيان في أكثر بعض أحداثها، ومعاصر لأغلب هذه الأحداث فجاء تقريره هذا ذو قيمة كبيرة. (من مقدمة اداورد يوليت لهذا التقرير).

(٢) جان ريموند: مذكرات في أصل الوهابيين. تقرير مقدم إلى ديه شامباني وزير خارجية فرنسا في عهد نابليون، وقد كتب سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وهو مستخرج من محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية ومترجم ومطبوع على الآلة الكاتبة ص١٠.

(٣) رينهارت بيتر آن دوزي: تاريخ مسلمي أسبانيا. ترجمة: د.حسن حبشي. طبع ونشر دار المعارف. القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م. ١/ ٣٤.

لايمكن أن يعمم مثل هذه النظرة على غالب البدو الذين أيدوا الدعوة والدولة، أو أعلنوا ولاءهم التـام لها، إذ أن جهاد قسم كبير من هؤلاء الـبدو في سبيل نشر الدعوة وتحقيـق سيادة الدولة، وهي لما تكتسب القوة الكـافية لذلك دليل على إخلاص هـذا القسم في ولائه، ولاينفـي في الوقت نفسه وجـود عناصر ممن راعت مصالحها الـشخصية فقط، وبين هذا وذاك خيط رفيـع يصعب معه تحديد من اتخـذ الدين تجارة، ممن أخلص في ولائـه له، والذي جدت ظروف وحالات قاهرة جعلتـه يتحول عن الولاء للدولة السعوديـة- ظاهرا - أو يبقى علي الحياد عـندما أصبح لا قبل للنجـديين بالجيوش التي أرسلها مـحمد علي للقضاء على الكيان السعودي، وهـو ما حصل من بعض البدو الذين اضطروا إلى اتخاذ هذا الموقف.

وانطلاقا من هذا فقد تواتر لدى المؤرخين المحليين وغير المحليين على حد سواء بل لدى الكتاب الغربيين أن القـسم الأكبر ممن والى الدعوة من البدو قد التزموا الطاعـة المطلقة للقيادة الجديدة المـنظمة والتي أشبعت نهـمهم في الغزو والحرب ووجهتـهما نحو الأهداف الخيرة الـتي جاءت بها حيث حـولت الغزو إلى جهاد إسلامـي، وفي هذالمجال يشير هؤلاء المؤرخون إلـى أن أئمة الدولة السعودية بمجرد أن يكتبوا، أو يبعثوا كـلاما شفويا مهما بلغ من الاختصار بأن يكون فحواه إلى شيـخ القبيلة الفلانية كذا عدد من الرجـال يكونون في مكان كذا، بمجرد أن يـصل هذا إلى أي شيخ قـبيلة فإنه يـنفذ كاملا، بل وتـتكفل القبيلـة أو الأفراد أنفسهم بكل ما يـحتاجون إليه من مأكل ومـشرب وأسلحة تكفـيهم لمدة طويـلة، وقد أدهشت هـذه الظاهرة المصـادر المناوئة للـدولة بل المصـادر الغربيـة التي أبدت استـغرابا شـديدا من هذا الـولاء العظيـم، وهذه السرعة في تكويـن الجيوش مما جعل الدولة السعودية تُخضـع في فترة قصيرة

كل القبائل النجدية وقسما كبيرا من غيرها وتتوسع في مناطق شاسعة من شبه الجزيرة العربية[١]، وكان هذا الأسلوب التجهيزي للغزو تلتزم به الحاضرة والبادية على حد سواء، وإن كان التزام البادية به أوضح لاشتهارهم بالغزو والحرب وتوفر أدواتها لديهم أكثر من الحاضرة.

على أن هذه المصادر لم تغفل السبب الرئيس وراء هذه الطاعة المطلقة ذلك أن أئمة الدولة السعودية إذا أرادوا ضم قبيلة إلى جانبهم استثاروا نزعة الخير فيها قبل مهاجمتها وغزوها بأن أرسلوا إليها أو كتبوا عبارات تحمل من معاني الإصلاح والتغيير الاجتماعي إلى الأفضل أكثر من عبارات الضم السياسي والتهديد العسكري، ولعل من أبرز معاني هذا الإصلاح إشعار أي قبيلة بدوية بأن اتباع مبادىء الدعوة، والولاء للكيان السياسي المؤيد لها. فيه إرضاء الله سبحانه لأن هذه الدعوة لاتعدو أن تكون تجديدا للدعوة الإسلامية الأولى، بقدر ما في معارضة ذلك واحتقاره-حلول غضب الله وعقوبته التي قد تأتي على شكل غزو من جيش الدولة السعودية، ولاشك أن هذا فيه ما فيه من استثارة نوازع الخير في البدو، والتهديد بالقوة العسكرية لهذه الحكومة، وأن هذه القوة مظهر من مظاهر عقوبة الله التي يجريها على يد الدولة وجيشها، وقد أدى هذا الأسلوب عمله القوى في نفوس أبناء البادية مما أوجد تلك الكثرة من القبائل المؤمنة بمبادئ الدعوة السلفية وقذف في قلوبها هذه الطاعة المطلقة للدولة السعودية[٢].

---

(١) ابن بشر: ١/ ١٧٤، دحلان ٢٣٧، جان ريموند: ص١٠ ولاشك أن اتفاق هؤلاء المؤرخين على اختلاف وجهات نظرهم، وفترات تسجيل تواريخهم دليل على تأصل هذه الظاهرة وانتشارها بين البدو، وتسجيل ريموند لها وهو لم يطلع على أي من المصادر المؤيدة للدعوة لأن تقريره كتب قبلها يضفي دليلا آخر على ذلك.

(٢) ريموند: ٩، ١٠.

وعلى أي حال فقد استمرت القبائل البدوية على ولائها لهذه الدولة وخاصة في عهدي الإمامين عبدالعزيز وابنه سعود، وكل هذا يرجع إلى شخصية الإمام عبدالعزيز الذي تعلقت به رعيته وأطاعته طاعة مطلقة يستوي في ذلك الحضر والبدو[1] فضلاً عن قوة شخصية ابنه كذلك وحزمه وتكثيفه الغزوات وقوة الدولة في عهده أمام أعدائها، حتى إذا جاء عهد الإمام عبدالله وبدأت حملات محمد علي في الكثافة، والإغراء المادي، والتهديد الحربي انقسمت القبائل حيال ذلك إلى أقسام بعضها تابع هذه الحملات تحت تأثير هذه العوامل من أول بدايتها، ولايستطيع الباحث تعميم ذلك على كل قبيلة بعينها، وبعضها ناوأ هذه الحملات في بدايتها واشترك مع السعوديين ضدها حتى إذا كثفت جهودها اضطرت هذه القبائل تحت تأثير هذين العاملين أيضا الاشتراك مع محمد علي أو البقاء على الحياد، وبعضها الآخر استمر على ولائه للدعوة ودولتها وعانى من حملات محمد على نتيجة لذلك.

---

(١) ريموند: ١٠.

الفصل الثاني:

أثر الدولة السعودية والدعوة السلفية على الحياة الدينية لدى بادية نجد

لقد مر بنا في التمهيد ذكر جانب من نظرة الإسلام نحو البدو والبداوة، هذه النظرة التي تنطلق من منطلق توفر عناصر الخير في ابن البادية الى جانب وجود عناصر الشر فيه كأي إنسان، وما من شك في أن هذه النظرة جعلت البدوي يحافظ على أسلوب حياته في صحرائه وهو متابع لمبادئ الاسلام وشرائعه حتى إذا دعا داعي الجهاد في سبيل الله لبى هذا النداء، حيث شكل أبناء البادية أغلب القواد المسلمين الذين فتحوا مختلف بلاد الدنيا في العصور الأولى للإسلام.

ورغم ماران على الحياة الدينية لدى البدو من بعد عن مظاهر الدين وشعائره عبر العزلة التي مارسها هؤلاء على أنفسهم في فترات من التاريخ استدعت ذلك حتى أصبحت هذه الحياة بعيدة بعداً شديداً عن هذه المظاهر والشعائر مما سبق ذكر جانب منه في الحياة الدينية لدي البدو قبل الدعوة، رغم كل ذلك فإن عناصر التدين متأصلة في البدوي عامة بعد الإسلام، بل إن العناصر السليمة لهذا التدين هي التي يشتهر بها البدوي عن غيره، وهذا ماميز البدوي بالسلفية من دون سائر العناصر المسلمة عبر فترات التاريخ المتعاقبة، يدعم هذا عدم وجود مايشوب هذا التدين لديه من الخرافات والبدع، وقد أكد هذا الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله حينما قال: «ماقوم أشبه بالسلف من الأعراب لولا جفاء فيهم»، كما أكده أحد العلماء حينما قال: «إذا أردت أن

تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب»[1]، وهذه النظرة تنطبق على البدو بشكل عام وعلي بدو نجد بصفة خاصة.

على أن الرحالة الـغربيين قد لاحظوا هذه الظاهرة فـي البدوي النجدي منذ فتـرة متقدمة مما شكل لـدى بعض البادية النجـدية استعداداً نفسيـاً لقبول مبادئ الدعوة السلـفية، ومما يؤسف له أن يدرك الغربيون فـقط هذا الاستعداد النفـسي لدى البدو، وأنـهم بمجرد أن يوجـهوا التوجـيه الإسلامي الصـحيح يصبحون طاقة دينية هائلة يمكن توجهيها نحو الخير، وأن هذا البعد عن شعائر الدين ومظاهره القـولية والفعلية يرجع السبب الأول والأخيـر فيه إلى أنهم لم يجدوا من يقوم فيهم بتلك المهـمة الإصلاحية، وفي هذا المجال يقول دارفيو: «إن البدو متدينون ولاريب، ولكنهم يـأتون في أغلب الأحيان على ذكر الله، ولايقرنون بذكره إلا القليل من الدين لأن أحداً لم يلقنهم إياه»[2].

ويقابل هذه النـظرة الغربية نظرة أخرى تنم عن جـهل أو تجاهل بأوضاع البادية بعـد الإسلام بشكل عام، هذه النظـرة تتلخص في أن قسمـاً كبيراً من البادية النجدية لم يصل إليها الإسلام منذ بعثته، وتستند هذه النظرة إلى الجهل المطبق والبعد شبه الكامـل عن معالم الدين الرئيسة[3]، إلا أن الواقع أن العزلة التي مارستها القبائل البدوية على نفسها، والتي فرضت عليها من قبل الخلافات الإسلامية المتعاقبـة بعد الراشدة، هذه العزلة بنوعيها هـي السبب الرئيس وراء هذا الجهل المطبق بتعاليم الإسلام، ولـيس معنى هذا أن الإسلام لم يصل إليها منذ بـعثته، ولكـن قرون التخلـف والإهمال هي الـتي ولدت هذا البـعد عن الدين.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٣/٤.

(٢) جاكلين بيرين: ١٢٤، محمد أسد: الطريق إلى الإسلام: ص٢١٧.

(٣) محمد جلال كشك: السعوديون والحل الإسلامي:. ١٠٦، ١٠٧.

وإذا كانت هاتان النظرتان تلتقيان عندكون «عرب نجد أكثر بعداً عن الإسلام من أية مجموعة أخرى في العالم الإسلامي»[1] ؛ فذلك راجع إلى توافر أسباب المعرفة التفصيلية بشرائع الإسلام لدى مجموعات العالم الإسلامي الأخرى، وهو ماكان نتيجة طبيعية لانتقال مراكز الثقل الحضري من شبه الجزيرة العربية إليها بعد الخلفاء الراشدين.

وانطلاقا مما سبق من كون الحياة الدينية لدى بادية نجد بعيدة كل البعد عن تعاليم الإسلام بشكل عام، وتوفر الاستعداد النفسي لدى البدوي للالتزام بالدين إذا وجه له في الوقت نفسه، فقد أولت الدولة السعودية والدعوة السلفية هذه الناحية جل اهتمامها، وأبرز مثل على ذلك تقريرات الشيخ محمد ابن عبدالوهاب التي حللت الوضع الديني لدى البدو كمامر، وهذا الكم الكبير من الغزوات، والمحاولات السلمية لضم هؤلاء البدو إلى الدولة والدعوة كمامر.

ولعل أول مظهر لمحاولات الدعوة تصحيح الوضع الديني لدى بادية نجد بعد إعلان ولائها للدولة السعودية هو بعث العلماءالذين يقومون بدور التوجيه والإرشاد والتعليم لمن لم يكن لديه أية معرفة بمعتقدات وشعائر الدين، أو لديه معرفة قليلة لاتفي بالغرض المطلوب لممارسة أقل مستوى من الحياة الدينية كما يريدها الإسلام، كما أن هؤلاء العلماء يوقومون بتركيز الولاء للدولة.

ولقد كان إرسال العلماء لهذا الهدف سمة من سمات انتشار الدعوة وتحقيق سيادة الدولة في نجد عامة وبين القبائل البدوية خاصة، وكان يتم ذلك سواء طلبت هذه القبائل بعث من يقوم بهذا الدور أو لم تطلب، وقد مر بنا كيف أن بعض القبائل بمجرد مبايعة زعمائها لأئمة الدولة السعودية يبعثون معهم أحد العلماء، وكانوا يتخيرون من هؤلاء حسب أهمية القبيلة ودرجة

---

(١) محمد أسد: المرجع السابق: ص٢٠٠ .

جهلها وولائها السابق، وما إرسال الشيخ عبدالله بن فاضل وهو الذي تتلمذ عليه أكابر علماء الدعوة إلى وادي الدواسر المشهورة بالجهل في تلك الفترة إلا مثلاً من الأمثلة على ذلك؛ حيث أقام مدة لاشك أنها أثرت في درجة تشبع بعض الدواسر بمبادىء الدعوة والولاء للدولة، وربما أرسلوا إلى قبيلة من القبائل أو بلد من البلدان عالماً واحد لاستطاعته القيام بتوجيه البدو والحضر على حدٍ سواء فبعد ما ينهي مهمته لدى قبيلة أو يمكن أن يقوم عنه أحد في ذلك يوجه إلى بلد من بلدان الحضر كما حصل من الشيخ عبدالله بن فاضل نفسه فيما مر[1].

وقد يجمعون في هذا العالم أو ذاك وظيفة القضاء، والإفتاء، وإمامة الصلوات في القبيلة، ويبدو أن ذلك يتم في حالة كون القبيلة قليلة العدد، مركزة المكان، وأحياناً يجعلون في كل قبيلة قاضيًا تنضم إليه وظيفة الإفتاء، وإمامًا للصلوات، ويتعاونان مع أمير القبيلة في أمور الحياة العامة[2].

ومما لا شك فيه مدى التأثير البالغ لهذه البعوث الدينية في أبناء القبائل رغم وجود مخالفات مع بعضهم لما تأمر به من تعاليم شرعية وأحكام دينية نتيجة لاعتقاد قسم من البدو أن هذه الشعائر والأحكام لاتعدو أن تكون جزءاً من مستلزمات الولاء السياسي للدولة النظامية مما يحد من حريته، على أن هذه المخالفات نطاقها ضيق ولا تأتي إلا نتيجة لتصرف الأمير القبلي المعين من

---

(١) ابن بشر: ١/١٠٣، ١٢٩ .

(٢) الريكي: ٥١ ، وقد ذكر ابن بشر: ١/١٨٦ أن حربا بعد مبايعتها الإمام عبدالعزيز بعث معها الشيخ عثمان بن عبدالمحسن أبا حسين يعلمهم فرائض الدين وأركان الإسلام، ويقرر لهم التوحيد حتى دانوا بالولاء لهذه الدعوة ودولتها وبدأوا بحرب أهل المدينة عن طريق المطاولة كما مر حتى دخلوا في الولاء، ثم إن الإمام سعود بعث إليهم الشيخ قرناس بن عبدالرحمن حيث أصبح في قلعتها السعودية إماماً ومعلماً وقاضياً يأتي إلى قبيلة حرب فيها كل سنة. انظر للاستزادة(عبدالله البسام: علماء نجد: ٣/٧٦٦، محمد القاضي: روضة الناظرين: ٢/١٥٣، ١٤٥،العجلاني، عهد عبدالعزيز:١٤).

لدن الحكومة، أو نتيجة لرفض دفع الزكاة أو هما معاً مما يستتبع معه رفض بقية الشعائر التعبدية كما سيأتي.

ومن الطبعي وقد جاءت الدعوة السلفية بتصحيح العقيدة من البدع والخرافات التي رانت عليها عبر فترات التاريخ الإسلامي أن تولي هذا الجانب أهميته في دعوتها لبادية نجد. ذلك أن تركيز الشيخ على الوضع الديني لدى بادية نجد قبل الدعوة كان منصباً في عمومه على انحرافها العقدي عن التوحيد، ثم إن عرض بعض تفاصيل تلك الانحرافات فيما مر يعطي تأكيداً بتركيز الدعوة على هذا الجانب لأنه هو أساس أي توجيه تشريعي بعد ذلك، ويرى المرء في مبايعات القبائل النجدية، أو إرسال العلماء لها التأكيد على تقرير التوحيد لهم بادىء ذي بدء، وعلى صعيد الحروب والغزوات التي قامت بها الدولة ضد البدو كان الهدف الرئيس هو تقرير التوحيد أيضاً، وما من شك أن هذا التوجيه وهذه الغزوات قد آتت نتائجها المرجوة في دخول بعض القبائل البدوية أو أقسام كبيرة منها في العقيدة السلفية، ونبذ ماكانت عليه من البدع التي مر ذكر جانب منها في الحياة الدينية لدى بادية نجد قبل الدعوة[1].

ورغم عدم وجود إشارات من المؤرخين النجديين للمحاولات التي قامت بها الدعوة السلفية لتصحيح الجانب العقدي لدى البدو بالتفصيل، إلا أن الباحث قد يجد في رسائل الشيخ التي وصف فيها الحياة الدينية قبل الدعوة مايشير إلى أن الدعوة قد راعت أن تعمق في نفوس البدو احترام الدين وتقديم أحكامه وتلقيها بالقبول والتسليم، وتلك قضية عقدية بالدرجة الأولى حيث إن قسماً من البدو قبل الدعوة كان يسخر من الدين، ومن الحضر الذين كانوا يقيمون أحكامه وشعائره ويؤمنون بمعتقد صحيح إلى حد ما، إضافة إلى أن هذه الرسائل تشير إلي أن الدعوة قد غرست في نفوس البدو بأساليبها المتنوعة

---

(١) ابن بشر: ١٠٣/١، الريحاني: ٤٤، د: عبدالكريم الغرايبة: ٩١.

الإيمان بالبعث والنشور، وهي قضية عقدية رئيسة نعى الشيخ ـ فيما مر ـ علي بعض القبائل عدم إيمانها بها، ولاشك أن نقد الشيخ للأوضاع العقدية في الجانب الديني لدى البدو قبل الدعوة قد دفع بأئمة الدولة السعودية الأولى إلى الاهتمام بتعليم البدو هاتين القضيتين العقديتين الرئيستين: احترام الدين ومن تمسك به، والإيمان بالبعث والنشور[1].

ومن المعروف أن كتاب التوحيد الذي هو حق الله العبيد والذي ألفه الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان عماد التعليم والتوجيه لقضايا العقيدة، ولما كان الذبح لدفع ضر الجن، والاستطباب بذلك مما تواتر لدى بعض بادية نجد فقد ركز الشيخ اهتمامه به في هذا الكتاب فعقد له باباً تحت عنوان: «باب ماجاء في الذبح لغير الله»، ومن المؤكد أن تعليم البدو هذا الباب بتفاصيله كان له دور رئيس في اختفاء تلك الظاهرة العقدية السيئة، والتي كانت متزامنة مع كثرة الأمراض، وقلة الوعي الصحي المعتمد على التوكل على الله، وتلمس العلاج في الأسباب الطبيعية المعروفة في تلك الفترة[2]. ويمكن اعتبار كتاب التوحيد بأبوابه المختلفة مرآة تعكس جانباً من الأوضاع العقيدة في نجد قبل الدعوة، وجهود الدعوة ودولتها في تصحيح هذه العقيدة عن طريق دراسة هذه الأوضاع دراسة علمية، ونشر هذه الدراسة وتلقينها للمؤيدين للدعوة حاضرة وبادية، ولاشك أن هذا قد أوجد تأثيراً دينياً من البدو خاصة حيث كانوا يفتقدون هذا التأثير عكس الحاضرة الذين كان لديهم فهماً دينياً واضحاً وتمسكاً به بعض الشيء.

وقد أكد عمق هذا التأثير الديني في البدو الإمام عبدالله بن سعود

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب: مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم: ٣٩ ـ ٤٥، ١٠٨، الرسائل الشخصية: ٢٣٥، ٢٣٦، ابن غنام: ١/١٠٨، ١٦٣، ١٦٤، وفصل «الحياة الدينية لدى بادية نجد قبل الدعوة» من هذا البحث.

(٢) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: فتح المجيد: ص ١١٧ ومابعدها .

رحمه الله في رسالته لمحمد علي التي عرض فيها وجهة نظره في الصلح بين السعوديين وقوات محمد علي، والمهم في هذا أنه بين في هذه الرسالة أن الدولة السعودية قد جاهدت بادية نجد خاصة وشبه الجزيرة الواقعة تحت حكمها عامة، حتى عرف هؤلاءالبدو الصلاة وأقاموها بعد أن كانوا يجهلون الأركان والواجبات اللازمة لقيامها، وحتى آتوا الزكاة كركن من أركان الإسلام ودفعوها إلى بيت المال، وعرفوا الصيام وأدوه كما ينبغي، وكذلك الحج إلى بيت الله الحرام حيث عرفوا أحكامه[1]، وبالجملة فلم تأت نهاية عهد الإمام سعود حتى كانت البادية في غالبها تعرف أحكام الشرع العامة وتقيم شعائر الدين التعبدية على وجه العموم وإن كان ذلك على نطاق محدود.

أما الإمام عبدالله بن سعود فقد كان هو الآخر حريصاً علي تعليم أبناء البادية أمور الدين فلم تنقطع البعوث الدينية في عهده، ورغم أن البلاد بدأت تواجه خطر حملات محمد علي فإن المسائل الدينية قد لقيت اهتماماً كبيراً من الدولة في عهده حيث كان الأمر بإقامة الصلاة جماعة والتشديد في ذلك يعد سمة من سمات عهده كما في عهود أسلافه[2].

وبينما لا تذكر المصادر النجدية مظاهر التأثير الديني على البدو بالتفصيل فإن كتب الرحالة الغربيين تذكر أن من أبرز هذه المظاهر هو ترحيب البدو منذ تحولهم إلى تأييد الدعوة السلفية بالعلماء الذين توفدهم الدولة السعودية لتعليمهم أمور دينهم، وكمثل على ذلك فإن عنزة أو أفخاذاً منها على وجه الخصوص قدأعلنت ولاءها للدعوة، وانتشر بينها العلماء وأئمة الصلوات الذين إضافة إلى تعليم هؤلاء أمور دينهم وإمامتهم في صلواتهم، وحل مشاكلهم

---

(١) عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق :٣٢٤، ٤٣٢،د: العجلاني: عهد عبدالله بن سعود: ٤٦٩.

(٢) محمود شكري الألوسي: أخبار بغداد وماجاورها من البلاد. مخطوط بمكتبة المتحف العراقي: ص٢٢٧، ٢٢٨.

الشرعية كانو يقومون بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة[1].

ونتيجة لذلك فقد عرف البدو أحكام الصلاة وأوقاتها فراعوها بدقة حيث فصل علماء الدعوة في تلك الفترة أحكام الصلاة وقصرها لدى البدو فتشير إحدى الفتاوى بناء على سؤال من أحد البدو أو من يقوم بتعليمهم أن البدو ليسوا كالمقيمين ولا كالمسافرين، فإذا نزلوا منزلاً ونووا استيطانه مادام المرعي فيه، أو وقتا دون وقت فهم مقيمون وعليهم أحكام الإقامة، وأما إذا ظعنوا من منزل إلى منزل آخر أو ارتحلوا من ماء إلى ماء ومابين هذين المنزلين والماءين مسيرة يومين قاصدين فإنهم في حكم المسافرين يقصرون الصلاة، كما قد بين هؤلاء العلماء أن البدو المتنقلين ليس عليهم جمعة في الحال التي يكونون فيها في حكم المسافرين أي في حالة الانتقال[2].

وراعى البدو أحكام الصيام في رمضان الذي يأتيهم أحياناً في جمارة القيظ فلايسمحون لأنفسهم بالفطر فيه إلا خشية الموت حيث يجوز هنا الفطر، وقد راعى أئمة الدعوة مجيء رمضان في الصيف أحياناً وتكلف الرعاة للإبل والغنم مشقة الصيام لأجل ذلك فرتبوا بعض الأحكام التي تندرج كلها تحت جواز الإفطار خشية الموت من العطش[3].

وعرف أبناء البدية الزكاة فأصبح يؤديها قسم كبير منهم طيبة بها نفسه وإن كان بعضهم يؤديها كرمز من رموز الولاء السياسي فقط، وبعضهم يمتنع عن تأديتها لاحن بينهم وبين الأمير المعين من الدولة السعودية، وبعد أن كانوا يأخذون الإخاوات من المارين بمواطنهم من حجاج، أو قوافل تجارة، أو عابري سبيل، منعت هذه الحكومة كل تلك الإخاوات واستبدلتها بالزكاة الشرعية التي

---

(١) Burokhardt. . Notes 1/99.

(٢) عبدالرحمن بن قاسم : الدرر: ٤/٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣.

(٣) المصدر السابق: ٤/٣٨٣

انبث عمال الحكومة يجمعونها من القبائل ويوزعونها فيها مما أثر على المستوى الاقتصادي للبادية حيث كانت تؤخذ وفق الأمر الشرعي وتوزع في مصارفها الشرعية، فلا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا ضعيفها بل أواسطها إلا من غيب من إبله أو غنمه شيئاً لقليلها أمام الخرّاص[1]. فإنه تؤخذ منه الزكاة بعد أن يلزم بإخراج بهائمه كاملة ثم يؤخذ منه النكال بلا ظلم من الخراجين الذين كان الإمام عبدالعزيز يوصيهم - قبل انطلاقهم لجمع الزكاة - بتقوى الله وعدم ظلم الناس وضبط إخراج الزكاة ودفعها بشدة ودقة[2].

وكان توزيع الزكاة أحياناً يتم عن طريق بعثها للدرعية لحصرها ومن ثم ترسل إلى فقراء النواحي والبلدان والبوادي، كما أن أخذها كان يعقب أخذ صاحب الدين دينه من الشخص المراد أخذ الزكاة منه، وكذلك من سرق له شيء[3].

ونظراً لكون أداء الزكاة يشكل صورة من صور الولاء السياسي الذي كانت تعتقد به القبائل من هذا الجانب فقط مما أثر على درجة ولائها فيما بعد، وحرصاً من أئمة الدولة السعودية على تركيز المفهوم الشرعي لهذا الركن من أركان الإسلام، فقد أصبح قسم من أبناء البادية يؤمن بهذا المفهوم نتيجة لتأكيد الإمام عبدالعزيز خاصة عليه مما جعله يكسب قلوب رعاية وخاصة أبناء البادية الذين كانوا يكنون لأئمة الدولة السعودية الأولى وخاصة الإمام

---

(١) الخراص من الخرص وهو الحزر والتقدير. فصيحة والمقصود به هنا العامل الذي يرسله ولي الأمر لحصر أملاك الناس وتقدير زكاتها، ويسمى أحياناً المزكي، وإن كان لايقبض الزكاة بل تقبضها عوامل أخرى مرسلة من الدرعية أو توزع في بلدها على أهل الزكاة. (الفيروز آبادي: ٢/٣٠٠).

(٢) ابن بشر: ١/١٤، ١٧٣، الريكي: ٥٣، د: العجلاني: عهد عبدالعزيز بن محمد ص ٢٦٧

(٣) ابن بشر: ١/١٧١.

عبدالعزيز كل تقدير واحترام[1].

وعلى أي حال فقد أثرت هذه الشخصية في بعض القبائل شديدة المراس كعنزة التي لم تستطع الدولة السعودية في أوائل عهدها إخضاعها، حيث وافقت متطوعة على أداء الزكاةالذي يبدو أنه كان مظهراً من مظاهر احترامها لهذا الإمام الورع حيث أن قسماً من هذه القبيلة لم يدفع الزكاة منذ عدة سنوات بعد وفاة عبدالعزيز[2]

والمهم في هذا أن زكاة القبائل النجدية كانت ترد إلى الدرعية بانتظام طيلة عهد الإمامين عبدالعزيز وسعود وصدر من عهد الإمام عبدالله حيث توضح الأرقام التي يوردها المؤرخون النجديون لها أن هذه الزكاة تشكل مورداً اقتصادياً رئيسًا للدولة والمجتمع بقدر ماتشكل التزاماً دقيقاً بركن مهم من أركان الإسلام يؤدي دافعه جانباً من واجباته الشرعية وولائه السياسي، وهذا مايوضح حرص الدولة على تأدية أتباعها له بكل دقة[3].

وقد تمثل حرص هذه الحكومة في الطريقة التي تقبض بها زكاة البوادي. بشكل خاص - حيث الخوف من عدم تأديتها - فقد كانوا يبعثون إلى البدو بضعاً وسبعين فرقة كل فرقة سبعة رجال: أمير، وكاتب، وحافظ دفتر، وقابض للدراهم التي تباع بها إبل وأغنام الزكاة، وثلاثة خدم لرعاية شؤون الأربعة، وجمع الإبل والأغنام المقبوضة لبيعها، والذي يظهر من هذه الطريقة أن الزكاة تباع ثم ترسل دراهم للدرعية، إلا أن بركهارت يقرر بأنها تدفع نقداً

---

(١) أثبتت المصادر المؤيدة للدعوة والمعارضة لها، والتقارير الغربية على شخصية الإمام عبدالعزيز، وعلى سبيل المثال انظر: (ابن بشر: ١٦٨/١ - ١٧٤، الريكي: ٣٧، ١٧٢، ١٧٣، العجلاني: عهد عبدالعزيز بن محمد: ٢٠ - ٢٢، ريموند: ص٢٠).

(٢) كان قسم من عنزة بزعامة آل هذال يناوىء الدعوة وآل سعود منذ بدء الدعوة وتكوين الدولة السعودية الأولى(أمين الريحاني نجد وملحقاته ص ٤٥)

Burokhardt. Notes. 1/9106.

(٣) ابن بشر: ١٧٣/١، ١٧٤، ٢٣٢.

من صاحب المواشي بعد تقويمها لأنه لا أغلى على البدوي من مواشيه التي يريدها أن تتكاثر[1].

وقد حرص ابن بشر على ذكر القبائل البدوية التي تؤدي الزكاة للدولة السعودية كرمز لولائها لها وذلك في نهاية عهد الإمامين عبدالعزيز وابنه سعود بشكل خاص، ويستفاد من ذكره للإحصاءات شبه الدقيقة لزكاة كل قبيلة من هذه القبائل أن زكاة البوادي لاتقل كثرة عن زكاة الحاضرة إن لم تفقها نظراً لكثافة النسبة البدوية بين سكان نجد في تلك الفترة، وكثرة الأموال وخاصة المواشي بينهم وفي أوج سعة الدولة السعودية الأولى بلغت نسبة زكاة بوادي نجد إلى نسبة زكاة البلدان النجدية، والبوادي والبلدان خارج نجد أكثر من خمس الزكاة الإجمالية[2].

وباعتبار الزكاة ركنا من أركان الإسلام، ومظهراً من مظاهر الولاء للدولة ومصدراً اقتصادياً رئيسا للدولة والمجتمع، فقد حرص أئمة الدولة السعودية الأولى على الإلزام بدفعها من خلال الخطابات العامة التي يوجهونا، والتي كانوا يركزون فيها على استثارة الجانب الخيّر في النفوس لتأديتها من منطلق شرعي حيث يخوفون مانعيها من عقاب وعذاب الله قبل أن يهددوهم بالعقاب الصادر من الحكومة، ومامن شك فإن هذا الأسلوب كان عاملاً مهماً في دفع كثير من أبناء البادية لتأدية الزكاة طيبة بها نفوسهم على أن هذا كان يتزامن أحياناً مع عقاب الحكومة حيث إن قسماً من أبناء البادية لايفيد معهم هذا الأسلوب وحده لأن تأدية الزكاة لامجال للتهاون فيه[3].

ويبدو أن من أسباب عدم تأدية بعض البدو للزكاة المترتبة على عدم

---

(١) ابن بشر: ١/٢٣٢، Burokhardt. Notes . 1/105

(٢) ابن بشر: ١/ ٢٣٢،١٧٣، الريكي: ١٧٠، د: عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق: ٢٤٥.

(٣) د: العجلاني : هد سعود الكبير: ٢٥٣.

اعتناقهم الدعوة السلفية هو اعتقادهم أن الزكاة مثلها مثل الجزء الأكبر من الغنائم داخلة ضمن ماكان يلزمهم به زعماؤهم من مستلزمات مادية يعجزون عن تحقيقها مما يترتب على ذلك استلاب ثرواتهم من هؤلاء الزعماء قبل قيام الدولة السعودية فخشي هؤلاء البدو أن يكون دفع الزكاة أسلوباً آخر يضاف إلى هذه المتطلبات المادية المرهقة، ويبدو أيضاً أن هذا الخوف هو مادفع بأئمة الدولة السعودية الأولى إلى التأكيد على الجانب الشرعي في الزكاة، والمصالح الدنيوية والأخروية المترتبة على أدائها بطيب نفس، وإلى التأكيد على أن من يعترف بعقيدة التوحيد وشريعة الإسلام لن يضار في نفسه ولا أمواله مادام محققاً لأركان الإسلام في نفسه وأمواله[1].

ولعل أهم شيء بعد المعرفة التفصيلية الواعية بعقيدة الإسلام، وإقامة أركنه إقامة شرائعه التفصيلية، فعلى ضوء ما مر ذكره من أن بادية نجد كانت تتحاكم فيما بينها إلى أعراف وتقاليد لاتمت إلى الإسلام بصلة، وعلى ضوء نقد الشيخ محمد بن عبدالوهاب لتلك الأعراف والتقاليد التي كان من أوضح معطياتها إبطال الحق وإحقاق الباطل، على ضوء ذلك كان اهتمام الدولة السعودية الأولى بتحكيم شريعة الله عبر مصادرها الرئيسة وإحلالها مكان حكم العارفة، فألزمت البادية بالتحاكم إلى الشريعة حيث طبقت فيهم وفيما بينهم وبين غيرهم أحكام الإسلام فأقامت الحدود والعقوبات التعزيرية التي جعلت للشرع هيبته[2] وللسلطة احترامها وهيبتها.

وكان النكال المادي وحلق اللحية من أبرز الأحكام التعزيرية التي تصدرها الحكومة ضد البدو ذلك، أن محبة البدوي للمال وتكريمة التام للحيته

---

(١) جان ريموند: ٢٠.

(٢) د.عبدالله الشبل: الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ص ٦٣، مجلة الدارة: ع٣ / س٤ ص ٣٨ من مقال للدكتور عبدالله العثيمين، وص ١٠٢ من مقال للأستاذ منصور الرشيد عن قضاة نجد.

يوجبان عليه الخوف من ارتكاب أي محظور لاتسمح به الدولة، وفي هذا المجال يذكر بركهارت أن أحدالبدو قد ارتكب ذنباً لا يوجب حداً بل تعزيراً حسب رأي الحاكم فما كان من سعود بن عبدالعزيز إلا أن أمر بحلق لحيته، ولما كان هذا العقاب من أصعب العقوبات على البدوي التمس من سعود أن يبقي لحيته، ويدفع بدلاً عن ذلك فرسا، ولما كان سعود وأئمة الدعوة السلفية عامة في تلك الفترة ينظرون إلى وضع اللحية من منظور شرعي فقد آثر أن يترك له لحيته مقابل الفرس الذي سرعان ماجاء به البدوي، ويبدو أن أصالة هذا الفرس وحب سعود لبقاء لحية هذا البدوي بشكل خاص هو ما دفعه للتنازل عن العقوبة التعزيرية إلى النكال المادي، وتدل هذه الحادثة وغيرها على حرص الدولة السعودية على تطبيق الأحكام الشرعية بما يكفل احترام الدين وهيبة الدولة كما تدل على احترام بعض البدو للأحكام الصادرة من هذه الحكومة باعتبارها جهة دينية وسياسية في الوقت نفسه والإسلام لا يعرف التفريق بين الدين والسياسية.[1]

ولقد كانت القبائل التي تخضع للدرعية تنعم بنظام قضائي صالح وعادل لتطبيق أحكام الشرع فيه، وفي هذا المجال فإن الأمام عبدالعزيز كان يركز على أبناء البادية بالتزام النظام والاحتكام إلى القضاء الشرعي لا العرفي، وقد توسع سعود في ذلك حيث أكثر من القضاة ليشملوا مواطن البدو، وكان يتشدد في اختيار القضاة من أعلم الناس وأنزههم، وقد دعم احترام هذا القضاء الشرعي لدى البدو كونه عادلاً ونزيهاً على العموم، ومجانياً، ومستقلاً وحراً لاسلطان لأحد عليه حتى الإمام، وهذا ماجعل ابن البادية الذي لم يألف هذا النوع من القضاء يأنس به، ولا يتصرف إلا بمقتضى حكمه ويخضع له ولايخضع لسواه كما أن كون القضاء العرفي قبل الدعوة يلزم المتخاصمين دفع أموال للقاضي مما

---

(١) د: العجلاني : عهد سعود الكبير: ١٧٩ نقلاً عن بركهارت.

يؤثر على عدالة الأحكام الصادرة منه حيث يكون الحكم مع من يدفع ضد من لايدفع، ومن يدفع أكثر ضد من يدفع قليلاً، كون هذا القضاء بهذه الصورة وتأكيد الدولة السعودية على مجانية القضاء ونزاهته أضفى عاملاً رئيسًا لاحترام البدوي لهذا القضاء الشرعي[1].

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا القضاء الشرعي كان أسلوباً من الأساليب التي اتبعها أئمة الدولة السعودية والتي أدت إلى تحضر البدو ووعيهم إلى حد ما وهم في باديتهم[2]؛ لأن هذا القضاء قد طبق على البدوي والحضري والغني والفقير أحكام الشرع فلم يطبق على الحضر أساليب البدو الجائرة وحتى فيما بينهم، بل طبق فيهم وفي الحضر الأساليب الحضرية المتمشية مع أصول القضاء الشرعي مما أخضع رؤساء القبائل لأحكام هذا القضاء، وأوجد بالتالي نوعاً من العلاقات الاجتماعية الطيبة بين القبائل البدوية فهدأت الأحوال فيما بينها لأنها

---

(١) د: العجلاني : المرجع السابق: ٣٢٧.

(٢) يعتبر أسلوب الدولة السعودية الأولى في هذا المجال أسلوبا بعيد النظر حيث حرصت على تحضير البدو سلوكاً وإبقائهم على أسلوب معيشتهم وسكناهم في الصحراء إدراكاً من هذه الدولة بأهمية الحفاظ على الجوانب الإيجابية في حياة البدوي من زاوية اجتماعية ببقاء البدوي محتفظاً بعاداته وتقاليده الطيبة والتي يخشى عليها من الاندثار إذا تحضر، أو من منظور اقتصادي بالحفاظ على مهنة من أهم المهن البدوية التي لايستغنى عنها أي مجتمع مهما بلغت درجة رقيه وحضارته وهي مهنة الرعي التي تحافظ على التكاثر النوعي والعددي للمواشي بدرجة لاتستطيع معها الزراعة وتربية المواشي عن طريقها أن تسد حاجة المجتمع منها، يؤكد ذلك حرص الدولة المتقدمة على هذه المهنة وتشجيع من يقومون بها، وإذا كان هذا الأسلوب لم يتح له التطبيق الفعلي على نطاق واسع لعدم تمكن الدولة - لأسباب عديدة - أهمها جدية أعدائها في القضاء عليها - من ذلك فهو على الأقل يمثل جانباً من جوانب التطبيق العملي لنظرة الإسلام للبدو والبداوة. ولئن كان هذا الأسلوب قد أتى ثماره في وقته فإن لكل فترة مايناسبها ولكل حالة لبوسها وهو قد شكل أرضية جيدة لمحاولات أئمة الدولة السعودية نشر تعليم الدين من البدو حتى عهد الملك عبدالعزيز تدارك بثاقب نظره هذا الأسلوب من خلل في التطبيق فأثمرت جهوده زيادة في الوعي الديني والرغبة في التحضر مما زاد تدارك ولائهم للدولة وجنوحهم للسلم في تعاملهم بين بعضهم وبينهم وبين الحضر.

أصبحت تتحاكم فيما تختلف فيه إلى القضاء العادل بعد أن كانت تتحاكم إلى القضاء العرفي الذي يزيد هذا الاختلاف ويؤدي به إلى التناحر[1].

ولما كان القضاء لدى بادية نجد قبل الدعوة منوطاً بشيوخ القبائل الذين يصدرون أحكاماً عشائرية قد تلزم المتهم ـ ولو لم يكن مذنباً ـ بالتزامات أدبية ومادية يعجز عن تحقيقها، أو منوطاً بالقاضي العرفي الذي يفعل الشيء نفسه. ويأخذ البدوي النجدي الأحكام الصادرة من أي من الجهتين مأخذ التسليم المطلق، لما كان القضاء البدوي بهذه الصورة فقد جاء تطبيق القضاء الشرعي ليوجد نوعاً من الحرية الشخصية المنظمة لدى البدوي فجعله لايعترف بالأحكام الصادرة من شيخ القبيلة أو العارفة ـ وإن كان يعزها ويأتمر بأوامرها العامة ـ بل جعله ذلك لايعترف إلا بحكم الشرع الذي يتقبله منشرح الصدر حتى وإن كان الحكم الصادر ضده[2].

وكما مر فقد كانت قيادة الدولة السعودية تجعل في كل قبيلة قاضياً ومفتياً وإماماً للصلاة، وقد تجتمع هذه المهمات في شخص واحد وقد يكون هنا القاضي هو المعين لدى البلدان القريبة من مرابع هذه القبيلة أو تلك ولا شك إن هذا له بعد آخر إذ أن المشكلات قد تحدث بين البدو والحضر في منطقة من المناطق فوجود القاضي للطرفين يحل كثيرا من هذه المشكلات ويساعد في تحقيق الوئام بين الطرفين، إلا أن القاضي أحياناً يبعث إلى البادية ليجلس سنة فقط ثم يعود ليرسل إلى قبيلة أخرى ويرسل بدله غيره، ولعل السبب في ذلك خشية الدولة من سيطرة شيوخ القبيلة ووجهائها على سلطة القاضي إما عن طريق إكرامه أو إهانته، أو أن الخلافات بينه وبين أفراد القبيلة كانت تكثر مما يستلزم معها إرجاعه وإرسال غيره، أو أن ذلك يخضع

---

(١) العجلاني : المرجع السابق ٣٢٩

(٢) الأب انستاس ماري الكرمي: خلاصة تاريخ العراق إلى يومنا هذا. مطبعة الحكومة. البصرة ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م ص ١٦٥، مجلة الدارة ع٢ /س٤/ ص١٧.

لتنظيمات داخل السلك القضائي تتطلب بعث هذا القاضي أو ذاك إلى هذه القبيلة أو تلك، سواء كان ذلك راجعاً إلى شخصية القاضي أو لحجم القبيلة ومكانتها في المجتمع البدوي[(١)].

ولم يقتصر الأمر على هذا فقط بل كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأبناؤه وتلاميذه من بعده، والأئمة من آل سعود يرسلون بين الفترة والأخرى رسائل ومواعظ عامة للمسلمين حاضرة وبادية مذكرينهم أحكام الدين وشرائعه، وقد يلاحظ هؤلاء العلماء والأئمة ملاحظات على أهل بلدة معينة أو قبيلة فيخصونها برسالة فيها تذكير بالله سبحانه وأليم عقابه، والحرص على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أسلوب هذه الرسائل من الوضوح بحيث يفهمه عامة أهل نجد حاضرة وبادية علاوة على كونه يحوي كثيراً من الألفاظ النجدية العامة[(٢)].

على أن عدم الاستجابة السريعة من بعض بادية نجد للمبادىء الدينية الإصلاحية التي جاءت بها الدعوة قد أوجدت بعض المظاهر السلبية التي مامن شك في أنها أثرت على درجة التطبيق لأحكام الشرع بل والتزام أحكام الإسلام وبعض أركانه، فرغم مجاهدة الدعوة ودولتها هؤلاء البدو على معرفة أحكام الدين ورغم التزام بعضهم بذلك، وأدائهم الشعائر التعبدية من صلاة

---

(١) ابن بشر : ١ / ٢٣٩، الريكي: ٥١، حسين خلف الشيخ خزعل: مرجع سابق ٢٦٧.

(٢) لقد حفل تاريخ ابن غنام بعدد من رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كما جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم مجموعة من رسائل الشيخ محمد وأبنائه وتلاميذه والأئمة من آل سعود في كتاب «الدرر السنية» وقد نشرت جامعة الإمام محمدبن سعودالإسلامية الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبدالوهاب في أسبوعه وقد نشرت أكبر رسائل الإمام عبدالعزيز ابن محمد بواسطة مؤسسة النور بالرياض، وإلى الوقت الحاضر وعلماء الدعوة، والحكام من آل سعود يرسلون بين الفترة والأخرى رسائل تحمل الأسلوب السابق نفسه، وأصبحت كتابة الرسائل منذ تلك الفترة لهذا الهدف تقليداً يحرص علماء الدعوة وحكام آل سعود على التمسك به وتوجيه الناس عن طريقه.

وزكاة، وإلقاء أكثرهم السلم لهذه الدولة، رغم كل ذلك فقد بقي قسم من أبناء البادية على بغيهم وظلمهم وعدوانهم سواء كان ذلك على الحضر أو على من استضعفوه من البدو ممن دخلوا في طاعة الدولة وآمنوا بالدعوة، وكانت الحكومة كلما أرادت تأديب مثل هؤلاء استندوا إلى القبيلة التابعين لها ظانين أن ذلك يعجز ولاة الأمر من أخذ الحق منهم(١).

إلا أن أئمة الدولة السعودية الأولى كانوا بتوفيق الله ثم بقوة جانبهم وهيبة سلطتهم، وعلى قدر مايحدثه هؤلاء من البغي والظلم والعدوان والتعاون على إخفائه في أوساط القبيلة، واستناداً إلى النظام البدوي بجعل رئيس القبيلة والقبيلة كلها مسؤولة عن أي جريمة يرتكبها فرد من أفرادها حتى يعثر على المجرم الحقيقي ويحكم عليه، استناداً إلى ذلك كله فقد ساغ لهؤلاء الأئمة أن يؤدبوا ابن العم في ابن عمه إذا آواه ليقوم بأداد ماوجب عليه من الحق والطاعة في المعروف، ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف والبراءة من المحاربين وقطاع الطريق(٢)، ولاشك أن أبرز النتائج التي أعقبت تلك الإجراءات احترام الشرع، ومبادئ الدعوة والداخلين فيها من قسم كبير من أبناء البادية، علاوة على تركيز المفهوم الديني تجاه هذه الإجراءات المتمثلة في بيان العقوبة من الله سبحانه علي من أوى محدثاً(٣)، والأجر العظيم منه سبحانه كذلك لمن دل ولاة الأمر على أي محارب أو قاطع طريق، ومن هنا فإنه كما أن لهذه الإجراءات جانبها الأمني فقد كان لها جانبها الديني نظراً لأن الأحكام كلها مستمدة من الشريعة الإسلامية التي ركزت على الجانب

---

(١) عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ:الرسائل المفيدة:١٥٦.

(٢) المرجع السابق: ١٥٦، وانظر محمد المانع: توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة: د: عبدالله العثيمين. ط (١) مطابع المطبوع. الدمام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ص ١٤٣.

(٣) ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لعن الله من آوى محدثًا».

التأديبي، وعلى الوعي بفلسفة هذا التأديب وحكمته، إضافة إلى أن هذه الإجراءات قد أدت إلى الإحسان للبدو المؤوين لقطاع الطرق والمحاربين بتخليصهم من ارتكاب ماحرم الله عليهم، وبالتالي فإن ذلك كان سبباً لصلاح قسم كبير من البدو وصيانة لأحوالهم الأمنية والدينية[1]، وأن توسيع نطاق هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] لتشمل قسماً من البادية في عهد هذه

---

(١) عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ: المرجع السابق: ١٥٧، وقد ذكر أن تلك الإجراءات هي التي تأولها أئمة الدولة السعودية الأولى وظهرت مصلحتها وقلت مفسدتها، واستدل على ذلك بمن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم ناقته العضباء وقال له: لم تأخذ سابقة الحاج؟. ولعل المقصود التي تسبق نوق الحاج فتسلبهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخذتها بجريرة حلفائك من ثقيف» أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

(٢) تشبه هذه الهيئةَ ديوان الحسبة التي عرفها الماوردي بأنها أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، على أن هذه الهيئة قد تنقص اختصاصاتها عن الحسبة في فترة من الفترات تبعاً لتوزع الاختصاصات، وكان أساس وجودها في المجتمع المسلم قول الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران آية ١٠٤، أما أساس تنظيمها في هذه الدولة فهي رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/ ٧٨٠م - ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) لأن فقرات هذه الرسالة تقرب من اختصاصات هذه الهيئة، وكذلك رسالة الحسبة للإمام ابن تيمية (٦٦١هـ / ١٢٦٣م - ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، وقد أكد الشيخ وأئمة الدولة السعودية الأولى على أهمية هذه الهيئة حيث حددوا شروط القائم بها في ثلاثة هي: ١ - أن يعرف ما يأمر به. ٢ - أن يكون رفيقاً فيما يأمر به وينهي عنه. ٣ - أن يكون صابراً على ماجاء من الأذى، وقد كانت هذه الهيئة واسعة الصلاحيات في تلك الفترة فمن مراقبة الناس في أداء الصلاة جماعة ومعاقبة المتخلفين عنها، والقضاء على مظاهر الفسق والانحراف في المجتمع إلي مراقبة البيع والشراء ومطابقتها للشرع وعدم البخس في المكاييل والموازيين إلى مراقبة الناس في تعدي بعضهم على بعض إلى مراقبة القضاة وعدم محاباتهم وجورهم الي مراقبة أمراء المناطق بل مراقبة الإمام نفسه، وقد ظلت هذه الهيئة محل تقدير أئمة وملوك آل سعود حتى الوقت الحاضر حيث لاتخضع لأي سلطة ماعدا سلطة الإمام أو الملك، للتفصيل عن هذه الهيئة: (أحمد ابن حنبل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعليق إسماعيل الأنصاري مطابع القصيم. الرياض ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م. نشر دار الإفتاء، علي بن محمد الماوردي: الأحكام السلطانية ط ٣ مطبعة ومكتبة البابي الحلبي. القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ص ٢٤٠ - ٢٥٩، أبويعلى الفراء الحبلي الأحكام السلطانية تعليق محمد حامدالفقي ط٣ مكتبة ومطبعة البابي =

الدولة لمن الأسباب التي أدت إلى تعميق الوعي الديني لدى البدو ذلك أن قيام هذه اليهئة بمهماتها في أوساط البدو ساعد على التزامهم بأداء الشعائر التعبدية - وخاصة الصلاة جماعة - ومعاقبة لمن لايحضرها بدون عذر، ومن المعتقد قيام هذه الهيئة بين البدو بمهمات أخرى سواء كانت عقدية أو تعبدية أو مظهرية سلوكية تتناسب مع المهمات الموكلة إليها بين الحضر رغم عدم ذكر المصادر لأدوارها بين البدو بالتفصيل، ورغم أن المرء يلمح تأثيرها فيهم ليس قوياً لأسباب لعل من أبرزها انشغال الدولة بحروب القوى والقبائل النجدية، وكذلك القوى غير النجدية في آن واحد تقريباً، علاوة على مجيء حملات محمد علي المدعومة من الدولة العثمانية في وقت مبكر من استقرار الأوضاع للدولة السعودية وتوحيدها البلاد.

ورغم كل ماسبق فإن مما لاشك فيه وجود أثر لهذه الهيئة في إضفاء شيء من الطابع الديني على حياة بعض البدو تمثل في تظاهر هؤلاء ببعض المظاهر الدينية التي جاءت الدعوة السلفية بإقرارها والحث عليها، ورغم أن بعض هذه المظاهر السلوكية كان التمسك بها بشكل واضح ومستمر مقتصراً على زعماء القبائل الذين يلقى نواب[1] هذه الهيئة منهم كل احترام وتقدير باعتبارهم يمثلون أئمة الدولة السعودية الأولى الذين كانوا قد أعطوا هذه الهيئة صلاحيات واسعة وكبيرة، رغم ذلك، فقد كان عامة البدو الموالين للدعوة

= الحلبي. القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ص ٢٨٤ ـ ٣٠٨، أحمد بن تيمية: الحسبة في الإسلام، الشيخ محمد بن عبدالوهاب: الرسائل الشخصية، ص ١٩٦،د.عبدالله العثيمين: الشيخ محمد بن عبدالوهاب من ص: ١٥١ ـ ١٥٣، جلال الدين العمري: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ترجمة عن الأردية محمد أجمل الإصلاحي. نشر شركة الشعاع. الكويت. الكتاب بأكمله، د: منير العجلاني: عهد سعود ٢٤١ ـ ٢٦٤).

(١) كان يطلق على أعضاء هذه الهيئة النواب واحدهم نائب منذ عهد الدولة السعودية الأولى كما تطلق الهيئة - بتحريف لفظي - عليهم جميعاً أو على أحدهم، وإلى وقت قريب بل إلى الآن وهذان الإطلاقان ساريان عليهم في بعض المناطق والبلدان النجدية، وعن قدم هذه اللفظة (ابن بشر: ١/١٩١).

يحرصون على أن يظهروا أمام هؤلاء النـواب بالمظهر الإسلامي اللائق بمن هم تابعين للدعوة الـسلفية، على أن ذلك كان لايعدو أن يكون مـظهراً من مظاهر الولاء العلني فقـط عند بعض هؤلاء البدو ساعدهم علـى ذلك جو الصحراء الفسيح، وكراهية الدولة للتجسس، وخاصة في أوساط البدو، علاوة على أن دور هذه الهيئة بين البـادية ـ فيما يبدو ـ لم يكن بالقوة التـي كانت عليها بين الحضر[1].

وكان أئمة الدولة السعودية الأولى مـن الحدب على هذه الهيئة أن كانوا في رسائلهم العـامة للمواطنين بادية وحاضرة يؤكدون عـلى أهمية أدوارها بل يلزمون أمـراء المناطق ومشائـخ القبائل الموالـية لهم بتأيـيد أعضائها، والـقيام بأدوارها انطلاقاً من تأكـيد الدعوة السلفية على أهمية الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وكان التحريض بـترك الصلوات الخمـس أو عدم الاهتمام بوقـتها وتجميـعها من أطراف البـوادي والموارد والمزارع النائـية عن البلدان مـن ملامح تلك الـرسائل، علاوة علـى نقد الأوضاع الديـنية عامة ممـا تعتبر داخـله في اختصاص هذه الهيئة.[2]

ولعل من أبرز مظاهر عدم الاستجابة الـسريعة من بعض البدو والامتناع عن أداء بعض الشعائر الـتعبدية، ومنشأ ذلك ماحدث من تغيـير اجتماعي في بعض القبائل بعـد الدعوة نتيجة رفع أمراء أفخاد صغار إلى إمـارة قبيلة كبيرة كالدواسر مـثلاً الذين رقى فيهم ربـيع بن زيد رئيس فخـذ المخاريم إلى إمارة القبيلة كلها حاضرة وبادية مما ترتب عليـه احتقار كبار مشايخ القبيلة وحسدهم له هذا المنصب، وعدم اعـترافهم بهذه الإمارة العامة عليـهم، إذ يرى بعضهم

---

(١) مقدمة تقرير جان ريموند: ص٣.
Buroknardt. . Notes . 1/106

(٢) د: العجلاني : المرجع السابق: ٢٤٣، كما أن الرسائل الوعظية في المرجع نفسه تؤكد على أدوار هذه الهيئة من ص ٢٤١ ـ ٢٦٤.

نفسه أولى بها لماله من رصيد قيادي سابق مما أوجد حاجزاً نفسياً بين زعماء هذه القبيلة المرموقين قبل قيام الدولة السعودية ومن تابعهم، والأمير الرسمي الذي لم يكن يملك ولاء جماعياً في القبيلة علاوة على مايبدو أنه كان ينتهجه من قسوة في معاملة معارضيه من زعماء أو أفراد، وهي قسوة لم تكن تألفها هذه القبيلة أو غيرها سواء كان ذلك فيما يتعلق بالولاء الجماعي لأمير عام، أو الانصياع لحكومة مركزية منظمة، وهو مايحتاج إلى شيء من الترويض.

ولما كانت الزكاة تعتبر مظهراً من مظاهر الولاء للأمير الإقليمي أو القبلي المعين من الحكومة السعودية وبالتالي فيه مظهر من مظاهر السيادة لهذه الحكومة، لما كانت الزكاة كذلك فقد كان عدم أدائها يشكل خرقاً لهذا الولاء وتلك السيادة وهو أبرز ماكانت تلجأ إليه الفئات المتمردة عن طاعة حكومة الدرعية، وفي هذا المجال حفظ لنا الشعر الشعبي المروي صورة من هذا القبيل، ويبدو أن لهم أمثلة في بعض القائل حيث يوجد فيها بعض المناوئين للحكومة المركزية، ولعل من الأمثلة على ذلك ماحصل في الدواسر حينما حاول ربيع بن زيد أن يشمل بولايته كافة الدواسر كما نص عليه تعيينه وطفق يجمع الزكاة الشرعية رمزاً لهذه الولاية، حيث ناوأه قسم من الدواسر كما مر ذكره في الفصل الأول فرفض أداء الزكاة، وجعل ربيعاً هدفاً لسخريته وتندره وصاغ ذلك على شكل أهازيج حرب، أو أراجيز من تلك التي تتردد عند مزاولة أي عمل من الأعمال أو حرفة من الحرف، فمن ضمن ما يروى في هذا الصدد قولهم عن ربيع:

ربيع شيخ هبيل　　　　يبغي من الوادي زكاة[1]

---

(١) هبيل: من الهبل وهو الكسب باحتيال، وإن كان قد يأتي بمعنى خفة العقل، والوادي: وادي الدواسر، ومعنى البيت استحالة دفع الزكاة لربيع لأن البيت يحمل السخرية منه والتهديد بالامتناع عن أدائها والبيت الثاني الذي سيأتي الكلام عنه يؤكد هذا المفهوم، (الفيروز آبادي: ٤/٦٧)، أما البيت فهو من مروياتي عن أحد الدواسر.

وهذا البيت كما يصور السخـرية والرفض عن أداء الزكاة بسبب أن ذلك يتم عن طـريق ربيع بن زيد، فـإنه يصور مظهـراً من مظاهر عدم الاسـتجابة السريعة لأداء الشعائـر التعبدية سواء كانت مالية أو بدنية، وهـو بالتالي يعطي تصوراً عن نسبة التأثر الديني بمبادئ الدعوة السلفية بين القبائل الموالية للدعوة كما أنه يعيد إلـى الأذهان قصة امتناع بعض القبائل العـربية عن أداء الزكاة في أول عصر الراشدين، إلا أنـه هنا لايعدو أن يكون جهلاً بأهمـية الزكاة كركن من أركان الإسلام وكونها عنواناً للالتزام بـالنظام الذي لم يألفوه، علاوة على أسلوب بعض الأمراء الشديد في تحصيلها وصرفها فيما يبدو.

على أن ذلـك لم يقتـصر على الامـتناع عن أداء الـزكاة بل تعـداه إلى الامتناع عن أداء الصلاة أحياناً[1] لدى بعض الفئات من القبائل المؤدية للدعوة كمظرين من مظاهر التحدي السافر لهذه السيادة الجديدة في نظر تلك الفئات، ويبدو أن لأسلوب المـعاملة الذي تنتهجـه بعض القيادات القبـلية الجديدة دور كبير في هذا حيث أساءت به إلى الدعوة السلفية، وإلى المدعويين من قبيلتهم.

ويؤكد البـيت التالي هذا الامتـناع عن آداء الزكاة حيث كـانون يرجزون بعد البيت السابق بقولهم:

لعيون منسوع الجديل   ماعاد نركع للصلاة[2]

---

(١) إما الامتناع عن ذلك كله أو الامتناع عن إقامتها جماعة، وهو ماكانت تؤكد عليه تعليمات الدعوة السلفية انطلاقاً من تأكيدالله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك في عدد من الآيات والأحاديث.

(٢) لعيون: أي لأجل عيون، وفيه قسم بغير الله،إلا أن يكون هناك مقدر بلفظ الجلالة فيكون الكلام: والله لأجل عيون، منسوع: لعلها من النسع بمعنى الظهور، أو السدل أو الطول، وكلها دواعي تغزل بشعر المرأة، الجديل: من فعيل بمعنى مفعول، وهو الشعر المفتول بإحكام، وكان الجدل من علامات الجمال عند المرأة حتى لتسمى به بعض النساء كجديلة بنت سبيع بن عمرو من حمير بل أصبح علما لحي من حمير ينتسب لها، على أن بعض رجال البدو يجدلون شعورهم كذلك، ماعاد، أي لن نعد، عن تحليل الكلمات: (الفيروزآبادي: ٣/٨٨ ، ٣٤٦،٣٤٧)، أما البيت فهو كسابقه ضمن إفادة شفوية من أحد الدواسر.

وبغض النظر عن دقة دلالة اللفظ على الواقع الديني لديهم حيث قد يجوز أن يكون ذلك من باب التلفظ فقط لإبراز التحدي ولايعني الحقيقة، فإن إبراز التحدي بهذا الأسلوب ينم عن جهل عميق بالدين الإسلامي كما ينم عن عدم استعداد وتوطين ذلك وقتياً لتلقى مبادئ هذا الدين، وهو بالإضافة إلى ذلك يبين نسبة التأثير الديني من قبل الدعوة السلفية بين الدواسر، ويجدر بالذكر هنا أن هذين البيتين ومايندرج تحتهما من مفاهيم لا يمكن أن يكونا نتيجة للتحول الديني بين البدو عقب سقوط الدرعية إذ أن ذلك يدخل في نطاق تحدي بعض الدواسر لربيع بن زيد الذي كان والياً لوادي الدواسر حتى عهد سعود أو أوائل عهد ابنه عبدالله ثم خلفه ابنه قاعد كما مر بيانه في الفصل السابق[1].

ولاشك أنه رغم وضوح هذه الصورة لدى قبيلة الدواسر فإن من المؤكد وجود مايشبهها لدى بعض القبائل النجدية الأخرى بنسب أكبر مما لدى الدواسر، ويكيد للدعوة ورغبة في القضاء عليها وعلى كيانها السياسي أكثر منه جهلاً بأحكام الدين والولاء لحكومة منظمة كما هو الحال لدى الدواسر وبعض البدو.

ولعل أهم قبيلة برزت فيها هذه المظاهر بشكل واضح هي قبيلة الظفير التي اتخذت من تركها لبعض الفرائض الدينية وسيلة للخروج عن طاعة الدولة السعودية التي كانت ترى في أي خروج جماعي عن تعاليم الدين الإسلامي الأساسية خروجاً عن طاعتها نظراً لأن هذه الحكومة قامت لتتبنى هذه المبادئ، ولأن ترك هذه الفرائض يسبقها أو يعقبها خروج مسلح على هذه الحكومة، وهو ماحدث من هذه القبيلة سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م كما أشرت إلى ذلك في الفصل الأول حيث قد تزامن تركها لبعض فرائض الدين في تلك السنة مع

---

(١) ابن بشر: ١/٢٣٧، ٢٨١.

تحزبها بجموع من بعض القبائل المناوئة للدعوة التي يبدو أنها اتفقت معها في ترك هذه الفرائض، إما ابتداء حيث لم تصلها مبادئ الدعوة السلفية أو لم تدخل في طاعتها رغم علمها بهذه المبادئ، وإما أنها قد دخلت في هذه الطاعة مثلها في ذلك مثل الظفير وأرادت التحلل من هذه الشعائر التعبدية كمظهر من مظاهر تحديها للدولة السعودية الأولى، ومعارضتها للدعوة السلفية، وإذا كان ابن بشر لم يبين هذه الفرائض التي كان تركها مع هذا التحزب سبباً في إرسال جيش سعودي عرمرم ضم قسماً كبيراً من البلدان والبوادي الموالية للدعوة وبقيادة الإمام سعود نفسه، إذا كان ابن تشر لم يبين ذلك فإن ذلك ـ كان متمثلاً في الامتناع عن دفع الزكاة، وآداء الصلاة كلية، أو عدم الاجتماع عليها في الموارد والمقاطن وهو ماكان يعتبر مظهراً من مظاهر المتابعة للدعوة السلفية وحكومتها يلقى المتهاون به التوجيه أو التأديب[1].

ومامن شك في أن الدعوة السلفية والدولة السعودية رغم كل ماسبق لم تتمكن من حمل البدو على الاهتمام بالأمور الدينية بشكل كبير لانشغال الدولة السعودية الأولى بتوحيد منطقة نجد ثم نشر الدعوة خارجها، ولم يتسنى لها بعد أن فرغت من ذلك أن تتفرغ للبدو لتكثف لهم الحملات الدينية لاصطدامها بالقوى غير النجدية، ولأن الدولة العثمانية قد جدت في القضاء على هذه الدولة الوليدة بأي شكل كان، إذ لو فرضت العزلة على نفسها حتى تتمكن من تلقين البدو والحضر الدين على حقيقته كما تهدف إليه، ثم انطلقت بعد ذلك في الغزوات لاستطاعت أن تحول بين بعض البدويين ما كان يروم إليه من التخلص من تعاليم الدين التي جاءت بتجديدها الدعوة السلفية والتي كانوا يعتقدون أنها عقبة في سبيل حريتهم.[2].

---

(١) ابن بشر: ١/١٨١، ١٨٢

(٢) ر. ب دوزي: تاريخ مسلمي أسبانيا: ١/٣٣،٣٤

ورغم أن قسماً كبيراً من القبائل الخاضعة للدولة السعودية خضوعاً مباشراً قد اضطرت طيلة عهد هذه الدولة الى مراعاة قواعد الدين الإسلامي الرئيسة مراعاة دقيقة وكان ذلك لدى هذا القسم عن اقتناع بالدعوة ورضي بسيادة الدولة، إلا أن قسماً من بعض هذه القبائل كان يظهر منتهى الإيمان والحماسة في سبيل هذه الدعوة خدمة لمصالحهم الشخصية فقط أو خوفاً من هجمات الدولة الناجحة عليهم، وبقيت قلوب بعضها غلفاً بعيدة عن الدين تنتظر أي فرصة تسنح لتتخلص من تعاليمه، فلم تكد جيوش محمد علي تقضي على قوة السعوديين حتى بادر قسم من هؤلاء البدو إلى التحلل من تلك الأعمال الدينية التي أرهقتهم على حد اعتقادهم[1].

ومن أبرز مظاهر هذا التحلل هو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوساط البدو، علاوة على تعطيل بعض الشعائر التعبدية، وكذلك تعطيل التحاكم بالشريعة، وانشغال البدو بالغارات على المدن والبلدان وعلى بعضهم البعض في إقامة تلك الشعائر مما جر إلى انتشار بعض المظاهر الانحرافية عن الدين، وأصبح ذلك أمراً مألوفاً بين البدو بعد ماكان من يقوم بها يلقى العقاب من قادة الدولة السعودية.[2]

وكان لإهانة إبراهيم باشا بعد سقوط الدرعية وكذلك جنود الحاميات التركية فيما بعد للعلماء وأئمة المساجد النجديين الدور الأكبر في انحراف كثير من النجدين حاضرة وبادية، علاوة على ماأفرزته تلك الجموع التركية من مؤثرات عقدية منافية للتعاليم السلفية حيث انتشرت مثل هذه المؤثرات في أوساط البدو خاصة، وإصبح الاعتقاد بها مألوفا لدى هذه الأوساط[3].

---

(١) المرجع السابق : ٣٤٠، د/ لعثمين: مرجع سابق، ١/ ١١٣

(٢) ابن بشر: ١ / ٢٨٣، ٣٠٣، ٣٠٥،٢/٧،د: العجلاني: عهد عبدالله بن سعود: ١٣٥.

(٣) ابن بشر: ١/٢٨٢، ٣٠٢، مقبل الذكير: طوق الحمامة: ٨٦، العقود الدرية: ٥٥، العجلاني المرجع السابق: ١٣٦، محمد الأحمدالسديري: أبطال من الصحراء: ١/٢٢٧، ٢٣٢ـ ٢٣٤.

وفي هذا المجال يقول أحد الباحثين الغربيين بعد سقوط الدرعية: «إن الدين اليوم يكاد يكون منعدماً في الصحراء، وليس هناك من أحد يراعى أوامر القرآن ونواهيه»[1].

وعلى أي حال فرغم أن الأثر الديني للدعوة السلفية على البادية في تلك الفترة لم يكن على مستوى كبير يرضي طموح هذه الدعوة، ولم يؤد النتيجةالتي كان يرجوها علماء وأئمة الدعوة له، ورغم مازامنه وأعقبه من مؤثرات دينية مغايرة أثرت على نسبته بين هؤلاء البدو، رغم كل ذلك فإنه قد شكل أرضية جيدة لمحاولات التوجيه والتوعية الدينية التي حصلت للبدو فيما بعد حيث أن ماحصل عليه البدو من تعاليم سلفية وإن كانت قليلة، ولم تنتشر بين البدو النجديين عامة قد كونت مادة رئيسة لعودة تلك القبائل للولاء لهذه الدعوة السلفية وكيانها السياسي في أدوارها التي تلت بعد ذلك.

R.B.Winder, Saudi Arabian The 19 Century, P. 56.

(١) دوزي: المرجع السابق: ٣٤.

الفصل الثالث

أثر الدولة السعودية والدعوة السلفية علي مظاهر الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد

رغم كل ماسبق ذكره في أول الباب من صعوبة تلمس آثار الدولة السعودية والدعوة السلفية على الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد بالتفصيل إلا أن الباحث لايعدم أن يلمح إشارات من هنا أو هناك تعطي بعض الملامح لهذه الآثار على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لدى تلك البادية على اختلاف في تقدير نسبة هذا التأثير بين قبائل البادية النجدية.

ومن المؤكد والدولة قد ضمت في ولائها عدداً من تلك القبائل - على اختلاف في درجة هذا الولاء بينها - أن تكون قد تركت تأثيراً واضحاً على بعض جوانب الحياة الاجتماعية لدى تلك القبائل التي مامن شك في أنها في محاولة منها لإثبات ولائها لهذه الدولة قد أتاحت للمبادئ السلفية من التغلغل إلى بعض جوانب حياتها الاجتماعية، فتنازلت عن بعض مظاهر تلك الحياة السيئة وسمحت للمبادئ السلفية بتوجيه المظاهر الاجتماعية الجيدة لديها وجهة دينية، على أن هذا التأثير كان نسبياً بين القبائل وبين مظاهر الحياة الاجتماعية في القبيلة الواحدة ذلك أن اختلاف درجة الولاء للدولة السعودية بين القبائل قد ساعد على اختلاف نسبة التأثير الديني بينها علاوة على أن أي قبيلة والت الدعوة ولاء جيداً لم تكن على استعداد للتنازل عن موروثات اجتماعية قديمة خصوصاً وأن الدعوة - فيما يبدو - لم تصطدم بتلك القبائل لأجل الموروثات مادامت لاتتعارض مع مبدأ عقدي من تلك التي أكدت الدعوة على تسيير أمور الحياة الاجتماعية على أساسها.

وفي هذا الفصل سأحاول - على ضوء المعلومات المتوافرة - أن أبين جوانباً من جهود الدولة والدعوة وآثارهما على بعض نواحي الحياة الاجتماعية لدى

البادية النجدية سواء كان ذلك بالنسبة للعادات والتقاليد أو الوضع القبلي الذي نجم عن انتشار هذه الدعوة بين تلك القبائل وسواء ترتب على ذلك تغيير في الوضع القبلي تحركاً بين القبائل أو كان تغيراً اجتماعياً والقبيلة في مرابعها التي كانت تقطنها قبل الدعوة:

١ ـ أثر الدولة والدعوة على الوضع الأمني:

إن الأمن المقصود به هنا اسم جامع لكل ماحفظ للإنسان حياته وكرامته من أمن جنائي إلى أمن غذائي إلى أمن اجتماعي إلى غير ذلك، وهو ماتسعى الحضارات والدول بمختلف أساليبها إلى إيجاده لشعوبها، وما من شك في أن الإسلام قدحرص ـ عبر آدابه وتشريعاته إلى توفير الأمن بمختلف أنواعه من حثه على الوعي والزراعة والتجارة والصناعة إلى قطعه لدابر الجريمة وفساد الأخلاق في المجتمع إلى حرصه على رعاية الفرد والحفاظ على الأسرة باعتبارها عماد المجتمع إلى تبنيه لمبدأ التكافل الاجتماعي بجانبيه المعنوي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمادي بتوفير العيش الكريم في أوساط المجتمع المسلم لمن يحتاجه ولايستطيعه عبر الزكاة والصدقة وغيرهما من وجوه البر والإحسان في تفصيل في ذلك كله ليس هنا مجال البسط فيه.

ولقد حرصت الدولة السعودية الأولى بتطبيقها لمبادئ الدعوة السفلية على تهيئة السبل لتنفيذ كافة أنواع الأمن بين البدو تمهيداً لاستتباب الأمن المقصود بذلك وهو الأمن في السبل وبين المرابع الذ ي استفادت منه بالدرجة الأولى حاضرة نجد أكثر من باديتها كما استفاد كذلك كل العابرين من الحجاج والتجار وناقلي التجارة .

ولما كانت هذه الدولة قد أشبعت، نهم ابن البادية في كثرة غزواتها مستغلة في ذلك محبة البدوي للغزو علاوة على توجهها لهذا الغزو نحو الأهداف

السامية التي جاءت بها التعاليم الدينية بجعله جهاداً في سبيل الله لإيجاد كيان سياسي منظم، لما فعلت الدولة ذلك فقد قنع البدوي النجدي بذلك لممارسة رياضة الغزو لديه، ثم إنها - في نطاق ذلك - قد سدت حاجة البدو الاقتصادية من هذا الجانب، فقد أبدلت البدوي الكسب الذي يحصل عليه من جراء غزواته التي كان يقوم بها في فترة ما قبل الدعوة هذا الكسب الذي يعتبر مورداً اقتصادياً ضرورياً في نظر البدوي، أبدلته بغنائم الحروب التي كانت تقوم بها ويتم توزيعها على المحاربين وفق الأحكام الشرعية المرتبة لذلك، ولاشك أن شمول توزيع الغنائم على المحتاجين من الفقراء والمساكين قد أوجد تكافلاً اجتماعياً في أوساط البدو بخلاف توزيع كسب الحروب السابقة، وأوجد بالتالي ارتياحاً عاماً من البدو تجاه هذا التوزيع الشرعي، علاوة على كثرة تلك الغزوات وكبر حجمها أحياناً كانا يؤديان إلى مردود مالي جيد بالقياس إلى الغزوات البدوية الخاطئة قبل قيام الدولةالسعودية.[1]

ونظراً لكون الضرائب المرورية أو الإخاوات تشكل مورداً مالياً جيداً للبدو قبل قيام الدولة السعودية تلك التي يفرضونها على القوافل التجارية أو حملات الحج أو أي مجتاز للصحراء، ونظراً لكون عوائد هذا المردود لاتصل إلا إلى الأقوياء من البدو، وحرصاً من الدولة - من قبل ومن بعد - على توسيع المنافذ المؤدية للأمن في نجد، نظراً لهذا كله فقد قامت الدولة السعودية الأولى بحرب شعواء ضد هذه الإخاوات، وهي في سبيل تنفيذ ذلك قد رتبت رواتب مجزية من بيت المال لزعماء القبائل التي تتعرض للطرق وخاصة طرق الحج، وما من شك في أن هذا الأسلوب يعتبر أسلوباً مثالياً للقضاء على ظاهرة قطع الطرق بتجفيف الروافد المؤدية إلى ذلك بتلبية حاجات الضرورة

---

(١) ابن بشر : ١/٢٢٨، الربكي: ١٧٠، د: عبدالرحيم عبدالرحمن: ٢٤٦، ٢٤٧.

الاقتصادية الملحة التي قد تدفع للقيام بهذا العمل عن طريق إجراء تلك الرواتب، وأخذ التعهد من الزعماء بعدم القيام بكل مامن شأنه تعكير صفو الأمن في الطرق العامة في نجد وخاصة تلك التي يسلكها حجاج بيت الله الحرام.(١)

وقبل هذا وذاك فقد كان دور الزكاة كبيراً في تحقيق قدر واسع من الأمن الاجتماعي بين البدو إذ كانت من أهم العوامل التي سدت الفراغ الاقتصادي الذي خلفه القضاء على الإخاوات، ولما كانت تشكل مورداً ماليا كبيرًا لبيت المال سواء تلك التي تجبى من الحضر أو البدو فقد كان توزيعها شاملاً لمصارفها الشرعية بين الفريقين، ولاشك أن مجيء تلك الكمية الكبيرة من زكاة البدو - كما مر - دليل على اقتناع البدو بالمردود الاجتماعي الجيد لها إضافة إلى معرفتهم بها كركن من أركان الإسلام رغم وجود بعض مظاهر التحدي للسلطة الإقليمية أو المركزية التي كانت تصاحب قبضها كما مر.(٢)

أما الأموال المصادرة أو النكال المادي الذي كان يُقْضَى يضمها إلى بيت المال وصرفها في مصارفه فقد كان من أهم أهدافها التأديب وسد حاجة المحتاجين من أبناء البادية والحاضرة على حد سواء مما يجعلها تحقق قدراً من الأمن الاقتصادي يدفع البدو - بشكل خاص - إلى سد حاجتهم عن طريق ذلك بدلاً من سدها عن طريق الغزو والنهب والسلب مما يجعلها بالتالي تسهم بدور جيد في تحقيق الأمن الجنائي بين البدو أنفسهم وبين البادية والحاضرة.(٣)

وما من شك في أن هذه الموارد الرئيسة قد أدت دوراً رئيسًا في تحقيق

---

(١) ابن بشر: ١٤/١، الريكي: ١٧٠، جاكلين بيرين: ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) د: عبدالرحيم عبدالرحمن: ٢٤٣ - ٢٤٦

(٣) ابن بشر: ١٦٩/١، ١٧٣، الريكي: ٥١، د: عبدالرحيم. عبدالرحمن: ٢٤٧.

أهداف الدولة السعودية الأولى باستتباب الأمن بكافة أنواعه، وهي إذ قامت بتنفيذ حقوق المسلمين عامة والبدو خاصة في بيت المال من هذه الموارد فإنما أرادت أن تقضي على الدافع الاقتصادي وراء تعكير الأمن في نجد.

ولقد حرصت هذه الدولة على توجيه الصرف من هذه الموارد بما يحقق مبدأ التكافل الاجتماعي وبما يساعد على تجفيف الروافد المؤدية إلى الإخلال بالأمن وخصوصاً في أوساط البدو، ومن هنا فقد كان الصرف على المساكين والفقراء، وأبناء السبيل ومن تحل بهم كوارث أو يتوفى عائلتهم من أوائل أوجه الصرف من بيت المال باعتبار أن هذه الأوجه من مصارف الزكاة الشرعية التي تعتبر مورداً رئيسًا من موارد بيت المال فكان الإمام ملزماً بتقديم الصرف على هذه الأوجه عن غيرها من المصارف الأخرى[1].

ثم إن تنفيذ الدولة لمبدأ الضمان الاجتماعي كان عاملاً من عوامل الاستقرار وشيوع الأمن في المجتمع، ذلك أن بعضاً من أعمال السلب والنهب التي كان يقوم بها بعض أبناء البادية وبعض أبناء الحضارة أيضاً مبعثها الفقر والفاقة وعدم وجود من يعول هذه الأسرة أو تلك، وفي هذا السبيل يذكر المؤرخون أنه كان إذا مات الرجل في جميع نواحي نجد أتى أولاده إلى الإمام عبدالعزيز وابنه سعود يستخلفونه[2] فيعيطهم عطاء جزيلاً، وربما كتب لهم في الديوان راتباً شهرياً أو سنوياً على شكل ضمان اجتماعي[3].

وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتمت الدولة بالضعفاء والمساكين الذين ربما

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٨

(٢) من الاستخلاف بمعنى يطلبون منه أن يكون خليفة لهم عن عائلهم بالإنفاق عليهم أو تهيئة فرص العمل للقادر منهم.

(٣)ابن بشر: ١/١٧٣، صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية: ١/٨٣.

يؤدي تركها إلى ارتكابها لجرائم فكان هـؤلاء بمجرد قدومهم الدرعية وتقديمهم كتاباً يبين حاجتهم وفاقتهم يوافق عليه الإمام ولو كان مع أحدهم أكثر من كتاب بأسماء متعددة، ولاشك أن في هذا الإجراء قطعاً لدابر الجرمية بقطع مسبباتها وخاصة بين البدو، كما أن فيه ترسيخاً وتعميماً لمبدأ التكافل الاجتماعي في أوسط المجتمع النجدي[1].

والدولة السعودية بالإضافة إلى ذلك قد حرصت على تركيز الاهتمام بالإكثار من الصدقات في المجتمع النجدي عن طريق إرسال الصدقات من بيت المال وتشجيع الأثرياء بدفع صدقاتهم إلى فقراء البلدان والنواحي وضعفاء البوادي.

وكان شهر رمضان المبارك مجالاً رحباً لصرف المزيد من صدقات التطوع والزكاة الشرعية مما جعل بعضاً من فقراء ومساكين نجد حاضرة وبادية يفدون إلى الدرعية ويقيمون فيها طيلة الشهر الكريم يطعمون ويشربون ليحصلوا في آخره على ملابس وعطاء مالي، على أن الدولة تأمر أمراء الأقاليم بالإنفاق على بيوت الضيافة فيها في رمضان وغيره وترسل لهم مخصصات لهذا الغرض إذا بقي وفر في بيت المال بعد إرسال الصدقات إلى النواحي والبوادي لمن لم يتمكنوا من القدوم إلى الدرعية في رمضان[2].

وكانت المحصلة الطبيعية لهذه الإجراءات التكافلية وغيرها مما ليس هنا مجال التفصيل فيه أن خفت حدة السلب والنهب التى كان يقوم بها البدو فيها بين بعضهم البعض أو فيما بينهم وبين الحاضرة، فتشير مصادر تلك الفترة إلى

(١) ابن بشر: ١/١٧٣، د. العجلاني: عبدالعزيز بن محمد ٢٦٧،٢٦٨.

(٢) ابن بشر: ١/٢٣٠، ٢٣١.

شيوع قدر جيد من الأمن في المجتمع النجدي حاضرة وبادية في جل عهد هذه الدولة[1].

واستكمالاً لتلك الإجراءات الوقائية ضد ما كانت تعاني منه نجد من تجاوزات اجتماعية نتيجة الفوضى، فقد كان أئمة هذه الدولة من الحزم والسرعة والدقة في تنفيذ الأحكام التأديبية ضد أي بادرة يشم منها رائحة العودة إلى أسلوب النهب والسلب مهما كانت الحادثة المصاحبة لهذا الأسلوب صغيرة أو كبيرة[2].

وإذا كانت النظرة المتبادلة بين البدو والحضر والعلاقة الاجتماعية المترتبة على ذلك سيئة على مامر بيانه في الباب الثاني، فإن هذه العلاقة قد تغيرت نسبياً وقلت العداوة بينهما في هذا العهد ـ خوفاً من النظام على الأقل ـ فلم يذكر عن نهب وسلب قام به أحد البدو ضد الحضر حتى وهم في الصحاري في أيام الربيع وغيره وهم يجمعون العشب أو الحطب[3].

ويشير المؤرخون في هذا الصدد إلى أن المسافر يسافر في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد بالأموال ولايتعرض له أحد بسلب أو نهب، علاوة على أن عامة أهل نجد يتركون مواشيهم ترعى في أوقات الربيع ولايتعرض لها أحد من أبناء البادية[4].

ولما كانت المواشي تشكل مصدراً رئيسًا للاقتصاد النجدي في تلك الفترة،

---

(١) ابن بشر: ١/ ١٧٠، د: العجلاني: عهد سعود بن عبدالعزيز ٢٣٠، د: محمد عبدالله ماضي: النهضات الحديثة في جزيرة العرب ط (٢) نشر دار أحياء الكتب العربية١٣٧٢هـ/١٩٥٢م ٧٨/١.

(٢) د: عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق: ٢٢٨.

(٣) ابن بشر: ١٧١/١.

(٤) ابن بشر: ٩٦١/١، ١٧٠.

ولما كانت الإبل بشكل خاص مما يعتني به النجديون حاضرة وبادية، ويضطرون لرعيها وهي سائبة في أوقات الربيع مما يعرضها للضياع والسرقة، وهي ماتسمى بضوال الإبل أو الهمل[1] بلغة نجد الدارجة، تلك الضوال التي عنيت بها الدولة السعودية الأولى في نطاق الترتيبات الأمنية التي اتبعت في تنفيذها أسلوب الإسلام في هذا المجال[2]، فقد قضت هذه الترتيبات أن من وجد إبلاً ضالة يقدم بها إلى الدرعية فيسلمها إلى الحكومة التي خصصت لها رجلاً يحفظها[3]، ويجعل فيها رعاة، ويتعاهدها بكل ماتحتاج حتى كانت تتناسل أحياناً قبل أن يأتي صاحبها للبحث عنها، وقد عممت الدولة على الناس بأن كل من له شيء منها أن يأتي بشاهدين أو شاهد مع يمينه ويأخذها، ويبدو أنه في حال الضرورة كانت تعرف ثم تباع حتى إذا جاء صاحبها وتحقق منه أعطي ثمنها على طريقة عثمان رضى الله عنه في ذلك[4].

كما أن الدولة قد أكدت على الناس بادية وحاضرة أن من وجد بهائماً

---

(١) الهَمَل بفتح الهاء والميم يندرج تحتها عدة معان وهي بهذا المعنى فصيحة. (الفيروزآبادي: ٤/ ٧١)

(٢) لقد مر القضاء في ضوال بهيمة الأنعام عموماً والإبل خصوصاً بمراحل لخصها الإمام مالك رحمه الله في موطئه تحت عنوان القضاء في الضوال، فأورد فيه عن سليمان بن يسار أن ثابت ابن الضحاك الأنصاري أخبره: أنه وجد بعيراً بالحرة فعقله ثم ذكره لعمر بن الخطاب، فأمره عمر أن يعرفه ثلاث مرات فقال له ثابت: أنه قد شغلني عن ضيعتي، فقال له عمر: أرسله حيث وجدته، كما أورد عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال وهو مسند ظهره إلى الكعبة: من أخذ ضالة فهو ضال، كما روى عن ابن شهاب قوله: كانت ضوال الإبل في زمان عمر بن الخطاب إبلا مؤبلة - أي متروكة مهملة - تناتج لايمسها أحد حتى إذا كان زمان عثمان بن عفان أمر بتعريفها ثم تباع، فإذا جاء صاحبها أعطي ثمنها أ هـ . (الإمام مالك: الموطأ ص ٥٨٣).

(٣) ذكر ابن بشر اسم الرجل المسؤول عن ذلك وهو عبيد بن يعيش. (١/ ١٧٠)

(٤) الموطأ ص ٥٣٨، ابن بشر: ١/ ١٧٠، البسام: التحفة: ورقة ١٢٧، صلاح الدين المختار: ١/ ٨٢.

ضالة لزمه أن يأتي بـها إلي الدرعية فكان الناس يلتـزمون بذلك خوفاً من أن تعرف عنده فيعاتب على عدم المبادرة بالإتيان بها[1].

ولم يقـتصر ذلك عـلى الإبل فقـط فقد أمنـت كافة المواشـي، وفي هذا الصـدد يذكر ابـن بشر حادثـة نقلاً عـن علمـاء نجد [2] أن رجالاً من الـبدو المشهورين بالنهب والسلب قد وجدوا عنزاً ضالة في أحد مراعي نجد[3]. وهم جياع نتيـجة بقائهم يومين أو ثلاثة بـدون طعام، فقال بعضهم لبـعض: لينزل أحدكم علي هذه العنز فيذبحها لنا لنأكلها فكل منهم يقول لصاحبه: انزل إليها فلم يستطع أحد منهم النزول خوفاً من العاقبة على الفاعل[4].

كما يروي صاحب لمع الشهاب قصة مؤداها أن امرأة من بريدة في القصيم ذات جاه وجمال ومـال خرجت إلى الصحراء فـي الربيع ببعض خـدمها وفي الرجوع إلى الـبلدة وحينمـا جن الليل انفردت عـنهم فبرز لهـا أحد لصوص الصحراء فخـوفته بحزم وشدة الإمام عبدالـعيز بن محمد ولكنـه لم يرعو بل

---

(١) البسام : التحفة: ١٢٧.

(٢) هو الشيخ عثمان بن عبدالعزيز بن منصور الحسيني الناصري العمري، ولد في الفرعة إحدى بلدان الوشم - في سنة ١٢١١هـ ١٧٩٦م، وقرأ على علماء سدير، والشيخ عبدالعزيز الحصين، ورحل إلى العراق فدرس على داود بن جرجيس وعلماء غيرهم كان مذبذباً في موالاة الدعوة السلفية فمرة يواليها، ومرة يوالي أعداءها، ولكنه من علماء نجد البارزين قال عنه الشيخ علي الهندي: كان ذا فهم حاد تولي القضاء للإمام تركي بن عبدالله وابنه فيصل في جلاجل وحائل، من أبرز تلاميذه، عثمان بن بشر المؤرخ المعروف، توفي في حوطة سدير سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م للتفصيل: (عبدالله البسام: : علماء نجد ٦٩٣/٣ - ٦٩٩، عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ: مشاهير علماء نجد ٦٢، ٧٦،٧٥، محمد القاضي: روضة ٧٦/٢- ٨٠، وعن النواصر: حمد الجاسر: جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد ٩١١/٢ - ٩١٥).

(٣) هو نفود السر المرعى المعروف قرب الوشم، والذي يضم عدة بلدان تتبع إمارة منطقة الرياض، للتفصيل فيه (حمد الجاسر: مقدمة المعجم الجغرافي ٥٧١/١، سعد الجنيدل: عالية نجد ٦٨١/٢ - ٦٨٥).

(٤) ابن بشر: ١٦٩/١، ١٧٠، المختار ٨١/١، ٨٢)

أخذ يتملق بها حتى أخذ بعض حليها وخلى سبيلها فاغتنمت تركه لها وهربت فلما وصلت بيتها أخبرت زوجها بما حدث فرفع المشكلة إلى قادة الدولة حيث أخذوا يجرون تحرياتهم التي استمرت أربع عشرة سنة حتى إذا ظفرت به حاكمه الإمام عبدالعزيز فأقر بما سرق من تلك المرأة وسلم ما كان موجوداً لديه وقيمة المفقود، فبعث الإمام عبدالعزيز في طلب تلك المرأة وزوجها فأطلعهم على ماحدث من قبض على الرجل ومحاكمته واستيفاء المال المسروق منه حتى يعلما بقوة سطوة الحكومة في ملاحقة المجرمين وقطاع الطرق، وأعطى المرأة مالها ومثل بالرجل السارق على أساس أنه قاطع طريق تنطبق عليه الأحكام الواردة في آية المحاربة[1]، وذكر صاحب اللمع في نهاية هذه القصة أن الدولة السعودية قد نفذت، عدداً من الأحكام في قضايا مثل هذه القضية أو من نوع آخر[2]

أما عن التعرض للحجاج والذي يشكل معلماً بارزاً في ظاهرة السلب والنهب لدى ابن البادية، ومصدراً رئيساً من مصادر حياته الاقتصادية، أما عن هذا التعرض فتشير مصادر تلك الفترة إلى أن حدته قد خفت بسبب أخذ الحكومة العهد على رؤساء البوادي بعد إجراء المرتبات لهم من بيت المال منعاً للإخاوة ونهب الحجاج كما مر.

وما من شك في أن سد الجانب الاقتصادي من السلب والنهب وشدة الحكومة في تطبيق الجزاءات الرادعة ضد المتعرضين للحجاج كانت أسباباً رئيسة وراء التقليل من تلك الحوادث التي يخرج بها تاريخ نجد قبل الدعوة،

---

(١) هي قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾«المائدة آية ٣٣.

(٢) الريكي: ٥٣، ٥٤

وفي هذا المجال تذكر لنا المصادر المعاصرة أن أحد الحجاج الإيرانيين قد سرق منه أثناء المرور بنجد كيساً فيه بعض الأشياء الزهيدة، فكتب صاحبها إلى الإمام عبدالعزيز بن محمد الذي أرسل إلى رؤساء القبيلة التي نهب أحد أفرادها فلما حضروا عنده قال لهم أن لم تخبروني بسارق المحفظة أدخلتكم السجن، وأخذت نكالاً من أموالكم فقالوا: نغرمها بأضعاف ثمنها فقال: كلا حتى أعرف السارق، فطلبوا منه الذهاب إلى مرابع القبيلة للتعرف على السارق واخباره به فما كان منه بعد أن علم بشخصه حتى أرسل إلى إبله وكانت سبعين ناقة فباعها وأدخل ثمنها بيت المال نكالاً، وجيء بالمحفظة لم تتغير وكان الإيراني قد وصل إلى بلده فأرسلها الإمام عبدالعزيز إلى أمير الزبير وطلب منه أن يرسلها إلى صاحبها في إيران[1].

ولكن صاحب اللمع يضيف جانباً آخر في مسألة أمن الحجاج يتلخص في أن الدولة السعودية قد رتبت سقاية وإطعاماً للحجاج المارين بالدرعية على طريقة مدن الحجاج الآن إكراماً للحجيج، وتعرفاً على أحوالهم حتى لايفاجأوا بقافلة حج تحمل معها الشر للحكم السعودي والدعوة السلفية ومن يخالف هذا الأسلوب لايؤدب من يتعرض لهم من البدو بل ترسل له الحكومة من يقدم به وبالحجاج الذين معه إلى الدرعية، ويفهموا أسلوب الحكومة في هذا المجال وعدم العودة إلى مثل هذا العمل ، وكان من أهداف هذا الأسلوب التكريمي كذلك تعريفهم بمبادئ الدعوة السلفية، ومن هنا فهي أسلوب من أساليب نشر الدعوة خارج شبه الجزيرة[2].

وقد أتاح هذا التنظيم لحجاج بيت الله الحرام أن يعبروا نجدا ومناطق شبه

(١) ابن بشر: ١٦٩/١، د: العجلاني : عهد عبدالعزيز بن محمد ٢٦٤، ٢٦٥، المختار: ٨١/١.

(٢) الريكي: ٥٢/٥٣

الجزيرة الخاضعة للحكم السعودي دون أن يعترض سبيلهم أحد من البدو، ويبدو أن حكومة الدرعية قد شكلت مجلساً استشارياً من البدو لضمان تنفيذ عدم التعرض للحجاج، وكان هذا المجلس يضم رؤساء القبائل ووجهائها[1].

أما عن الأمن بين البدو أنفسهم فقد نعم البدو الخاضعون لحكومة الدرعية بأمن لم يروا أو يسمعوا بمثله سواء كان ذلك في نجد أو خارجها، فيذكر المؤرخون أنه في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز كان أعراب قاطنون على ماء قرب الطائف من البقوم والشلاوي وعتيبة وفي القوم شعراء فقال شاعر من الشلاوي:

نبا نقضي اللازم ونركب ركايبنا ... وأهلنا من الجوبة الين القطانيه

نبا شاعر منكم إلى الصبح يطربنا ... قمر عشر واضح والثريا رقابيه[2]

فقال الشاعر الثني وهو من عتيبة:

أنا خايف ان العلم ياصل معزبنا ... يشيله طريقي على كور عمليه

تضيعون في نجد وحنا يعاقبنا ... وحنا على الما لاش نجعه ولانيه[3]

---

(١) ابن بشر: ٢٢٦/١

(٢) نبا نقضي اللازم: أي نريد أن ننهي أمرنا هنا وهو السقي، الركائب: الإبل المعدة للركوب فصيحة، الجوبة: هي الحفرة والمكان الوطيء فصيحة والمقصود بها هنا جوبة ركبة قرب الطائف، الين: عامية بدوية من إلى والقطانية بئر يردهاالبدو في وادي قطان في الجهة الجنوبية منه، قمر عشر: قمر ليلة عشر، وقابية: أي يرقب الثريا من السهر (الفيروزابادي: ٤٩/١ ، ٧٥، وعن القصة والأبيات ابن بليهد: صحيح الأخبار: ١٣١/٢، ١٣٢).

(٣) العلم: الخبر، ياصل: يصل، معزينا: من التعريب وهو القيام بالخدمة ذات أصل فصيح والمقصود ولي أمرنا وهو الإمام سعود بن عبدالعزيز، يشبله: يحمله أو ينقله فصيحة، طريقي: تصغير طرقي وهو المتجه من جهة إلى أخرى ذات أصل فصيح فالمطاريق القوم المشاة، كور: فصيحة وهي شداد البعير أو رحله، عملية: فصيحة قال في القاموس: ناقة عملة بكسر الميم بينة العمالة فارهة، وتطلق في شبه الجزيرة على نوع من نجائب الإبل سميت عملية لاستعمالها وإرسالها في الأمور الهامة، حنا: عامية من نحن ، لاش: أي لاشيء، نية: بكسر =

وتدل هذه الحادثة على توفر قدر جيد من الأمن في أوساط البدو فقد خاف الشاعر وهو قرب الطائف من الإمام في الدرعية لأنه على علم بأن استمرار المساجلة في الشعر قد يتطور إلى ملحمة حربية بعد أن كان ملحمة شعرية تثير مافي النفوس من حزازات وإحن ورثتها غارات بعض القبائل على بعضها الآخر[1]، ويمكن القول أن نعمة الأمن التي كان يعكرها قسم من أبناء البادية قبل قيام الدولة قد استفادت منها حاضرة نجد وذلك بأمنها في بلدانها أو في خروجها عبر الصحراء للامتيار أو الإعشاب والرعي في أوقات الربيع، كما استفاد منها قسم كبير من أبناء البادية ممن كانت ظاهرة السلب والنهب تقع عليهم بالدرجة الأولى علاوة على أن البدو عموماً قد استفادوا من ذلك بما عوضتهم حكومة الدرعية عما فقدوه من تركهم لهذه الظاهرة من مزايا اقتصادية بحيث أصبحوا يحصلون على مصدر شريف غير مخوف للرزق عبر الغزو المنظم وعبر حقهم الشرعي في بيت المال، وتعدت هذه الاستفادة بالأمن لتصل إلى من هم خارج منطقة نجد من الحجاج والتجار الذين يمرون بمنطقة نجد إلى الحجاز أو مناطق شبه الجزيرة الأخرى والذين لم يكونوا يحلمون بالعودة إلى بلادهم سالمين فضلاً عن أن ترد إليهم أموالهم مهما كانت زهيدة.

ومامن شك في أن شيوع هذا القدر الجيد من الأمن يرجع إلى أسباب متعددة أبرزها تطبيق هذه الدولة الدقيق والشامل لأحكام الشرع، والإشراف الشامل للأئمة من آل سعود على دقة تنفيذ الإجراءات الأمنية وسرعتها[2].

= النون وتشديد الباء عكس النجمة، (الفيروز ابادي١/ ٢،١٠٤/ ١٣٠، ٣/ ٨٧، ٢٥٧، ٤،٤٠٤/ ٢١، ابن بليهد: المرجع السابق ٢/ ١٣٢).

(١) ابن بليهد: ٢/ ١٣٢.

(٢) د: عبدالرحيم عبدالرحمن: ٢٢٨، ٢٢٩

٢ ـ أثر الدولة والدعوة على الخوة والقضاء على العصبية القبلية :

إذا كانت قيادة الدولة السعودية قد قضت على الخوة من جانبها الاقتصادي باستبدالها بإجراء المرتبات النظامية لرؤساء القبائل وتوزيع الزكاة في مصارفها الشرعية علاوة على أوجه الصرف الأخرى سواء كان في بيت المال أو من غيره، إذا كان ذلك كذلك فإن هذه الحكومة قد وجهت الخوة من جانبها الاجتماعي الذي مر بيانه نحو الوجهة الإسلامية والقضاء على مابين القبائل من إحن وخلافات بالتآخي فيما بينها بإشراف الأئمة وتوجيه العلماء.

وتذكر المصادر العربية المعاصرة للدولة السعودية الأولى أن الإمام سعود ابن عبدالعزيز قد قاوم أسلوب الثأر ونجح في ذلك.[١]

وتتفق هذه المصادر مع المصادر المحلية التي تذكر أحداثاً تؤكد ذلك وأن أئمة هذه الدولة إذا شموا رائحة القبلية والتناحر بين القبائل ولو باللفظ فإنهم يقضون عليها بأسرع وقت ممكن حتى لاتستفحل فتقضي على أي مجهود وحدوي تكرس الدولة والدعوة كل جهودها لتحقيقه.

وفي هذا المجال يذكر بن بشر حادثة وقعت بين فيصل بن وطبان الدويش رئيس قبائل مطير[١]، والحميدي بن عبدالله بن هذال رئيس قبائل عنزة،[٢]

---

(١) د: العجلاني: عهد سعود ١٧٩ نقلا عن بركهارت.

(١) هو فيصل بن وطبان الدويش تولى إمارة مطير بعد أبيه الذي كان أسيراً لمطير في عهد الإمام عبدالعزيز ـ والدوشان من علوا ـ وقد اشترك فيصل هذا في معركة الجمانية ضد الشريف كما مر، ولكنه سنة ١٢٣٥هـ / ١٨١٩م اشترك مع محمد بن معمر الذي طمع في خلافة آل سعود بعد سقوط الدرعية، وكان له دور كبير مع إبراهيم باشا حينما حاصر الرس ثم والي القادة الأتراك فقدم مع خليل أغا الذي سجن مشاري بن سعود وأصبح بعد ذلك يغير على البلدان النجدية بمساعدة هؤلاء القادة ويأخذ أموالها كما حدث سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م،وانهزم سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م. أمام جموع من عنزة بقيادة ابن هذال شر هزيمة وفي سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٢م توفي وخلفه على إمارة مطير ابنه محمدالملقب بالحميدي (ابن بشرا/١٣٥، ١٧١، ٢٣٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٧،٣/١٧، ٢٣، ٢٦، ٥٨، د: العجلاني عهد عبدالله بن سعود ٨١، ٨٢، لوريمر: دليل الخليج العربي القسم التاريخي ٣/ ١٦٢٠).

وكانت هاتان القبيلتان من أشد القبائل عداوة فيما بينها قبل قيام الدولة السعودية كما مر ذكر جانب من ذلك، ففي إحدى غزوات الإمام سعود بن عبدالعزيز التقيا فيما بينهما فتنابزا بالألقاب وتنازعا بالألفاظ وأظهر كل منهما نخوته، فقال أحدهما للآخر: أحمد الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام الذي أطال الله عمرك بسببه، وكساك الشيب بعد أن كان آباؤكم لايشيبون ولاينتهون إلى حده بل نقتلهم قبل ذلك، ثم قال الآخر: أحمد الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام الذي كثر الله به مالك وسلم عيالك ولولا ذلك لم تملك ما هنا لك، ولانزلت في تلك الديار ولا استقر بك فيها قرار، وكان الإمام سعود يسمع كل هذا الجدال فانتهض إليهم وزجرهم وذكرهم ما أنعم الله به عليهم من هذا الدين والجهاد في سبيله والاجتماع على الصلوات والدروس التي يتلقونها من العلماء، وما أغدقت عليهم الحكومة من الأرزاق، وأمان الطرق فيما بينهم، وشدد عليهم في ذلك مما جعلهم يكفون عما هم فيه ويشكرون الله على ما أزاله عنهم من العدوات والبغضاء[1].

إن في هذه الحادثة لأقوى دليل ضد الذين يزعمون بأن أئمة الدولة السعودية الأولى كانوا يفتنون القبائل ويلقون المشاجرة بينهم خشية أن يتفقوا على نقض حكم من الأحكام الصادرة ضد بعض أفرادهم[2]، إذ لو كان أئمة

---

(٢) هو محمد أو الحميدي بن عبدالله بن هذال من آل هذال الذين هم من الحبلان من الجبل من العمارات من عنزة وفيهم إمارة عنزة، كان أميراً لعنزة عهد عبدالعزيز وابنه سعود، اشترك مع الإمام سعود سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م، في غزوة الحناكية ضد جموع من قبيلة حرب ثم ضد الحامية التركية في المدينة. بن بشر (١/١٧١، ٢١٥، ٢٣١). صلاح الدين المختار (١/٦٢١). وعن آل هذال : حمد الجاسر: معجم قبائل المملكة (٢/٨٧٨).

(١) ابن بشر (١/٢٣١،٢٣٢). د. العجلاني: عهد سعود (١٧٥،١٧٦).

(٢) الريكي (٥٦) .

الدولة يريدون التفريق بين القبائل - على طريقة فرق تسد - لاستغل الإمام سعود هذا الجدال ليغذيه مع مرور الزمن علما أنه لايحتاج إلى تغذية فمجرد تركه لهم يتجادلون كفيل بإشعال نار الحرب بينهم، لكنه رحمه الله لم يدعهم ينساقون وراء عصبيتهم بل وقف وقفة الحاكم المسلم ولسان حاله يقول لهم: دعوها فإنها منتنة كما أن قصة الشلاوي والعتبان التي مر ذكرها في هذا الفصل دليل آخر على حرص أئمة هذه الدولة على حسم كل مامن شأنه العودة إلى أسلوب العصبية والقبلية، وإن مما يندرج في إطار حرص الأئمة من آل سعود على إضعاف العصبية القبيلة والإصلاح بين القبائل ماقام به الإمام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م إثر قتال حدث بين الظفير ومطير قتل فيه عدد من زعماء القبيلتين فأرسل لهم الإمام سعود رسلاً من الدرعية للإصلاح بينهم فكف أيدي بعضهم عن بعض وتوعد المعتدي منهم على الآخر[١].

كما أن حرص الأئمة السعوديين على إشراك القبائل التي كانت تتشاجر وتتقاتل سابقاً في الغزوات المهمة دليل آخر على تأكيدهم على إضعاف الروح العصبية، وما من شك أن هذه الغزوات المشتركة قد آتت بعض ثمار هذه الجهود التي استطاعت أن تزيل مابين هذه القبائل من أحقاد وثارات وأبرز مثل على ذلك اشتراك قحطان والدواسر في بعض الغزوات ضد الأشراف في سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م وهي أول غزوة من الأشراف ضد الدولة السعودية الأولى وكذلك سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م في وقعة الجمانية كما مر، وكذلك في وقعة الخرمة سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧م وغزوة بيشه سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م مما جعل الدواسر وقحطان يشكلون أبرز عناصر الجيش السعودي الذي يتصدى للأشراف في هذه الفترة، وهذا بلاشك دليل على قوة تأثير مبادئ الدعوة

---

(١) ابن بشر (١/١٨٢) . المختار (١/٨٨). والفصل الأول من الباب الثالث.

وجهود الدولة الإصلاحية فيهم فقد أزالت مابينهم من إحن ومقاتلات أو قللت منها وقد دعم ذلك وجود رغبة من القبيلتين في تحقيق هذه الأهداف الخيرة[1].

وإن في شهادة الشيخ عثمان بن سند[2] على المؤاخاة التي دعى أئمة الدولة السعودية إلى إقامتها بين القبائل لأكبر دليل على حرصهم وتأكيدهم على حسم وإنهاء كل أسباب الفرقة والخلاف، كما أن فيها أقوى مستند لوجود تأثير قوي للدعوة على الخوف لدى بدو نجد وتوجيهها نحو الإخاء الإسلامي، ولو أن ذلك كان بالقوة والحزم، ويزيد من أهمية هذه الشهادة كون الشيخ عثمان معروفاً بعدم ولائه للدعوة وحكم آل سعود.

يقول الشيخ عثمان: «ومنعوا ـ أي السعوديون ـ غزو الأعراب بعضهم على بعض وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت إلى الشام

---

(١) ابن غنام (٢/١٤٣،١٤٤،١٤٧،١٧٣،١٧٤). ابن بشر (١/١٠٧،١٣٥، ١٣٦،١٥١،١٥٢،١٥٧). وانظر الحديث عن هاتين القبيلتين في المبحث السابق.

(٢) هو الشيخ عثمان بن سند الوائلي النجدي البصري يلقب ببدر الدين ينتمي إلى عترة مؤرخ وأديب ولد بنجد سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م كان هو الشيخ رسول الكركو كلي صاحب درمة الوزراء من ضمن المدرسين في عهد داود في بغداد وله وجاهة في البصرة ونواحيها وكلامه مقبول لدى عامة البصريين، من كتبه: الغرر في وجوه القرن الثالث عشر، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود وهو ليس كتاباً تاريخياً فحسب بل يضم شعراً ونقداً أدبياً، وينكشف موقف ابن سند من الدعوة السلفية من قراءة هذا الكتاب، وله كذلك: سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، قيل توفي سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م وقيل غيرها. للتفصيل: عثمان بن سند: مطالع السعود"مخطوط" من ص (١٠٣ ـ ١٠٥). رسول الكركوكلي: دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، نقله عن التركية موسى كاظم نورس، مطبعة كرم بيروت، نشر دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ص (١٦٩). الزركلي: الأعلام (٤/٣٦٧). يوسف عز الدين: داود باشا، ط (٢) مطبعة الشعب بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ص (٥٢) د. عبدالعزيز نوار: داود باشا والي بغداد ، طبع دار الكتاب العربي، نشر وزارة الثقافة القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ص (٣١١، ٣١٢)

كأنهم إخوان أولاد رجل واحد وهذا بسبب تأديب القاتل والسارق والناهب إلى أن انعدم هذا الشر في زمان ابن سعود وانتقلت أخلاق الأعراب المتوحشة إلى الإنسانية، وتجد في بعض الأراضي الخصبة ـ وقصده الرياض المنتشرة في نجد التي يكثر فيه العشب أوقات الربيع ـ هذا بيت عنزي وبجنبه بيت عتيبي وربما مطيري وبقربه بيت حربي، وكلهم يرتعون إخواناً، ولاتجد أحداً يقول هذه ديرتي ولا يطأها الغريب[1].

ومن المعتقد أن قدراً جيداً من أهداف إقامة الصلاة جماعة في إيجاد نوع من العلاقات الاجتماعية الطيبة قد تتحقق، فأصبح قسم من البدو يحل الأخوة الإسلامية محل تلك الأخوات والصدقات القائمة على منافع دنوية، ومن هنا يمكن فهم تأكيد أئمة الدعوة على آداء الصلاة جماعة باعتبار وجوبها شرعاً وباعتبار المعطيات الاجتماعية المثالية التي تتحقق من وراد ذلك[2].

وإذا كان في قول ابن بشر والرجل يجلس ويأكل مع قاتل أبيه وأخيه كالإخوان ولا يلقى صاحب الدم غريمه إلا بالسلام عليك يافلان[3]. إذا كان في ذلك بعض المبالغة فإنه يشم منه أن أي قضية تعرض على أئمة الدولة أو ولاتها تحسم بما يرضى الطرفين أو ينصف المظلوم من الظالم غالباً مما أوجد نوعاً من الانضباط لم تعرفه نجد من قبل، لأن إبطال أسلوب القوة والثارات في حسم الخلافات التي تقوم بين الناس وخاصة البدو، وإحلال الحكم الشرعي محل الأحكام العرفية، من المؤكد أنه سيجعل كل فرد يأخذ حقه من

---

(١) ابن سند: مطالع السعودك مخطوط ورقة ١٣٠

(٢) د: العجلاني: عهد سعود الكبير ٢٤٢، ٢٥٢

(٣) ١/١٤.

الآخر بطريقة منظمة أضفت الرضاء والقناعة بين كل متخاصمين، وحدت من وقوع الحوادث وتكررها[1].

وحين انتشـرت الدعوة السلفية فـي المجتمع النجدي أصبـح لدى البدوي النجدي الاستعداد لأن يحل الأخوة الإسلاميـة محل الافتخار بالأخوة العرقية أو بالمعـشر والقبيـلة، وكل هذا نتـيجة للـجهود التي بـذلتها الدعـوة والدولة لتحقيق هذه الأخوة بوجهتها الصحيحة، إذ بعد ماكان البدوي إذا أراد أن يقدم على عمـل مهم انتخى بقولـه: أنا أخو فلان أو ابن فلان أو بنـي فلان أصبح يقول: أنـا أخو من طاع الـله حيث صار ذلـك مثلاً بعـد انتشار الـدعوة في البادية، وأصبح شعاراً لـلجميع متضمناً الاعتراف بأخوة المؤمـنين المطيعين لله ولو كانوا من قبائل أو أجناس شتى[2].

ومن المعـتقد قدم هـذه النخوة ولو أن مـن المتبادر للـذهن أنها مـن نتاج الحركة السلـفية في صورتها الأخيرة فـي عهد الملك عبدالعـزيز، غير أن ذلك لايعدو أن يكون اسـتعادة لنخوة دينية كـانت من آثار الدعوة السلـفية والدولة السعوديـة في دورها الأول[3]، ويمكن أن يسـتأنس المرء بهذه الأدلـة على قدم هذه النخوة وإن لم ترد بنصها في المصادر المعاصرة:

(أ) أن ابن بـشر وغـيره قد أشـاروا إلى تآخـي القـبائل الـبدويـة أو أفراد

---

(١) حسن خلف خزعل: حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ٣٣٨.

(٢) محمد العبودي:الأمثال العامية ١/٢١٦،٢١٧مثل رقم ٣٠٦، عبدالكريم الجهيمان: الأمثال الشعبية ٦٨/٣ مثل رقم ٢٣٢٧، ويروي المثل: خيال التوحيد أخو من طاع الله، وقد بقي الانتخاء بالأخت أو الأخ أو سائر أفراد الأسرة والقبيلة موجوداً إلى الوقت لدى بادية نجد وحاضرتها على نطاق محدود.

(٣) لئن كان الملك عبدالعزيز قداستفاد من تلك المحاولة الأولى فإنه لم يكتف بذلك الأسلوب السابق بل طوره ليشمل تحضير البدو وجعلهم أكثر التزاماً لأحكام الدين وأقوى طواعية لسلطات الدولة وأشد إدراكاً لمعاني الأخوة الإسلامية.

منهاعلى الأقل كما مر، فمن الطبعي أن يصدر في مصاحبة هذا التآخي ألفاظ تؤكد عمقه، وإذا كان هذا قد حصل بالفعل فإن انتخاء البدوي بمثل هذه اللفظة أمر يسير عليه وقد حقق التآخي فعلاً في نفسه بل من المتوقع أن يكون انتشار اللفظ واسعاً ولو لم يدل على حقيقة الحال والاقتناع بهذا التآخي فقد يدخل في سبيل الترضيه للأئمة والعلماء[1].

(ب) أشار بعض الباحثين إلى قدم هذه اللفظة وأنها كانت متزامنة ـ إلى حد ما ـ مع لفظة الوهابية التي أطلقت على السلفيين في فترة متقدمة من بداية الدعوة[2]

(ج) أن الأمثال ماهي إلا ثمار لتجارب الأمم وماتعرض له أوضاعها الاجتماعية من تغيير فمن المتوقع أن تكون هذه اللفظة ـ وقد سرت مثلاً ـ نتاجاً للتغيير الاجتماعي بعد انتشار الدعوة السلفية في مرحلتها الأولى، وأن يكون ماحدث بعد ذلك صدى للتغيير الأول.

وعلى أي حال فمن الطبعي أن تطبق هذا المثل بعض القبائل التي آمنت بالدعوة وأن تبقى بعض القبائل الأخرى على عصبيتها لقبيلتها، كما أن من المشكوك فيه هل كان إيمان القبائل بهذا اللفظ شاملاً كما هو مفهومه أو أنها تطبقه على التابعين للدولة والدعوة من قبيلتها أو أحلافها.

كما أنه من غير المعروف هل غير هذا القول من نظرة البدوي للحضري بشكل طبعي، أو غيرها تحت سطوة الحكم الحازم من أئمة آل سعود، أو أنه لم يغير من هذا شيئاً فاستمر البدو على احتقارهم للحضر، وبقي الحضر على

---

(١) ابن بشر (١/٤١، ١٧١، ٢٣٢)، ابن سند: المصدر السابق والورقة السابقة.

(٢) محمد أنعم غالب: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي (٢٩).

نفورهم من البدو، ويبدو أنه قد غير مستويات محدودة من الفريقين لفترة قصيرة عادت العَصبية والتناحر والنظرة السيئة بين الطرفين جذعة ليفقد هذا القول دلالته، ويصبح مثلاً يتندر به البدو فيما بينهم، ويتندر به الحضر على البدو، يؤكد هذا تلك الغزوات التي تعرضت لها البلدان النجدية من بادية نجد بعد سقوط الدرعية، وتلك الغزوات بين القبائل البدوية نفسها في آن واحد.

وإن المطلع على جهود الدولة السعودية في إضعاف الروح القبلية ليتملكه الإعجاب بهذه الجهود التي تدل على حرص على التمسك بالتعاليم الإسلامية في تحقيق الإخاء الإسلامي المستمدة من نصوص كثيرة من الكتاب والسنة كما أن هذه الجهود لا تختلف عن جهود الخلفاء والحكام المسلمين السابقين ومن أبرز هؤلاء الخلفاد عمرَ بن عبدالعزيز الذي تصدى لحرب العصبية القبلية المعروفة في التاريخ الأموي وهي الحرب بين قبائل مضر وقبائل اليمن، ولاشك أن جهود الأئمة من آل سعود في هذا السبيل قد ساعدت على التئام شمل البلاد السعودية باديتها وحضرتها تماماً كما تحقق ذلك للمسلمين في عهد عمر بن عبدالعزيز[1].

٣ ـ أثر الدولة والدعوة على الرحيل الجماعي وزعامة القبيلة:

لقد مر بنا في فصل مواقف بادية نجد من الدعوة السلفية والدولة السعودية ذكر أحداث أدت إلى رحيل جماعي لبعض قبائل نجد أو أفخاذها إلى خارجها نتيجة لهذه المواقف، كما مر بنا ذكر أحداث أدت إلى تغيير قيادي في بعض القبائل البدوية النجدية.

ومن الطبعي والدعوة السلفية حركة إسلامية تجديدية هدفها التغيير

---

(١) عن موقف عمر بن عبدالعزيز من العصبية القبلية راجع عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، تصحيح وتعليق أحمد عبد، ط (٢)، طبع دار الاعتماد، نشر مكتبة وهبة، ص (٨٦ ـ ٨٩).

الاجتماعي ليتمشى مع مبادىء الإسلام أن تصطدم بقوى مناوئة من بادية نجد لما ران عليها من قرون التخلف والفرقة وماتعمق في نفوس زعماء القبائل وأتباعهم من نزعة استقلالية وكره لأي محاولة للوحدة الإقليمية وأن تلجأ هذه القوى في النهاية بعد عجزها عن الاستمرار في مناوأتها إلى الجلاء عن نجد حتى تعيش حياتها كما تريد بعيداً عن منطقة نفوذ الدولة السعودية، وأن ترغب هذه القوى القبلية والدولة السعودية في آن واحد في حصول هذا الرحيل لما يعود بالنفع لكل منهما بحسب الهدف والوجهة التي هو موليها[1].

ولما كانت قبيلة الظفير من أوائل القبائل البدوية النجدية مناوأة للدولة رغم وجود ولاء من بعض أفخاذها في فترات محدودة فقد كانت من أوائل القبائل رحيلاً عن منطقة نجد وبتحرك جماعي أكبر من القبائل الأخرى، وقامت في هذا التحرك على مرحلتين كبيرتين[2].

ففي المرحلة الأولى وأثر المعارك الأولى من الدولة ضد هذه القبيلة رحل قسم منها وقطن جنوب غربي العراق إلا أن قسماً من هذه القبيلة بقى في نجد وعلى عدم ولائه للدعوة وإن كان ذلك مذبذباً بين الولاء وعدمه على فترات محدودة[3].

ويبدو أن هذا القسم الذي بقي في نجد لم يتقبل المتغيرات الاجتماعية التي واكبت انتشار الدعوة بل لم يقبل أن يؤدي بعض فرائض الدين اعتقاداً منه أنها ترمز إلى فرض سيادة الدولة عليه، وما من شك أن قيادة الدولة لا يمكن أن تسكت عن وصول عدم التبعية إلى هذه الدرجة خصوصاً وأن هذه القبيلة قد

---

(١) د. العثيمين: المرجع السابق (١/٩٤).

(٢) انظر فصل الحياة الدينية لدى بادية نجد قبل الدعوة من الباب الثاني، وفصل مواقف بادية نجد من الدعوة من الباب الثاني، وفصل موقف بادية نجد من الدعوة من الباب الثالث.

(٣) ابن بشر ١/١٥٠، حسين خلف خزعل ٣٠٢. والفصل السابق من الباب الثالث من هذا البحث.

ضمت إليها إيواء المناوئين للدولة وإضافتهم وإمداداهم بما يتمكنون به من مواصلة هذه المناوأة وبهذا تضيف هذه القبيلة عاملاً آخر لايقل أهمية عن العوامل السابقة في نطاق مناوأتها مما دفع بهذه القبيلة والدولة في آن واحد إلى تكثيف غزواتهما ضد بعضهما التي أدت إلى كسر شوكة هذه القبيلة والتقليل من دورها الرئيس في نجد نتيجة لرحيلها إلى البلدان المجاورة وخلود القسم القليل الذي بقي منها في نجد إلى التحضير والدعة[1].

وتعتبر غزوة الإمام سعود بن عبدالعزيز لهذه القبيلة في أوائل حكمه سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م تلك الغزوة التي انتهت لصالح الدولة كما مر، تعتبر هذه الغزوة بداية المرحلة الثانية والكبيرة لجلاء هذه القبيلة عن نجد أو بمعنى أصح بداية النهاية لوجودها الكبير وأثرها البارز في نجد، فيبدو أن هذه القبيلة قد آثرت بعدها الانتقال بجماعات كبيرة إلى خارج منطقة نجد في شمال شرقي الجزيرة العربية وجنوبي العراق وجنوبه الغربي، وقد شكلت من مرابع القسم الأول الذي رحل عن نجد، كما شكلت من منازل قبيلة المنتفق نواة لموطنها في هذه المناطق، فعدت من أبرز القبائل في هذه المنطقة كما كانت من أبرزها سابقاً في نجد[2].

وما من شك أن رحيل قيادة هذه القبيلة إلى هذه المناطق قد دفع بتلك الجموع الكبيرة إلى الرحيل إليها حتى أصبحت الظفير قبيلة عراقية أكثر منها نجدية رغم بقاء قسم منها في منطقة نجد، ويجد الباحث التفصيل في أفخاذ هذه القبيلة وزعمائها وأخبارها في كتب التاريخ في كتب التاريخ العراقي في مقابل الشرح في كتب التاريخ والأنساب النجدية، وهذا يؤكد لنا أن رحيل

---

(١) ابن بشر ١/١٨١، ١٨٢.

(٢) ابن بشر ١/٥٨، ١٨٢.

هذه القبيلة إلى هذه المناطق كان بكميات أكبر من القبائل المناوئة الأخرى وأنها حددت وجهة واحدة تقريباً لنزوحها بعكس بعض القبائل الأخرى كما سيأتي بيانه[1].

أما عنزة فقد كانت تشكل الطرف الآخر في الثنائي الظفيري العنزي الذي وقف من الدولة موقف المناوأة كما قرر ذلك الشيخ محمد بن عبدالوهاب وكما دلت على ذلك الغزوات الكثيرة بينهما وبين الدولة ولاشك أن هذه الغزوات قد أدت إلى رحيل قسم من عنزة الى بادية الشام والعراق، على أن وجود هذه القبيلة في هاتين المنتطقتين كان مُتقدماً جداً عن قيام الدولة السعودية وذلك في نطاق تحرك الموجات البشرية المتتالية التي حفل بها تاريخ القبائل العربية والتي تحركت من قبل شبه الجزيرة إلى بلاد الرافدين عوامل شتى من جدب وحروب وتغييرات اجتماعية[2].

ورغم ماتشير إليه بعض المصادر من أن مناوأة عنزة وبخاصة بيت آل هذال للدولة والدعوة قديمة[3]، فإن آل هذال وقسم من عنزة قد آمنوا بالدعوة في أوج قوة دولتها على أن رحيل هذه الأسرة إلى جنوب العراق كان هوالآخر متقدماً[4] ولكنه لم يؤثر على كثافة رحيل تلك القبيلة من نجد كما حدث من الظفير، فرغم وجود قسم كبير من عنزة في الشام والعراق منذ فترة متقدمة

---

(١) عبدالجبار الراوي : البادية ٢٣٦ ـ ٢٤٢ وقد فصل الكلام عن هذه القبيلة وأفخاذها وزعمائها وانظر لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ٢٥٦، ٢٨٢،٢٥٩، وإلى وقت قريب والمنتفق والظفير يغيرون على قبائل نجد حاضرة وبادية أو يتعرضون لها في طريق امتيارها من العراق. (الريحاني: نجد وملحقاته ٣٠٥،٣٠٦).

(٢) البديري: حوادث دمشق اليومية ٨٨، ١٠١، ١٨٦، لونكريك ١٠٤ الراوي ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) كما ذكره في الفقرة لسابقة وكذلك فصل مواقف بادية نجد من الدعوة.

(٤) الراوي ٢٢٩.

عن قيام الدولة السعودية فقد بقي قسم كبير منها في نجد والى الدعوة ولم يتأثر بموقف آل هذال أو القسم المناوئ للدولة من القبيلة، ويمكن رصد أوجه الخلاف في التحرك الجماعي بين القبيلتين فيما يلي:

(أ) كان رحيل عنزة بكثافة أقل من الظفير حيث بقي وجود عنزي حضري وبدوي في نجد أكثر من الظفير التي لم يبق منها إلا فئات قليلة في نجد، ويشكل عدد من الأسر البدوية والحضرية ثقل الوجود العنزي في نجد.

(ب) إذا كانت الظفير قد حددت جهة واحدة لتحركها القبلي فإن عنزة قد تحركت باتجاهين هما بادية الشام وبادية العراق حيث الوجود العنزي متقدماً في هاتين المنطقتين منذ القرن العاشر تقريباً.

(جـ) لم تتأثر الفئات الباقية في نجد من عنزة برحيل زعيمهما فبقيت في منطقتها على حين رحل قسم كبير مع ابن سويط زعيم الظفير إلى جنوب غربي العراق وشمال شرقي الجزيرة، ويبدو أن قوة زعماء الأفخاذ تختلف درجته فيما بينهما.

ويبدو أن الوجود العنزي متساوٍ إلى حد مابين بادية الشام وبادية العراق وإن كان هذا الوجود يبدو في جنوب الشام أكثر من جنوب غرب العراق على حين يقل ذلك في بادية نجد إلا ماكان في شمالها المتصل بهاتين الباديتين، أما الحاضرة فتكثر في نجد منذ فترة متقدمة[1].

وتملك في قبيلة شمرهي الأخرى وجوداً متقدماً في بادية الشام والعراق فمنذ سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م عندما رحل فارس الجرباء الأول[2] بجموع

---

(١) للتفصيل في قبيلة عنزة وأفخاذها وأمرائها وأخبارها في التاريخ العراقي الراوي: البادية ٢٢٨ ـ ٢٣٦، لونكريك ٥٦، ١٠٤، ٢٤٢، ٢٩٠، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٩.

(٢) تمييزاً له عن فارس الثاني الذي قتل سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م وبالجملة فاسم فارس يكثر في أسرة الجربا كما يكثر فيها اسم صفوق وفرحان.

كبيرة من شمر إلى الجزيرة العراقية بسبب محل أصاب نجد ولما استقر به المقام وطاب أرسل إلى جموع أخرى من قبيلته لتقدم إليها حيث المرعى الجيد ثم أخذ يوسع منطقة نفوذه حتى أصبح لشمر مكانة كبيرة تهابها القبائل المحيطة بها ويحسب العابرون لمنازلها ألف حساب، ومن هنا تحول قسم من شمر لبادية العراق وقصة أول قدوم لشمر للعراق ليس هنا مجال التفصيل فيها[1]. ورغم ماسبق بيانه من أن ولاء قسم من شمر للدولة كان متقدماً فإن هذا القسم قد رجع عن ولائه كما سبق علاوة على أن القسم الآخر قد بقي على عدم ولائه للدعوة مما دفع بالدولة السعودية إلى شن غزواتها عليها كما ذكرت بعضها في الفصل من هذا الباب تلك الغزوات التي أثمرت ولاء شمرياً حضرياً وبدوياً للدولة شاملاً لكل القبيلة في نجد.

ولما كانت أسرة الجرباء ممثلة في مطلق بن محمد الجرباء هي التي كانت تتولى زعامة شمر قاطبة في بعض الفترات[2] وكانت قد رحلت إلى العراق منذ فترة متقدمة، وتعتبر أبرز أسرة شمرية قادت بعض الغزوات ضد الدولة، وماحصل بعد ذلك من مقتل مصلط بن مطلق كما مر لكل هذه الأسباب، فقد دفع مطلق بجموع شمرية كبيرة إلى بادية الشام والعراق، على أن صاحب اللمع ذكر أن الإمام عبدالعزيز هو الذي أجلا قسما من شمر بزعامة مطلق بسبب مابدر منه من خلاف بعد أن أيد الدولة لفترة محدودة[3]. ولعل هذا الخلاف هو إغارته على القسم الحضري من شمر والذي تابع الدولة واشتكى

---

(١) للتفصيل في ذلك وفي أخبار شمر في العراق: الراوي ٢٤٤- ٢٥٦، لونكريك ١٠٤، ١٢٠، ١٨٩، ٢٤٢، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٥، والكتاب بمجمله يضم أخباراً كثيرة عن شمر.

(٢) فهد المارك: من شيم لعرب ٨٦/١.

(٣) الريكي ٦٢، ١٠٠، حسين خزعل ٢٩٩.

من تلك الإغارة، أو تأييده للقوى السياسية المناوئة للدعوة واشتراكه في غزواتها ضد الدرعية سواء تلك التي انطلقت من العراق أو من الحجاز كما سبق تفصيل ذلك في الفصل الأول من هذا الباب.

وسواء كان مطلق هو الذي جلى بقومه عن مناطق نفوذ الدولة السعودية بفعل أسباب عديدة، أو أن الإمام عبدالعزيز هو الذي أجلاه مع قومه فإن دفعه بتلك الجموع الشمرية إلى جنوب غربي العراق قد أثر على حجم القبيلة في هذه المنطقة وزاد بالتالي من الوجود القبلي الغربي في العراق وتتفق شمر مع عنزة في بقاء قسم كبير منها في نجد بعد كل تلك التحركات الجماعية التي قامت بها، وفي تحركها باتجاهي بادية الشام والعراق، وفي عدم تأثر الفئات الباقية في نجد أو تلك التي رحلت إلى الشام بتحديد رحلة زعيمها وأسرته إلى جنوب العراق.

وقد شكل الثلاثي الظفيري الشمري العنزي الذي كان يعقد تحالفاً في بعض الأحيان بزعامة الجرباء، شكل قوة قبلية في جنوب العراق شرق نهر الفرات وغربه، وساهمت هذه القوة في أكثر الحركات السياسية والاجتماعية التي مرت بها المنطقة، على أنه يحدث بينها أحياناً نزاعات على عادة القبائل العربية، وقد بز الوجود الشمري حليفيه في ذلك التأثير السياسي والاجتماعي ولكنه كان أحياناً أيضاً وانفردت شمر وعنزة بالوجود في بادية الشام[1].

ويمكن القول إن الدولة بما أحدثته من متغيرات دينية واجتماعية وسياسية في المجتمع النجدي حاضرة وبادية بتوجيهها هذه النواحي نحو الوجهة الإسلامية الصحيحة قد أثرت بشكل مباشر ورئيس في هذا الرحيل الجماعي لهذه القبائل الثلاث، على أن هذا لايعني عدم وجود رحيل جماعي من قبائل

---

(١) الراوي ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٢، المارك ٨٦/١.

أخرى لم تسعفنا المصادر المعاصرة بشيء عنه، وبهذا تكون الدولة قد ساهمت بشكل غير مباشر في إثراء الوجود العربي في هذه المناطق بغض النظر عن مناوأة النازحين لها وتأثير هذه المناوأة على درجة انتشار الدعوة وسيادة الدولة إذ أن ذلك هو السبب الرئيس وراء هذا الرحيل.

وكما كان لانتشار الدعوة وتحقيق كيانها السياسي أثر في تلك الهجرة لأقسام من بعض القبائل النجدية خارجها، فقد كان لها كذلك أثر في هجرة معاكسة لأفخاذ من قبائل البلدان المجاورة باتجاه نجد إذ اتخذت هذه القبائل سواء بمناوأتها للدولة واشتراكها في الغزوات ضدها في مبدأ الأمر أو موالاتها بعد ذلك، اتخذت من ذلك مجالاً للدخول لمنطقة نجد وتكثيف وجودها السابق فيها كما حدث من حرب وعتيبة.

ويبدو أن اشتراك عتيبة في الجيش الذي بعث به الشريف غالب سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م لمنازلة قحطان المؤيدة للدعوة كان من ضمن دوافعه بالنسبة لعتيبة منافستها لقحطان على أهم مناطق نجد الرعوية وهي عاليتها مما جعل هذه الغزرة وما شابهها تدخل في نطاق الغزوات التي دفعت إلى التحرك القبلي شبه الجماعي من قبائل الحجاز باتجاه نجد(١).

على أن دخول قسم كبير من عتيبة في طاعة الدولة السعودية كان عاملاً من العوامل التي دفعتها إلى التسلل إلى عالية نجد أيضاً والاستيلاد على أهم مرابعها بغض النظر عن كون ذلك أحد الأسباب الكامنة وراء هذا الدخول في هذه الطاعة أولاً، فالمهم في هذا أن ولاء عتيبة للدولة استتبعه رحيل قحطان من قسم كبير من مرابعها إلى مرابع أخرى أو التحضر والسكنى في بعض البلدان النجدية، ووراء ذلك كله إخلاص من هذا الفرع العتيبي في الإيمان

---

(١) دحلان: خلاصة الكلام ٢٦٣.

بالدعوة والإخلاص بعد ذلك إخلاصاً لايقل عن إخلاص القبائل الأخرى[1].

أما حرب فإن وجودها كان كبيراً في نجد قبل قيام الدولة السعودية إلا أن الباحث يمكن أن يعتبر سوالاتها للدعوة والدولة مجالاً لتكثيف وجودها في نجد بصرف النظر عن كون ذلك أحد الأسباب الكامنة وراء هذا الولاء أم لا، وبهذا تكون نجد قد عوضت شيئًا من الفراغ القبلي الذي خلفه رحيل الظفير وقسم من عنزة وشمر.

أما أثر الدولة علي التغيير القيادي للقبيلة في نجد فيتمثل في التغيير القيادي الذي طرأ على قبيلتي قحطان والدواسر اللتين أمدتنا المصادر المعاصرة بمعلومات تبين كيفية هذا التغيير ومدى استمراريته والظروف التي واكبته، وتدل على اقتصار هذا التغيير على هاتين القبيلتين تقريباً.

ولقد كانت مبايعة هادي بن غانم الجحدري الملقب بهادي بن قرملة للشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام عبدالعزيز بن محمد سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٦م على السمع والطاعة والجهاد هي بداية التغيير القيادي في هذه القبيلة، ولم يكن هادي هذا من كبار قادة قحطان إلا أنه يعتبر أحد أفراد فخذ الجحادر وهو فخذ كبير في قحطان له أهميته وقد يكون من وجهاء هذا الفخذ ولكن لم تشر المصادر إلى ترؤسه هذا الفخذ، إلا أن صفات القيادة القبلية موجودة لديه فيما يبدو فاجتمعت فيه مع الصدق والإخلاص في الولاء للدعوة والدولة السعودية حتى استطاع أن يضم قحطان إلى طاعة هذه الدولة وأن تصبح هذه القبيلة من أشد القبائل إيمانًا بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ثم تمكن بعد

---

(١) تعتبر عتيبة من القبائل التي أيدت الدولة بإخلاص فيما بعد، واندمجت في المجتمع النجدي الحضري حيث تشكل الأسر المتحضرة العائدة إلى عتيبة قسماً كبيراً من حاضرة نجد.

ذلك أن ينال الثقة من الأئمة السعوديين في توليته زعيماً عاماً لقحطان نجد[1].

ولم تشر المصادر إلى زعيم قحطان في تلك الفترة ويبدو أن سلطة رؤساء الأفخاذ قد فاقت في قوتها سلطة زعيم القبيلة، كما لم تشر إلى اختلاف قحطان عليه مما يبدو معه أن مشايخها كانوا يدينون له بالطاعة على أساس أنه ممثل الدعوة ودولتها فيهم، ومن هنا يمكن القول أن هذا التغيير القيادي في قحطان لم يلق معارضة تذكر منها فاستمر هادي على زعامته لها حتى إذا توفى خلفه أبنه محمد بن هاد ي الذي ظل على ولائه وزعامته للقبيلة بقية عهد الدولة السعودية الأولى والثانية، وقد أثمر هذا التغيير القيادي ظهور قيادات عسكرية من هذه الأسرة القحطانية تمثلت في هادي، وابنيه مبارك ومحمد، وأخيه سعد علاوة على ولاء قحطان الشامل للدعوة السلفية والدولة السعودية[2].

أما الدواسر فقد بدأ التغيير القيادي فيها عندما بايع ربيع وبدن ابنا زيد الدوسري رئيس المخاريم سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م، ولما كانت الدواسر من القبائل غير التابعة للدولة في البداية مثلها مثل كثير من البدو والحضر فقد آثر الأئمة السعوديون أن يولوا ربيعاً قيادة قبيلة الدواسر كلها حاضرة وبادية مما أثار حفظة بقية الدواسر خاصة الرجبان والوداعين فأبرزوا معارضتهم لإمارة ربيع في عدة أساليب وفي فترات متعددة، على الرغم من أن ربيع يختلف عن هادي في كونه أمير فخذ أو ابن أمير، إلا أن الدواسر استنكفوا أن تكون إمارتهم العامة بيد المخاريم.

---

(١) ابن غنام ٢/ ١٣٠،١٣١.

(٢) ابن بشر ١/ ١٠٠،١٠٧،١١١،١٣٤،١٣٥،١٣٦،١٤٩،١٥١،١٦٢،٢١١،٢/ ٤٨،٩٠،١٤٧،١٧٤ دحلان: ٢٨٣،٢٨٤.

وقد مر بنا في الفصل الأول والثاني من هذا الباب صور من معارضة الدواسر لإمارة ربيع الذي عرفت قيادة الدولة السعودية له مكانته ودوره في نشر الدعوة في الجنوب وإخضاع الدواسر لطاعة الدولة فأبقته على إمارته العامة لمخلفه ابنه قاعد بعد ذلك.

ويمكن رصد أوجه الخلاف في التغيير القيادي بين الدواسر والقحطانيين استناداً لما سبق فيما يلي:

(أ) أن هادي بن قرملة لم يكن زعيماً قحطانياً قبل اتباعه للدولة بينما كان ربيع زعيماً وابن زعيم دوسري.

(ب) لم يلق هادي معارضة تذكر أو على الأقل لم تكن بالدرجة التي لقيها ربيع.

(جـ) ثبات مركز ربيع في وادي الدواسر بحاضرته السليل لكونه أميراً بدوياً حضرياً بينما كان هادي زعيماً بدوياً إذ لم يتحضر قسم كبير من قحطان في تلك الفترة.

(د) استمرار إمارة قحطان بيد هادي وابنه حتى نهاية الدولة السعودية الثانية بينما لم تشر المصادر إلى استمرار إمارة ربيع وابنه إلا إلى نهاية عبدالله ابن سعود وذلك بلا شك راجع إلى قوة معارضة الدواسر لربيع وابنه[1].

---

(١) كان أمير الدواسر في عهد الإمام تركي بن عبدالله هو سلطان بن قويد (ابن بشر ٤٨/٢) كما أشارت بعض كتب الأنساب إلى أن الإمارة العامة في الدواسر لابن قويد من القودة من بني صهيب (حمد الحقيل : كنز الأنساب ومجمع الآداب ط٥. ١٣٩٦هـ ص١٣٢).

ومن تتبع سلسلة زعماء القبائل التي والت الدولة في الدور السعودي الأول - ولو لفترات متقطعة - يتضح عدم وجود تغيير في هذه القيادات إذ بقيت القيادة العامة في الأسرة التي كانت قبل قيام الدولة السعودية واستمرت فيها بعدها كذلك فيما عدا هاتين القبيلتين اللتين يمكن أن يكون لعدم بروز قيادة عامة لهم في تلك الفترة، أو عدم الولاء الشامل السريع أثر رئيس في ذلك التغيير[1].

والخلاصة أن تلمس آثار الدولة السعودية في هذا الجانب لم يظهر لي إلا في هذه الجوانب الثلاثة وهي:

(أ) الرحيل الجماعي لبعض القبائل إلى خارج منطقة نجد كما حدث من الظفير وشمر وعنزة.

(ب) الرحيل الجماعي لبعض القبائل باتجاه منطقة نجد كما حدث من عتيبة وحرب.

(جـ) التغيير القيادي لبعض القبائل كما حدث من الدواسر وقحطان[2].

---

(١) ذكر العجلاني في عهد سعود بن عبدالعزيز ص ٣٣٣ نقلاً عن مانجان سلسلة زعماء القبائل النجدية على تحريف في الأسماء، وأبرز مافي التحريف خزيم بن لحيان زعيم السهول الذي رسمه خزين، وكذلك قاعد بن ربيع الذي رسم قائد بن ربيعان، وكذلك محمد بن هادي بن قرملة الذي رسمه محمد بن عاملة.

(٢) أفادني أحد القحطانيين أن إمارة قحطان العامة قبل هادي بن قرملة بيد العماج - وأسرته لا تزال معروفة وقد أسست هجرة العماج قرب الرياض وإمارتها فيها - ولعل العماج كان كبيراً في السن أو ضعيفاً أو عقيماً، وكان هادي من كبار رجاله ولكنه ليس مشهوراً بالزعامة، فخلف العماج على الإمارة وكان قد بايع الشيخ محمد والإمام عبدالعزيز وقد بنى هادي بعد فتح الحجاز مسجداً قرب قصر السقاف لايزال يسمى مسجداً هادي، خلفه على الإمارة ابنه محمد وكان عقيماً فخلفه أخوه عمرو إمارة قحطان العامة في عقبة إلى الآن وهم يسكنون هجرة الرين قرب القويعية، وانظر : (ابن جنيدل: عالية نجد ٦٤٧/٢).

٤ ـ أثر الدولة والدعوة على بعض أساليب الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد لدى بادية نجد:

لقد وقفت الدولة السعودية والدعوة السلفية في وجه العادات والتقاليد البدوية السيئة كما كيف ـ إلى حد ما ـ أساليب الحياة العامة بما يتمشى مع مبادئ الدين، ومن أبرز ماتم القضاء عليه أو وجه توجيهاً إسلامياً مايلي:

(أ) أثرهما على نظام الدخيل والربيط:

لقد بادرت هذه الدولة بالقضاء على نظام الدخيل بصورته الجائرة التي سبق بيانها في الباب الثاني، والتي كانت أسلوباً من أساليب تكريس الظلم، وإحقاق الباطل وإبطال الحق، وخرجت بالإجارة المشروعة منه هدفها الخير، وفي هذا السبيل ألزمت الدولة رؤساء القبائل بتسليم أي مجرم يلجأ إلى شخص آخر إلى الدولة لتنفذ فيه أحكام الشرع ويؤدب المجير أو يوجه من قبل رئيس القبيلة أو أمير البلدة لئلا يجير مجرماً بعد ذلك[١].

على أن الدولة كانت تشجع نواحي الخير في الدخالة كما أشارت إلى ذلك قصة الشبرمي[٢] أمير سميراء في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز، وهي قصة تحمل في مضمونها عفو الدولة عن إجارة الشبرمي تحت تأثير ابنته لفريق من حرب نهبوا مواشي من القصيم عندما اطمأن الإمام سعود لهدف الشبرمي الخير من وراء تلك الدخالة[٣].

---

(١) د: العجلاني عهد سعود بن عبدالعزيز ٣٣٠.

(٢) الشبارمة يرجعون إلى شبرمة من بني وهيب من بني تميم يوجد منهم أسر في سميراء والقصيم ويرجع إليهم بعض الأسر النجدية الأخرى سواء في نجد أو الزبير أبرزهم آل مانع وآل شيحة وآل حبيب في سدير والسواكت في الزلفي والقصيم، وآل أبا حسين في أشيقر. (حمد الجاسر: معجم الأسر المتحضرة ٤٤١/١. ٤٤٢).

(٣) ملخص القصة أن فريقاً من حرب أخذوا إبلا لأهل القصيم فبعث في إثرهم حجيلان بن حمد

ومن المعتقد أن الدولة قد قضت أيضاً على نظام الربيط الذي كان من أسباب إشعال الفتن بين القبائل لنهب هذا الربيط أو ذاك، أما من كان لديه ثأر أو أي من الحقوق فإنه يلجأ إلى الدولة التي تقيم له القصاص إن كان عمداً أو الديه إن كان شبه عمد أو خطأ، وتأخذ لكل ذي حق حقه.

(ب) أثرهما على وضع المرأة:

إذا كانت المرأة البدوية قدعاشت، قبل الدعوة في حرية وكرامة، فقد أكدت الدعوة استناداً لمبادئها الإسلامية على تكريم المرأة وعدم غمطها حقها مما أضفى على ذلك الوضع التكريمي قبل الدعوة نوعا من التنظيم والتأصيل ؟؟

سرية لحقت بهم حتى وصلت سميرا وهددت الشبرمي إن لم يسلم الحروب مع مواشيهم فحاول تسليمهم تحت تأثير ابنه إلا أن ابنته - وكانت شاعرة - عابت عليه ذلك، وطلبت منه أن يسلم لأهل القصيم ما أخذ منهم من المواشي فقط، ولكن الشبرمي - وقد نفذ ما أشارت به ابنته - خاف من سطوة حجيلان فأشارت عليه بالقدوم على الإمام سعود بن عبدالعزيز وعرض الوضع عليه فلما قدم على الدرعية وأخبر سعوداً بذلك غضب عليه عدم إطاعة أوامر حجيلان، إلا أن أحد جلساء الإمام أنصف الشبرمي وأثنى على رأي ابنته الصائب فأعجب الإمام بها وخطبها من أبيها وأمره أن يرجع راضياً مرضياً وكتب إلى حجيلان بعدم معارضة الشبرمي بعد ذلك وأن يجهزه وابنته للقدوم إلى الدرعية فقدموا إليها وتزوجها الإمام سعود، وليس من المعروف هل أنجبت له أولاداً أم لا، وكانت الشبرمية قد قالت أبياتاً تنعي فيها الرأي القائل بتسليم الحروب منها:

بعذر السحاب لوتزبرو لاهل	وبعذر ولي العرش لوما سقانا
أخذ القصير وزا بن البيت ماحل	لولاه يا من جالنا مانصانا
المرة الأخرى يجنب إلى ذل	يلقى الدروب مفتحات بالنا
تحزموا يا الفوش ترى ما لكم دل	ولو مرشد حي بسيفه حمانا

ويروي الشطر الثاني من البيت الثالث: (ماضاقت الدنيا عليهم احذانا) كما يروي الشطر الثاني من البيت الرابع (ولو والدي حي بسيفه حمانا) ومعنى هذا أنها ليست بنتاً لأمير سميراء الذي ألجأ الحروب وربما كانت أخته. للتفصيل في القصة ورواياتها: (عبدالله اللويحان روائع من الشعر الشعبي ط (٢) مطابع التوات المسلحة السعودية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ١٧٧، ١٧٨، ابن رداس: شاعرات من البادية ٢١١، ٢١٢).

وإبراز بعض الحقوق التي كانت تفتقدها المرأة البدوية قبل ذلك وقد حفلت الرسائل الوعظية التي كان يوجهها أئمة الدولة وعلماء الدعوة بالحث على تكريم المرأة[1].

ومن الطبعي والدعوة السلفية دعوة تجديدية أن تولي المرأة جانباً من اهتمامها، وأن تجعل من توجيهاتها إنصاف المرأة والدفاع عن حقوقها التي كفلها لها الله ورسوله، بل يمكن القول إن من أسس دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب هذا الإنصاف والتكريم للمرأة، ومحاولة الرفع من مكانتها الاجتماعية بالقدر الذي تسمح به الأوضاع الاجتماعية السائدة ولا يتعارض مع تلك المباديء التكريمية[2].

وإذا كانت الأوضاع العامة في البادية قبل الدعوة قد أعطت المرأة - في نطاق تكريمها - حرية على نطاق واسع في المجال الأسري والاجتماعي والاقتصادي فإن الدعوة قد أرادت تهذيب هذا التكريم لينسجم مع طبيعة المرأة التي خلقها الله عليها.

وقد نظر علماء الدعوة في أهم قضية كانت تعاني منها المرأة البدوية وتقف حجر عثرة في سبيل تكريمها وهي قضية التحجير أو التحيير أو التحيين التي مر تفصيلها في الباب الثاني فأفتوا بتحريم ذلك وشددوا النكير على فاعله، وإذا كان العلماء في ذلك لم يقضوا على هذه الظاهرة قضاء تاماً فقد أصبحت تمارس على نطاق أقل من السابق وإن كان ذلك إلى وقت قريب[3].

---

(١) د. العجلاني عهد سعود بن عبدالعزيز ٢٥٤.

(٢) حمد الجاسر: المرأة في حياة إمام الدعوة. بحث قدم لأسبوع الشيخ محمد عبدالوهاب ص ١.

(٣) ابن قاسم : الدرر السنية ٦/٣٢١.

وقد راعت الدعوة جهل كثير من البدو بأحكام النساء فأفتى بعض العلماء بالتماس العذر بالجهل لمن تزوج في عدة الطلاق جاهلاً، ولكن يفرق بينهما حتى تنقضي العدة لأولى من الطلاق الأول ثم تعتد من وطئه في عدتها، فإذا انقضت العدتان حلت للأزواج وهو واحد منهم، ولاشك أن الفتوى قد سرت ابن البادية وجعلته يتقبل الدعوة بيسر وسهوله خصوصاً إذا علمنا أن هذه الفتوى قد ردت في مضمونها على من قال إن حكم المتزوج في عدة الطلاق حكم الزاني[1].

(جـ) أثرهما على الملبس:

لقد وهم قسم كبير من البدو الذين أعلنوا ولاءهم للدعوة أن هذا يقتضي منهم الاقتصار علىٰ نوع معين من اللباس، إلا أن علماء الدعوة وأئمتها كانوا لايرون الاقتصار على نوع معين من الأزياء ما دام مباح المادة ليس حريراً كاملاً أو مشوبها به، ولم يقصد به التشبه بالكفار، ساتراً للعورة غير مسبل، وليس خاصاً بأهل دين معين[2].

وحتى العمامة التي كان أهل البادية يعتقدون بأنها لبسها كان دليلاً على الدخول في الدعوة، ويوالي على ذلك ويعادي عليه، قد بين علماء الدعوة بأن ليس في السنة مايفيد بأن من لم يلبس العمائم فقد أثم، بل اللباس على أي كيفية من المباحات وموافقة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس في الاقتصار على لبس العمامة التي هي زي مثل أي زي آخر، لأنه ليس للمؤمنين شيء يتميزون به في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس

---

(١) ابن قاسم: المصدر السابق ٣٢٨/٦.

(٢) عبدالرحمن بن سليمان الرويشد : الوهابية حركة الفكر والدولة الإسلامية ط (٢) ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م دار العلوم للطباعة القاهرةص ٢٥، ٢٦.

دون لباس ـ إذا كان مباحاً ـ بل يلبسون ماجري العرف بلبسه، والرسول صلى الله عليه وسلم لبس جميع أنواع الألبسة الموجودة في عهده والمتوافرة لديه، واللباس كما يقال عادة وليس عبادة إذا كان متمشياً مع القواعد العامة في المجمع وتوفرت فيه الشروط الشرعية السابقة[1].

وقد التزم أئمة الدولة بهذه المبادئ فلم يؤثر عن أحد منهم أنه تعمم، وحتى الإمام عبدالعزيز وهو أشدهم تمسكاً بمبادئ الدعوة لم يتعمم، بل كانوا جميعاً يلبسون ملابس ترى فيها آثار نعمة الله من الثراء والبساطة في آن واحد، وأبرز ماكانوا يلبسون على الرأس العصائب التي تشبه العقل وتقوم مقامها، على اختلاف بينهم في التزام جانب البساطة أو الترف المحدود في ذلك[2].

ويؤكد علماء الدعوة بشكل عام على عدم الخيلاء في اللباس والتزام البساطة في هذا المجال مع إبراز نعمة الله سبحانه على المسلم في الثوب الحسن والنعل الحسنة، لأن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على خلقه، ولهذا فقد كانوا لا يرون العبي ملبوساً خاصاً بأهل التقى والورع والعلم الشرعي فقط كما تصور كثير من الناس في بداية انتشار الدعوة فيما يبدو[3].

---

(١) للتفصيل في رأي علماء الدعوة باللباس:ابن قاسم : العدد ٤/١١٥ ـ ١٣١، وانظر ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان ط (٤) المطبعة السلفية القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٣.

(٢) الريكي ١٧٢.

(٣) Burokhardt. Notes . TS. 1/102

(د) أثرهما على المشرب وبقية العادات:

لقد مر بنا أن مشروبات البادية لم يجد عليهما جديد يستدعي النظر وإبداء الرأي الشرعي فيها ماعدا القهوة والتبغ، وقد رأينا طرفاً من رأي العلماء في نجد قبل الدعوة في هذين المشروبين.

ولما كانت الدولة ترمي نحو تحقيق أهدافها السلفية وفق الأسس العقدية والتشريعات الإسلامية التي تتبع المبدأ القائل: «يجد للناس من الأقضية ما يجد لهم من القضايا»، فإنها قد قامت ببحث كل مايجد ويحدث من العادات والتقاليد المكتسبة لتحدد موقفها منها بمايتفق من أحكام الإسلام المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح، ومن هنا فقد نظر علماء الدعوة في هذين المشروبين وأصدروا فيهما من الأحكام ما يتلاءم مع طبيعتهما استناداً إلى مبادئ الإسلام وتشريعاته.

أما التبغ فإنه إذا كان علماء الأمة الإسلامية قد بحثوه من الناحية الفقهية واختلفوا فيه مابين مبيح ومكره ومحرم، فإن علماء نجد قبل الدعوة كان فيه كلام طويل خلصوا فيه إلى التحريم كما مر بيان ذلك عند مشرب البادية قبل الدعوة والدولة السعودية.

ولما رأت الدعوة في البتغ - استناداً إلى طبيعته وإلى آراء العلماء فيه قبل الدعوة - تبذيراً وإضاعة للمال، وإضرار بالصحة، وشيئاً من التخدير والتفتير وإفساد الأمزجة فإنها لم تقف فيه عند حد الرأي الفقهي بل أوعزت للدولة بملاحقته في كافة المناطق التابعة لها وتأديب من كانوا يتعاطونه عن علم بمضاره وحكمه، وإنه لفخر يسجل للدعوة والدولة السعودية في ملاحقة هذا المشروب الضار منذ مائتي سنة سابقة في هذه الحملات التي تقوم بها وزارات الصحة والمنظمات الصحية الدولية والإقليمية للحد من انتشاره[1].

---

(١) عبدالرحمن الرويشد: المرجع السابق ص ٢٥، وقد أوصت منظمة الصحة الدولية مؤخراً بمنع زراعة وتصنيع التبغ، والقيام بكافة أشكال الدعاية والإعلان له، وتشجيع الذين يقلعون عنه. (انظر صحيفة الجزيرة عدد ٣٧٠٢ الإثنين ٢٢ محرم ١٤٠٣هـ / ٨ نوفمبر ١٩٨٢م ص ١١)

ولما كان التبغ قد انتشر في البادية قبل الدعوة كما مر، وأصبح لدى بعضها عنواناً للرجولة والشهامة والكرم كما سلف، فإن الدعوة والدولة قد حاربته في مبدأ الأمر بالحكمة والموعظة الحسنة، ولما كان ابن البادية يحب البساطة في الأمور الدينية، وتعليل الأحكام فإن إشعاره بمضار التدخين وتحريمه على أساس هذه المضار كان كافياً لإقلاع قسم كبير من البدو عنه ممن وقر الدين في قلوبهم، بل محاربته من مطلق العارفين به مذكرين أبناء البادية الآخرين بأضراره، ولقد كان من مظاهر التبعية للدعوة السلفية بعد آداء أركان الإسلام الإقلاع عن التدخين الذي أصبح يلقى عقوبه تعزيرية قد تصل إلى أربعين جلدة أو أكثر أو أقل ولكنها لاتصل إلى مستوى عقوبة الخمر في شدة الضرب وهذا يدل على سبق في مكافحة هذه الآفة الضارة[1].

وقد أصدر أبناء الشيخ وتلاميذه تحريمهم للتبغ لا على أساس أنه بدعة كما ذكر ذلك بعض الكتاب الغربيين بل على أساس مضاره، وهم في الوقت نفسه قد نعوا على العلماء قبلهم أو المعاصرين لهم عدم تحريمهم لهذا المشروب الضار، وما من شك أن هذا وعي فقهي توافر لعلماء الدعوة بسبب صفاء المنهل الذي يستمدون منه أحكامهم[2].

وقد اعتبر بعض المعارضين للدعوة السلفية من الفئات الإسلامية الأخرى تحريم التدخين والعقاب على شربه مطعناً من المطاعن على الدعوة، على أن هذه العقوبات لم تكن من أولويات الدعوة بقدر ما هي مقارنة لهذا المشروب بغيره من المشروبات التي ورد الدليل بتحريمها وتحديد عقوبتها، ثم إنه من

---

(١) ابن قاسم: الدرر ٤٥٣/٤، ٤٥٤، د ماضي : المرجع السابق ٦٢/١.
Burokhardt. Notes . 1/102.

(٢) ابن قاسم: الدرر ٤٥٣/٤، د عبدالله العثيمين: الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٤٤.

سخف الحاقدين على الدعوة أن يركزوا على منع التدخين سبة للدعوة الذي يعتبر حسنة من حسنات هذه الدعوة المباركة والدولة السعودية الكريمة.

وعلى أي حال فقد ظل البدو وطوال عهد الدولة السعودية الأولى يحتفظون بمظهر من الولاء لها وللدعوة فيما يتعلق بالتدخين، فقد امتنع رؤساؤهم على الأقل عن تعاطي شربه، أما بعض عامة البدو فإنهم يشربون التبغ بالخفاء يساعدهم عليه جو الصحراء الفسيح، وكراهية الدولة للتجسس، لكنهم يكنون للدعوة والدولة كل مظاهر الولاء والاحترام والهيبة بحيث إنهم إذا شموا اطلاعاً من الدولة على شربهم يمتنعون عنه وقد يكون هذا نهائياً في أكثر الحالات[1].

أما القهوة فلم يذكر عن علماء الدعوة في تلك الفترة أو بعدها كراهتها فضلاً عن تحريمها بل إنهم كانوا يتعاطونها في مجالسهم ولم ينكروا على من يشربها أو يكره تعاطيها مزاجاً لاشرعاً.

وقد ألف أحد علماء الدعوة رسالة في إباحة القهوة ورد الشبه التي اعترضت من كرهها أو حرمها التي سبق بعضها في مشرب البادية قبل الدعوة سواء من العلماء قبل الدعوة أو بعدها، ومامن شك في أن هذا الموقف قد سر أبناء البادية الذين يعتبرون القهوة عنواناً للرجولة معتبرين هذا الموقف من الأدلة على واقعية الدعوة التي تستلهم مبادئها من أحكام الإسلام الواقعية، والتي تبيح كل نافع وتحرم كل ضار[2].

واستناداً إلى رأي الدعوة في القهوة فقد كانت الدولة السعودية تدعم هذا

---

(١) تقرير جان ريموند ص ٣، .Burokhardt. Notes 1/106

(٢) الغريب أن يشن المعارضون حملة على الدعوة على أنها حرمت القهوة علماً أن موقف الدعوة في هذا واضح كل الوضوح ولم يستطع بعض الباحثين الماوئين إنكاره. (عبدالرحمن الرويشد ص٢٥، محسن العاملي ١٤٦).

المشروب خاصة في شهر رمضان المبارك حيث يشرب مع الإفطار وفي العشر الأواخر حيث يتطلب القيام بالليل الترويح عن النفس والتنبيه للذهاب للمسجد بشرب القهوة مع السماع للذكر، وأصبحت هاتان العادتان من أبرز عادات النجديين في هذا الشهر الكريم حتى الآن، ومن الطبعي أن يشمل هذا الدعم البدو حيث كان يتمثل في إرسالها أكياس البن، أوبعث نقود يشترى بها بُنًّا للأغراض السابقة توزع في كل المساجد والنواحي والبوادي التي يوجد فيها تجمعات سكانية[1]، ولاشك أن هذا شجع النجديين بادية وحاضره على إدخال مسألة التصدق بالقهوة ضمن مشاريع الخير في رمضان، وشجعهم كذلك على التمسك بعادة شرب القهوة وتقديمها لكل ضيف قادم مهما كان صغيراً أو كبيراً.

وقد نظر بعض علماء الدعوة في بعض المعتقدات الطبية لدى البادية والتي لها أصل قديم عند العرب، فقد تواتر لدي قسم كبير من بادية وحاضرة نجد منذ زمن متقدم أن دم البرزان [2] يشفى من داء الكلب[3]، وقد أفاد بعض هؤلاء العلماء بأن ذلك لا أصل له في الشرع وأن التداوي بالنجس - كالدم - حرام.

---

(١) ابن بشر ١/١٧٣، ٢٣٠.

(٢) ذكر الشيخ ابن قاسم في الدرر ٤/٢٤٧ الحاشية أن البرزات من سبيع وهو يقصد البرزات الذين هم من السهول. ولكن المقصودون بعلاج داءالكلب هم البرزان أحد أفخاذ برية من مطير والنسبة إليهم برازي. (حمد الجاسر: معجم قبائل المملكة ١/٣٨، ٣٩، ٤٢، ٢٧٥).

(٣) داء الكلب ويسمى رهبة الماء: مرض خطير يصيب الحيوانات عادة وخاصة الكلاب والقطط والذئاب والثعالب سببه فيروس يصيب الجهاز العصبي ويوجد في اللعاب من الحيوان المصاب ومن ثم ينتشر بالعض ومن أعراضه الشراسة والضراوة وسرعة الانفعال ثم الوهن والكآبة فالشلل والموت. ويخاف الإنسان المصاب به من الماء لأنه مرتبط بالفطس فالموت، وله علاجات وأمصال معروفه طبياً: للتفصيل (الموسوعة العربية الميسرة ٧٧١ مادة داء، وصحيفة الجزيرة عدد ٣٨٨٥ الثلاثاء ٢٧ رجب ١٤٠٣هـ / ١٠ مايو ١٩٨٣م ص ٣١، عدد ٣٩٦١ الأربعاء ٢٤ شوال ١٤٠٣هـ / ١٣ أغسطس١٩٨٣م ص ٧).

ولم ينكر هؤلاء العلماء دعوى نفعه لداء الكلب بالتجربةإذا أفتوا بأن هذه الدعوى لاتبيحه مادام أن التداوي بالدم أصلاً حرام، ومعنى هذا أن هؤلاء العلماء قد أطلعوا أوسمعوا من ثقات ثبوت نفعه لهذا الداء[1].

ورغم ماحدث من نقاش حاد حول هذا الموضوع مؤخراً بين ناف لذلك ومعده خرافه من الخرافات التي حفل بها تاريخ الطب عند العرب، ومن المؤكد له سواء من أبناء هذه القبيلة الذين أبدوا استعدادهم لتطبيق التجربة على مرآى من أهل العلم والنافين له أو من غيرهم ممن يؤكدون نجاح هذه التجربة معهم[2]، رغم كل هذا فمن الصعب نفى نجاح التجربة أو تأكيد صحتها وفرق بين ذلك وبين صحة الاقتناع بها والتي مامن شك في أن أول أسبابها ناحية نفسية واجتماعية لا أقل ولا أكثر[3]، إذ من المعروف أن الحاجة أم الاختراع، والبدو في صحرائهم ينقصهم الكثير من المستحضرات والمساحيق الطبية ومن هنا فقد تفتقت أذهانهم عن علاجات جيدة وغير جيدة واقتنع النجديون حاضرة وبادية بتلك العلاجات الجيدة حتى الآن إذ مازالوا يعتقدون بأن هناك أمراضاً لاينجح معها إلا الطب الشعبي المشتهر لدى البدو وتلك ناحية نفسية قد تأصلت في نفوس النجديين دعمها نجاح بعض العلاجات الشعبية، ولعل لما عرف عن هذا الفخذ من صفات الكرم والرجولة والشهامة أصل في هذا إذ أن إغاثة الملهوف ومعالجة المريض بنفس رضية وماشابه ذلك أمور تبين أصالة معدن القائم بها والاقتناع بالتالي بما يمارسه من صنوف الاستطباب، على أن هذا لايمنع بتاتاً أن يكون لدى هذا الفخذ حصانة ضد هذا المرض بأي سبب

---

(١) ابن قاسم : الدرر ٢٤٧/٤.

(٢) حفلت الصفحة ماقبل الأخيرة من صحيفة الجزيرة بهذا النقاش في أعداد كثيرة منها (٣٧٨١، ٣٨٢٢، ٣٨٧٠، ٣٨٧٢، ٣٨٧٤، ٥٨٨٥،٣٨٧٩، وأبرز المناقشين فيه الشيخ حمد الجاسر.

(٣) صحيفة الجزيرة عدد ٣٨٨٥ص ٣١ من مقال للدكتور سعد الصويان.

من الأسباب[1]، ولعل عدم نفي علماء الدعوة له ـ رغم التحريم الصادر منهم دليل علـى صحة وقوعه وثبوت نـفع تجربته أحيـاناً وكأنهم فيمـا يبدو ـ يرون البحث عـن علاجات أخرى فإذا لم يتيـسر ذلك وخشي على المـريض الهلاك عولج بذلك.

وإذا كان جو الصحراء الفسيح قد فـرض على البدوي نوعاً من الحرية مما جعله يستجـيب لكل ماتمليه عليه مشاعره سـواء كان ذلك وهو يرعى الإبل أو الغنم، أو وهو يعيـش حالات الفرح أو الحزن ليعكس هذه الاستجـابة بالغناء بالربابة[2] أو بدونـها إذا كان ذلك كـذلك فإن الـدعوة تدخـلت لتهـذب هذا الأسلوب وتجـعله ينسـجم مع الوضع الـديني الجديـد الذي يجب أن يعـيشه البدوي، وهو الانصهار فـي بوتقة تعاليم الدين والتي تجعلـه يعيش حياة جادة لاتخلو من بعـض الترويح البريء الضروري للنفـس، وفي هذا المجال حرمت الدعوة علـى أتباعها من البـدو الغناء بالربابة وغـيرها ولكنها أبـاحت لهم أن يحدوا على إبـلهم أو أغنامهم، أو يجلـو أحدهم مابخاطره بأبيـات لاتشتمل على محرم يصوغها بألحان لاتشتمل على إسفاف أو مجون[3].

---

(١) صحيفة الجزيرة عد ٣٨٧٩ ص ٣١ من مقال بقلم محمد الأحيدب من كلية الصيدلة بجامعة الملك سعود.

(٢) الربابة أو الرباب بفتح الراء، قال في القاموس: آلة لهو يضرب بها، وممدود بن عبدالله الواسطي الربابي يضرب به المثل في معرفة الموسيقى بالرباب، وقد اختلف في أصل تسميتها، فقيل إن أصلها عبري من لابب وأبدلت اللام بالراء، وقيل إن أصلها فارسي، ولعل أرجحها كونها عربية الأصل، وقد عرف المجتمع الإسلامي في عصوره المختلفة سبعة أنواع من الربابة، والمشهور لدى بادية نجد هو النوع المربع أو المستطيل وهو يتألف من هيكل خشبي مربع أو مستطيل، وجلد مشدود على الوجه والظهر، وعنق أسطواني من الخشب كذلك، وله وتر واحد أو وتران يستمدهما البدوي من شعر الخيل يجربهما أو بأحدهما، وهي أبلغ مايطرب البدوي ويثير شجونه ويخفف من أحزانه، وقد قل أثرها في بادية نجد بعد الدعوة، ويفرق فهدالمارك بينها وبين ربابة الصلب التي يقول عنها: إنها آلة هزلية تحترف بها فئة سافلة لتنشر أخلاقاً منحطة، للتفصيل: (الفيروزآبادي ٧١/١، فهد المارك:من شيم العرب ٤٢/١، ٤٣ الحاشية، دائرة المعارف الإسلامية١٠/١١ ـ ١٨).

(٣) ابن قاسم: المصدر السابق ٣٦٠/٦.

وعلى هذا الأساس فإن الغناء والموسيقى والرقص والألعاب المشروطة على جعل كلها محرمة في هذه الحياة الجادة الجديدة، ورغم أن البدوي قد تمسك بالغناء كأسلوب من أساليب الترويح عن النفس في هذه الصحراء المقفرة فإنه كان على استعداد لتلقي مبادئ الدعوة في هذا المجال، ومحاولة تكييف حياته عليها بالتقليل من ممارسته لهذه الأشياء ولو كمظهر من مظاهر الولاء للدعوة ودولتها عن بعض البدو[١]، اذ ما من شك في أن اشتهار البدوي بالربابة جعل قسماً من البدو يعودون إلى ممارسة الغناء عن طريقها بعد سقوط الدرعية عندما انعدمت الرقابة الحكومية لتنفيذ مبادئ الدعوة[٢].

---

(١). Burokhardt. Notes . 1/103,106

(٢) ابن بشر ٢٨٣/١.


الخاتمة

سأتناول في هذه الخاتمة أبرز النتائج التي خلصت إليها من خلال الموضوعات التي لها صلة مباشرة بعنوان الرسالة صارفا النظر عن الموضوعات غير المباشرة المبثوثة في ثنايا البحث حيث سبق أن قدمت عرضا عاما عن العناوين التفصيلية لهذه الرسالة في مقدمتها، وغني عن البيان أن هذه النتائج أو غيرها من تلك التي مرت في هذه الرسالة ليست كلها تتسم بطابع الجدة فبعضها معروف لدى النجديين سواء كانوا باحثين أو غير باحثين، وقد عرضت لي - كما قد تكون عرضت لغيري - أثناء الاطلاع على المصادر والمراجع المكتوبة أو السماع للروايات الشفوية، إلا أن جمع مثل هذه المرويات من مصادرها المحلية وغير المحلية وتحليلها وعرضها قد يكون شيئا جديداً، ولا يمكنني بأي حال من الأحوال اعتبار ما توصلت إليه من نتائج قضايا مسلمة وتعبر تعبيرا صادقا عن المجتمع البدوي النجدي سواء قبل الدولة والدعوة أو بعدهما، فبالرغم من الجهد المبذول في هذه الرسالة، فإن شأنه شأن أي عمل بشري يعتوره النقص والخلل، إلا أنه تيسر بتوفيق الله ثم مراجعتي لهذه الرسالة بين الفترة والأخرى والتعديل والإضافة فيها ماعساه أن يسد بعض جوانب النقص فيها، كما أن أي نقد لأي وضع اجتماعي سواء كان قبل الدولة والدعوة أو زامنهما أو أتى بعدهما لايمكن إلا أن يعد صفحات من التاريخ ولايعبر عن أي تجاه حيال قبيلة أو فخذ فكلها قبائل وأفخاذ لها مكانتها وتقديرها في أوساط المجتمع النجد. ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وبصورة عامة فإن أبرز ملامح التحولات القبلية التي مرت ببادية نجد منذ العصر الجاهلي وحتى قيام الدعوة السلفية والدولة السعودية هو تعرض هذه البادية لموجة التحضر بدرجة متفاوته فيما بينها، هذه الموجة التي حولت

قبيلة كبيرة الحجم متعددة الأفخاذ كتميم من قبيلة بدوية خالصة قبل الإسلام إلى قبيلة حضرية بأكملها حيث لايوجد بين أفخاذها أو أفرادها رُحّلاً قبيل الدولة السعودية وحتى العصر الحاضر، بينما حافظت قبيلة كبيرة الحجم متعددة الأفخاذ كذلك مثل طيىء على درجة كبيرة من بداوتها خلال تلك الفترة حيث اتصفت أفخاذ منها بالطابع البدوي أكثر من الطابع الحضري حتى العصر الحاضر، وقد تكاثرت هذه القبيلة ببروز بعض أفخاذها قبل القرن العاشر الهجري وبعده حتى سيطرت على أغلب المناطق الرعوية في نجد كما حصل من أفخاذ لام الطائية.

ومن أبرز مظاهر الوضع القبلي لبادية نجد ما قبل الإسلام وحتى العصر الحديث اختفاء الأسماء القبلية القديمة وظهور أسماء أخرى لأفخاذ قوية في القبيلة أخذت زمام السيطرة فيها دون بقية الأفخاذ الأخرى، كما أن من أبرز مظاهر هذا الوضع هو اختفاء قبائل أو أفخاذ معينة كانت لها الصولة والجولة في مضمار التنافس في البادية نتيجة لقوة قبائل أو أفخاذ أخرى إما أن تكون قد قدمت نجدا من مصدري الإمداد البشري في شبه الجزيرة (الحجاز أو اليمن)، أو قد تكون من القبائل أو الأفخاذ النجدية نفسها تمكنت-تحت عوامل عدة-من فرض سيادتها القبلية على أغلب بادية نجد، وطردت من كانت تتسنم ذروة الزعامة القبلية قبلها.

إن اعتبار الباحث الصَّلَبْ «الخلاوية» فئة بدوية هو أن السبب الرئيس له اجتواء الصلب القرى والبدان والعيش في الصحراء «الخلاء» -كما مر- عاما كاحتواء البدو وإن اختلفت أساليب المعيشة والعادات والتقاليد والصفات الجسمية والأصل الاجتماعي بين هاتين الفئتين البدويتين، فإن احتماء الصلب بالقبائل البدوية وعقدها معها مايشبه الحلف والجوار من أجل الحماية لقاء إتاوة

معلومة، يؤكد ماذهبنا إليه من أن البحث في الحياة الاجتماعية لدى الصلب حيث تتفرع هذه الفئة إلى مجموعة كبيرة من القبائل تضم عددا من الأفخاذ والعشائر والبطون كما مر.

وما من شك في أن اختلاف الآراء في أصل الصلب الاجتماعي إنما يعود إلى الأدوار الاجتماعية المتعددة التي تقوم بها هذه الفئة في أوساط المجتمع النجدي من أغلب النواحي الحياتية، ويبدو أن جذورا تاريخية من تلك النظرة الاجتماعية من التي كانت موجودة لدى عرب الجاهلية تجاه أرباب الحرف تعد من أهم العوامل في وجود تلك النظرة النجدية تجاه الصلب وتعدد تلك الآراء في أصلهم الاجتماعي.

إن استنكاف مؤرخي نجد عن الإشارة إلى الوضع الاجتماعي للصلب قد أوجد فرصة كبيرة أمام الباحثين الغربيين للخوض في تفاصيل الحياة العامة لهذه الفئة حينما وجدوا المؤرخين المحليين وكثيراً من علماء الدعوة السلفية- عدا إشارة بسيطة أوردتها فيما سبق-قد تركوا الباب مفتوحا أمام هؤلاء الغربيين كل يدلي بدلوه في تفاصيل تلك الحياة مما أوقعهم في بعض الأخطاء في كثير من نواحي تلك الحياة رغم موافقة بعض ماذكروا لما تواتر لدى النجديين، ويلمح الباحث أو المطلع على أبحاث هؤلاء الغربيين وضوح جانب كبير من التخرصات في حديثهم عن الحياة الدينية لدى الصلب حيث حفلت هذه الأبحاث بذكر عدد كبير من المعتقدات الدينية لدى هذه الفئة كما مر، وإذا كان من الممكن القبول بوجود بعض هذه المعتقدات فلا يمكن القبول بوجود هذا الكم الهائل منها، ولعل بعض هؤلاء الباحثين الغربيين قد أوردوا مثل تلك المعتقدات وخاصة النصرانية في محاولة منهم لإضفاء الأصل الصليبي على هذه الفئة النجدية التي عدها علماء الدعوة من ضمن كفار البوادي قبل

الدعوة، والمهم هنا أنـه لولا التعتيم المطلق على أخبار هـذه الفئة من المؤرخين المحليين لما تمكن هؤلاء الغربيون من الخـوض في تفاصيل الحياة العامة لها دون الرجوع إلى ما كتبه أبناء المنطقة عنها.

وقد وضح لنا في الحديث عن الجانب الديني من الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد قبل الدعوة بجانبـها الديني بعـد هذا الجانب عن الدين الـصحيح، وكونه -في الوقت نفسه- قد جعل من نفوس أبناء البادية أرضا بكرا لا لقبول مبادىء الدعوة السلفية فحسب بل لـلدفاع عنها ونشرها داخل نجد وخارجها، وقد تمكنت مـن خلال تحليل الشيخ محـمد بن عبدالوهاب رحمه الـله لبعض جوانب الحياة الدينـية لدى البادية قبل الدعوة التعرف عـلى ملامح هذه الحياة سواء بشكل عام أو ببروز بعض المعتقدات السيئة لدى بعض القبائل التي ذكرها الشيخ نفسه، ورغم أن تحليل الشيخ الـذي سبق التفصيل فيه في الفصل الأول من الباب الثاني يعتبر أوفى تحليل عن الحياة الدينية لدى البادية إلا أنه لا يخلو من بـعض النـقص في إعـطاء الصـورة الكامـلة عن هـذه الحياة وقـد سدت الإشارات التاريخـية والشعر العامي بـعض هذه الثغرات مما يمكـن الباحث من الخروج بتصور لا بأس به عن الحياة الدينية لدى بادية نجد قبل الدولة السعودية وهو ما حاولت أن أقوم به في ذلك الفصل.

وبصورة عامـة فإنه يمكن النـظر للحياة الاجتـماعية لدى باديـة نجد قبل الدولـة من زاويتهـا السلـبية والإيـجابية مـثلهـا في ذلك مـثل ظواهر الحـياة الإجتماعية لدى أي فـئة أو مجتمع فيه الجوانب المشرقة وفيـه الجوانب السيئة، وأبرز ظواهر هذه الحياة تلك النظرة السيئة من البدوي للحضري كما سلف إلا أنه من الضروري الإشارة هـنا إلى أن هذه النظرة ليست مـوجودة لدى البدوي فقط بـل كانت متبادلـة بين البدوي والحضـري، ومن هنا فإن ما قـد تجره من

نتائج يتحمل أضرارها كلا الفريقين، وقد حفل التاريخ الاجتماعي لحاضرة نجد بالعديد من الإشارات التي تبين أن هذه النظرة كانت متبادلة بين الحاضرة والبادية ولم يكن البدوي النجدي في تلك الفترة بدعا في وجود مثل تلك النظرة لديه فقد كانت متأصلة في البدوي العربي منذ القدم، وهي موجودة في المجتمعات الأخرى كذلك، بل إن الذين يعيشون حياة مخضرمة بين البادية والحاضرة كبعض سكان القرى والأرياف ينظرون النظرة نفسها لأبناء المدن، على أن مجال العلاقات الاجتماعية بين البادية والحاضرة في نجد في تلك الفترة قد حفل بوجود جوانب مشرقة تمثلت في الصداقات العميقة بين أفراد من الفريقين مرت إشارات لبعضها في ثنايا البحث، ثم إن التكوين الاجتماعي في بعض القبائل النجدية بوجود حاضرة وبادية فيها يفرض وجود علاقات طيبة بين أقسام كبيرة من الحاضرة والبادية ويجعل من الجوانب السيئة لتلك النظرة غير ذات تأثير عميق في مجال العلاقات الاجتماعية بين الفريقين إلا في فترات الفوضى وغياب السلطة السياسية.

ومن بين النتائج التي توصلت إليها في هذه الرسالة وضع المرأة في مجتمع بادية نجد قبل الدعوة كان وضعًا جيدا لولا وجود قضية العضل «التحجير»، وبهذا يتبين لنا أن المرأة البدوية قد بزت قرينتها المرأة الحضرية في كثير من مظاهر التكريم الذي تفتقده كثير من نساء الحاضرة بغض النظر عن وجود نساء فرضن وجودهن على عالم الرجال أمامهن للقيام ببعض الأدوار الاجتماعية، وما من شك في أن إضفاء هذا الطابع التكريمي للمرأة البدوية وملازمته-في الوقت نفسه-لوجود ظاهرة التحجير قد أوجد اختلالا في درجة التكريم التي تلقاها المرأة البدوية، ولا يبعد أن يكون قد نجم عنه بعض النتائج السيئة التي لازمت هذا التكريم في بعض القبائل أو أفخاذ منها على الأقل،

وقد بلغت درجة التكريم هذه حدا جعلت البدوي يخاف على زوجته من الحسد خاصة إذا كانت شابة أو جميلة أو ذات صفات أخرى ممتازة فيصفها بأنها عجوز درءا لعين الحُسَّد[1].

ويقف الباحث معجبا بنظرة البدوي النجدي للرقيق والخدم الذين حظوا بوضع تكريمي ربما لم يتسن لأمثالهم في المجتمعات الأخرى أو حتى لدى الحاضرة في نجد، ولعل أبرز مظاهر هذا الوضع التكريم اللائق طيلة الرق أو الخدمة، ثم إتاحة الفرصة للعتق وتهيئة كافة الوسائل للعيش الكريم بعدها، وبغض النظر عن الهدف وراء الإكثار من العتقاء في إضفاء نوع من الأبهة تبعا لكثرة الحاشية فإن الإنعام على أعداد كبيرة من الأرقاء بالعتق قد أتاح للمجتمع النجدي الاستفادة منهم في مجالات العمل المتعددة فيه وخاصة تلك التي يستنكف منها أبناء القبائل البدو أو الحضر، ولقد كان من لم يتمكن من الإعتاق أو يمتنع عن ذلك في حياته يضع بندا مهما في وصيته يتضمن إعتاق أكبر قدر ممكن من أرقائه.

وكما مر بنا فقد كان الكرم علامة مميزة بل من أهم الخصال الحميدة بين مظاهر الحياة الاجتماعية لدى البدو أن تعتبر هذه الظاهرة من أعرق المظاهر الاجتماعية البدوية حيث تأصلت فيه منذ القدم، ولم تزدها الأيام إلا رسوخا، وزاد من رسوخها وتأصلها تشجيع الإسلام على انتشارها، ومن هنا فلا غرابة أن يتجاوز البدوي في تمسكه بهذه الظاهرة أسلوب الكرم الحاتمي إلى أسلوب الكرم الإبراهيمي الذي ورد ذكره في القرآن الكريم كما سلف، والبدوي في اتباعه أسلوب الكرم الإبراهيمي بل جمعه بين هذين الأسلوبين الذين يكمل

---

(١) جاكلين بيرين ١٢٦ . وهذا الخوف متأصل في البدوي منذ القدم ولازال موجودا لديه حتى العصر الحاضر.

أحدهما الآخر إنما يهدف إلى الوصول لقمة الكرم، وهو في هذا النطاق على استعداد لتسخير كافة مظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى لخدمة الكرم سواء كان ذلك في المشرب بإدخال ما كان معروفا أو مايجد من مشروبات أخرى كالقهوة والتبغ مثلا ضمن مظاهر ذلك الكرم على اختلاف بين البدو في درجة اعتبار التبغ مشروبا تكريميا، أو سواء كان ذلك بتكييف العادات والتقاليد الأخرى لتتمشى مع هذه الظاهرة كالمأكل حيث يهتم البدوي بإشباع ضيفه ولو أدى ذلك إلى استدانته، وكتكييفه أسلوب الغزو بل حتى السلب والنهب والربيط والدخيل بحيث يحرص البدوي وهو يمارس مثل هذه العادات أن لا تتعارض مع ما اشتهر عنه من الكرم، ومن أبرز مظاهر هذا التكييف-كما مر- أنه لا يجوز أن يسلب من المخيمات أو من القبائل الصديقة بل يسلب من الأعداء فقط، وفي حرب مكشوفة، كما أن سلب النساء يعد أمرا معيبا في أوساط المجتمع البدوي، وهذا بلاشك يلتقي من قريب أو بعيد مع ظاهرة الكرم التي يمكن اعتبارها جماعا لكل خلق أصيل، وإذا حدثت تجاوزات لهذين الأمرين في بعض الأحيان فإن ذلك يلقى المقت من عقلاء البدو وحكمائهم، ومن هنا يمكن اعتبار الكرم بجانبيه المادي والمعنوي هو الموجه الغالب لكثير من تقاليد البدو وعاداتهم.

أما الخُوَّة من جانبها الاجتماعي فيمكن اعتبارها أساسا للعلاقات الاجتماعية سواء بين البدو أنفسهم من قبيلة واحدة أو نتيجة حلف أو جوار أو تحت مظلة الصداقة، أو معبرة عن لون من ألوان العداء، أو بين البدو والحضر الذين قد يجتمعون مع البدو في أصل أو حلف أو جوار أو يتعاملون معهم تعاملا عاما، كما أن أقساما من الفريقين قد يضمر العداء للفريق الآخر، ولكنهم تحت ضغط الظروف القاهرة قد يلجأون للتعامل الاجتماعي مع

بعضهم البعض، وفي هذه الحال تنطبق عليهم علاقات العداوة التي مر ذكرها، والمهم في هذا أن الخُوَّة من جانبها الاقتصادي تخضع لنوع العلاقة التي تتم بها الخوة من جانبها الاجتماعي التي تجاوزت بعلاقاتها المتعددة لتشمل كافة الفئات الاجتماعية في نجد كالصلب مثلا الذين رغم أنهم لا يتعرضون غالبا لاعتداء من القبائل البدوية فقد يمنحهم بعض البدو -بمقابل أو بدون مقابل- جوارا، على أنه عند الصلب لا يوفر الحماية لمجتاز الصحراء لعدم استناده إلى ركن شديد من قبيلة قوية، أو عدم توفر السلاح مع الصلب، فإنه قد يوفرها بطريقة أخرى نتيجة معرفة الصلب بمغاوز الطرق ومسالكها الآمنة، ومن هنا فإنه يمكننا القول إن الخُوَّة بجانبيها الاجتماعي والاقتصادي تعد أهم ركيزة يقوم عليها المجتمع النجدي بشكل عام والبدوي بشكل خاص، وكانت هي النمط الاجتماعي المنظم للحياة في الصحراء أثناء غياب السلطة السياسية ولهذا فقد كان العابرون نجدا والقادمون إليها يضعون في أوليات رحلتهم الاستفادة من خوة إحدى قبائلها الموهوبة، ويرصدون لذلك ما يتطلبه من مرتبات أو جوائز مقطوعة حيث كانت تشكل موردا ماليا جيدا لابن البادية، ومن هنا كانت الخُوَّة بجانبيها الاقتصادي والاجتماعي بعلاقاته المتنوعة تشكل موردا ماليا داخليا وخارجيا للمجتمع النجدي، كما تقوم بكافة أنواع العلاقات الداخلية والخارجية بما توفره من أموال من النجديين، وغيرهم، وبما توفره من فرص الاحتكاك والاتصال بين فئات المجتمع النجدي، وبين المجتمع النجدي والقادمين إليه من البلدان الأخرى، وهذا ما يسمح لنا بأن نطلق عليها «دبلوماسية البدو» حيث تقوم بكافة مهام الدبلوماسية بسائر أنواعها.

أما آثار الدولة السعودية والدعوة السلفية على الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد فقد تطلبت مني القيام باستعراض تاريخي لمواقف القبائل الرئيسة في

نجد في تلك الفترة من الدعوة والدولة، وهـذه المواقف كانت مبنية على وجود عدد من الغزوات التي قـامت بها الدولة ضد هذه القبائل أو أفـخاذ منها سواء بمفردها أو بالاشتـراك مع قبائل أو أفخاذ أخرى أو قوى سياسـية نجدية أو غير نجدية مناوئة للـدعوة ودولتها، كما كانت مبنية عـلى وجود عدد من الغزوات التي قامت بها هذه القبائل أو هذه الأفخاذ ضد الدعوة والدولة أو أتباعها سواء كان ذلك بمفردها أو بتحزبه مع قبائل وقـوى سياسية أخرى، كما كانت مبنية أيضا على محـاولات الدعوة والدولة السلمية الدخول إلـى قلوب هؤلاء البدو وعلى الاستـعداد النفسي مـن بعض هذه القبائـل رغم بعض المناوآت الـسابقة على الـدخول في الولاء لـلدعوة للدولـة، وقد وضح لنـا أن هذه المحاولات الحربية والسلميـة قد أثمرت ولاءً شبه جماعي بين كثير من الـقبائل بل أثمرت استعدادا نفسيا لدى بعضها لنـشر هذه الدعوة داخل نجد وخارجها، والتصدي للقوى السـياسية سواء كانت بدوية أو حـضرية نجدية أو غير نجديـة تلك التي كانت تتربص بالدولة الوليدة الدوائر، ورغم الملابسات التي اكتنفت بعض هذه المواقف في وجود غزوات مـن الدولة ضد بعض القبائل المـعروف ولائها التي يمكن أن يدرجها الـباحث تحت المراحل الأولية لهذه المواقـف أو أن ذلك نتيجة عدم وجود ولاء جماعي في هذه القبيلة أو تلك، رغم هذه الملابسات فإن المرء يمكنه- بالاطلاع على مصادر البلدان المجاورة، والمراحل المتأخرة لعلاقات هذه القبائل بالدولة- أن يخرج بتصور شبـه دقيق عن هذه المواقف تمثلت في تفاني بعض القبائل في الولاء للدعوة ودولتهـا كسبيع وقحطان والدواسر وأفخاذ من مطير وعتيبـة وحرب وعنزة وشمر والعجمان وآل مرة، كمـا تمثلت في مناوأة بعض هذه القبائـل للدعوة ودولتها كالظفير وأفخاذ مـن شمر وعنزة، على أن أقساما من تلك القبائل المناوئة قد اتـخذت من أسلوب التحضر والدعوة وسيلة

للدخول في طاعة الدولة السعودية الأولى، وبغض النظر عما تبع ذلك من نقض كبير من هذه القبائل لهذه الطاعة حينما بدأ الانهيار يحل بالدولة السعودية الأولى نتيجة حملات محمد علي عليها، فإنه يمكننا القول بأن هذه الدولة في أوج قوتها-في عهدي الإمامين عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود-قد استطاعت أن تحدد مواقف تلك القبائل الرئيسة من الدعوة السلفية، وكان من المتوقع أنه لومد الله في عمر هذه الدولة- بالقوة نفسها- لتمكنت من تحضير قسم كبير من البادية النجدية- وهي في مرابعها- وحملتها على الاستمرار في تلك المواقف المؤيدة للدعوة ودولتها، ومن هنا فإنه يمكننا التماس الأسباب في عدم ثبات بعض القبائل أو الأفخاذ على الولاء للدولة السعودية حينما تعرضت لحملات محمد علي في أنها لم يتح لها الانصهار في بوتقة تعاليم الدعوة، ولم تستطع استيعاب المحاولات التنظيمية التي قامت بها الدولة السعودية لقصر مدة هذه الدولة، ولما ران على هذه القبائل من سني الفوضى والقبلية الممقوتة إذ لم تعرف نجد حكومة منظمة منذ عهد الراشدين وحتى قيام الدولة السعودية الأولى، رغم خضوعها للولايات التابعة للخلافة الإسلامية، ولبعض الحركات الثائرة والدويلات المنفصلة التي لم تترك تأثيرات اجتماعية على البادية النجدية من تلك التي تركتها الخلافة الراشدة والدولة السعودية الأولى على اختلاف بين تلك الفترتين في درجة قوة ذلك التأثير واستمراره.

ولما كانت المؤثرات الدينية هي التي توجه الحياة الاجتماعية، وهي ما كانت تقوم به الدولة السعودية والدعوة السلفية، فكان لابد من استعراض لآثار هذه الدعوة والدولة على الحياة الدينية لدى بادية نجد، حيث تمثلت هذه الآثار في تطبيق بعض القبائل البدوية لأحكام الإسلام ومبادئه السلفية تطبيقا جيدا إذ أتاحت هذه القبائل لمبادىء الدعوة السلفية الدخول في حياتها الدينية،

وسمحت للبعوث الدينية التي كانت تبعثها قيادة الدولة بالتجوال في مرابعها وتوجيه حياتها العامة بما يتفق مع أحكام الإسلام، كما تمثلت في بعض مظاهر عدم الاستجابة السريعة لدى بعض القبائل أو أفخاذ منها، هذه المظاهر التي كان أبرزها رفض تأدية الزكاة للأمير القبلي المعين أو المؤيد من أئمة الدولة إذ تنظر هذه القبائل أن دفعها يعني الخضوع لحكومة منظمة تلغي مشيخة القبيلة أو ما يصدر عنها من أعراف وتقاليد، ويبدو أن هذه القبائل ما كانت ترفض دفعها لأنها ركن من أركان الإسلام إلا بقدر ما كان يصاحب قبضها من قسوة بعض الأمراء القبليين أو جباة الزكاة، على أن دفعها لحكومة منظمة يعتبر من الأشياء الجديدة على حياة البدوي الذي يتطلب شيئا من الترويض والتوعية، كما أن ذلك الرفض قد يدخل في باب الاحتقار لبعض الأمراء القبليين الذين تم تعيينهم أمراء عامين على بعض القبائل بتأييد من أئمة الدولة نتيجة اتباعهم مبادىء الدعوة السلفية وتفانيهم في خدمة الدولة السعودية، وهم لم يكونوا أصحاب رصيد قيادي قوي في قبيلتهم كربيع بن زيد أمير الدواسر كما مر.

ومن مظاهر عدم الاستجابة السريعة للدعوة السلفية امتناع بعض الأفخاذ أو أفراد منها على الأقل عن تأدية الصلاة سواء بالكلية أو جماعة في المساجد وهي أمور ما كانت تقبل القيادة السعودية التنازل عنها للأمر الشرعي بذلك وللمعطيات الاجتماعية المثالية التي تتحقق من أدائها جماعة، ويبدو أن الامتناع عن تأدية الصلاة هو الآخر يدخل في نطاق عدم الانصياع للحكومة إذ يعتقد بعض أفراد البدو أن ذلك يعني الخضوع للأمير القبلي، وبالتالي الخضوع للحكومة المركزية وترك أو إضعاف سلطة شيخ القبيلة عليه، وقد مرت بنا إشارة عن هذه الظاهرة في قبيلة الدواسر صراحة في الأرجوزة التي مرت، وفي قبيلة الظفير تحت لفظة عامة ذكرها ابن بشر بقوله: «تضييع بعض فرائض

الدين»[1]، وعدا هاتين الظاهرتين اللتين يمكننا اعتبارها حالات خاصة في الأفراد أو الأفخاذ على الأكثر، كما يمكننا إدراجها تحت عدم ألفة البدوي النجدي للتنظيمات الحكومية وجهله المطبق بتعاليم الدين، عدا هاتين الظاهرتين فقد استطاعت مبادىء الدعوة التغلغل في نفوس كثير من أبناء البادية ورغم أن هذا التغلغل لم يكن شاملا أو عميقا فقد شكل أرضية جيدة للمحاولات التوجيهية والتنظيمية التي حصلت للبدو من الملك عبدالعزيز والتي فاقت كل النواحي تجربة الدولة الأولى في هذا السبيل، ومن هنا يمكن القول إن صعوبة مراس البدوي في عدم سرعة تقبله للمبادىء التنظيمية والتعاليم الدينية يقابلها تفان قوي وحماس شديد في اتباع هذه المبادىء والاعتقاد بتلك التعاليم إذا رضي بالتبعية السياسية واعتقد بصدق التطبيق الشامل لهذه المبادىء والتعاليم.

وكنتيجة طبيعية جاءت آثار الدعوة السلفية والدولة السعودية على بعض مظاهر الحياة الإجتماعية لدى بادية نجد مستمدة من تلك المواقف والتأثيرات الدينية، ولعل من أبرز تلك الآثار إن لم يكن أبرزها على الإطلاق هو أثر الدعوة ودولتها في تحقيق قدر جيد من الأمن في أوساط المجتمع البدوي استفادت منه البادية النجدية كما استفادت منه الحاضرة بقدر ما استفاد منه العابرون لنجد والقادمون إليها من البلدان الأخرى، وما من شك أن هذا الأثر كان محصلة طبيعية لفقدان الأمن قبل الدعوة وللحاجة الماسة إليه بل معاناة المجتمع النجدي ومن يمر بنجد من فقده، ومن هنا فقد كان شغل الدولة الشاغل تحقيق هذا الأثر من الأمن عبر تهيئة السبل المؤدية لتحقيقه، وتجفيف بل سد المنافذ المؤدية إلى الفوضى، وقد أثمر هذا تخفيف حدة السلب والنهب بين القبائل والبلدان النجدية والمارين بها، علاوة على تحسن النظرة السيئة

---

(١) ١/ ١٨١

المتبادلة بين البادية والحاضرة هذا التحسن الذي كان من أوضح معطياته عدم التعرض للحاضرة بأي لون من ألوان العداء حتى وهم يجاورون البدو في مرابعهم أيام الربيع، وإذا كان هذا التحسن قد يكون نتيجة الرهبة من سطوة السلطة الحاكمة فإنه قد أثمر علاقات اجتماعية جيدة بين الفريقين التي أبرزها زوال الحاجز النفسي الذي كان يقف حائلا بين قيام علاقات طيبة بين بعض البدو وبعض الحضر.

ولقد كان من أبرزَ مظاهر استتاب الأمن العناية بضوال الماشية أو «الهمل» تلك العناية التي استمدتها الدولة السعودية من تنظيم الإسلام للقضاء في بهيمة الأنعام الضالة، وتأتي أهمية هذه العناية من تعدد المهمات التي تقوم بها الماشية في المجتمع النجدي، ومعاناة الحاضرة والبادية من فقدان مواشيهم أو استيلاء اللصوص عليها قبل قيام الدولة السعودية.

ولعل من أبرز من استفاد من استتاب الأمن في السبل النجدية هم الحجاج الذين كانوا يعانون من فقدانه في السابق، وكان لاتباع الدولة عدة سبل لتحقيق استفادة هؤلاء الحجاج من هذا الأمن أثر كبير في تحقيق مثل تلك الاستفادة ومن أهم تلك السبل أخذ الدولة العهد على رؤساء القبائل ووجهائها بعدم التعرض للحجاج المارين بالدرعية على طريق مدن الحجاج الآن حيث يتم في أثناء ذلك التعرف على أحوال الحجاج ومرئياتهم حول الحالة الأمنية، والاستماع إلى شكواهم، كما يتم فيه تعريفهم بمبادىء الدعوة السلفية ليكون من يقتنع بها عاملاً لنشرها في بلده، وقد مرت بنا في ثنايا البحث أحداث تؤكد سهر الدولة على تحقيق قدر جيد من الأمن عبر طرق نجد المؤدية إلى الحجاز مما يتوقع معه وجود زيادة مطردة في أعداد الحجاج عن الفترة التي سبقت قيام الدعوة السلفية والدولة السعودية، على أن دخول الحجاز تحت

الحكم السعودي قد أضفى زيادة أخرى على هذه الأعداد إذ لم يكن هم الحاج وشغله الشاغل إلا أمنه وسلامته في طريقه، وفي الأماكن والمشاعر المقدسة، وما من شك في أن دخول بعض القبائل المحيطة بمكة والمدينة في طاعة الدولة السعودية كأفخاذ من حرب وعتيبة وجهينة قد سهل مهمة التحكم في مسألة أمن الحجاج وسلامتهم إذ أن أحداث التعرض للحجاج كانت من هذه القبائل غالبا وخاصة في منطقة الحجاز أو ما بين نجد والحجاز، وفي المقابل فإن ولاء القبائل النجدية كان من أبرز مظاهره مساعدة الدولة في التحكم في أمن الطرق النجدية الموصلة للحجاز، ومن معاد القول التأكيد على أن ذلك التحكم كان نتيجة طبيعية لتطبيق الدولة الدقيق والشامل لأحكام الشرع وإشراف أئمة آل سعود على تنفيذ الأحكام الشرعية بدقة وحزم وسرعة، ومن هنا فإن أثر الدعوة ودولتها على استتاب قدر جيد من الأمن الشامل في منطقة نجد يعتبر أهم الآثار الاجتماعية للدعوة على بادية نجد التي كان لها الدور الأكبر في تعكير صفو الأمن قبل قيام الدعوة السلفية، ويمكن اعتبار الآثار الأخرى آثاراً جانبية له إلا أن قصر مدة هذه الدولة وخاصة فترة قوتها يجعلنا لا نفرط في تصوير مدى قوة هذا الأمن واستمراره إذ لم يتسن للبدوي النجدي استيعاب محاولات الدولة وجهودها في هذا السبيل إلا في فترة قوتها خوفا من الدولة وتأديبها لمن يخل بالأمن.

ولقد كانت جهود الدولة في إحلال الأخوة الإسلامية محل الخُوَّة من جانبها الاجتماعي في علاقاتها المتنوعة القائمة على القبلية والمصالح المشتركة فقط جيدة إلى حد ما حيث تشير الأحداث التي مر ذكرها على حرص الدولة على قطع دابر أى علاقة يشم منها العودة إلى الخُوَّة والعصبية القبلية والتعامل الاجتماعي على أساسها، ونتيجة لذلك فقد خفت أساليب الثأر والتنابز

بالمظاهر القبلية الممقوتة إذا لم يكن ذلك تحت مظلة الإخاء الإسلامي فعلى الأقل للحفاظ على الأمن والخوف من الدولة، على أن قسما من البدو قد رضي بإحلال الأخوة الإسلامية محل الخُوَّة السابقة وبعض هذا القسم كان رضاه هذا عن اقتناع بجدوى هذه الأخوة، والبعض الآخر كان عن خوف من هجمات الدولة المفاجئة الناجحة كثيراً، وكان تمثل هذا القسم بها ظاهرا أمام الدولة والعلماء، ورضي من هذا التمثل بالتشدق بألفاظ يرضي بها ولاة الأمر وعلماء الدعوة حتى إذا سقطت الدولة السعودية الأولى أعاد الخوة-في علاقاتها السابقة المتنوعة- كأسلوب للتعامل الاجتماعي الذي يعتقد به.

وكما أوضحت فقد تركت الدعوة ودولتها آثارا واضحة في نطاق التحرك الجماعي لبعض القبائل، والتغيير القيادي في بعض القبائل، فقد حدث أن جلت أقسام من عنزة وشمر والظفير-بدرجة كبيرة- إلى شمالي الجزيرة وجنوبي العراق والشام نتيجة عدم تأقلمها مع الوضع الاجتماعي الجديد مما ساعد على إثراء الوجود العربي البدوي في تلك المناطق وتحضر بعض الأقسام الباقية في نجد وأتاح للدعوة ودولتها الانطلاق في تنفيذ أهدافها الاجتماعية الإصلاحية، كما أن تدخل الدولة في تعيين بعض شيوخ القبائل قد أوجد بعض المؤثرات الاجتماعية تجاه الدعوة ودولتها سواء من ناحية سلبية في وجود بعض مظاهر التحدي لدى بعض الدواسر، أو من ناحية إيجابية في وجود ولاء عام وشامل في القبيلة كما في قحطان، ولايبعد أن يكون مثل هذا الولاء في هذه القبيلة أو غيرها قد دفع بعجلة التحضر قدما عن طريق الإقامة في بعض القرى والبلدان النجدية، أو تأسيس بلدان جديدة، على أن الدولة كما تركت آثارا اجتماعية عن طريق رحيل بعض الأفخاذ البدوية وتحضر بعضها فقد أتاحت لأفخاذ من قبائل أخرى ذات وجود قبلي محدود في نجد قبل الدولة تكثيف وجودها في نجد كما حدث من عتيبة وحرب القبيلتين الحجازيتين النجديتين.

وبالإضافة إلى تلك الآثار السابقة فقد تركت الدولة آثارا اجتماعية كقضائها على نظام الدخيل والربيط بعدم إجارة أي مجرم، مع تشجيع لنواحي الخير في الإجارة-في الوقت نفسه-بما لا يتعارض وأهداف الدولة في ملاحقتها المجرمين وقطع دابر الجريمة، كما نظر علماء الدعوة في أهم قضية تعاني منها المرأة البدوية وهي التحجير فأفتوا بتحريمها وحفلت الرسائل الوعظية الصادرة من أئمة الدولة بالحث على تكريم المرأة، كما أفتى علماء الدعوة بعدم التنطع باللباس الذي كان متدينو البدو يعتقدون أن له هيئة خاصة في الحياة الاجتماعية الجديدية وقد أكد علماء الدعوة بجواز لبس ما جرت العادة بلبسه مادام مباح المادة، وغير مشبه للباس الكفار، وساتراً للعورة وغير مسبل، كما بحث علماء الدعوة في أهم مشروبين جدا على حياة البدوي والنجدي عموما وهما التبغ والقهوة فحرموا الأولى-استنادا إلى أضرارها- وأباحوا الأخرى بل دفعوا بالدولة إلى تشجيع انتشار شربها واعتبارها من علامات الكرم في نجد، وبالجملة فقد كانت آثار الدعوة والدولة السعودية الأولى على الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد ذات مستوى جيد من الإصلاح ولو قدر للدولة عمر طويل لتمكنت من زيادة مثل هذه الآثار وتقويتها وقد أمكنني تلمس بعض هذه الآثار في محاولات الدولة الإصلاحية، وآراء العلماء الذين يلقون من الدولة كل تقدير واحترام، وتتبنى الدولة آراءهم وتنشرها في أوساط المجتمع النجدي حاضرة وبادية في كافة مجالات الحياة الاجتماعية، وتلك ميزة امتازت بها الدولة السعودية في احترام العلماء المحققين الحريصين على التعاون مع السلطة السياسية فيما يحقق المصلحة العامة المنشودة من الطرفين فكانت القيادة السياسية للدولة السعودية تقدر هؤلاء العلماء وتستشيرهم.

وبعد: فإن قيام دراسات متخصصة عن المجتمع البدوي في نجد أمر ضروري في كافة مجالات الدراسة وعبر فترات التاريخ المتعاقبة حتى لانقع فيما وقع فيه مؤرخونا السابقون من إغفال لهذه الفئة الرئيسة في المجتمع، ومن المؤسف أن يدرك الباحثون الغربيون السابقون والمعاصرون هذه الأهمية دون غيرهم، على أن بعض الباحثين من البلدان المجاورة قد أدركوا جانبا من هذه الأهمية حيث أخرجوا بعض الكتب والأبحاث عن جوانب بوادي مناطقهم، وهم في هذا قد تأثروا بما كتبه الغربيون الذين يعد ماكتبوه في هذا السبيل رائدا في هذا المجال رغم مايشوبه من عدم وضوح الرؤية عند الحديث عن تلك الأوضاع البدوية علاوة على وجود بعض الأهداف المريبة لدى بعض هؤلاء الغربيين، ولاشك أن جودة ماكتبه هؤلاء قد جاء نتيجة معاناتهم الشخصية في العيش بين البدو ودراسة أحوالهم مما أوجد بينهم مجموعة من الباحثين المتخصصين في الأوضاع البدوية قديما وحديثا، وإن اطلاعا عاما على الأعمال الاستشراقية لتؤكد هذه الحقيقة، إذ يوجد بينهم من تخصص في عادات وتقاليد البدو، ومن تخصص في لهجات البدو، بل إن بعضهم قد قام بإصدار موسوعات خاصة عن البدو شاملة لتاريخهم، ومعالم الحضارة لديهم، وقبائلهم في مناطقهم العربية، ومن هنا فإن تولي الجامعات للدراسات البدوية وتوجيه جانب من أبحاثها نحو هذا الغرض يعد من واجباتها الأولى، ولاشك أن المحاولات المتعددة لتلك الدراسات ستثري البحث في أي جانب منها، في محاولة لإعطاء هذه الفئة الرئيسة حقها من البحث والدراسة، وعدم ترك هذا المجال قاصرا على الغربيين أو على وسائل الإعلام المختلفة التي رغم جهدها الملموس في هذا الصدد فلم تستطع أن تؤدي الدور المطلوب تجاه هذه الفئة، وهذا عائد لوضعها المحدد في إعطاء معلومات قصيرة عن الموضوعات العامة التي قد تتطرق إليها.

إن تشابه أساليب الحياة العامة البدوية القديمة لدى القبائل العربية الأولى والحديثة يعطى البحث في البادية عمقا تاريخيا إذ يستطيع الباحث عقد مقارنات بين بعض نواحي الحياة في قبيلة معينة كبنى تميم أو طيىء مثلا ورصد المتغيرات الكاملة أو الجزئية التي مرت بها عبر فترات التاريخ، ومن هنا فإن دراسة الحياة العامة لقبائل بادية نجد لا تنفك عن دراسة القبائل البدوية القديمة لوجود مثل ذلك التشابه، فعلى سبيل المثال تعتبر النظرة البدوية للحياة الحضرية، والإغارات وما يندرج تحتها من غزو وسلب، وأسلوب الكرم وما ينضوى تحته من عادات وأخلاق كريمة، ظواهر اجتماعية يمكن عقد مقارنة بين البدو قديما وحديثا فيها، على أن هناك مجالات دقيقة يمكن عقد مقارنة فيها كوسم المواشي مثلا وهو أسلوب لحفظ هذه المواشي يختلف من قبيلة لأخرى بل من فخذ لآخر أحيانا، وهذا الأسلوب متأصل في البدوي منذ القدم وحتى العصر الحاضر.

إن عدم الاهتمام بالدراسات البدوية المتخصصة من شأنه إهمال جانب كبير وأصيل من تاريخنا المحلي، بل من تاريخنا الإسلامي العام نظرا للدور الأكبر الذي قام به قسم كبير من بدو شبه الجزيرة في نشر الإسلام في مراحلة الأولى ببروز قبائل معينة فيه كبني تميم وباهلة وطيىء مثلا، ولا غرابة في ذلك فالبدو مادة الإسلام كما قرر ذلك الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وان نظرة في أحداث التاريخ الإسلامي، وكتب الأنساب لتؤكد هذا الدور سواء على مستوى القادة العسكريين أو على مستوى العلماء، ومما يؤسف له أن هذا هو الآخر قد لقي بعض الاهتمام من الغربيين على حين غفلة وعدم اهتمام من الباحثين المحليين.

هذه بصورة عامة أهم الأفكار التي ضمها هذا البحث في أبوابه وفصوله الرئيسة وأبـرز النتائج التي أسفر عـنها هذا العرض، وكما سـبق أن قلت فان بعض هذه النتائج جاءت تأكيدا لاجتهادات باحثين سابقين، وبعضها الآخر قد أسمح لنفسي بوصفه بالجدة نوعا ما، وفي نهاية هذه الخاتمة أرجو أن أكون قد قدمت صورة شبه واضحة عن أبرز معالم الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وأثر الدولة السعـودية والدعوة السلفية فـيها حتى سقوط الدرعيـة، وكلي أمل في التماس العذر لي في بعض الأخطاء والنواقص التي حفل بها هذا البحث لشح المصادر في هذا السبـيل، وعدم وضوح الصورة في المتوفر منهـا، وما توفيقي إلا بالله والحمدلله رب العالمين.

الفهـــارس

(أ) المصادر والمراجع:

أولاً: المخطوطات:

١- الألوسي: محمود شكري (١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م-١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م).

أخبار بغداد وما جاورها من القرى والبلاد، مكتبة المتحف العلمي العراقي رقم ١٠١٤٦.

٢- البسام: عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز (١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م-١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م).

تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، نقله عن الأصل نور الدين شريبة سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

٣- ابن حميد: محمد بن عبدالله (١٢٣٢هـ/ ١٨١٦مـ ـ ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م).

السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، نسخة مصورة عن مخطوطة خدابخش بتنه.

٤- ابن سند: عثمان النجدي البصري (١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م-١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م).

مطالع السعود بأخبار الوالي داود، كتبه إبراهيم الدروبي عام ١٣٦٢هـ مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، وله صورة في مكتبة المتحف العلمي العراقي رقم ٤٩٩.

٥- الذكير: مقبل بن عبدالعزيز (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م-١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م).

مسودة تاريخ لم يقرر مؤلفه عنواناً له موجود في مكتبة الدراسات العليا كلية الآداب جامعة بغداد رقم ٥٦٩.

ثانيا : الكتب المنشورة :

١- أبا بطين: عبدالمحسن بن عثمان

المجموعة البهية من الأشعار النبطية، ط(٣) نشر مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م.

٢- إبراهيم: محمد حافظ (١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م-١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م).

ديوان حافظ إبراهيم، تصحيح وشرح أحمد أمين وزميليه، ط(٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م- ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

الكامل في التاريخ، ط(٢) دار الكتاب العربي-بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٤- أسد: محمد (ليوبولد فايس سابقا).

الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي تحت اسم الطريق إلى الإسلام ط (٢) دار العلم للملايين بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٥- الأصبهاني: أبو الفرج على بن الحسين القرشي.

الأغاني، تحقيق إبراهيم الإبياري، طبعة دار الشعب ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦- الألباني: محمد ناصر الدين.

سلسلة الأحاديث الصحيحة ط(٢) المكتب الإسلامي بيروت، دمشق ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧- الأمين: عبدالأمير محمد.

المصالح البريطانية في الخليج العربي (١٧٤٧م/ ١١٦٠هـ-١٧٧٨م/

١١٩٢هـ)، ترجمة هاشم لازم، مراجعة مكي المؤمن، مطبعة الإرشاد بغداد نشر مركز دراسات الخليج العربي البصرة، توزيع الدار الوطنية. بغداد ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٨- أنيس: محمد.

الدولة العثمانية والشرق العربي، ط دار الجيل، نشر مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.

٩- البسام: عبدالله بن عبدالرحمن.

علماء نجد خلال ستة قرون، ط (١) مؤسسة الخدمات الطباعية بيروت، نشر مكتبة النهضة الحديثة. مكة المكرمة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٠- البسام: محمد (ت ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م).

الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر، تحقيق سعود العجمي، ط (١) ١٤٠١هـ/ ١٩٨١.

١١- ابن بشر: عثمان بن عبدالله (١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م- ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م).

عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق وتعليق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ط (٣) طبع ونشر وزارة المعارف السعودية ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٢- ابن بطوطة: محمد بن عبدالله (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م-٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

رحلة ابن بطوطة طبعة دار صادر بيروت.

١٣- البغدادي: عبدالمؤمن بن عبدالحق (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م-٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط (١) دار المعرفة بيروت، نشر دار الباز مكة المكرمة ١٣٧٤هـ/ ١٠٩٤م.

١٤ ـ البكري: عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ط (١) لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

١٥- البلادي: عاتق بن غيث.

معجم معالم الحجاز، ط (١) دار مكة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٦- ـــــــــــــــــــ.

نسب حرب، ط (٢) دار مكة المكرمة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٧- بلانت: الليدي آن.

رحلة إلى بلاد نجد، ترجمة محمد أنعم غالب، ط (١) نشر دار اليمامة. الرياض ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

١٨- ابن بليهد: محمد بن عبدالله (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م-١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، راجعه وضبطه وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبدالحميد ط (٢) ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٩- البهوتي: منصور بن يونس (١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م-١٠٥١هـ/ ١٦٤١م)

شرح منتهى الإرادات، نشر مكتبة الرياض الحديثة. الرياض.

٢٠- بيرين: جاكلين (ولد سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م).

اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، دار الكاتب العربي. بيروت، مكتبة النهضة. بغداد.

٢١- الترمانيني: عبدالسلام.

الرق: ماضيه وحاضره، مطابع اليقظة. الكويت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٢- **الترمذي: محمد بن عيسى (٢٠٩هـ/ ٨٢٤م-٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).**
الجامع الصحيح، المعروف بسنن الترمذي، نشر دار الفكر بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٢٣- **توتيشل: ك، س، ادوارد جورجي.**
المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية، ترجمة شكيب الأموي، دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.
٢٤- **ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م-٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م).**
الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان، ط (٤) المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢٥- **الثميري: محمد بن أحمد.**
الفنون الشعبية في الجزيرة العربية، المطبعة العمومية بدمشق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٢٦- **الجاسر: حمد بن محمد.**
مقدمة المعجم الجغرافي للبلاد السعودية ، ط (١) مطبعة نهضة مصر، نشر دار اليمامة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
٢٧- ______.
شمال المملكة، ط (١) المطبعة العربية الحديثة. القاهرة نشر دار اليمامة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٢٨- ______.
في شمال غرب الجزيرة، ط (١) مطبعة المتنبي. بيروت نشر دار اليمامة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٢٩- ______.
معجم أنساب الأسر المتحضرة في نجد، ط (١) مطبعة نهضة مصر.

القاهرة، نشر دار اليمامة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٣٠- ————————— .
معجم قبائل المملكة العربية السعودية، ط (١) المطابع الأهلية. الرياض، نشر نادي الرياض الأدبي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٣١- ————————— .
المرأة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بحث قدم لأسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب. الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٣٢- ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م-٦١٤هـ/ ١٢١٧م).
رحلته المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» طبع دار صادر ودار بيروت، نشر دار الباز. مكة.
٣٣- الجزيري: عبدالقادر بن محمد (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م-٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م).
درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٣٤ - الجميل: مكي.
البداوة والبدو في البلاد العربية، مطابع الشركة الثلاثية. عمان. الأردن ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
٣٥- ابن جنيدل: سعد بن عبدالله .
عالية نجد، مطبعة نهضة مصر، نشر دار اليمامة ضمن المعجم الجغرافي للمملكة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٣٦- الجهيمان: عبدالكريم.
الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب، ط (٢) دار الثقافة بيروت،

نشر دار أشبال العرب. الرياض ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣٧- الحاتم: عبدالله بن خالد.

خيار ما يلتقط من الشعر النبط، ط (٣) نشر دار ذات السلاسل. الكويت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٨- ابن حزم: محمد بن علي (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م-٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م).

جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف. القاهرة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٣٩- حسن: حسن إبراهيم.

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط (٧) مطبعة السنة المحمدية. القاهرة، نشر مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٤٠- ————————.

وبالاشتراك مع أخيه علي. النظم الإسلامية، ط (٤) مطبعة السنة المحمدية، نشر مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٤١- ابن حسين: محمد بن سعد.

الشيخ بن عبدالله بن بليهد وآثاره الأدبية، ط (١) مطابع اليمامة. الرياض ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٢- آل حسين: محمد بن عبدالله (١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م-١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

الزوائد في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ط (٢) مطبعة البيان، ومطبعة الفجالة الجديدة. القاهرة.

٤٣- الحقيل: حمد بن إبراهيم.

كنز الأنساب ومجمع الآداب، ط (٥) ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٤٤- **الحلاق: أحمد البديري.**

حوادث دمشق اليومية (١١٥٤هـ/ ١٧٤١م-١١٧٥هـ/ ١٧٦٢م) تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي، تحقيق د. أحمد عزت عبدالكريم، ط (١) مطبعة لجنة البيان العربي. القاهرة، نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

٤٥- **الحموي: ياقوت بن عبدالله (٥٧٤هـ/١١٧٨م-٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) .**

معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت.

٤٦- **ابن حنبل: الإمام أحمد بن محمد الشيباني الوائلي (١٦٤هـ/ ٧٨٠م-٢٤١هـ/ ٨٥٥م).**

المسند، ط (٢) دار الفكر، والمكتب الإسلامي. بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٤٧- ــــــــــــــــــــ.

رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تعليق إسماعيل الأنصاري، مطابع القصيم، نشر دار الإفتاء السعودية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٤٨- **الخربوطي: علي.**

الحضارة العربية الإسلامية، المطبعة العربية الحديثة، نشر مكتبة الخانجي. القاهرة.

٤٩- **خزعل: حسين خلف.**

حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ط (١) مطابع دار الكتب بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٥٠- **ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م-٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).**

العبـر وديوان المبتدأ والخبـر، مؤسسة الأعلمـي. بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٥١- **ابن خميس: عبدالله بن محمد.**

المجاز بين اليمامة والحجاز، نشر دار اليمامة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٥٢- ————————.

معجم اليمامة، ط (١) مطبعة الفرزدق ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٥٣- ————————.

راشد الخلاوي، نشر دار اليمامة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٥٤- ————————.

الأدب الشعـبي في جزيـرة العرب، ط (٢) مطابع الـفرزدق الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٥٥- ————————.

من أحاديث السمر، ط (١) مطابع شـركة حنيفة للأوفـست الرياض ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٥٦- ————————.

الدرعـية. العـاصمـة الأولى، ط (١) مطـابع الـفرزدق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٥٧- **الخويطر: عبدالعزيز العبدالله.**

عثمان بـن بشر: منهجـه ومصادره، ط (٢) مطابـع اليمامـة الرياض ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٥٨- **أبو داود: سلـيمان بن الأشعـث السجسـتاني الأزدي (٢٠٢هـ/ ٨١٧م- ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).**

السنن، تعليق عزت الدعاس، وعادل السيد، ط (١) نشر وتوزيع دار الحديث. حمص سورية.

٥٩- دحلان: أحمد زيني (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م-١٣٠٤هـ/١٨٨٦م).

خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام، تصوير عن الطبعة الأولى. المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م.

٦٠- دوزي: رينهارت بيترآن (١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م-١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م).

تاريخ مسلمي أسبانيا، ترجمة د. حسن حبشي، دار المعارف القاهرة ١٢٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٦١-ديكسون: هـ. ر، ب.

الكويت وجاراتها، ط (١) نشر جاسم الجاسم ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٦٢- ديورانت: و. ل.

قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط (٣) لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٦٣- الراوي: عبدالجبار.

البادية، ط (٣) ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٦٤- الربيعان: فهد المحمد.

العرينات، مطابع البادية الرياض ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٦٥- ابن رداس: عبدالله بن محمد.

شاعرات من البادية، دار اليمامة. الرياض.

٦٦- الريحاني: أمين بن فارس (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م-١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م).

نجد وملحقاته، ط (٤) مؤسسة الريحاني. بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٦٧- **الرويشد: عبدالرحمن بن سليمان.**

الوهابية: حركة الفكر والدولة الإسلامية، ط (٢) دار العلوم للطباعة. القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦٨- **الريكي: حسن بن جمال بن أحمد.**

لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، تحقيق د. أحمد أبو حاكمة، مطابع بيبلوس الحديثة، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، نشر دار الثقافة. بيروت.

٦٩- **ريموند: جان.**

مذكرات في أصل الوهابيين، تقرير مقدم إلى ديه شامباني وزير الخارجية الفرنسي في عهد نابليون، كتب سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م، وهو مستخرج من محفوظات تلك الوزارة، ومترجم إلى العربية ومطبوع على الآلة الكاتبة.

٧٠- **الزبيدي: محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي (١١٤٥هـ/١٧٣٢م-١٢٠٥هـ/ ١٨٩٠م).**

تاج العروس من جواهر القاموس، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى. المطبعة الخيرية مصر سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م، نشر دار مكتبة الحياة. بيروت.

٧١- **الزركلي: خير الدين بن محمود (١٣١٠هـ/١٨٩٣م-١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.**

الأعلام. قاموس تراجم، ط (٣) بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٧٢- ————————.

شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ط (٢) دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٧٣- زيدان: جورجي بن حبيب (١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م-١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).
طبقات الأمم. دار التراث. بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٧٤- السباعي: أحمد.
تاريخ مكة، ط (٤) دار مكة للطباعة، نشر نادي مكة الثقافي ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧٥- السديري: محمد الأحمد.
أبطال من الصحراء، مطابع دار الكتب. بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٧٦- ستودارد: لوثروب.
حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، إضافات شكيب أرسلان، طَ (٤) دار الفكر، بيروت، القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م.

٧٧- السعدي: عبدالرحمن بن ناصر (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م-١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).
تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، تحقيق محمد زهري النجار، مطابع الدجوي. القاهرة، نشر المؤسسة السعيدية. الرياض.

٧٨- أبو السعود بن محمد العمادي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م-٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م).
إرشاد العقل السليم مزايا الكتاب الحكيم، تحقيق عبدالقادر عطا، مطبعة السعادة. القاهرة، نشر مكتبة الرياض الحديثة. الرياض.

٧٩- سعيد: أمين.
سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، طبع سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٨٠- سعيد: أمين.
الخليج العربي، مطابع الغد، نشر دار الكاتب العربي بيروت.

٨١- **السليمان: علي بن حسين.**

العلاقـات الحجازية المصريـة زمن سلاطين المـاليك، الشركة المتحدة للـنشر والـتوزيع. القـاهرة، توزيـع دار حراء. القـاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٨٢- **السمعانـي: عبدالكريم بن محمد التميمي (٥٠٦هـ/ ١١١٢م-٥٦٢هـ/ ١١٦٦م).**

الأنساب، ط (٢) نشر محمـد أمين دمج بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م صدر منه حتى الآن ١٠ أجزاء بتحقيق عدد من الباحثين والعلماء كل جزء بتحقيق واحد أو مجموعة منهم.

٨٣- **السويدي: محمد أمين بن علي (ت ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م).**

سبـائك الذهب فـي معرفـة قبائل الـعرب، نشـر دار إحياء العـلوم. بيروت.

٨٤- **الشبل: عبدالله بن يوسف.**

تاريخ نجد والـدولة السعودية، مطابـع جامعة الإمام محمـد بن سعود الإسلامية.

٨٥- ————————.

محمد بن عبدالوهاب. حياته ودعوته، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نشر أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٨٦- ————————.

أهم المصادر النجديـة لتاريخ الدولة السعودية. دراسة تحلـيلية. رسالة دكتوراه من جامعة الإسكندرية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م لم تنشر بعد.

٨٧- شلبي: أحمد.
مقارنة الأديان (المسيحية)، ط (٥) نشر مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٨٨- الشوكاني: محمد بن علي (١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م- ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).
فتح القدير، ط (٢) مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٨٩- آل الشيخ: عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م-١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م).
فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، نشر وتوزيع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٩٠- آل الشيخ: عبدالرحمن بن عبداللطيف.
مشاهير علماء نجد وغيرهم، ط (١) دار اليمامة، الرياض ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٩١- آل الشيخ: عبداللطيف بن عبدالرحمن (١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م-١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م).
الرسائل المفيدة، تصحيح عبدالرحمن الرويشد، دار العلوم للطباعة. القاهرة.

٩٢- الصابوني: محمد علي.
صفوة التفاسير، ط (١) شركة الطباعة العربية السعودية العمارية. الرياض، نشر دار القرآن الكريم بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩٣- الصالح: صبحي.
النظم الاسلامية. نشأتها وتطورها، ط (٤) دار العلم للملايين. بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٩٤- الصاوي: محمد إسماعيل.

شرح ديوان جرير، ط (١) المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

٩٥- الصقري: عبدالله بن سعود.

من نوادر الأشعار، ط (١) مطابع الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩٦- ابن صقيه: عبدالله بن علي.

بنو تميم في بلاد الجبلين، المطابع الأهلية للأوفست ودار اليمامة، الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩٧- الصياد: محمد محمود.

الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية في القرن التاسع، بحث قدم للندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. مطابع جامعة الملك سعود ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٩٨- الطامي: إبراهيم بن سليمان.

نزهة النفس الأدبية في القصص والحكايات الغريبة، مطبعة كرم/ دمشق ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٩٩- الطبري: محمد بن جرير (٢٢٤هـ/ ٨٣٩م- ٣١٠هـ/ ٩٢٣م).

تاريخ الأمم والملوك، تصوير دار الفكر. بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م عن طبعة المطبعة الحسينية المصرية.

١٠٠- الطعيس: صالح بن ناصر.

مدينة حريملاء، مطابع المجد. الرياض. ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٠١- العاملي: أحمد رضا.

قاموس رد العامي إلى الفصيح، ط (٢) دار الرائد العربي. بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٠٢- **العاملي: محسن الأمين.**
كشف الارتياب، ط (٣) مطبعة ابن زيدون. دمشق ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

١٠٣- **ابن عبدالبر: يوسف بن عبدالله (٣٦٣هـ/ ٩٧٣م-٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).**
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط (١) مطبعة السعادة مصر ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

١٠٤- **ابن عبدربه: أحمد بن محمد الأندلسي (٢٤٦هـ/ ٨٦٠م-٣٢٨هـ/ ٩٤٠م).**
العقد الفريد، دار الفكر. بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

١٠٥- **عبدالرحيم: عبدالرحيم عبدالرحمن.**
الدولة السعودية الأولى، ط (٢) مطابع دار نافع، نشر معهد البحوث جامعة الدول العربية ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

١٠٦- **آل عبدالمحسن: إبراهيم بن عبيد.**
تذكرة أولي النهى والعرفان، ط (١) مطابع مؤسسة النور. الرياض.

١٠٧- **ابن عبدالوهاب: الشيخ محمد (١١١٥هـ/١٧٠٣م-١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م).**
مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، مطابع الرياض نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٠٨- ــــــــــــــــــ.
الرسائل الشخصية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

١٠٩- **العبودي: محمد بن ناصر.**
الأمثال العامية في نجد. المطابع الأهلية للأوفست الرياض. نشر دار اليمامة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١١٠- ــــــــــــــــــــ.
بلاد القصيم، مطبعة نهضة مصر القاهرة، نشر دار اليمامة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م.
١١١- **ابن عتيق:**
سعد بن حمد (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م-١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) مجموعة رسائلة، نشر دار الهداية-الرياض.
١١٢- **العثيمين: عبدالله الصالح.**
الشيخ محمد بن عبدالوهاب، مطبعة نهضة مصر. القاهرة، نشر دار العلوم. الرياض.
١١٣- **العثيمين:**
تاريخ المملكة العربية السعودية ط (٧)، مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ.
١١٤- **العجلاني: منير.**
تاريخ البلاد العربية السعودية في دورها الأول بأجزائه الأربعة.
١١٥- **عزالدين: يوسف.**
داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ط (٢) مطبعة الشعب. بغداد ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
١١٦- **العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣هـ/ ١٣٧١م-٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).**
الإصابة في تمييز الصحابة، ط (١) مطبعة السعادة مصر ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

١١٧- ـــــــــــــــ •
فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مراجعة وتعليق طه عبدالرؤوف سعد وزميليه، شركة الطباعة الفنية، نشر مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١١٨- **العصامي: عبدالملك بن حسين (١٠٤٩هـ/١٦٣٩م-١١١١هـ/١٦٦٩م).**
سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٧٩٨هـ/١٩٥٩م.

١١٩- **العقاد: صلاح.**
رحلة كارستن نيبور، بحث قدم للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية بجامعة الملك سعود. مطابع جامعة الملك سعود ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٢٠- **العقيقي: نجيب.**
المستشرقون، ط (٤) دار المعارف. القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٢١- **أبو علية: عبدالفتاح حسن.**
الدولة السعودية الثانية، مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، الرياض.

١٢٢- **العمري: جلال الدين**
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ترجمة عن الأردية محمد أجمل الإصلاحي، شركة الشعاع. الكويت.

١٢٣- **العنزي: عبدالله.**
ديوان الوائلي. شعر وأنساب قبائل عنزة، مطابع النرجس. الرياض.

١٢٤- **ابن عيسى: إبراهيم بن صالح (١٢٧٠هـ/١٨٥٣م-١٣٤٣هـ/١٩٢٤م).**
تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، نشر دار اليمامة.

١٢٥- **غالب: محمد أديب.**
من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي. دار اليمامة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٢٦- **الغرايبة: عبدالكريم.**
قيام الدولة السعودية العربية، مطبعة الجبلاوي، نشر معهد البحوث العربية بجامعة الدول العربية ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٢٧- **ابن غنام: حسين بن أبي بكر (ت ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م).**
روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، ط (١) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، نشر المكتبة الأهلية بالرياض ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

١٢٨- **الفاخري: محمد بن عمر (١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م-١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م).**
الأخبار النجدية، دراسة وتحقيق الدكتور عبدالله الشبل، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية نشر لجنة البحوث والترجمة والنشر بالجامعة. الكتاب رقم (١٠).

١٢٩- **الفاسي المكي: محمد بن أحمد الحسيني (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م-٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م).**
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية. القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٣٠- **أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن علي (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م-٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).**
المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة. بيروت.

١٣١- **الفراء: أبو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م-٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).**
الأحكام السلطانية، تعليق محمد حامد الفقي، ط (٣) مكتبة ومطبعة البابي الحلبي. القاهرة. ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

١٣٢- **الفرج: خالد بن محمد (١٣١٦هـ/١٨٩٨م-١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).**

ديوان النبط، المطبعة العربية. القاهرة، نشر المكتبة الأهلية. الرياض.

١٣٣- ________________.

عبدالله الفرج في شعره العامي النبطي، منشورات دار ذات السلاسل. الكويت.

١٣٤- **فروخ: عمر.**

تاريخ الجاهلية، مطابع دار الكتب. بيروت، نشر دار العلم للملايين. بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٣٥- **الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب (٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م-٨١٧هـ/ ١٤١٥م).**

القاموس المحيط، نشر دار العلم للجميع. بيروت.

١٣٦- **ابن قائد: عثمان بن أحمد النجدي (ت ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م).**

هداية الراغب لشرح عدة الطالب، تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة.

١٣٧- **قاسم: جمال زكريا.**

الدوافع السياسية لرحلات الأوروبيين إلى نجد والحجاز خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، بحث قدم للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. مطابع جامعة الملك سعود ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٣٨- ابن قاسم: عبدالرحمن بن محمد العاصمي النجدي (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م-١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط (٢) مطبوعات دار الإفتاء السعودية ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

١٣٩- القاضي: محمد عثمان.

روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، مطبعة الحلبي القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٤٠- قطب: سيد (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م-١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

في ظلال القرآن، ط (٥) دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

١٤١- دي قوصيل: بيسير.

الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤م-١٩١٤م) ترجمة أكرم فاضل، ط المؤسسة العامة للصحافة والطباعة. بغداد، نشر وزارة الإعلام والثقافة العراقية. سلسلة الكتب المترجمة رقم (٤) ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٤٢- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م-٧٥١هـ/ ١٣٥٠م).

زاد المعاد في هدي خير العباد، مراجعة وتقديم طه عبدالرؤوف طه، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٤٣- ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن عمر (٧٠١هـ/ ١٣٠٢م-٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م).

البداية والنهاية، ط (٣) مكتبة المعارف. بيروت. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٤٤- ـــــــــــــــ.

التفسير، ط (١) دار الفكر. نشر مكتبة الرياض الحديثة الرياض ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٤٥- كحالة: عمر رضا.

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط (٢) دار العلم للملايين. بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٤٦- كرد علي: محمد بن عبدالرزاق (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م-١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

الإسلام والحضارة العربية، ط (٣) لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٤٧- الكركوكلي: رسول بن حاوي (ت ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م).

دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، نقله عن التركية موسى كاظم نورس، مطبعة كرم. بيروت، نشر دار الكاتب العربي. بيروت، نشر دار الكاتب العربي. بيروت، ومكتبة النهضة بغداد.

١٤٨- الكرملي: الأب أنستاس ماري (١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م-١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م).

خلاصة تاريخ العراق إلى يومنا هذا، مطبعة الحكومة. البصرة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م.

١٤٩- كشك: محمد جلال.

السعوديون والحل الإسلامي، ط (٣) شركة مودي جرافيك ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٥٠- **كمال: محمد سعيد.**

الأزهار النادية من أشعار البادية، صدر منها حتى الآن سبعة عشر جزءا صغيراً، ط (١) مطابع دار الكتاب العربي. القاهرة، نشر مكتبة المعارف. الطائف.

١٥١- **كيلي: جون . ب.**

بريطانيا والخليج (١٧٥٩م-١٨٧٠م) ترجمة محمد أمين عبدالله، مطبعة عيسى الحلبي. القاهرة، نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان.

١٥٢- **ابن لعبون: حمد بن محمد (ت ١٢٥٥هـ/ ١٨٢٩م).**

تاريخ ابن لعبون، ط (١) مطبعة أم القرى. مكة المكرمة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

١٥٣- **لوريمر: جون غوردون.**

دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير قطر. الدوحة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٥٤- **لونكريك: ستيفن هيمسلي (ولد سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م).**

أربعمائة سنة في تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط تحت اسم أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ط (٥) نشر مكتبة التحرير. بغداد.

١٥٥- **اللويحان: عبدالله.**

روائع من الشعر الشعبي، ط (٢) مطابع القوات المسلحة السعودية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٥٦- ابن ماجة: محمد بن يزيد (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م-٢٧٥هـ/٨٨٨م).

السنن، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٨م.

١٥٧- المارك: فهد (ت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

من شيم العرب، ط (٣) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٥٨- ماضي: محمد عبدالله.

النهضات الحديثة في جزيرة العرب، ط (٢) نشر دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

١٥٩- مالك بن أنس (الإمام) (٩٣هـ/ ٧١٢م-١٧٩هـ/ ٧٩٥م).

الموطأ: رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد عرموش، ط (٥) دار النفائس، بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٦٠- ــــــــــــــــــ.

قطعة أخرى برواية ابن زياد، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، ط (٣) دار الغرب الإسلامي. بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٦١- المانع: محمد.

توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة د. عبدالله الصالح العثيمين، ط (١) مطابع المطوع. الدمام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٦٢- المختار: صلاح الدين.

تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، ط (١) منشورات دار الحياة بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

١٦٣- مجموعة مستشرقين:

دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندي وزملائه، نسخة

مصورة عن طبعة عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م انتشارات جهان، طهران.

١٦٤- مجموعة باحثين عرب: باشراف محمد شفيق غربال.

الموسوعة العربية الميسرة، صورة طبق الأصل عن طبعة دار الشعب، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٥م.

١٦٥- مدكور: إبراهيم، ونخبة من أساتذة علم الاجتماع.

معجم العلوم الاجتماعية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، نشر اليونسكو ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٦٦- مرسى عباس: السيد أحمد.

فهارس عنوان المجد لابن بشر، ط (١) مطبعة المدينة الرياض، نشر دارة الملك عبدالعزيز. الرياض ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٦٧- مردم بك : خليل.

أعيان القرن الثالث عشر، ط (٢) مؤسسة الرسالة. بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

١٦٨- المغيري: عبدالرحمن بن حمد.

الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب، مطبعة المدني القاهرة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، نشر الشيخ على بن عبدالله آل ثاني.

١٦٩- ————————.

المغيري: التنبيه والإشراف، نشر دار التراث بيروت. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٧٠- مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٤هـ/ ٨٢٠م-٢٦١هـ/ ٨٧٥م).

صحيح مسلم بشرح النووي، ط (٢) دار الفكر. بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٧١- **المصراتي: علي مصطفى.**
ابن غلبون مـؤرخ ليبيا، ط (٢) دار العودة، مطبعة المـتنبي. بيروت، نشر دار الفكر طرابلس، ليبيا ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٧٢- **مغنية: محمد جود.**
هذه هي الوهابية، ط (١) بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٧٣- **المنقور: أحمد بن محمد (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م-١١٢٥هـ/ ١٧١٣م).**
تاريخ المنقور، تحقيق ونشر الـدكتور عبدالعزيز الخويطر ط (١) مطابع الجزيرة الرياض، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٧٤- ــــــــــــــــ.
المنقور: الفواكه الـعديدة في المسائـل المفيدة، ط (٢) نشر دار الآفاق الجديدة. بيروت.

١٧٥- ــــــــــــــــ.
جامع المناسك الـثلاثة الحنبلية، تحقيق محمـد زهير الشاويش، ط (٣) المكتب الإسلامي. بيروت، دمشق ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٧٦- **مؤلف مجهول:**
كيـف كان ظهور شيـخ الإسلام محـمد بن عبـدالوهاب، تحقـيق د. عبدالله الصالح العثيمـين، مطابع دار الهلال الرياض. نشر دارة الملك عبدالعزيز ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٧٧- **الميداني: أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م).**
مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الـدين عبدالحميد ط مطبعة السنة المحمديـة. القاهرة، نشر وتـوزيع دار الباز. مكة المـكرمة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

١٧٨- الندوى: مسعود.

محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومـفترى عليه، ترجمة عبدالعليم البستوي، ط (١) مطبعة زمزم مكة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

١٧٩- النسائي: أحمد بن علي بن شعيب (٢١٥هـ/ ٨٣٠م-٣٠٣هـ/ ٩١٥م).

السنن الكبرى، شرح جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي، نشر المكتبة العلمية بيروت، مكتبة الباز. مكة المكرمة.

١٨٠- ابن نفيسة: سعد بن محمد.

إضمامة من التراث، نشر دار الوطن. الرياض. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٨١- نوار : عبدالعزيز سليمان.

داود باشا والى بغداد، دار الكاتب العربي، نشر وزارة الثقافة. القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٨٢- ابن الوردي: عمر بن مظفر (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م-٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م).

تتمة المختصر في أخبار البشر، إشراف أحمد رفعت البديري، ط (١) دار المعرفة. بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

١٨٣- ابن الـوزير: الحـسين بـن علـي المغـربي (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م-٤١٨هـ/ ١٠٢٧م).

أدب الخواص في المختار مـن بلاغات قبائل العرب وأخبارهـا وأنسابها وأيامـها، أعده لـلنشـر حمد الجـاسر، المطـابع الأهلـية للأوفـست. الرياض، نشـر نادي الرياض الأدبي بإشراف دار الـيمامة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٨٤- **ويلسون: أرونولد. تالبوت.**

(١٣٠٢هـ/١٨٨٤م-١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)

الخليج العربي. ترجمة د. عبدالقادر يوسف، مؤسسة المرزوق الصحفية، الكويت، نشر مكتبة الأمل الكويت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٨٥- **ابن هشام: عبدالملك (ت ١٢٣هـ/٦٢٨م).**

السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا وزميليه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

١٨٦- **الهمداني: الحسن بن أحمد (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م-٣٣٤هـ/ ٩٤٥م).**

صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع، نشر دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٨٧- **هولفريتز: هانز**

اليمن من الباب الخلفي، تعريب خيري حماد، نشر المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر. بيروت.

ثالثا: الدوريات:

١- مجلة الحرس الوطني السعودي. الرياض

٢- مجلة الدارة. الرياض

٣- مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. الكويت

٤- مجلة العرب. الرياض

٥- مجلة العربي. الكويت

٦- مجلة قافلة الزيت. الظهران

٧- مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود (الرياض سابقا)

٨- مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض.

٩- مجلة الكويت. الكويت.

١٠- صحيفة الجزيرة السعودية. الرياض

١١- صحيفة الرياض السعودية. الرياض

١٢- صحيفة السياسة الكويتية. الكويت

رابعا : الكتب الأجنبية

1 - Burckhardt, John, Lewis

Notes on the Bedouins, and, Wahabys, London. 1831

2 - Winedr, R.B.,

Saudi Arabia, in the Ninteenth Century,

New York, 1965.

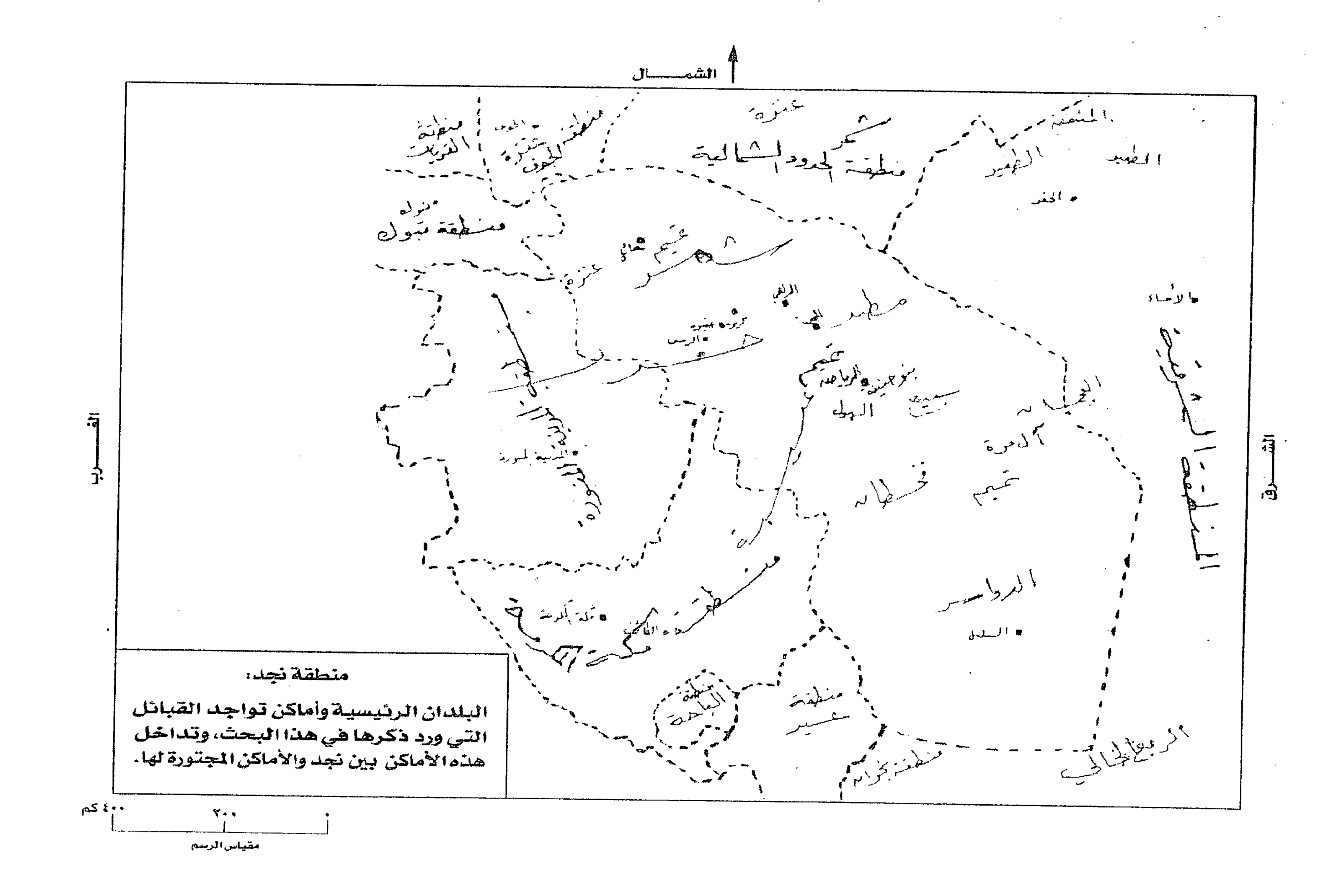
3 - Al-Thenayan, Mohammed,

History Writting in Nagd (A.H. 1000-1150/A.D. 1591 - 1737)

A Thesis Submitted to the University of exeter, for the Degree of

Doctor, of Philosophy, 1976.

المحتويات



الشمال
الغرب
الشرق
منطقة نجد:
البلدان الرئيسية وأماكن تواجد القبائل التي ورد ذكرها في هذا البحث، وتداخل هذه الأماكن بين نجد والأماكن المجاورة لها.
٤٠٠ كم
٢٠٠
مقياس الرسم
منطقة الحدود الشمالية
منطقة تبوك
عنزة
الدواسر
الربع الخالي
منطقة عسير
منطقة الباحة
منطقة نجران
المنطقة الشرقية